الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إحدى روايات الكاتب الذي تجاوزت مبيعات كتبه حدّ
الخمسين مليون نسخة في مختلف أنحاء العالم

ثلاثة أسابيع مع أخي

Three Weeks with My Brother

رواية

نيكولاس سباركس و ميكا سباركس
NICHOLAS SPARKS & MICAH SPARKS

ثلاثة أسابيع مع أخي

تأليف

نيكولاس سباركس وميكا سباركس

ترجمةأفنان سعد الدين

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

بسم الله الرحمن الرحيم

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Three Weeks with My Brother

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Warner Books

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم
Original Copyright 2004 © Nicholas Sparks and Michael Sparks
All Rights reserved
Arabic Copyright © 2006 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ISBN: 978-614-421-523-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

تمهيد

جاء هذا الكتاب نتيجةً لنشرة استلمتها في البريد في ربيع عام 2002.

كان ذلك يوماً نموذجياً من أيام عائلة سباركس. فقد كنت قد أمضيت جزءاً كبيراً من الصباح وأوائل العصر وأنا أعمل على روايتي وعنوانها ليالٍ في رودانث، ولكنها لم تمض على ما يرام، وكنت أجهد نفسي لأجعل اليوم يمضي بسلام. إذ لم أكتب بالقدر الذي كنت أنويه، ولا كانت لديّ فكرة عما كنت سأكتبه في اليوم التالي، ولهذا السبب لم أكن في أفضلِ مزاج لي عندما أطفأت جهاز الكمبيوتر وأوقفت عملي لفترة العصر.

ليس العيش مع مؤلفٍ بالأمر السهل. فأنا أعلم هذا لأن زوجتي قد أعلمتني بهذه الحقيقة، وفعلت هذا مجدداً في ذلك اليوم. ولأكون صريحاً، ليس ذلك ألطف شيء يمكن للمرء أن يسمعه. ورغم أنه من السهل أن أصبح مدافعاً فقد توصّلت إلى أن أفهم أن الجدال معها حيال ذلك لا يسهم في حلّ أية مشكلة. ولهذا فبدلاً من إنكار ذلك تعلّمت أن أمسك بيديها وأنظر في عينيها وأجيب بتلك الكلمات السحرية الثلاث التي ترغب كل امرأة بسماعها:

"إنك محقّة، يا حبيبتي".

يعتقد بعض الناس - بسبب نجاحي نسبياً كمؤلف - أن الكتابة تأتيني بلا عناء. ويتخيّل كثير منهم أنني "أدوّن الأفكار على عجلٍ وهي تراودني" لبضع ساعاتٍ كل يوم، وبعد ذلك أقضي بقية وقتي مسترخياً بجانب البركة بصحبة زوجتي فيما نناقش إجازتنا الممتعة القادمة في مكانٍ بعيد.

وفي الحقيقة، لا تختلف حياتنا كثيراً عن حياة أسرةٍ عاديةٍ من الطبقة المتوسطة. إذ ليس لدينا طاقم من الخدم ولا نسافر لأماكن بعيدةٍ، ورغم أننا نملك بركة في الحديقة الخلفية محاطة بكراسي البركة فإنني لا أتذكّر وقتاً استخدمت فيه هذه الكراسي، وذلك ببساطة لأنني لا أملك ولا زوجتي وفرة من الوقت خلال اليوم للجلوس هنا وهناك وعدم فعل أي شيء. والسبب بالنسبة إلي هو العمل، أما بالنسبة لزوجتي فالسبب هو العائلة أو بشكلٍ أكثر تحديداً الأطفال.

لدينا خمسة أطفال، كما أعلمك، وهذا ليس رقماً كبيراً إذا عددنا أنفسنا بين الروّاد الأوائل، ولكنه في هذه الأيام كافٍ ليجعل بضعة حواجب ترتفع دهشةً. ففي العام الماضي عندما كنت وزوجتي في رحلةٍ، صدف أن ابتدأنا محادثة مع زوجين شابين آخرين. فأدى كل موضوع إلى موضوع آخر حتى وصلنا أخيراً إلى موضوع الأطفال. وكان لدى الزوجين طفلان ذكرا اسميهما، فذكرت زوجتي أسماء أطفالنا بسرعة.

فتوقفت المحادثة للحظةٍ بينما حاولت المرأة الأخرى أن تكتشف إذا كانت قد سمعتنا بشكل صحيح.

وسألت المرأة أخيراً: "لديكم خمسة أطفال؟"

"نعم".

فوضعت يداً مواسيةً على كتف زوجتي.

وقالت: "هل أنت مجنونة؟"

يبلغ أبناؤنا من العمر اثنتي عشرة سنة، وعشر سنوات، وأربع سنوات، وستبلغ ابنتانا التوأمان ثلاث سنوات. ورغم أن هناك أموراً كثيرة لا أعرفها عن العالم إلا أنني أعرف بالفعل أن لدى الأطفال

طريقة غريبة في مساعدتك على إبقاء الأمور في منظورها الصحيح. فالطفلان الأكبر سناً يعلمان أنني أكتب الروايات كمهنة لكسب رزقي، رغم أنني أشكّ أحياناً أن أيًّا منهما يفهم ما يعنيه إبداع عملٍ روائي. فعلى سبيل المثال، عندما سئل ابني البالغ من العمر عشر سنوات في عرض في الصف عن المهنة الذي يزاولها والده لكسب رزقه، نفخ صدره معلناً بفخر: "أبي يلعب على الكمبيوتر طوال اليوم". ومن ناحيةٍ أخرى، غالباً ما كان ابني الأكبر سناً يقول لي بوقار تام إن "الكتابة سهلة إنما تكمن الصعوبة في الطباعة وحسب".

إنني أعمل خارج المنزل كما يفعل كثير من المؤلفين، ولكن التشابه ينتهي عند حدود ذلك. إذ إن مكتبي ليس ملاذاً منعزلاً في الطابق العلوي، فبابه بدلاً من ذلك ينفتح مباشرة إلى داخل غرفة المعيشة. ورغم أنني قرأت أنه لا بد لبعض المؤلفين من أن يحظوا بمنزل هادئ ليتمكنوا من التركيز فأنا محظوظ لكوني لم أكن أبداً بحاجة للهدوء لكي أعمل. وأعتقد أن هذا من حسن طالعي وإلا فإنني ما كنت لأكتب أبداً على الإطلاق. فبيتنا هو بكل ما في الكلمة من معنى - كما عليك أن تدرك - عبارة عن زوبعةٍ من النشاط من اللحظة التي ننهض فيها أنا وزوجتي من السرير حتى اللحظة التي نرتمي فيها داخله في نهاية اليوم. فقضاء اليوم في بيتنا هو كافٍ ليصيب بالإرهاق أيًّا كان. أولاً، أطفالنا يتمتعون بالكثير من الطاقة مضروبة بخمس بحيث تكوّن طاقة كافية لتحريك مدينة كليفلاند. وبطريقةٍ سحرية ما، يتغذى الأطفال من طاقة بعضهم البعض فكل يستهلك ويعكس طاقة الآخر. ثم تتغذى منها كلابنا الثلاثة، وبعدها يبدو وكأن المنزل نفسه يتغذى منها. فاليوم النموذجي يتضمّن طفلاً واحداً مريضاً على الأقل، وألعاباً منثورة من أول غرفة المعيشة إلى آخرها تعاود الظهور بشكلٍ سحري بعد أن تكون قد أخفيت، وكلاباً تنبح، وأطفالاً يضحكون، وهاتفاً يرنّ بحيث لا يتسنى لنا وضع السماعة، وإرسالياتٍ من البريد الفدرالي السريع ومصلحة الطرود المتحدة تأتي وتذهب، وأطفالاً ينتحبون، ووظائف مدرسية ضائعة، وأدواتٍ تنكسر، ومشاريع مدرسية مطلوبة غداً نسي الأطفال بطريقة ما أن يخبرونا عنها حتى اللحظة الأخيرة، وتمرين كرة سلة، وتمارين قوى، وتمرين كرة قدم، وتمرين بايسبول، وتمرين تايكواندو، ومصلّحين يذهبون ويأتون، وأبواباً تنغلق بعنف، وأطفالاً يجرون في المدخل، وأطفالاً يرمون الأشياء، وأطفالاً يغيظون بعضهم بعضاً، وأطفالاً يطلبون وجباتٍ خفيفة، وأطفالاً يبكون لأنهم وقعوا، وأطفالاً يعانقونك في حضنك، أو أطفالاً يبكون لأنهم يريدونك حالاً في هذه اللحظة. وعندما يغادر أهل زوجتي بعد زيارة لمدة أسبوع وهم لا يستطيعون الوصول إلى المطار بسرعة كافية، تكون هناك انتفاخات عميقة تحت عيونهم، وهم يحملون التعبير المنبهر المصدوم للمحاربين القدامى الذين نجوا لتوهم من الهبوط على شاطئ أوماها. وبدلاً من أن يودّعنا والد زوجتي، يهزّ رأسه ويهمس: "حظاً سعيداً إذ إنكما ستحتاجان إليه".

تتقبّل زوجتي كل هذا النشاط في البيت على أنه أمر طبيعي. فهي صبورة ونادراً ما ترتبك. وتبدو به بالفعل معظم الوقت. ويمكنني أن أضيف أنها قدّيسة.

إما أنها كذلك أو أنهامجنونة .

إن تولّي أمر البريد في منزلنا هو وظيفتي أنا. ويجب أن ينجز رغم كل شيء، وطوال فترة زواجنا، شكّل واحدةً من تلك المسؤوليات الصغيرة التي ألقيت على عاتقي.

كان اليوم الذي استلمت فيه النشرة في البريد يوماً كأيّ يوم آخر. إذ كانت ليكسي البالغة من العمر ستة أشهر مصابة بالزكام، وترفض أن تدع زوجتي تضعها أرضاً. وكان مايلز قد قام بطلاء ذيل الكلب بطلاءٍ فوسفوري وكان يتباهى بذلك بفخر، وكان راين بحاجة لأن يدرس لأحد الاختبارات، ولكنه نسي الكتاب في المدرسة فقرر أن "يحلّ" المشكلة بأن يكتشف كم من ورق المرحاض يمكن أن يغسل بماء المرحاض. وكان لاندون يلوّن على الجدران - مجدداً - ولا أتذكر ما الذي كانت تفعله سافانا، ولكن مما لا شك فيه أنه كان أمراً مزعجاً لأنها بعمر الستة أشهر كانت تتعلم مسبقاً من إخوتها. وأضف إلى ذلك، التلفزيون المدوّي، والعشاء الذي يطهى، والكلاب التي تنبح، والهاتف

الذي يرن، والهدير الفوضوي الذي بدا وكأنّه يصل إلى درجة الحمى. كنت أشكّ أن حتى زوجتي القديسة قد يكون صبرها قد أوشك على النفاد. فأخذت نفساً عميقاً وأنا أبتعد عن الكمبيوتر ونهضت عن مكتبي. وألقيت وأنا أمشي باتجاه غرفة المعيشة، نظرةً واحدةً على العالم الذي اعتراه الجنون، و- بالغريزة التي يبدو أن الرجال وحدهم يمتلكونها - عرفت بالضبط ما الذي يجب عليّ أن أفعله. فتنحنحت وشعرت بانتباه الجميع يتوجّه نحوي للحظة وأعلنت قائلاً بهدوء: "سأذهب لأرى إذا كان البريد قد وصل". وبعد دقيقة، أصبحت خارج الباب الأمامي.

بسبب موقع منزلنا البعيد عن الطريق، عادةً كان الأمر يستغرق خمس دقائق للمشي إلى صندوق البريد ذهاباً وإياباً. وفي اللحظة التي أغلقت فيها الباب خلفي، توقفت الفوضى عن الوجود. فمشيت ببطء مستمتعاً بالسكون.

وما إن عدت إلى البيت لاحظت أن زوجتي كانت تحاول أن تنفض فتات الكعك عن قميصها فيما كانت تحمل كلتا الطفلتين في آن واحد. وكان لاندون يقف على قدميها ويشدّ سروالها الجينز ليحظى بانتباهها. وفي نفس الوقت، كانت تساعد الصبيين الأكبر سناً في إنجاز فرضهما المنزلي. فغمر الفخر قلبي لقدرتها على القيام بعدة مهام بفعّالية كبيرة، فرفعت حزمة البريد عالياً كي تراها.

وعرضت قائلاً: "جئت بالبريد".

فألقت نظرةً خاطفةً إلى الأعلى، وأجابت: "لا أعرف ماذا كنت لأفعل بدونك، فأنت عون كبير جداً هنا".

فأومأت برأسي قائلاً: "إنني أقوم بعملي فحسب، ولا داعي لتشكريني".

إنني أحصل مثل أي شخص آخر على حصتي من بريد الإعلانات، ففصلت البريد الهام عن غير الهام. ودفعت الفواتير, وتصفّحت المقالات في بضع مجلات، وكنت أستعد لطرح كل شيءٍ آخر في خزانة الملفات الدائرية، عندما لاحظت وجود نشرة كنت بدايةً قد رميتها في كومة القمامة. وكانت قد وصلت من مكتب الطلبة السابقين في جامعة نوتردام، وتعلن عن "رحلة إلى أرض عبّاد السماء"، وكانت الرحلة تدعى "السماء والأرض"، وسوف تجول حول العالم خلال فترة ثلاثة أسابيع في كانون الثاني وشباط من عام 2003.

فظننتها ممتعة، وبدأت أمعن النظر فيها. وكانت الرحلة ستنطلق - بطائرة خاصة لا أقل - إلى آثار شعب المايا في غواتيمالا، وآثار شعب الإنكا في البيرو، والعمالقة الحجرية في إيستر آيلند، وجزر بولينيزيان كوك. وستكون هناك محطات عند صخرة آيرز روك في أستراليا، وأنغكر وات وكيلنيغ فيلدز ومتحف الهولوكوست في بنوم بيه في كمبوديا، وتاج محل وحصن الكهرمان في جايبور في الهند، والكاتدرائيات الصخرية في لاليبيلا في إثيوبيا، وهيبوجيوم ومعابد قديمةٍ أخرى في مالطا. وأخيراً - إذا سمح الطقس- ستكون هناك فرصة لرؤية الأضواء الشمالية في ترومسو في النرويج وهي بلدة تقع على بعد ثلاثمائة ميل شمال الدائرة القطبية الشمالية.

لطالما كنت كالطفل مسحوراً بالثقافات القديمة والأراضي البعيدة، وغالباً عندما كنت أقرأ وصف كل مكان مقترح كنت أجد نفسي أفكّر: "لطالما أردت رؤية هذا". لقد كانت فرصةً للذهاب في رحلة العمر إلى أماكن قد عاشت في مخيّلتي منذ الطفولة. وعندما أنهيت قراءة النشرة تنهدت وأنا أفكّر:

....

في هذا الوقت بالذات لم يكن لديّ الوقت. ثلاثة أسابيع بعيداً عن الأطفال؟ عن زوجتي؟ عن عملي؟

إنه أمر مستحيل وسخيف، لهذا يفضّل أن أنسى الأمر. فوضعت النشرة في أسفل الكومة.

في الحقيقة، نسيان أمر الرحلة.

إنني إنسان واقعي. وقد تخيّلت أنني وكات (اسم التدليل لكاثي) ستسنح لنا الفرصة للسفر في وقتٍ ما في المستقبل. ولكن رغم أنني كنت أعلم أنه يوماً ما قد يكون من الممكن أن أقنع زوجتي بالسفر معي لرؤية تاج محل أو أنغكر وات، إلاّ أنه لم تكن هناك فرصة لذلك، فما كنا سننجح في أي وقتٍ في الذهاب إلى إيستر آيلند أو إثيوبيا أو أدغال غواتيمالا. ولأنها كانت بعيدة جداً وهناك الكثير من الأشياء لرؤيتها والأماكن لزيارتها في العالم فالسفر إلى أماكن بعيدة يندرج في فئة "
" وكنت متأكداً نوعاً ما أن لن يأتي أبداً.

لكن هنا كانت الفرصة مواتيةً للقيام بذلك دفعة واحدة. وبعد عشر دقائق حالما توقّف تنافر النغمات بغموض كما بدأ، كنت أقف في المطبخ مع زوجتي والنشرة مفتوحة على الطاولة، وكنت أشير إلى الأشياء البارزة كطفلٍ يصف المخيم الصيفي، واكتفت زوجتي، التي لطالما اعتادت على شطحات خيالي، بالإصغاء فيما أستمريتُ بالثرثرة. وعندما انتهيت أومأت برأسها وهمهمت.

"هل هذه همهمة موافقة أم همهمة رفض؟"

"لا هذه ولا تلك، إنني أتساءل لماذا تريني هذا. لا يبدو أننا نستطيع الذهاب".

فقلت: "أعلم ذلك، فكرت وحسب أنك قد تحبين رؤيتها".

وكانت زوجتي، التي تعرفني أفضل من أي شخصٍ آخر، تعلم أن الأمر منطوٍ على أكثر من ذلك. فهمهمت ثانيةً.

بعد يومين، كنت وزوجتي نتمشى في الجوار، وكان ولدانا الأكبران يسبقاننا، والأطفال الثلاثة الآخرون يجرّون في عربات، فأثرت الموضوع مجدداً.

وقلت بلا مبالاة: "لقد كنت أفكر بالرحلة".

"أية رحلة؟"

"تلك التي تدور حول العالم، التي في النشرة التي أريتك إياها".

"لماذا؟"

وأخذت نفساً عميقاً، ثم قلت: "حسناً... هل تريدين أن تذهبي؟"

فمشت عدّة خطوات قبل أن تجيب قائلةً: "بالطبع أريد أن أذهب، تبدو الرحلة مدهشةً، ولكنها مستحيلة. إذ إنني لا أستطيع ترك الأطفال لثلاثة أسابيع. ماذا لو حدث شيء ما. إذ ليست هناك فرصة لكي نتمكن من العودة في حالةٍ طارئة. وكم رحلة جويّة تذهب حتى إلى مكان كإيستر آيلند؟ ما تزال ليكسي وسافانا طفلتين وهما تحتاجانني. جميعهم يحتاجونني". ثم انخفض صوتها، وقالت: "ربما تستطيع أمهات أخريات أن يذهبن، ولكن ليس أنا".

فأومأت برأسي، إذ كنت أعلم مسبقاً ما ستكون إجابتها.

"هل تمانعين إذا ذهبت أنا؟" فنظرت إليّ.

لقد سبق وسافرت كثيراً من أجل عملي، وقمت بجولات للكتب لشهرين أو ثلاثة أشهر في السنة، وكانت رحلاتي دائماً شاقةً على الأسرة. ورغم أنني لم أكن أرغب دائماً في الغوص مباشرةً في الفوضى، إلا أنني لست عديم الفائدة كلياً في البيت. إذ إن كات لديها برنامج يجعلها تخرج غالباً من المنزل، فلديها وجبات فطور بين الحين والآخر مع صديقاتها، وهي تتطوع في المدرسة بانتظام،

وتتمرن في النادي، وتلعب لعبة "البنكو" مع مجموعة من السيدات، وتقوم بشراء الحاجيات. وكلانا يعلم أنها للخروج من المنزل ليحميها ذلك من الإصابة بالجنون. وفي تلك اللحظات، ينتهي بي المطاف بأن أكون أباً وحيداً. ولكن عندما أكون بعيداً يصبح الأمر صعباً إن لم يكن مستحيلاً عليها لتفعل أي شيء خارج المنزل. وليس هذا جيداً لحالة زوجتي العقلية.

بالإضافة لذلك، فإنّ أطفالنا يحبون وجودنا معاً بالقرب منهم. فعندما أكون بعيداً، إذا أمكنك تخيّل ذلك، تتضاعف الفوضى في المنزل كما لو أن ذلك لملء الفراغ الذي يخلّفه غيابي. ويكفي القول إن زوجتي تتعب من سفري. إنها تتفهّم أنه جزء من عملي ولكنّ هذا لا يعني أنها تحبه.

لهذا كان سؤالي سؤالاً مقلقاً.

وسألت أخيراً: "هل الأمر حقاً مهم إلى هذا الحدّ بالنسبة إليك؟"

فقلت بصراحة: "كلا، وإذا لم تريديني أن أذهب فلن أفعل، ولكنني أريد ذلك".

"وستذهب وحدك؟"

فهززت رأسي قائلاً: "في الواقع، كنت أفكر في الذهاب مع ميكا". قاصداً أخي بذلك.

وسرنا في صمتٍ لبضع لحظات قبل أن تلتقي عيناي بعينيها. فقالت: "أعتقد أنها ستكون فكرةً رائعة".

بعد أن عدت وكات من نزهتنا - وما زلت في حالة شكّ جزئي - ذهبت إلى مكتبي لأتصل بأخي في كاليفورنيا.

استطعت أن أسمع الهاتف يرنّ، وكان الصوت أبعد من صوتٍ عبر الهاتف الأرضي. لم يكن ميكا يردّ أبداً على هاتف منزله، فإذا ما كنت أريد أن أكلمه كان عليّ أن أطلب رقم هاتفه الخليوي.

قال مبتهجاً: "مرحباً، يا نكي. ماذا يجري؟"

لدى أخي كاشف رقم المتصل، وما يزال يميل إلى مناداتي باسم الطفولة. إذ كنت في الواقع أدعى نكي حتى الصف الخامس.

"لديّ شيء أعتقد أنك ستهتم به".

"أخبرني، أخبرني".

"استلمت هذه النشرة في البريد، و... على أية حال، لأختصر الموضوع، أتساءل إن كنت ترغب في الذهاب معي في رحلة حول العالم في شهر كانون الثاني".

"أي نوعٍ من الرحلات هي؟"

فأمضيت اللحظات القليلة التالية أشرح البنود البارزة، وأنا أقلّب في النشرة أثناء الكلام. وعندما انتهيت كان صامتاً عند الجهة الأخرى.

فسأل: "أحقاً ذلك؟ وستدعك كات تذهب؟"

فترددت ثم قلت: "قالت إنها ستفعل. انتبه، إنني أعلم أنه قرار هام، لذا لست بحاجة لجواب منك الآن. إذ لدينا الكثير من الوقت إلى أن يتوجب علينا تأكيد أمر سفرنا. إنما أردت فقط أن أجعلك تفكر في الأمر. أعني أنني أعلم أنه سيكون عليك أن توضّح هذا الأمر مع كريستين. فثلاثة أسابيع وقت طويل".

كريستين هي زوجة أخي، ومن بعيد، أمكنني سماع الصيحات الخافتة لطفلتهما بيتون، المولودة حديثاً.

"إني واثق أنها ستظن أن الأمر على ما يرام، ولكنني سأتحقق وأعاود الاتصال بك".

"هل تريدني أن أرسلَ لك النشرة؟"

فقال: "بالطبع ربما ينبغي أن أعرف إلى أين سنذهب، أليس كذلك؟"

فقلت: "سأرسلها لك اليوم بالبريد الفيدرالي السريع. يا ميكا؟"

"ماذا؟"

"هذه ستكون رحلة عمرنا".

"إنني واثق من أنها ستكون كذلك، يا أخي الصغير". وكدت أرى ميكا يبتسم ابتسامة عريضة في الطرف الآخر. "إنها ستكون كذلك".

تبادلنا كلمات الوداع، وبعد أن أقفلت الهاتف، وجدت نفسي أحدّق في صور العائلة التي تصطف على رفوف مكتبي. كانت صور الأطفال تشكل الجزء الأكبر منها. فرأيت أطفالي وهم رُضّع، وفي أول مشيهم، وكانت هناك صورة عيد ميلادٍ تجمع الأطفال الخمسة قد أخذت قبل بضعة أشهر. وبجانب تلك وضعت صورة لكاثي، وباندفاعٍ عاطفي تناولت الإطار مفكراً في التضحية التي قامت بها لتوها.

كلا، لم تكن تثيرها فكرة رحيلي لمدة ثلاثة أسابيع، ولم يكن يثيرها أنني لن أكون بجوارها لمساعدتها مع أطفالنا الخمسة. وعوضاً عن ذلك، ستتحمّل العبء بينما أجوب العالم.

لماذا إذا قالت نعم؟

كما قلت، إن زوجتي تفهمني أفضل مما يفهمني أي شخص آخر، وكانت تعرف أن رغبتي الملحّة في الذهاب ليس لها علاقة بالرحلة نفسها بقدر ما لها علاقة بقضاء الوقت مع أخي.

هذه إذاً قصة عن الأخوّة.

إنها قصتي أنا وميكا، وقصة عائلتنا. وهي قصة مأساة وحزن وأمل وتعاضد. إنها قصة تروي كيف نضجنا وتغيرنا واتخذنا طريقين مختلفين في الحياة، ولكننا بطريقة ما أصبحنا أكثر قرباً. إنها بمعنىً آخر، قصة رحلتين: تلك التي أخذتني وأخي إلى أماكن بعيدة حول العالم، وتلك التي تجعل منا في حياتنا الآن أعزّ صديقين.

الفصل الأول

كثيرة هي القصص التي تبدأ بدرس بسيط قد تعلّمه الإنسان، وليست قصة عائلتنا استثناءً لهذه القاعدة. وسأختصر بغية الإيجاز.

في البداية، حملت أمنا بنا نحن الأطفال. وعلى الأقل بحسب رواية والدتي الكاثوليكية، يجري الدرس الذي تعلمته على النحو التالي:

إذ أخبرتني قائلة: "تذكّر على الدوام أنه مهما كان ما تقوله لك الكنيسة فإن طريقة الإيقاع تجدي نفعاً".

فرفعت نظري إليها، وكنت في الثانية عشرة من عمري آنذاك. "أتعنين بقولك أننا جميعاً جئنا بالصدفة؟"

"نعم، كل واحد منكم".

"ولكننا كنا صدفاً جيدة، صحيح؟"

فابتسمت قائلة: "النوع الأفضل منها".

ومع ذلك، بعد سماع هذه القصة، لم أكن واثقاً تماماً بماذا أفكر. فمن جهةٍ، كان من الواضح أن أمي لم تندم على إنجابنا. ومن جهةٍ أخرى، لم يكن يناسب كبريائي أن أفكّر في نفسي على أنني صدفة، أو أن أتساءل عمّا إذ كان ظهوري المفاجئ في العالم قد حدث بسبب تناول كأس فوق الحدّ من الشراب. ومع ذلك، فقد خدمني هذا في إيضاح الأشياء لنفسي لأنني لطالما تساءلت لماذا لم ينتظر والدانا قبل أن ينجبا أطفالاً. إذ إنه من المؤكد أنهما لم يكونا مستعدين لإنجابنا، ولكن حينئذٍ، لست متأكداً بالضبط من أنهما كانا مستعدين للزواج أيضاً.

ولد كلا والديّ في العام 1942، وبما أنّ الحرب العالمية الثانية كانت في مراحلها الأولى، كان كلا جدَّي يخدمان في القوات المسلّحة. وكان جدي لأبي ضابطاً ممتهناً، لذا قضى والدي: باتريك مايكل سباركس، طفولته وهو يتنقّل من قاعدة عسكرية إلى أخرى ونشأ إلى حدٍّ كبير في كنف أمه. لقد كان أكبر إخوته الخمسة، وبالغ الذكاء، ويرتاد مدرسة داخلية في إنكلترا قبل أن يتمّ قبوله في جامعة كرايتون في مدينة أوماها بولاية نبراسكا. كان ذلك هو المكان الذي التقى فيه بوالدتي: جيل إيما ماري ثوين.

مثل والدي، كانت أمي الطفلة الكبرى في عائلتها، فقد كان لها ثلاث إخوة وأخوات أصغر منها

سناَ، وقد نشأت معظم حياتها في نبراسكا حيث نما في نفسها حب للخيول دام مدى حياتها. وقد كان والدها مقاولاً أدار عدداً من المشاريع المختلفة طوال حياته. وعندما كانت والدتي مراهقة كان يملك داراً للسينما في بلدة لايونز الصغيرة التي كان يسكنها بضع مئات من الناس، وكانت متموضعة تماماً على بعدٍ من الطريق الخارجي وسط أرض زراعية. ووفقاً لما روته أمي، فقد شكّلت دار العرض تلك جزءاً من سبب ارتيادها للمدرسة الداخلية أيضاً. ويزعم أنها قد أبعدت لأنها قد ضبطت وهي تقبّل أحد الفتيان، ورغم أنني عندما سألت عن الأمر أنكرته جدتي بعناد. وأخبرتني قائلة: "لطالما كانت أمك ملفّقة. واعتادت أن تختلق أغرب الأشياء لمجرد أن تحصل على ردِّ فعلٍ منكم أيها الأطفال".

"إذاً لماذا أبعدتها إلى المدرسة الداخلية؟"

فقالت جدتي: "بسبب كل جرائم القتل، لأن كثيراً من الفتيات كنّ يقتلن في بلدة لايونز في ذلك الحين".

ففهمت.

على أية حال، توجهت والدتي بعد المدرسة الداخلية إلى جامعة كرايتون تماماً كما فعل والدي. وأعتقد أنّ أوجه التشابه بين حياة كل من والديّ كانت أول ما استحثّ اهتمامهما ببعضهما. ومهما كان السبب، فقد بدأا بالتواعد عندما كانا طالبين في السنة الثانية، ووقعا تدريجياً في الحب. وتصاحبا لما يزيد عن سنةٍ بقليل. وكانا كلاهما في الحادية والعشرين عندما تزوجا في 31 آب عام 1963 قبل بداية سنتهما الأخيرة في الجامعة.

بعد عدة أشهر، أخفقت طريقة الإيقاع، فتعلمت أمي الدرس الأول من دروسها الثلاثة. وولد ميكا في 1 كانون الأول عام 1964. وبحلول الربيع، حملت مجدداً وولدت أنا في 31 كانون الأول عام 19. وبحلول الربيع التالي، حملت بأختي دانا، فقررت أنها من ذلك الوقت فصاعداً ستتولى أمور تنظيم الحمل بنفسها.

قرّر والدي بعد تخرجه أن يتابع دراسته لنيل درجة الماجستير في الأعمال في جامعة مينيسوتا، فانتقلت الأسرة قرب ووترتاون في خريف عام 1966. وقد ولدت أختي دانا كما وُلدت أنا في 31 كانون الأول، فمكثت أمي في البيت لتربينا بينما كان والدي يذهب إلى الكلية أثناء النهار ويخدم في الحانة ليلاً.

ولأنه لم يكن باستطاعة والديّ مالياً تحمل أعباء الإيجار، فقد عشنا على بعد أميالٍ من البلدة في منزل ريفي قديم، أقسمت والدتي أنه كان مسكوناً بالأشباح. وقد أخبرتني بعد ذلك بسنواتٍ أنها اعتادت أن ترى وتسمع أشياءً في وقتٍ متأخر من الليل - مثل بكاءٍ وضحكٍ ومحادثاتٍ هامسة - ولكن حالما كانت تنهض لتتفقدنا كانت الضجة تتلاشى.

التفسير الأرجح لذلك هو أنها كانت تهذي، ليس لأنها كانت مجنونة، فأمي كانت على الأرجح أكثر شخص متزنٍ عرفته على الإطلاق، ولكن لأنه لا بدّ وأنها قد قضت تلك السنوات الأولى في عالم مبهم من الإرهاقِ التام. ولا أعني ذلك النوع من الإرهاق الذي يعالج بسهولة ببضعة أيام منَ الاستغراق في النوم حتى وقتٍ متأخر، ولكنني أعني ذلك النوع من الإرهاق الجسدي والعقلي والعاطفي المتواصل والذي يجعل المرء يبدو وكأنه يدور في دوائر كالدوامة لساعاتٍ قبل أن ينخبط على طاولة المطبخ أمام ناظريك. ولا بدّ أن حياتها كانتبلا شك لا يطاق. فقد كانت وهي في بداية الخامسة والعشرين من عمرها مع ثلاثة أطفال يرتدون حفاضاتٍ ، معزولة كلياً طوال العامين التاليين، باستثناء الأوقات التي كانت أمها تأتي لزيارتها فيها. ولم تكن هناك أية عائلة في الجوار لتمدنا بيد المساعدة. إذ كنا فقراءً فقراً مدقعاً، وكنا نعيش في وسط المجهول. ولم يكن بمقدور أمي أن تغامر كثيراً بالذهاب إلى أقرب بلدةٍ، إذ كان والدي يأخذ السيارة معه إلى الجامعة

والعمل. أضف إلى المعادلة بضعة فصول شتاء في مينيسوتا حيث وصل الثلج إلى السطح تماماً، وأسقِط منها والدي المنشغل دائماً، وأضف لها نحيب الأطفال والرضّع، فإنني لست واثقاً حتى بأنه من الممكن تصوّر مدى البؤس الذي لا بدّ أنها عانته. وكذلك لم يكن والدي عوناً كبيراً. ففي تلك المرحلة من حياته، لم يكن بكل بساطةٍ يستطيع أن يفعل ذلك. ويا لكثرة ما تساءلت لم لم يحصل على عمل منتظم، لكنه لم يفعل. فكان كل ما استطاع فعله هو العمل والدراسة وحضور دروسه. وقد كان يغادر في الصباح الباكر ويعود بعد أن يكون الجميع قد ناموا بوقت طويل. هكذا، لم يكن لدى والدتي إطلاقاً أي أحدٍ لتتحدث معه باستثناء أطفالها الثلاثة الصغار. ولا بدّ أن أياماً أو حتى أسابيع كانت تمضي عليها دون إجراء محادثة واحدة مع شخص راشد.

ولأن ميكا كان الأكبر سناً، كانت أمي تحمّله مسؤولياتٍ تتجاوز عمره بكثير؛ أي مسؤولياتٍ أكثر مما يمكن قط أن أعهد لأطفالي بها. وقد كانت أمي مشهورةً بأنها تطبع قيم الغرب الأوسط العتيقة في رؤوسنا، وبعد قليلٍ أصبح الأمر لدى أخي هو: "وظيفتك هي العناية بأخيك وأختك مهما حدث". فحتى عندما كان في الثالثة كان يفعل ذلك. فقد كان يساعد في إطعامي أنا وأختي، واستحمامنا، وتسليتنا، ومراقبتنا فيما كنا نمشي بخطىً متعثرةٍ في أنحاء الحديقة. هناك صور لميكا في ألبوم العائلة وهو يهزّ سرير أختي لكي تنام بينما كان يرضعها بالزجاجة رغم حقيقة أنه لم يكن أكبر حجماً منها بكثير. وتوصلت لأن أفهم أن ذلك كان جيداً له لأنه على المرء أن الإحساس بالمسؤولية. فهي لا تظهر بشكلٍ سحري في أحد الأيام بمجرد أن تحتاجها فجأة. ولكنني أعتقد أن ميكا - لأنه كان يعامل غالباً كإنسان راشد - اعتقد أنه إنسانٍ راشد وأنّ هناك حقوقاً معينة كانت من حقه. وأعتقد أن ذلك هو ما أدى إلى إحساسٍ راشدٍ تقريباً باستحقاقٍ عنيد قبل أن يبدأ المدرسة بوقت طويل.

إن أول ما أتذكره هو حقيقةً تتعلق بأخي. وقد كنت أبلغ عامي الثاني والنصف - وكان ميكا يكبرني بعام - عندما كنا في عطلة أسبوعية أواخر الصيف، وكان العشب بطول قدم واحد تقريباً. وكان والدي يستعد لجزّ المرج، وقد سحب جزّازة العشب خارج الحظيرة. في ذلك الوقت، أحبّ ميكا جزازة العشب، وأتذكر بغير وضوح أخي وهو يتوسل إلى أبي ليدعه يجزّ المرج رغم حقيقة أنه لم يكن قوياً بما يكفي ليدفعها. فرفض والدي بالطبع، ولكن أخي - بكل وزنه البالغ ثلاثين رطلاً - لم يستطع أن يفهم منطق هذا الوضع. ولم يكن، كما أخبرني فيما بعد، ليتحمّل هراء كهذا.

فقال حرفياً: "لقد قررت أن أهرب".

أعرف الآن أيها القارئ ماذا تفكر.

وقد اعتاد ابني الأكبر مايلز أن يهدد بأنّه سيهرب في ذلك السن أيضاً، فكنت وزوجتي نجيبه على النحو التالي: "هيا. ولكن احرص فقط على ألا تذهب أبعد من الزاوية". أما مايلز، وقد

كان طفلاً وجلاً ناعماً، لم يكن حقاً ليذهب أبعد من الزاوية حيث كنت وزوجتي نراقبه من نافذة المطبخ.

لكن ذلك لا ينطبق على أخي. كلا، فقد جرى تفكيره على النحو التالي: "سأهرب . وبما أنه يفترض بي دائماً أن أعتني بأخي وأختي، إذاً أعتقد أنني سآخذهما معي".

وهكذا فعل، فوضع أختي البالغة من العمر ثمانية عشر شهراً في العربة وأخذ بيدي، وبدأ يقودنا إلى البلدة متسللاً من وراء سياج الأشجار حتى لا يستطيع والداي أن يرياه. وبالمناسبة، كانت البلدة على بعد ميلين، وكانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى هناك تكمن في عبور طريقٍ خارجي ذي مسارين.

كدنا ننجح أيضاً، وأتذكّر سيرنا عبر حقولٍ ذات أعشاب تقارب طولي ونحن نراقب الفراشات وهي تطير بأعدادٍ كبيرة في سماء الصيف. واستمرينا في السير إلى ما بدا أنه لا نهاية له قبل أن نصل إلى الطريق الخارجي. وهناك وقفنا على جانب الطريق - ثلاثة أطفال تحت سن الرابعة وإحدانا ترتدي - وتضربنا هبات قوية من الريح عندما كانت الشاحنات الطويلة والسيارات تندفع أمامنا بسرعة ستين ميلاً في الساعة، ونحن نقف على بعدٍ لا يزيد عن قدمين عنها. وأتذكّر أن أخي قال لي: "عليك أن تجري بسرعة عندما أقول لك". وأتذكر أصوات أبواق السيارات التي تصيح والإطارات التي تصرخ بعد أن صرخ "اركض" بينما حاولت أن أمشي بصعوبة عبر الطريق محاولاً أن ألحق به.

وبعد ذلك، تصبح الأمور غامضةً بعض الشيء. وأتذكر أنني كنت متعباً وجائعاً وأنني أزحف أخيراً إلى داخل العربة مع أختي بينما كان أخي يجرّنا على طول الطريق مثل كلب الإسكيمو الرئيسي "بالتو" وهو يندفع عبر ثلوج ألاسكا. ولكنني أتذكر أيضاً أنني كنت فخوراً به. إذ كان ذلك وكانت تلك . ورغم كل شيء، كنت أشعر بالأمان. فقد كان ميكا يعتني بي، وكانت أوامري من أمي هي دائماً: "افعل ما يقوله لك أخوك".

حتى في ذلك الوقت، كنت أفعل ما يقال لي. وخلافاً لأخي، كنت أكبر وأنا أفعل ما يقال لي.

بعد ذلك ببعض الوقت، أتذكر توجّهنا فوق جسر وصعودنا أعلى تلة. وحالما بلغنا القمة استطعنا أن نرى البلدة في الوادي تحتنا. وبعد ذلك بسنواتٍ، فهمت أنه لا بدّ أننا قد مشينا - على سيقان صغيرة يمكنها فقط أن تقطع ميلين بتلك السرعة - وأتذكر بغموض أخي وهو يعدنا بمثلجاتٍ لنأكلها. وعندها فقط، سمعنا صراخاً، وحالما نظرت من فوق كتفي رأيت أمي تندفع صعوداً في الطريق وراءنا باهتياج. وكانت تصرخ علينا وتأمرنا بالتوقف بينما كانت تلوّح بانفعال "بلطاشة" الذباب فوق رأسها.

وبالمناسبة، فقد كانت لطّاشة الذباب هي ما اعتادت أن تعاقبنا به.

وكان أخي يكره لطّاشة الذباب.

بدون شكٍ، كان ميكا غالباً أكثر من يتلقّى العقوبة بلطّاشة الذبابٍ وكانت أمي تحبها لأنها، رغم أنها كانت ، إلا أنها لم تكن فعلاً، ولكنها كانت تصدر ضجةً عالية عندما تضرب الحفاض أو السروال. وكان الصوت هو الذي يؤثر فيك فعلاً - فهو أشبه بفرقعة بالون - وحتى هذا اليوم، ما زلت أشعر بنوعٍ غريبٍ من المرح العقابي عندما أضرب الحشرات في بيتي.

لم يمضِ وقت طويل على المرة الأولى التي هرب فيها ميكا حتى فعلها مجدداً. أيًّا كان السبب، فقد وقع في المَشاكل. وتلك المرة، كان أبي هو من ذهب لإحضار لطّاشة الذباب. وبحلول ذلك الوقت، كان ميكا قد ضاق ذرعاً بتلك العقوبة بعينها، لذا عندما رأى والدي يحاول الوصول إليها، قال بحزمٍ: "لن

تضربني بها".

فاستدار والدي وبيده لطّاشة الذباب، وكان ذلك عندما ولّى ميكا هارباً. ثم راقبت وأنا جالس في غرفة الجلوس كيف أسرع أخي ذو الأربع سنوات من المطبخ وانطلق بجانبي وتوجّه إلى أعلى الدرج بينما كان أبي خلفه تماماً. وسمعت صوت الضرب في الطابق العلوي بينما كان أخي يؤدي حركاتٍ بهلوانية متنوعةً غير معروفة في غرفة النوم. وبعدها بلحظةٍ، كان ينطلق عائداً إلى الطابق السفلي، واجتازني مجدداً عبر المطبخ وهو مسرع عبر الباب الخلفي، وكان يتحرك بسرعة كبيرة لم أكن قد شاهدته في حياتي يتحرك بمثلها.

كان والدي - وهو المدخّن طوال حياته - ينفخ ويلهث عندما نزل بضجةٍ على الدرج ولحق به. ولم أرَ أيًّا منهما ثانيةً لساعات مضت. وبعد أن حل الظلام، عندما كنت مسبقاً في السرير، نظرت إلى الأعلى لأرى أمي وهي تقود ميكا إلى غرفتنا. فوضعته في السرير وقبلته على خده. ورغم الظلام، استطعت أن أرى أنه كان قذراً جداً وملطخاً بالأوساخ، وبدا وكأنه قد قضى الساعات القليلة الماضية تحت الأرض. وحالما غادرت، سألت ميكا عما حدث.

فقال: "قلت له إنه لن يضربني".

"وهل فعل ذلك؟"

"كلا، إذ لم يستطع الإمساك بي. وبعد ذلك، لم يستطع إيجادي".

فابتسمت مفكراً: كنت أعلم أنك ستنجح.

الفصل الثاني

بعد بضعة أيام من إرسالي المعلومات عن الرحلة إلى ميكا، رنّ الهاتف. كنت جالساً إلى طاولتي في المكتب، أكافحُ في يومٍ صعبٍ آخر من الكتابة، وعندما رفعت السماعة بدأ ميكا يثرثر مباشرة تقريباً.

قال: "هذه الرحلة... مدهشة. هل أدركت إلى أين سنذهب؟ إننا ذاهبان إلى إيستر آيلند وكمبوديا! وذاهبان لرؤية تاج محل. وذاهبان إلى القفر الأسترالي!"

فقلت: "أعلم ذلك، ألا يبدو الأمر عظيماً؟"

"إنه أكثر من عظيمٍ، إنه رائع. هل أدركت أننا ذاهبان للتزلج على الزلاجات التي تجرّها الكلاب في النرويج؟"

"نعم، أعلم ذلك..."

"وسنركب الفيلة في الهند!"

"أعلم ذلك..."

"وسنذهب إلى إفريقيا! إفريقيا، حباً بالله!"

"أعلم ذلك..."

"هذا سيكون عظيماً!"

"إذاً قالت كريستين إنه يمكنك الذهاب؟"

"قلت لك إنني ذاهب".

"أعلم، ولكن هل كريستين موافقة على الأمر؟"

"إنها لا تشعر بالإثارة تماماً، لكنها وافقت. أعني... إفريقيا والهند وكمبوديا! ومع أخي؟ ما الذي ستقوله؟"

فكرت أنه كان يمكنها أن ترفض. فقد كان لديهما طفلان - بيتون كانت تبلغ من العمر شهرين فقط وكانت آلي في التاسعة - وقد كان ميكا يخطط للمغادرة لمدة شهرٍ بعد وقتٍ قصير من عيد ميلاد بيتون الأول. ولكنني كنت متأكداً من أن كريستين كانت - مثل كاثي - تتفهم أن ميكا كان بحاجةٍ لأن يراني بقدر حاجتي لرؤيته، ولو لسببين مختلفين. إذ توصلنا كأخوين إلى أن نعتمد على بعضنا البعض في أوقات الأزمات، وهو اعتماد لم يزدد إلا قوة مع تقدمنا في السن. فقد ساندنا بعضنا البعض خلال الصراعات الشخصية والعاطفية، وعشنا مسرات وأحزان بعضنا البعض، وتعلمنا الكثير عن أنفسنا بالتعلم عن بعضنا البعض. وبينما يكون الإخوة غالباً مقربين بالطبيعة اتخذ الأمر معي ومع أخي خطوةً أبعد. فلم يكن صوته أبداً ليفشل في أن يذكّرني بالطفولة التي تشاركناها، وكانت ضحكته حتماً تحيي ذكرياتٍ بعيدةً وصوراً ضائعة من وقت طويل تنتشر بدون سابق إنذار كالرايات في يوم كثير النسمات.

"يا نك؟ مرحباً؟ هل ما زلت معي؟"

"نعم، أنا معك. كنت أفكر وحسب".

"بماذا؟ بالرحلة؟"

فقلت: "كلا، بل كنت أفكر بالمغامرات التي خضناها عندما كنا أطفالاً صغاراً".

"في مينيسوتا؟"

فقلت: "كلا، في لوس أنجلوس".

"ما الذي جعلك تفكر بذلك؟"

فاعترفت قائلاً: "لست واثقاً تماماً، أحياناً يحدث الأمر وحسب".

في العام 1969، انتقلنا من فصول شتاء مينيسوتا الباردة إلى إينجلوود في ولاية كاليفورنيا، إذ تم قبول والدي في برنامج الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، فانتقلنا إلى ما قد يعتبره البعض المشاريع في مركز لوس أنجلوس بالضبط، وكان المجتمع الذي عشنا فيه لا يزال يكتوي بالذكريات الغاضبة لأحداث شغب واتس في العام 1965. لقد كنا إحدى العائلات القليلة من العرق الأبيض في مجمّع الشقق المتهدمة والتي كنا نسميها بيتنا. وكان جيراننا القريبون يتضمنون بائعات الهوى، ومروّجي المخدرات، وأفراد العصابات.

كان مكاناً صغيراً - عبارةً عن غرفتي نوم وغرفة معيشة ومطبخ - ولكنني واثق بأن والدتي كانت تنظر إليه على أنه تحسّن كبير عن حياتها في مينيسوتا، فرغم أنها كانت ما تزال لا تحظى بدعم العائلة، إلا أنها للمرة الأولى خلال عامين كان لديها جيران لتتكلم معهم حتى ولو كانوا مختلفين عن الناس الذين ترعرعت معهم في نبراسكا. وكان من الممكن لها أيضاً أن تمشي إلى المتجر لتشتري مواد البقالة أو على الأقل أن تتمشى في الخارج، وترى دلائل على وجود الحياة البشرية.

من الشائع أن يفكر الأطفال بأهلهم بوقار، ولم أكن أنا كطفلٍ مختلفاً. فقد كانت أمي تبدو لي جميلةً بعينيها البنيتين الداكنتين، وشعرها الداكن، وبشرتها الناصعة. وبالرغم من قسوة مراحل حياتنا الأولى، فإنني لا أتذكرها أبداً تفرّغ إحباطاتها فينا. إذ كانت واحدةً من أولئك النساء اللواتي ولدن ليكنّ أمهات وكانت تحبنا حباً غير مشروط، وقد كنا من نواح عدة . وكانت تبتسم أكثر من أي شخص عرفته قطّ. ولم تكن ابتساماتها من ذلك النوع المزّيف الذي يبدو مفروضاً ويجعلك تشعر بالبغضً، بل كانت ابتساماتها ابتساماتٍ صادقة تجعلك ترغب في أن ترمي نفسك بين ذراعيها اللتين كانتا دائماً مفتوحتين لنا.

من جهة أخرى، كان أبي ما يزال نوعاً ما غامضاً بالنسبة إليّ. فكان، بشعره ذي اللون الأصفر الضارب إلى الحمرة، لديه نمش ومعرضاً لحروق الشمس. كان وحده من بيننا جميعاً يتذوق الموسيقى. فكان يعزف على الهرمونيكا والغيتار. وكان يصفّر بلا إرادة عندما يكون متوتراً، وهو ما

كان يبدو عليه دائماً. ولم يكن بإمكان أحدٍ أن يلومه. فقد استقرّ في لوس أنجلوس في نفس الروتين المرهق الذي كان يعيشه في مينيسوتا: كالحصص، والدراسة، والليالي التي كان يقضيها في العمل كبوابٍ وساقٍ لكي يؤمّن لنا ضروريات الحياة الأساسية. وحتى في ذلك الوقت، كان عليه الاعتماد على كلٍّ من والديه ووالدي أمي لمساعدته في العيش عيش الكفاف.

عندما كان يتواجد في البيت، كان عادةً مشغولاً إلى درجة أنه كان يبدو عليه الشرود. وكانت الذكرى الأكثر انسجاماً لي عن والدي تتعلّق به وهو جالس إلى الطاولة ورأسه منحنٍ فوق كتاب. وبسبب كونه مفكّرا حقيقياً، لم يكن ذلك النوع من الآباء الذي يحب لعب لعبة التقاط الكرة أو ركوب الدراجات أو الذهاب في نزهة على الأقدام، ولكن بما أننا لم نجرِّب شيئاً مختلفاً، لم يكن الأمر يزعجنا. عوضاً عن ذلك، كان هدفه - بالنسبة لنا نحن الأطفال على أية حال - إعالة العائلة وضبط النظام. فإذا خرجنا عن السيطرة - وهذا ما كنا نفعله بتكرار مروّع - كانت أمي تهددنا بقولها إنها ستخبر والدي عندما يعود إلى البيت. وليست لدي فكرة لم كانت مجرّد الفكرة ترعبنا إلى هذا الحدّ، لأن أبي لم يكن مؤذياً، ولكنني أعتقد أن السبب هو أننا لم نكن نعرفه حقّ المعرفة.

كانت السنوات التي قضيناها في مينيسوتا قد دفعتنا للتقارب من بعضنا البعض كأخوة. فقد كنت وميكا ودانا لسنواتٍ الأصدقاء الوحيدين لبعضنا البعض، واستمرّ ذلك في لوس أنجلوس. فقد كنا نتشارك غرفة النوم ذاتها، ونلعب بالألعاب ذاتها، وكنا تقريباً دائماً في صحبة واحدنا الآخر. وكنا في أيام السبت صباحاً نجثم حول التلفزيون لمشاهدة الرسوم المتحركة، وكنا نستطيع قضاء الساعات ونحن نلعب بشخصيات المغامرات من مسلسلات رعاة البقر "جوني ويست" والتي أصبحت منتهية الآن، مثل شخصيات المغامرات "جي آي جو". وكان هناك رعاة بقر مثل: "أسرة الغرب - جوني وجين والأطفال"، وجنود مثل: "الجنرال كستر والقائد مادوكس"، وخارج على القانون مثل: "سام كوبرا"، وهنود مثل: "جيرونيمو ورئيس الشيروكي والنسر المقاتل"، بالإضافة إلى أدواتٍ تتضمن قلاعاً وعربات رعاة البقر وجياداً وقطعاناً من الماشية. ولا بدّ أننا على مرّ السنين قد جمعنا كل قطعةٍ من المجموعة ثلاث أو أربع مرات. وكنا نلعب بالشخصيات ونحن نستحضر مغامرةً بعد أخرى حتى تحطمت بكل معنى الكلمة.

كانت أختي، لكونها الأصغر سناً، تميل إلى البقاء داخل المنزل مع أمي، فيما بدأت وأخي تدريجياً نكتشف العالم الخارجي. كان يبدو على والديّ أنهما يعتقدان - بسذاجة نوعاً ما كما أعتقد الآن - أننا سنكون بأمانٍ معاً مهما كانت الشوارع خطرة، وكانا يسمحان لنا باستكشاف الجوار بحريةٍ بمفردنا قبل أن أبلغ سن الخامسة. وكان الشرط الوحيد هو أن نتواجد في البيت في موعد العشاء. ولم يزعج أي من أبي أو أمي نفسه بوضع حدودٍ للمسافة التي نتعداها في تجوالنا. وطالما كنا نفي بالشرط، استفدنا من هذه الحرية إلى أقصى الحدود. وحيثما كان أخي يذهب، كنت أطارده بإحساسٍ متزايدٍ من عبادة البطل. فكنا نقضي أوقات العصر ونحن نستكشف شققاً مهدّمة، أو نتحدث مع جاراتنا الكبار بينما كن يقفن على طول الجادة وهن يجتذبن الزبائن. وكنا نراقب بلا نهاية المراهقين وهم يصلحون السيارات في الموقف. وأحياناً كنا نجلس مع عصاباتٍ متنوعة بينما يشرب أفرادها، ويغازلون صديقاتهم. وكان ذلك ممتعاً كثيراً فكان هناك شيء ما لنراه ونفعله. وحتى عندما كان يسمع صدى طلقاتٍ نارية بين الحين والآخر من على بعد، لا أتذكر أنني وميكا قد خفنا منها أكثر مما ينبغي.

ولأيّ سبب كان، كنا هناك. وأعتقد أن السبب كان لأن الجميع، وحتى أفراد العصابات، كانوا يعلمون ليس فقط أننا لا نشكل تهديداً، بل أننا كنا ربما أكثر فقراً مما كانوا عليه. إذ كنا فقراءً للغاية. وكنا قد ربينا كأطفالٍ على مسحوق الحليب والبطاطا ووجبة الشوفان؛ ولم أكن أعلم أن الحليب يأتي حتى توجّهت إلى المدرسة. ولم نكن نذهب أبداً لنأكل خارجاً أو لنزور المتاحف، أو لنلعب الكرة أو حتى لمشاهدة أحد الأفلام. كانت السيارة التي اشتراها أبي للذهاب إلى العمل والجامعة قد كلّفت أقل من مائة دولار. وحالما بدأنا المدرسة، كنا نحصل على زوجٍ واحد من

الأحذية وبنطالٍ واحد في السنة. وإذا تمزق، كانت أمي تكوي الرقع وتستمر في الكي، حتى تبدو سراويل الجينز وكأنها قد صممت أصلاً مع حشوات الركبتين. وكانت ألعابنا القليلة، وهي في المقام الأول ألعاب الصفيح وأخشاب لنكولن وشخصيات جوني ويست الآنفة الذكر، كلها هدايا عيد الميلاد أو أعياد ميلادنا لذا تخلينا عن طلب أي شيء نراه عندما نذهب إلى المتجر مع أمي.

إنني الآن فقط أدرك أننا على الأرجح كنا نعيش تحت خط الفقر بكثير. ونحن بالتأكيد، لم نكن نعلم هذا في ذلك الوقت، وبصراحةٍ، ما كنا لنهتم. ولم تكن أمي لتتحمل شكوانا حتى لو فعلنا ذلك. إذ كانت أمي مؤمنةً جداً بالتقشف، وكانت تكره النحيب والكآبة والأعذار، وكانت تنوي استئصال تلك السمات من أطفالها. فإذا قلنا أي شيءٍ على الإطلاق مثل "ولكنني أريدها". كان جوابها على الدوام نفسه. إذ كانت تهزّ كتفيها وتردّ بهدوء: "اخشوشن يا نمر، فإنّ ما تريده وما تحظى به هما عادةً أمران مختلفان تماماً".

كانت آراؤها عن "التقشف" لتجعل أكثر الآباء المعاصرين يرتجفون. فعلى سبيل المثال، عندما دخل ميكا إلى المدرسة، كانت خدمة حافلات المدارس تستخدم لفرض تكامل أكبر بين مدارس داخل المدينة. وكنتيجةٍ لهذا، لم تستقبله المدرسة في نهاية الشارع. وعوضاً عن ذلك، كان عليه أن يسير لمسافة ميل تقريباً إلى موقف الحافلة؛ عبر الجادات المزدحمة وعبر الأحياء القاسية ومع طريقٍ مختصرٍ عبر ساحة خردة. وفي اليوم الأول للحضانة، مشت معه إلى موقف الحافلة، وفي اليوم التالي، مشى بمفرده. وفي غضون أسبوع، أخبر أمي أن بضع فتياتٍ أكبر سناً في الصف السابع أو نحو ذلك، ولكن من أن يكنّ في الحضانة، قد حاصرنه في زاويةٍ في ساحة الخردة وأخذن النقود التي كان سيشتري بها حليبه، ثم هددنه أنه إن لم يحضر لهن نكلاً (5 سنتات) كل يوم فإنهنّ سيؤذينه.

وقال ميكا باكياً: "قلن إنهن سيضربنني بشدة".

هناك عدة طرقٍ يمكن فيها للوالد أن يتعامل فيها مع وضع كهذا. فكان بإمكان أمي أن تبدأ المشي معه إلى المدرسة بشكلٍ منتظم، على سبيل المثال، أو أن تمشي معه في أحد الأيام وتواجه الفتيات وتهدد باستدعاء الشرطة إذا طرأت حادثة أخرى. وربما كان باستطاعة أمي أن تكتشف مكان آبائهن وتتحدث معهم، أو أن تجد أحداً ما لتتناوب معه على توصيل الأطفال بالسيارة، وربما كان بإمكانها حتى أن تتكلم مع أحدٍ في المدرسة.

ولكنّ هذا لا ينطبق على أمي، فعوضاً عن ذلك، وبعد أن أخبرها ميكا بالقصة، نهضت عن الطاولة، وغادرت الغرفة لبضع دقائق. وعندما عادت كانت تحمل صندوق غداء قديماً وصدئاً ومنبعجاً من طرازٍ "روي روجرز"، كان لأخيها الأصغر قبل بضع سنوات. وقالت: "سنضع غداءك في هذا غداً بدلاً من الحقيبة البنية. فإذا حاولت الفتيات أخذ مالك فقط استعدّ واضربهن به، هكذا...".

وبدأت تلوّح بالصندوق على شكل أقواسٍ واسعة رافعةً يدها كمروّض أسود، وهي تشرح بينما جلس أخي عند الطاولة يراقب.

في اليوم التالي، توجّه أخي البالغ من العمر ست سنوات إلى المدرسة مع صندوق غدائه المستعمل. وكما كانت الفتيات قد هددنه، فقد أحطن به عندما لم يعطهن نكله. وعندما هاجمته أول فتاة، فعل تماماً كما قالت له أمي.

وفي غرفة نومنا تلك الليلة، روى لي ميكا ما حدث.

وقال: "لوّحت بكل شيء كان معي".

"ألم تكن خائفاً؟"

فأومأ برأسه وشفتاه مضغوطتان على بعضهما، وقال: "ولكنني استمريتُ بالتلويح وضربهن حتى هربن وهن يصرخن".

ويمكنني أن أضيف أن الفتيات لم يزعجنه مجدداً.

في العام 1971، انتقلنا مجدداً وهذه المرة إلى "بلايا ديل ري"؛ وهي جزء آخر من لوس أنجلوس، ولأسباب واضحة. فحين بدأت أصوات الطلقات النارية الليلية تصبح أقرب بشكلٍ مريع، اعتقد والدانا أن هذا الجزء كان أكثر أماناً بالنسبة لنا من إينجلوود.

بحلول ذلك الوقت، كنت قد بدأت الحضانة ولكن بسبب السنة التي تفصلنا، وحقيقة أن لوس أنجلوس استمرت بنقل أخي بالحافلة، وجدت نفسي وميكا في مدرستين مختلفتين. وبينما كان الطلاب في صفي يشبهون الطلاب الذين قد يوجدون في ضاحية آيوا، كان ميكا يستقل الحافلة إلى واحدة من المدارس داخل المدينة. وكان الطفل الأبيض الوحيد في صفه.

كنا لا نزال في فترات العصر معاً، فنقضي وقتنا كما كنا نفعل في إينجلوود، طفلان لا يعرفان الخوف من العالم. كنا نغادر مجمّع الشقق ونمضي الساعات ونحن نذهب إلى أي مكان نريده؛ فكنا نمشي مسافة ميلين نزولاً إلى المرسى حيث كنا ننظر إلى القوارب المبيّتة في منزلقاتها أو نتسلق الجانب السفلي لجسور الطريق الخارجي أو أعمدة الخدمات للبحث عن بيض الطيور، أو نستكشف بيوتاً مهجورة ومتهدمة أو محترقة بحثاً عن شيء مثير للاهتمام قد هجر هناك. أما في أوقاتٍ أخرى، فكنا نتوجه خلف مجمّع الشقق، ونعبر بضع جادات، ونثب فوق بضعة حواجز لزيارة المدرسة الثانوية. في الأوقات المتأخرة من فترات العصر كانت المدرسة عادةً فارغة، فاعتدنا أن نحبّ الملاعب المكشوفة الواسعة والتي كانت أكبر بكثير من تلك التي كانت في مدارسنا الابتدائية. وكنا نتسابق أو نختبئ أو نقوم بمجرد المشي في الأروقة ونتفحّص الصفوف. وفي أحد الأيام، رأينا أحد الغربان على الأشجار ففتنّا على الفور. وبدأنا نتبعه فيما كان يتحرك من شجرةٍ إلى أخرى. وبعد ذلك، كلما كنا نذهب إلى المدرسة كنا نبحث عن الغراب، ومما يدعو للدهشة أننا كنا نجده دائماً تقريباً. وكنا، بعد المرور عليه لبعض الوقت، نتوجه للقيام بشيء آخر. ومع ذلك، فبعد وقتٍ قصير جداً لم نكن قادرين على الذهاب إلى أي مكانٍ قرب المدرسة بدون رؤية الغراب. فقد كان دائماً في الجوار. وسرعان ما أدركنا أن الغراب كان يلاحقنا.

بدأنا نطعمه، وكنا نقذف بعض الخبز على الأرض، فكان الغراب ينقضّ إلى الأسفل ويأكله ثم يطير مبتعداً. وبالتدريج أصبح يمكث مدة طويلة بما يكفي لنا لنقترب. ومن هناك، انتقلنا إلى إطعامه الخوخ، وأصبح الغراب أكثر ارتياحاً معنا. ووصلنا إلى مرحلةٍ حيث كان باستطاعتنا أن نحمل الخوخة بيدنا ممدودة على الأرض، ولم يكن الغراب ليتردد في أن يطير قريباً ويبدأ الأكل. فلفتنا أنه قد بدأ يصبح كحيوانٍ أليف، وبدأنا نشير إليه بتلك الطريقة. وأصبحنا، باستعارتنا كاميرا أمي، قادرين حتى على التقاط صورٍ قريبة له، فكنا نريها للآخرين بفخرٍ عندما تم تظهيرها. وأسمينا الغراب "بلاكي". وكنا نردّد قائلين: بلاكي رائع. بلاكي ظريف. بلاكي، كما اكتشفنا في نهاية المطاف، كان وحشاً.

رغم اهتمامنا بالطائر، اكتشفنا أنه قد ازداد اهتماماً بنا أكثر بكثير وبالتحديد بشعرنا. فلأن شعرنا كان أشقر، كان يلمع في ضوء الشمس، وقد توصلنا إلى أن نفهم أن الغربان تحبّ الأشياء اللامعة. كما أن الغربان أيضاً تبني أعشاشاً. فإذا فكرت بالأمرين معاً، يمكنك أن تتخيّل ماذا حدث بعد ذلك.

كنا في المدرسة عصر أحد الأيام عندما جاء بلاكي فجأة يسرع باتجاهنا، وانقضّ نحو رأسينا مثل طائرة مقاتلة تهاجم سفينة. وكان ينعق علينا، فاندفعنا بعيداً. فتبعنا بلاكي. وقد بدا طول جناحيه

وكأنه قد ازداد بسرعةٍ كبيرة بين ليلة وضحاها، وأصبحنا على الفور نجري ونصرخ لإنقاذ حياتنا بينما كان بلاكي ينعق فوق رأسينا. واختبأنا لفترةٍ قرب بعض حاويات القمامة محاولين أن نعرف كيف سنعود إلى البيت، وأخيراً غامرنا بالخروج مجدداً. وعندما أصبح الساحل خالياً انطلقنا نجري.

كان اللحاق بميكا أمراً مستحيلاً، فتباطأت سرعتي تدريجياً. وفي تلك اللحظة، انقضّ بلاكي إلى الأسفل وحطّ على رأسي، الأمر الذي كان ببساطة هو الأكثر رعباً مما قد يحدث لي في طفولتي. ففزعت، ولم أعد قادراً على التنفس ولا قادراً على تحريك عضلة من عضلاتي، واستطعت أن أشعر بمخالب بلاكي تنشب في رأسي. وكأن الأمر لتضخيم الرعب، بدأ بلاكي ينقر وكان رأسه يهتز إلى الأعلى والأسفل كمضخات البترول في أوكلاهوما. فصرخت فنقر بلاكي بقوة أكبر. وجرى الأمر على النحو التالي: نقرة، صراخ، نقرة، صراخ، نقرة، صراخ، نقرة، صراخ. وشعرت أن الغراب كان يفعل ما في وسعه ليحفر حفرة في جمجمتي ليمتص دماغي خارجاً.

أتذكر بشكلٍ غير واضح أخي وهو يتراجع إلى الوراء من مسافة بعيدة - إذ كان غافلاً عن عودة بلاكي - حتى الصرخة الأولى. واستدار ميكا وعاد راكضاً باتجاهي وهو يصرخ عليّ أن أدفع الطائر بعيداً. غير أن عقلي كان خالياً، وكنت متسمراً في مكاني. وكل ما كان باستطاعتي فعله هو الوقوف هناك بينما كان بلاكي يقتلني بنقرة واحدة في كل مرة.

كان ميكا بالطبع يعرف ما يفعل. فاستطاع بالصراخ والتلويح بيديه باهتياج أن يطرد الطير الشيطاني الشرير عن فروة رأسي. وبعدها فيما استمرّ بلاكي بالانقضاض علينا، خلع ميكا قميصه ولوّح به بشكل دائري كالراية. وأخيراً تراجع بلاكي إلى وضعٍ آمن بين الأشجار.

وفي طريقنا إلى البيت، كنت محرجاً من مدى خوفي. إذ لم يكن ميكا خائفاً. لقد هاجم ميكا بلاكي بينما فزعت أنا، وقاتل ميكا بينما تسمرت أنا في مكاني، فتوصلت إلى الاعتقاد أن ميكا على عكسي كان باستطاعته أن يفعل أي شيء. وبينما كنت أجهد لألحق به، أردت أكثر من أي شيءٍ آخر أن أكون مثله تماماً.

الفصل الثالث

بعد حجز أماكننا وتأكيدها للرحلة حول العالم، بدأت وميكا بإجراء التحضيرات الضرورية. فبالإضافة لأشياءٍ أخرى، كنا بحاجةٍ لأخذ عدد من اللقاحات بما فيها الحمى الصفراء والتهاب الكبد "أ" و"ب"، بالإضافة إلى إرسال جوازي سفرنا من أجل الحصول على تأشيراتٍ للهند وإثيوبيا وكمبوديا.

عندما تحول الطقس من الربيع إلى الصيف، تحدّثت وأخي عن الرحلة بتكرار أكثر، ولكن بشكلٍ غريب، كلما تحدثنا أكثر كانت استجابتنا للمغامرة القادمة تتباين. فرغم أن ميكا ازداد إثارة حيالَ الأماكن التي كنا سنراها، ازددت أنا قلقاً حيال فكرة الرحيل. فعندما كان يتصل راغباً بالحديث عن الرحلة كنت أجد نفسي أتجنب الموضوع.

سمّه ندم الشاري، ولكنني بدأت تدريجياً أشعر وكأن القرار بالذهاب كان خطأً. وبالرغم من كون الفكرة مثيرة، وبالرغم من أنني كنت أريد أن أزورَ كل تلك الأماكن، لم أستطع أن أتخيّل استغراق أسابيع للقيام بذلك. بين العمل والأسرة، كان الوقت هو الشيء الوحيد الذي لم أحصل على كفايةٍ منه لمدة تبدو وكأنها دهور. وإذا كانت حياتي المنزلية فوضوية، فقد كانت مهنتي حتى أكثر انشغالاً ولم تزد فكرة السفر للمتعة قلقي وحسب، ولكن تركتني أشعر أن الذنب يستحوذ عليّ. فإذا كان لدي شهر فائض، ألا ينبغي عليّ قضاء الوقت مع الأطفال؟ أو مع زوجتي؟ وإذا كان بالكاد لدي الوقت للقيام بأي شيء الآن، كيف بحق السماء باستطاعتي حتى أن أفكّر في اقتطاع شهرٍ أسافر فيه للمتعة.

كنت أشعر أن كل شيء يتعلق بالرحلة كان خطأً. ولكن في ذلك الوقت، إذا كنت تعرف أين كنت في العام 2002 فستفهم لماذا.

أحبّ أن أفكر في الحياة بمصطلحات مثل التيارات، والمنحدرات، والشلال. فهناك فترات في حياة كلٍّ منا عندما تبدو الأشياء تماماً وكأنها تجري برفق، إنك في قاربك تجذّف على مهل وتستمتع بالمنظر. كل يوم ينساب إلى اليوم التالي، وكل شيء يتمّ عمله، ونوعاً ما يبدو أنه ما يزال هناك وقت للاسترخاء. وعندها، حتى ببطء شديد، يبدأ التيار بالتحرك بسرعة أكبر، وما يزال من الممكن تدبّر كل شيء إلا أنه يتطلب مجهوداً أكبر بقليل. وبعد ذلك، تأتي المنحدرات، وفجأةً يصبح كل شيء أكثر تحدياً. فربما يكون هناك مشروع جديد في العمل، وربما يمرض أحد ما في العائلة، وربما تتحرك أو تسرّح من العمل. ومهما يكن السبب فإنك تقضي تلك الفترات وأنت توجّه القارب وتكافح لتبقى عائماً. فتستيقظ في الصباح وأنت تشعر مسبقاً أنك متأخر، ويصبح كل يوم سباقاً مهتاجاً ضد الوقت لكي تنفّذ كل شيء. وبعدها تبدأ المنحدرات بالتحرك حتى بسرعة أكبر وأنت تمضي معها تماماً. "عليك ذلك"، "تحتاج لأن تفعل ذلك"، "ليس لديك خيار آخر". فتمضي وتمضي وتمضي. ثم من على بعد، تسمع هدير الشلال، فتقنع نفسك بأن خيارك الوحيد هو أن تجذف بقوة أكبر، وأنه عليك أن توجه الدفة عبر تلك المنحدرات لتصل نوعاً ما إلى الأمان. وإلا فإن الشلال سيجرفك.

هنا كنت خلال العام 2002: في وسط المنحدرات، وأنا أوجِّهُ الدفة باهتياج، بينما يصبح صوت الشلال أعلى. لقد كنت هناك عقلياً وجسدياً وعاطفياً مدة السنوات الثلاث الماضية.

إنني لست فخوراً بهذا، فهو ليس دليلاً على النجاح. بل هو حياة بدون أي نوع من التوازن. فعلى المدى الطويل، سيأخذك الشلال في نهاية المطاف. وأنا أعرف ذلك الآن. ولكنّ المشكلة كانت أنني لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت.

مع ذلك، فقد فهمت زوجتي هذا الأمر. إذ إن كاثي واحدة من أولئك الناس القلائل الذين يجدون

من السهل أن يحافظوا على الأمور في منظورها. فهي ليست أماَ يقظة وحسب وإنما لديها العشرات من الأصدقاء الذين تتحدث إليهم بانتظام. وهي قريبة من عائلتها. ومع ذلك، ورغم انشغالها بخمسة أطفال ثلاثة منهم تحت سن الثانية من شأنهم أن يبقوا أي أم منشغلة، فقد كانت تقضي أيامها بدون أيٍّ من العجلة المتوترة التي لم يكن يبدو عليّ أنني أستطيع أن أتجنبها. لقد كانت تعرف أيضاً أكثر من أيٍّ كان أنني كنت بحاجة لمهرب، وكانت تعرف أيضاً أن ميلي الطبيعي كان أن أنكر أنني بحاجة لمهرب وأن أفكر فجأة في عذر لعدم الذهاب في الرحلة، أو ربما أسوأ من هذا، أن أرفض الاستمتاع بها والاسترخاء حتى لو فعلت ذلك.

بينما كانت مستلقيةً في السرير في إحدى الليالي، سألتني عن الرحلة، فتمتمت مجدداً أنني قد أغيّر رأيي.

فاستدارت وواجهتني. وحثّتني قائلة: "ستستمتع بوقتك. إنك بحاجة للذهاب إذ إنك لم تفعل شيئاً كهذا من قبل".

"أعلم ذلك، ولكنه فعلاً ليس وقتاً مناسباً".

"إذاً فلن يكون هناك أبداً وقت مناسب للذهاب. لأنك ستكون دائماً مشغولاً، فهذا جزء من طبيعتك".

"كلا، ليس الأمر كذلك".

"إنه بالطبع كذلك. في الواقع، أنت لا تدع نفسك أبداً غير مشغول".

"منذ العامين المنصرمين فقط".

فهزّت كاثي رأسها قائلة: "كلا، يا عزيزي. لقد كنت مشغولاً منذ عرفتك. إذ لا يمكنك ألا تكون مشغولاً".

"أحقاً ذلك؟"

"حقاً".

فكّرت بذلك. وقلت: "طوال العامين التاليين سأكون مشغولاً حقاً، ولكن بعد ذلك، سأبطئ من سرعتي. وفي غضون عامين، إنني متأكد من أنه سيكون لدي الوقت لأمر كهذا".

"لقد قلت الأمر نفسه منذ عامين".

"أحقاً فعلت؟"

"نعم".

فتوقفت، ثم قلت "أعتقد أنني كنت مخطئاً حينئذٍ، ولكنني واثق من أنني محقّ هذه المرة".

فسمعت زوجتي بجانبي تتنهد.

بالرغم من كلماتها، لم تزدد مشاعري بالقلق حيال الرحلة إلا قوةً باقتراب فصل الخريف. وأحسّ أخي، مثل زوجتي، بترددي على الهاتف، وبدأ يتصل بي مراتٍ أكثر وهو يفعل ما بوسعه ليدعم اهتمامي.

قال ميكا من خلال السماعة: "مرحباً، يا نكي. هل استلمت الطرد البريدي الذي أرسله لنا المكتب السياحي؟"

كان المكتب السياحي هو الشركة المسؤولة عن الرحلة. وقد كنت عند طاولة عملي في غرفة المكتب وأنا أعمل على روايتي الجديدة "الوصي". وكان هناك صندوقان كبيران مستّفان في الزاوية ولا يزالان مختومين، وقد بقيا لم يلمسهما أحد لمدة أسبوعين.

"نعم، لقد استلمتهما، ولكنني لم أفتحهما بعد".

"لم لا؟"

"لم يُتح لي الوقت".

فقال: "حسناً، افتحهما. فقد أرسلوا لنا مجموعة من الأغراض اللطيفة. وأرسلوا لنا سترة، وحقيبة ظهرية، وحقيبة سفر، وبعض الأدوات أيضاً. وهناك أيضاً خط الرحلة...".

"سأبدأ بذلك في نهاية هذا الأسبوع".

فأصرّ قائلاً: "يجب أن تفتحهما الآن. في الواقع، أعتقد أنه كان من المفترض أن تكون قد سبق وأرسلت واحدة من الاستمارات الصحية. ويفترض بك أن تتخذ قراراً حول أي موقع تريد أن تراه في غواتيمالا. فهو إما الآثار أو السوق في مركز المدينة. وعليك أن ترسل ذلك بحلول نهاية الأسبوع".

فأغمضت عينيّ وأنا أشعر بالقلق لأن شيئاً آخر قد أضيف للتوّ إلى واجباتي.

قلت: "حسناً، سأبدأ بذلك الليلة إذا سنحت لي الفرصة". فكان هناك صمت طويل على الطرف الآخر من الهاتف.

سأل: "ما خطبك؟"

فأجبت: "لا شيء".

"لا يبدو عليك أنك تشعر بالكثير من الإثارة حيال هذا".

"سأكون كذلك. أعني عندما يحين وقت الذهاب. ولكن حالياً لدي الكثير من العمل الذي لم يتح لي الوقت لأفكر بهذا الأمر كثيراً. وسأشعر بإثارة أكبر كلما اقتربنا من الموعد أكثر. أما حالياً فأنا غارق في العمل".

فتنفس عميقاً، وقال: "إنك ترتكب خطأً".

"ماذا تعني؟"

فسأل: "ألم تتعلم بعد؟ إن الترقب هو جزء أساسي من هذه الرحلة برمتها، وإثارة الذهاب، والأماكن التي سنراها، والأشخاص الذين سنلتقي بهم ستشكل جزءاً من متعة هذا الأمر برمته".

"أعلم هذا، ولكن...".

فقاطعني قائلاً: "إنك لا تصغي إلي، يا أخي الصغير. لا تنسَ أبداً أن الترقب هو جزء هام من الحياة. فالعمل مهم والعائلة مهمة، ولكنك بدون إثارة لا تحظى بشيء. إنك تخدع نفسك إن رفضت أن تستمتع بما هو آتٍ".

أغمضت عينيّ وأنا أعلم أنه محق، غير أنني كنت ما أزال ضائعاً في كل ما كان عليّ أن أفعله.

"الأمر كله وحسب أنني الآن لدي أولويات مختلفة".

فقال بصوت ثابت: "هذا جزء من مشكلتك، إذ لطالما كانت لديك أولويات مختلفة".

* * *

في حين أصبح الطرد مظهراً منتظماً من حياة ميكا المدرسية المبكرة، فإنني وجدت نفسي أحب المدرسة. إذ كان كل شيء يتعلق بسنتي الأولى سهلاً؛ فقد كان معلمي ودوداً وكان الأطفال لطفاء، ولم يبدُ أي شيء مما كنا نتعلمه صعباً. ومع ذلك فإن ميكا، ولأنه أكبر سناً بعام، كان رغم ذلك أكثر تقدماً مني في معظم المواد. أو هذا ما كنت أعتقده.

لقد جعلنا أبوانا ننضم إلى منظمة أشبال الكشافة، وكان أحد مشاريعنا هو أن نصنع صاروخاً خشبياً يفعّل بخرطوش ثاني أوكسيد الكربون ويثبّت في مكانه بسلك. وقد استعملناه لاحقاً في سباق ضد صواريخ صنعها أعضاء آخرون في منظمة الكشافة، فكنت أمشي وميكا مسافة الميلين إلى قاعة التسلية وكلانا متوتران لا ندري كيف سيبلي صاروخنا. وقد خسر صاروخي في الجولة الأولى. ومع ذلك، فقد فاز صاروخ ميكا واستمر بالفوز. وفي النهاية، انتهى صاروخ ميكا فائزاً بالمرتبة الثانية، وقد كنت فخوراً به وغيوراً منه في آن معاً. كانت تلك المرة الأولى التي اختبرت فيها شعور الغيرة من أخي ولم يزدد الشعور قوة إلا عندما تلقى شريطاً أحمر وسط الاستحسان. فأدركت أنه لم يكن يستطيع أن يفعل كل شيء وحسب، ولكنه كان يفعل كل شيء أفضل مني. في تلك الأثناء، سرعان ما جعلني الشريط الذي تلقيته، والذي كان قد أعطي لجميع من لم يفوزوا مثلي، أشعر حتى بشعور أسوأ. لقد كنت أتعلم لتوي الحروف والأصوات، وكنت أستطيع قراءة الكلمات الصغيرة، ولكنّ الكلمات الطويلة كانت غالباً غير مفهومة. فلم تكن لدي فكرة عما كان الشريط يذكره، إذ كان كل ما أعرفه هو أنه قد منح للأشخاص الذين لم يبلوا حسناً.

مع ذلك، بذلت ما في وسعي لقراءة الشريط. وكانت عليه كلمتان، وكانت الثانية تقول "تقدير"، وقد عرفت ذلك على الفور. ولكن الكلمة الأولى لم تبدُ أنها ذات معنى لذا حاولت أن ألفظها. وقد كانت تبدأ بـ "HO" وفيها "R" في الوسط وتنتهي بـ "BLE". وبدأت شفتاي تشكلان الكلمة عندما شحب وجهي فجأة.

وفكرت: . .

حدّقت في الكلمة محاولاً أن أتعامى عنها، ولكنها كانت هناك تماماً ليراها الجميع.

بدأت الدنيا تدور بينما اتضحت لي الحقيقة. وفكرت أنها بالطبع ذات معنى. وشعرت بمعدتي تنقلب وأردت أن أبكي. ومن بعد، استطعت أن أرى أخي وهو يتباهى بفخر بصاروخه وشريطه، ويقف بين الأشخاص الذين أبلوا بلاء عظيماً. أما في تلك الأثناء، فالأشخاص أمثالي قد فعلوا بالضبط ما يذكره الشريط: عمل رهيب. لقد أعطوني شريطاً يقول " ".

لا أتذكر المغادرة، ولكنني أتذكر المشي إلى البيت. وقد علم ميكا أنني كنت منزعجاً ولكنني كنت أستمر بهزّ رأسي عندما كان يسألني لماذا. وأخيراً عندما أصبحت المشاعر غامرة فوق الحدّ دفعت الشريط باتجاهه.

وصحت قائلاً: "انظر. كان أدائي رهيباً. هذا ما يذكره الشريط".

"لا يذكر شريطك هذا".

"انظر إليه".

فحدّق في الكلمة محاولاً لفظها كما فعلت أنا، ثم نظر ببطء إلي كما لو كان على وشك البكاء أيضاً. وتمتم قائلاً: "هذا ليس لطيفاً جداً".

آه... كلا... لقد كنت محقاً. وأدركت أنني كنت أتمسك ببصيص أمل بأنني نوعاً ما قد قرأتها بشكل خاطئ، وأنني قد ارتكبت خطأً. ولكنني لم أفعل، وشعرت بأن السد الذي يحجز مشاعري قد بدأ ينفجر.

فقلت وأنا أنتحب: "لقد حاولت ما بوسعي... حاولت فعلاً..." وبدأت أبكي دفعة واحدة. وارتجفت كتفاي بعنف، فوضع ميكا ذراعيه حولي وهو يجذبني قريباً منه.

"أعلم ذلك. ولم يكن صاروخك رهيباً".

"لكنهم قالوا إنه كان كذلك".

"من يأبه بهم. أعتقد أن صاروخك كان واحداً من أفضلها".

"كلا، إنك لا تفعل".

"نعم، أفعل ذلك. وقد قمت بعملٍ عظيم معه. وأنا فخور بصاروخك. ولن أعود إلى منظمة أشبال الكشافة مرة أخرى. إذا كانوا سيفعلون شيئاً كذلك الشيء".

لا أعلم إن كانت كلماته قد جعلتني أشعر بحالٍ أفضل أو أسوأ، فكل ما كنت أعرفه هو أنني كنت بحاجة إليه.

بحلول ذلك الوقت، أردت أن أنسى كل شيءٍ عن الأمر، ولكن ميكا لم يكن ليدعه وشأنه. فاستمر يتمتم بعدم تصديق: "لا أصدق أنهم قالوا إنك رهيب". وفي كل مرة كان يقولها كانت كتفاي تهبطان أكثر.

عندما وصلنا إلى البيت أخيراً وجدنا أمي تطهو في المطبخ. واستدارت نحونا.

"مرحباً، يا شباب. كيف أبليتما؟"

لفترة طويلة من الزمن لم يجب أحدنا. وعرض ميكا شريطه وهو يحمله منخفضاً وكأنه محرج تقريباً. وقال: "لقد فزت بالمركز الثاني".

فأخذت أمي شريطه ورفعته عالياً: "تهانينا! المركز الثاني، أليس كذلك؟"

فقال: "كدت أفوز".

"حسناً، المركز الثاني عظيم. كيف أبليت، يا نك؟"

فهززت كتفيّ دون أن أجيب محاولاً أن أكبت دموعي. فرقّ وجهها، وقالت: "ألم تحصل على شريط؟"

فأومأت برأسي.

"حصلت على شريط؟"

فأومأت مجدداً قائلاً: "إنه ليس مهماً، رغم ذلك".

"بالطبع هو مهم، أيمكنني رؤيته؟"

فهززت رأسي.

"لم لا، يا حبيبي".

فأجبت أخيراً، وقد بدأت أنهار: "لأنه يذكر أنني عملت عملاً رهيباً". وبدأت الدموع تسيل فعصرت عيني بقوة لأمنعها.

فقالت أمي: "إنه لا يذكر هذا".

فقال ميكا: "آه، بلى، إنه يذكر أنه عمل عملاً رهيباً".

وبدأت أبكي حتى أكثر، فوضعت أمي ذراعيها حولي.

"هل يمكنني أن أراه؟"

ربما كان ذلك الأمان الذي شعرت به في ذراعي أمي، لكنني أخيراً استجمعت شجاعتي لأمدّ يدي إلى جيبي وأسحب الشريط المجعّد. فنظرت أمي نظرة خاطفة إليه للحظة قبل أن تستخدم إصبعها لترفع ذقني نحوها.

وقالت: "إنه لا يقول "رهيب"، بل يقول "مشرّف" وهذا أمر جيد يا حبيبي. إنه يذكر أنهم فخورون بالعمل الذي قمت به. فقد قمت بعمل مشرّف".

في البداية، لم أكن واثقاً من أنني سمعتها بشكل صحيح. وبعد لحظة عندما لفظت الكلمة لي، شعرت حتى بحال أفضل بقليل. ورغم ذلك كنت جزئياً أتمنى لو أنني لم أتلقَّ شريطاً على الإطلاق.

* * *

في العام 1971، هزت سلسلة من الزلازل لوس أنجلوس. فضرب الأول في منتصف الليل، وأتذكر أنني استيقظت وأنا أشعر بالسرير يهتزّ بعنف وكأن أحداً ما كان يحاول أن يقذفني من عليه.

استيقظت دانا في نفس الوقت تقريباً وبدأت تصرخ. وكان بإمكاني أن أسمع صوت الجدران وهي تفرقع وتتصدع وأن أرى بعض الدمى وهي تسقط. كانت الأرض تهتز، وهي تبدو كالسائل تقريباً. ورغم أنني لم أكن أعلم ما كان يحدث فقد علمت أنه لم يكن أمراً وشككت بأننا في خطر. فهم ميكا هذا أيضاً فقفز من سريره ليمسك بي وبأختي. كان يسحبنا إلى وسط الغرفة لنتجمّع، عندما جاء أبي مندفعاً عبر غرفة نومنا. كان عارياً تماماً وهائجاً. لم يكن أحد منا قد رآه عارياً من قبل، فكانت رؤيته واقفاً عند المدخل نوعاً ما أكثر ترويعاً مما كان يحدث حولنا. كانت أمي خلفه تماماً، وعلى عكسه كانت ترتدي عباءة. قاما وهما مندفعان داخل الغرفة، بتطويقنا وإجبارنا على الجلوس على الأرض مكدسيننا معاً. ثم استلقيا معاً فوقنا في محاولة لحمايتنا من الحطام المتساقط.

استمرت الأرض بالفرقعة، واستمرت الجدران بالتمايل، ولكن كان هناك شيء مهدئ حيال كوننا مكدّسين معاً كعائلة. ورغم كون الأمر مخيفاً، أتذكر شعوري فجأة أننا سنكون على ما يرام، وأن هذه الدلالة الواضحة على الحب والاهتمام الأبوي كانت بطريقةٍ ما كافية لحمايتنا. لم أدرك كم كان الأمر سيئاً حتى رأيت الخراب على التلفزيون. إذ في كافة أرجاء المدينة، كانت المباني منهارة وكانت الطرقات الخارجية منبعجة. وقد سجّل مقياس ريختر الزلزال بمقدار 7.2 مما جعله أضخم الزلازل التي تم قياسها في المنطقة على الإطلاق.

بالنسبة لي ولأخي، كان الزلزال يتطلّب أن نفحص الخراب بأنفسنا. فقضينا الأيام القليلة القادمة ونحن نحقق ونفتش مثل ممثلي وكالة الكوارث الاتحادية. ربما كانت تلك طريقتنا لمحاولة إخراج الخوف من أبداننا، وكان يبدو أن ذلك ينجح خلال النهار. أما في الليل، فعلى الرغم من ذلك كنا نستلقي في السرير ونحن نعاني من مشاكل في الاستغراق في النوم ونعاني من الكوابيس.

لقد استمرت الهزات الارتدادية لأيام بعد الزلزال الكبير الأول. ففي البداية، استمرّ والداي يندفعان إلى غرفتنا كما فعلا في ليلة الزلزال الأول. ولكن باستمرار الهزات الارتدادية، أصبحت ردود فعلهما تزداد بطئاً حتى توقفا أخيراً عن النهوض لتفقدنا على الإطلاق. وبعد ذلك، كنا نندفع ثلاثتنا إلى

.

في وسط هزة ارتدادية أخرى، اندفعنا نحن الأطفال إلى غرفتهما وأطلقنا أنفسنا جوًّا من آخر السرير، وسمعنا صوت خروج الهواء من رئتي والديّ حالما هبطنا عليهما. وكان والدي، وهو منزعج بشكل واضح من هذا النوع من الأمور الذي يوقظه في منتصف الليل، قد سمع رجاء أمي

قائلة: "افعل شيئاً يا مايك!" فقرر أن يضع حداً نهائياً له. فنهض من السرير - وهو عارٍ مجدداً، ولكن بحلول ذلك الوقت كنا قد اعتدنا على ذلك - وأدى فجأةً ما يشبه رقصة مطر هندية في وسط غرفة النوم. وأصبح يدور في دوائر وهو يلوّح بيديه وينشد: "
". وفي اللحظة التي توقف فيها عن الدوران والإنشاد توقفت الأرض فجأةً عن الاهتزاز.

كان كل ما أمكننا فعله هو التحديق به. فقد كنا ممتلئين رعباً عندما زحف عائداً إلى السرير وطردنا من الغرفة.

لا أعتقد أنني بحاجة لأشرح أهمية حادثة كهذه لعقول صغارٍ مثلنا، فبعد أن زحفنا تحت الأغطية في أسرّتنا فهمت وأخي تماماً ما معنى هذا. صدفة؟ لا أعتقد ذلك.

وكما شرح ميكا بوقار: "والدنا لديه قوىً سحرية".

لقد جعلنا هذا بالطبع ننظر إلى والدنا في نظرة مختلفة كلياً. نظرة جديدة ومثيرة. لا بد أن أقول إنني عندما عدت إلى المدرسة لم أكن كتوماً في مشاركة هذه المعلومات مع الآخرين في صفي، فهم أيضاً كانوا مندهشين.

بالإضافة لإيقاف الزلازل، كان والدي قادراً أيضاً على إيقاف المطر عن الهطول. ليس طوال الوقت، ولكن عندما يقود السيارة ولبرهةٍ وجيزة فقط. ولم يكن مهماً كم كان المطر ينهمر قوياً، ولكن حالماً كنا نندفع بسرعة نزولاً في الطريق الخارجي كان أبي يلقي نظرة خاطفة من فوق كتفه ويسألنا أحياناً إن كنا مستعدين لتوقف المطر. فإذا قلنا نعم كان يقول لنا أن نغلق أعيننا ويذكّرنا بألا نسترق النظر، وعندها في اللحظة التي كان يقول فيها "توقف"،
وكان الهدوء يخيم لثانية تقريباً - ويصبح الهدير على السقف صامتاً كلياً - وعندها فجأة تماماً كنا نسمع المطر يقرع مجدداً. وكما كان يشرح قائلاً: "يتطلب الأمر الكثير من الطاقة لإيقاف المطر؛ ولا أستطيع أن أمنعه طويلاً".

لم أكن ألاحظ حتى مرت عدة سنوات أن أبي كان يبدو عليه امتلاك تلك القدرات فقط عندما كنا نقترب من معبرٍ فوق الطريق الخارجي.

في العام 1972، بدأت الأمور تتغير في عائلتنا. إذ مع دخول أختي الحضانة بدأت أمي تعمل، لذا وجدنا أنفسنا وحدنا بعد المدرسة. وكانت لدينا جارة أكبر سناً كان يفترض بها أن تزورنا زيارة قصيرة، ولكنها نادراً ما كانت تفعل. عوضاً عن ذلك، كنا نتوجه إلى شقتها ونخبرها أننا في البيت ثم نتجاهلها لبقية فترة العصر. وقد ناسبها ذلك تماماً. فقد كانت من نوع جليسات الأطفال اللواتي يتصرفن على نحو: "الاتصال فقط في حال الطوارئ الملحة خشية أن تفوتني المسلسلات". وفوق ذلك، كنا نقضي فترة العصر بمفردنا لفتراتٍ طويلة حتى لم نعد في ذلك الوقت بحاجة فعلاً لأحد يراقبنا.

مما لا يدعو للمفاجأة، كنت وأخي نعاني من عدد كبير جداً من الإصابات في سنواتنا المبكرة. وكنت قد سبق وتعرضت لجرح في رأسي بحجر رماه مراهق (الأمر الذي لم يستلزم الشرطة وحسب ولكن زيارة من والدي إلى المراهق المذكور حيث هدد المراهق بأذى جسدي بالغ إذا حدث الأمر مجدداً). وقد فقدت بعض الأسنان وأنا أتعلم كيفية ركوب الدراجة، ولويت كلا من معصمي وكاحلي، وكدت أقطع أحد أصابعي بقطعة من الزجاج المكسور. وقد تعرض أخي لنفس النوع من الإصابات، ولكنها فقط كانت أكثر تكراراً وخطورة.

مع ذلك، فباستثناء اللقاحات المطلوبة، كنا نحن الأطفال نادراً ما نؤخذ لرؤية الأطباء أو أطباء الأسنان. وأعني بكلمة نادراً "ربما مرة في العمر، وفقط عندما يكون هناك احتمال كبير بأننا قد

". وقد كنت في الثامنة عشرة عندما وطأت قدمي عيادة طبيب الأسنان لأول مرة. كنت أتساءل أحياناً كم من الدم عليّ أن أفقد فعلاً قبل أن ينهار والداي ويأخذانني إلى عيادة. لم تكن لديهما أسباب دينية لتجنب العناية الطبية، ولكنهما ببساطة كانا يعتقدان أن التماس العناية الطبية لن يكون إضاعة للوقت وحسب، وإنما أكثر كلفة مما يستطيعان تحمله مادياً. إضافة إلى ضرورة التقشف، كان الأطباء الوحيدون الذين كنا نراهم أنا وأخي في التلفزيون. فعلى سبيل المثال، أتذكر أنني عندما تعرضت للضرب بالحجر، اندفع الدم على وجهي بكل معنى الكلمة. ولم أستطع الرؤية بشكل جيد، وكنت بالكاد قادراً على المشي مترنحاً إلى البيت.

فقالت أمي بعد أن ألقت نظرة عليه: "ستكون بخير غداً، إذ لديك جمجمة سميكة".

لحسن الحظ، كانت لدي فعلاً جمجمة سميكة فتمكنت من الشفاء وحدي.

مع ذلك، في وقت قريب من ذلك، تكشّف لدى أختي مرض التهاب الفلكة، وهو التهاب في اللهاة يحتمل أن يكون مميتاً. لم أعرف أنا ولا ميكا تماماً ما كان خطب أختي ذلك الصباح، فكل ما أعرفه هو أن أختي كانت تلتهب بالحرارة وكانت شاحبة وتهذي وكانت تتقيأ طوال الليل. لكنّ والديّ، اللذين كانا يعرفان ما تكون الحالة الطارئة عندما يشاهدانها، أسرعا بها إلى المستشفى. ولسوء الحظ، بدون تأمين صحي، طلب المستشفى تأميناً بقيمة 200 دولار. وبعد أن أنزل والدي العائلة من السيارة، أسرع بحثاً عن أحدٍ يقرضه المال.

ذهبت أمي مع أختي إلى المستشفى، وأخبرتني وأخي أن ننتظر قرب إحدى الأشجار عند حافة موقف السيارات. "لا تذهبا أبعد من هنا وهناك وهناك". قالت ذلك وهي تشير بيدها، راسمةً مربعاً افتراضياً مساحته حوالى 12 قدماً مربعاً. وحتى ونحن في ذلك السن ميّزنا الخوف في صوتها، فكنا نفهم بما فيه الكفاية لنفعل بالضبط كما قالت.

كان الجو حاراً ذلك اليوم، ربما بحدود مائة درجة فهرنهايت. وقد تركنا بدون طعام ولا ماء. ولكي نتناسى الحرارة، قضينا الساعات القليلة التالية ونحن نتسلق الشجرة أو نمشي فقط داخل خطوط المربع الافتراضي. واخترعنا لعبة الاقتراب من الخطوط الافتراضية بدون أن ندوس عليها. وفي أحد الأماكن، تعثرت ووقعت على الخط. وأتذكر أنني وقفت بسرعة. ولكن فكرة أنني عصيت أمي مترافقةً مع التوتر الذي كنا فيه جعلتني أذرف الدموع. فكان أخي، كما هو دائماً في مواقف كهذه، موجوداً ليواسيني. وبذراعيه حولي، جلسنا في الظل لمدة بدت لنا ساعاتٍ لا نهاية لها.

وسألت في نهاية المطاف: "هل تعتقد أن دانا ستموت؟"

فقال: "كلا".

"ما خطبُها؟"

"لا أدري".

"إذاً كيف تعرف أنها لن تموت؟"

"لأنها لن تفعل ذلك. إنني أعرف ذلك وحسب".

فنظرت نظرة خاطفة إليه قائلاً: "بدت أمي خائفة وكذلك أبي".

فأومأ برأسه.

وقلت: "لا أريدها أن تموت".

كانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها بأمر كهذا، وقد أخافني. إذ لم يكن لدينا الكثير كعائلة، ولكن

كان لدينا بعضنا البعض. وحتى رغم أنها كانت أصغر سناً ولم تستكشف مثلي ومثل أخي، فقد سبق واتخذت أفضل جوانب شخصية أمي. إذ كانت تتمتع بمزاج مرح دائم، فقد كانت تضحك وتبتسم، وكانت - في تلك الأيام عندما لا أكون ألاحق أخي - أفضلَ صديقّة لي. كانت مثلي تحب مجموعة "جوني ويست" وكنا نلعب بها معاً لساعات ليلاً.

كنت وأخي منظراً حزيناً ومثيراً للفضول في موقف السيارات. وكان الغرباء يروننا فيما كانوا يخرجون من السيارات وهم في طريقهم لزيارة أحدٍ ما في الداخل، وبعدها بساعات عندما كانوا يخرجون عائدين، كنا لا نزال جالسين في نفس المكان. وقد عرض بعض الناس أن يشتروا لنا المياه الغازية أو شيئاً لنأكله، ولكننا كنا نهزّ رأسينا ونقول إننا بخير. فقد كنا قد تعلمنا ألا نأخذ شيئاً أبداً من الغرباء.

في وقتٍ متأخر من فترة العصر، وبينما كان أخي يتسلق إحدى الأشجار وقع على الرصيف مستقراً على معصمه وصرخ، وحالما رفع معصمه إليّ رأيت أنه قد بدأ يتورم ويتحول تدريجياً إلى اللون الأزرق المسودّ. فتساءلت بصوتٍ مرتفع عمّا إذا كان مكسوراً. وتساءلنا إن كان علينا أن نعصي أمي ونتوجه إلى داخل المستشفى لنخبرها عنه، وفيما إذا كان بحاجة إلى جبيرة.

رغم ذلك، لم نتحرك. إذ لم نستطع ذلك. وفي النهاية، شفيت أختي وعرفنا أن معصم ميكا كان ملتوياً وليس مكسوراً، ولكننا في ذلك الوقت لم نكن نعرف شيئاً. وعوضاً عن ذلك، جلسنا معاً والخوف يملأ قلبينا، نحن الاثنان وحسب ونحن لا نقول شيئاً لبعضنا البعض بقية فترة العصر.

الفصل الرابع

بعد الاستماع إلى تحذير ميكا حول خداعي لنفسي حيال الإثارة التي تتعلّق بالرحلة حول العالم، أغلقت سماعة الهاتف مفكراً بما قاله، وبما كانت كاثي تقوله، وبما كان وكيلي يقوله، وبما كان الجميع في الواقع يقولونه عن الرحلة كلما كنت أذكرها. ورغم الحجج المنطقية، ورغم حقيقة أن الذهاب كان فكرتي، فكنت ما أزال غير قادر على استجماع أية إثارة تتعلق بالرحلة.

لم يكن الأمر أنني قضيت أيامي تحت غمامة من اليأس والغم. نعم، لقد كنت مشغولاً. ولكنني صراحةً، كنت أجد ارتياحاً هائلاً في كل ما كنت أفعله. وقد كانت زوجتي محقّة، فقد كنت مشغولاً لأنني كنت أحب أن أكون مشغولاً. وكما فكرت متأملاً، فإن المشكلة كانت أن كل طاقاتي كانت مركّزة فقط في ثلاث نواحٍ، هي: الأب والزوج والمؤلف؛ وفي القليل من الوقت لأي شيء آخر. وطالما كانت الأشياء تنطبق داخل هذه العلب الأنيقة الصغيرة، والتي كنت قد بنيتها لنفسي، كنت أشعر أنني مسيطر. ولم أكن أؤدي عملي وحسب، وإنما كنت أنجح. ولأنّ كل شيء كنت أستطيع فعله هو الاستمرار في هذه النواحي الثلاث. فقد كان الخروج من العلب لفعل أشياءٍ جديدة - كالسفر والمغامرة أو قضاء ثلاثة أسابيع مع أخي - لا يبدو مستحيلاً وحسب، ولكنه كان يخيفني كصفقةٍ سأندم عليها. في لحظةٍ من الصفاء النادر في سنة ضبابية من نواحٍ أخرى، أدركت فجأة أنني قد بدأت أصل بهذا الأمر إلى الحدود القصوى.

فإذا لم أعد قادراً حتى على الشعور بالإثارة لفكرة الذهاب في رحلة حول العالم فأيّ نوع من الأشخاص كنت؟ لم أكن واثقاً من هذا. فكل ما كنت أعرفه هو أنني لم أكن أريد البقاء على هذه الحال إلى الأبد. وبطريقة ما، كنت بحاجةٍ لتحقيق توازني مجدداً.

بالطبع، هناك آلاف الكتب والبرامج الحوارية التي تطرح طرقاً لتقوّم بها حياتك، وخبراءٌ من كل نوع يدّعون أن لديهم الإجابات. ومع ذلك، فقد كنت بالغريزة في داخلي أريد أن أكتشف هذه الأمور بمساعدةٍ شخصٍ واحد في حياتي، عاش نفس الأمور التي عشتُها، ألا وهو: أخي.

لقد كان ميكا يعاني من صراعاته الخاصة على مدى السنوات الثلاث الماضية، وبخاصةٍ، فيما يتعلق بإيمانه. لقد تكلمت زوجته كريستين معي عن قلقها حيال هذا عدة مرات - فقد كانت تقيةً في إيمانها مثلما كان ميكا نفسه سابقاً - فبدأت أدرك ببطء وبطريقةٍ ما أنه كانت هناك فرصة أن نتمكن من مساعدة بعضنا البعض. وبتلك الطريقة، لم أعد أفكر في الرحلة على أنها رحلة حول العالم بقدر ما هي رحلة لإعادة اكتشاف هويتي وكيف تطورت شخصيتي حتى أصبحت ما أنا عليه الآن.

عندما كنت أفكر بطفولتي كنت عادة أتذكرها كضوءٍ بدون ظِل، وكأن الجوانب المظلمة لم تكن موجودة أبداً، وإن كانت موجودة، فقد كانت أموراً يجد المرء متعةً بالغة بها كما لو أنها كانت شارات شرف. إذ تحولت الأحداث الخطيرة عبر السنين إلى حكاياتٍ مرحةٍ، وعدّلت اللحظات المؤلمة لتصبح قصصاً عذبة عن البراءة. في الماضي، عندما كنت أسأل عن والديّ كنت أجيب عادة أن والدتي ووالدي كليهما كانا عاديين ونموذجيين في آنٍ معاً، كما كانت طفولتي. ومع ذلك، فقد توصلت مؤخراً إلى أن أدرك أنه رغم كون تعليقاتي صحيحة في بعض النواحي فقد كانت خاطئةً في نواحٍ أخرى. ولم يحدث - حتى أصبح عندي أولاد - أن بدأت أفهم أخيراً الضغوطات اليومية التي لا بدّ وكانت تزعجهما. فالأبوة مشحونة بالقلق. كان والداي بدون شك، بالرغم من الحرية التي كانا يمنحاننا إياها، يقلقان علينا باستمرار. ولكن إذا كانت تربية الأطفال صعبة، فقد تعلمت أن الزواج يكون أحياناً حتى أكثر تحدياً. ولم يكن زواج والديّ استثناءً من هذه الناحية.

في أوائل العام 1972، كان والداي يجهدان نفسيهما ليحافظا على أسرتهما سليمة. وقد كنا أطفالاً

وغير مدركين للتفاصيل، فكل ما كنا نعرفه هو أن والدي بدأ يصفر طوال الوقت. وعندها، بدأ الأمر يتخذ مغزىً منذراً بالشؤم. فكان صوت تلك الألحان التي لا اسم لها ودرجتها التي تعلو وتنخفض، أولى العلامات المحذّرة من غضب والدي، والتي بدأنا نميّزها نحن الأطفال باسم "ديفكون 1" إن رغبت أن تعرف.

في "ديفكون 2" كانت الدمدمة تضاف إلى الصفير. كان أبي يذرع المكان في دوائر رافضاً التكلم مع أحد. كانت "ديفكون 3" تعرف بالرقة الفعلية لشفتيه، وفي "ديفكون 4" يبدأ وجهه بالتحوّل إلى اللون الأحمر. كان أحياناً قادراً على إيقاف التعاقب النهائي باتجاه الهجوم النووي. ولكنه إذا وصل إلى "ديفكون 5"، حيث يلتف لسانه على أسنانه السفلية بحيث إنه من فمه مثبتاً في مكانه بأسنانه العلوية، فإننا نحن الأطفال نعرف أن خيارنا الأفضل هو أحد أمرين: اهرب أو اختبئ. إذ كنا نعلم أنه يحاول الوصول إلى حزامه، والذي حلّ محلّ لطّاشة الذباب كأداة للعقاب.

كانت تلك اللحظات، رغم كونها ما زالت نادرة الحدوث، تزداد تكراراً. وعندما أعود بأفكاري إلى الماضي، لا يمكنني أن ألومه. إذ في العام 1963، كان طالباً شاباً معوزاً حديث الزواج. وبعد ذلك بتسع سنوات، كان لا يزال طالباً معوزاً، ولكن فقط مع المسؤولية المضافة لإعالة عائلة من خمسة أشخاص. وقد أبطأ العمل تعليمه إلى درجةٍ شديدة. فكانت محاولة كتابة أطروحةٍ، بوجودنا ثلاثتنا ونحن نستخدم شقتنا كملعبٍ في الأمسيات، كافيةً لتدفع أيًّا كان إلى الجنون.

من جهة أخرى، فقد استمرت أمي بعشقها لنا بشكلٍ مطلق. فعندما كنا نلحق بها إلى المتجر أو عندما كانت تحضرنا إلى دار العبادة، كانت تسرع في إظهار فخرها لأيّ شخص صدف أن كان قريباً. كانت لديها قدرة خارقة على نسيان كم نكون بغيضين في بعض الأوقات. لكنّ قدرتها على المسامحة كانت ممتزجةً بالصرامة نفسها التي لطالما غرستها فينا. ومهما أصبحنا طائشين، ومهما ابتعدنا في تجوالنا خارج المنزل، لم يكن هناك شكّ أبداً في ذهني أو ذهن أخي من كان بالضبط هو المسؤول. فإذا قالت أمي أن نكون في البيت بحلول موعد العشاء فإننا نكون في البيت. وإذا قالت أن ننظف غرفة نومنا فقد كنا نقوم بذلك على الفور. وإذا حدث وارتكبنا خطأً كانت تتأكدُ من أننا نصححه. كما كانت أيضاً تدافع عنا كالدبة الأم عندما كانت تشعر أن الأمر يستحق ذلك. فعندما صفعت إحدى المعلمات ميكا في المدرسة، ثارت أمي عصر ذلك اليوم، وهي تجرّني وميكا خلفها.

"إذا صفعت ابني مجدداً فإنني سأستدعي الشرطة وأجعلك تعتقلين. لا تلمسي طفلي".

في طريقنا إلى الخارج، تبخترت وميكا كالديكة، ونحن نفكر: "تحمّلي هذا أيتها الوطواطة العجوز. فقد أرتك أمي من هو الزعيم...".

قال ميكا باعتزاز: "إنك الأفضل، يا أمي". فاستدارت أمي ورفعت إصبعاً في وجهه.

"لا تعتقد للحظةٍ أنني لا أعرف لماذا صفعتك، فأنت على الأرجح كنت تستحق ذلك. وإذا أجبتها مرة أخرى بتلك الطريقة سأريك كيف يكون الإحساس بالصفعة الحقيقية".

"حسناً، يا أمي".

"إنك تعرف أنني أحبك، صحيح؟"

"نعم، يا أمي".

"وتعرف أنني دائماً سأدافع عنك، صحيح؟"

"ولكنني لا زلت خائبة الأمل منك، وسوف تعاقب على هذا".

عوقب ميكا، ولكنّ خيبة الأمل كانت مؤلمةً أكثر، إذ كنا نكره أن نخيب أملها.

رغم الضغوطات التي كان والداي يتعرضان لها، فقد أصبح والدي تدريجياً أكثر ارتياحاً معنا عندما أصبحنا أكبر سناً. في بعض الأوقات، كان يدعنا نزحف إلى حضنه وهو يشاهد أفلام الرعب القديمة على التلفزيون - وقد كان بالتأكيد أفلام الرعب - فأصبحنا نعتزّ بتلك اللحظات، وكنا نعلّق الآمال عليها كالمقادير الصغيرة المختارة بعناية. بشكلٍ طبيعي، أصبحنا على قدر جيد من الإطلاع إلى أقصى حدّ بالطرق المناسبة لقتل مصاصي الدماء والمستذئبين في حال واجهت عائلتنا مخلوقاً كهذا. لقد قمت وأخي بنحت مجموعة من الأوتاد من الأعواد الخشبية وأعواد بوظة "بوب سيكل"، واحتفظنا بها تحت سريرنا.

في اللحظات الهادئة الأكثر ندرةً على الإطلاق، اعتاد والدي أن يعزف لنا على الغيتار أيضاً. وقد كان صوته سلساً وواثقاً. في إحدى الأمسيات، فاجأنا بقوله إنه كان في السابق عضواً في إحدى الفرق الموسيقية.

لقد كانت فكرة وجود أبي في إحدى الفرق الموسيقية أمراً مثيراً تقريباً. كان هذا يعني أن أبي لم يكن يملك قوىً سحرية وحسب، ولكنه كان رائعاً. ومن الأمرين، كان هذا ذا أهمية أعظم بالنسبة إلينا. إذ كنا نعلم رغم كل شيءٍ أننا رائعون، وكنا نعتقد أن والدينا كانا كذلك أيضاً. ولكن في ذلك الوقت، كان لدينا على ذلك.

لقد كنا نحبّ أن نتخيّل أبانا وهو يعزف أمام الحشود التي تصرخ، من النوع الذي كنا نراه على التلفزيون عندما كانت فرقة بيتلز تعزف. كنا حتى نجري محادثاتٍ طويلة عن الأمر. ولكن أبي كان يقوم بمجرد الضحك عندما كنا نسأله كيف كان قادراً على ردّ كل تلك الفتيات عنه.

كان يحاول أن يشرح قائلاً: "لم تكن فرقتي تتمتع بشعبيةٍ إلى هذا الحدّ". ولكننا لم نكن نصدقه. فلماذا ينبغي علينا ذلك؟ إذ كانت الحقائق واضحةً رغم كل شيءٍ؟ لقد كان في فرقة، وكان يغني ويعزف كمحترف، واعتاد أن يعيش في إنجلترا. فما الذي يمكن أن يكون أكثر وضوحاً؟ وبعد فترة، أعتقد أننا أقنعنا أنفسنا فعلياً بأنه لم يكن يعرف مغنّي البيتلز بول ماكارتني وجون لينون شخصياً وحسب، ولكنه لعب دوراً لا يستهان به في نجاحهما.

أضف إلى ذلك أنه كان والدنا.

إلى جانب مشاهدة أفلام الأشباح، كان الإصغاء إليه وهو يعزف قد أصبح أكثر نشاط مفضل لدينا معه. عادةً ما نكون نتصرف بحماقة في غرفة المعيشة، فعندما كنا نسمعه يبدأ بدوزنة غيتاره، كانت تلك إشارة لنا لنهدأ، فكنا نتّخذ أماكننا بسرعة عند قدميه.

لم يكن ليستعجل أبداً، فقد كان دائماً يتأكد من أن درجة صوت الغيتار كانت مثالية. ونادراً ما كان يغني على الفور - إذ أعتقد أنه كان خجولاً - ولكنه عوضاً عن ذلك، كان يداعب الأوتار بعدةٍ أغنياتٍ، وينقر بقدمه في نفس الوقت. وكانت أصابعه تتحرك بسرعة مذهلة وكأن ثمة قوىً مجهولة ترشدها وعندما كان ينظر إلينا كان يبتسم وهو يهزّ حاجبيه بين الحين والآخر.

في نهاية المطاف، كان يغني، فكنا نصغي بطربٍ طيلة غنائه. وعندما كان أخيراً يراوغ ليعزف شيئاً لفرقة بيتلز، كنت وأخي وأختي ننظر نظرات العارفين إلى بعضنا البعض، ونحن نتشارك الفكرة نفسها: " ".

ربما استجابةً للتوتر المتزايد في المنزل - بدأ والداي بحلول ذلك الوقت يتجادلان حول كل شيء من المال إلى غياب والدي العاطفي عن حياتنا، وكان الجدال غالباً يدع والدتي تذرف الدموع - فقد بدأت والدتي تأتي إلى غرفتنا في وقت النوم حيث كانت تنام مع كل واحدٍ منا بالتتالي. ورغم أنني لم أكن أفهم الأمر في ذلك الوقت - إذ عندها كان يبدو لي مجرد طريقةٍ أخرى لإظهار حبها لنا - إلا أنني أعتقد الآن أنها كانت تستخدم تلك اللحظات للهروب من توتر زواجها، وإن كان لفترة وجيزة. وفيما

تكون معنا في السرير كانت تسأل كل واحد منا عن كيفية قضاء يومه، فكنا نهمس إجاباتنا مشاركينها بأيّ شيءٍ صدف وكان في بالنا. فكنا نتكلم عن الله أو المدرسة أو الأصدقاء. ورغم أنها كانت تتكلم أحياناً إلا أنها كانت غالباً تقوم بمجرد أن تدعنا نستمر بالثرثرة ونقفز من موضوع إلى التالي. فكانت دافئة وناعمة مثل وسادة دافئة. وكان الإحساس بتلك اللحظات المختلسة رائعاً إلى حدٍ لا يوصف.

في وقتٍ لاحق، كان أبي يأتي أخيراً ليغطينا. إذ في معظم الوقت، وبما أنه كان يأتي إلى البيت متأخراً جداً، نكون قد خلدنا إلى النوم. ولكنني كنت دائماً أستيقظ حالما كان الباب يصرّ منفتحاً والضوء يدخل من الممر.

أحياناً، كنت أتظاهر بأنني لم أسمعه لأرى فقط ما الذي كان سيفعله. ولكن كان لوالدي روتين يتّبعه دائماً فيما إذا كنا نائمين أم لا. فكان يذهب من سرير لآخر ويرفع الأغطية إلى الأعلى قبل أن يربت على شعرنا بلطف. ثم كان يقف أمامنا للحظة قبل أن ينحني أخيراً ويقبلنا على خدودنا. كان يبدو في نهاية اليوم متعباً. كان شاربه يبدو خشناً كورقٍ الصنفرة، وكانت تفوح منه رائحة عطر "أولد سبايس" والسجائر، وكان يهمس بصوتٍ هادئ قائلاً: "أحبك". لكل واحد منا.

في ذلك الوقت فقط، كنت أشعر أن يومي قد اكتمل. فكنت وأنا دافئ ومرتاح، لا أستيقظ طيلة الليل.

في تلك السنة - ربما لأن والدينا فهما كيف كانت شجاراتهما تؤثّر في أولادهما - مررنا بالمعجزة الوحيدة في حياتنا كأطفالٍ. فقد استيقظت لأجد أختي تدفعني لأستيقظ في وقتٍ مبكرٍ صباح أحد الأيام.

وقالت: "تعال بسرعة، فإنك لن تصدق ما رأيته لتوّي".

"ما الأمر؟"

فألحّت قائلةً: "هيا، أسرع. لقد سبق وأيقظت ميكا".

أسرعت من الغرفة وأنا أفرك عينيّ وأتبع أختي وأخي. وتوقفت فجأة. وعندما التفت ميكا رأيت عينيه متسعتين من الصدمة، وأشار إلى طاولة المطبخ.

فتبعت نظرته. وللحظة، كان كل ما استطعت فعله هو أنني طرفت بعينيّ. وهناك بالضبط في وسط الطاولة، كان يوجد سيفان بلاستيكيان وتاج بلاستيكي. جديدة كلياً.

سألت: "لماذا هذه الألعاب هنا؟"

فسألت دانا: "ماذا يمكن أن يعني هذا؟"

وأضاف ميكا: "ليس الأمر منطقياً. فاليوم ليس 25 كانون الأول وليس ذكرى مولدنا".

سحبنا كراسينا إلى الأمام وحدّقنا بها. وبالطبع أردنا لمسها، ولكننا لم نفعل. إذ لم نستطع ذلك، فقد تركنا وصولها غير المتوقع مذهولين.

سألت: "هل تعتقدان أن أبي وأمي أحضراها لحفلة ذكرى ميلاد أحدٍ آخر؟"

فأجاب ميكا: "لا أعتقد ذلك".

فتطوعت دانا، قائلةً: "ربما هي لنا".

فقال ميكا بسرعة: "لا تكوني سخيفةً. فالآباء لا يشترون أشياءً لأطفالهم بدون سبب".

وأضفت قائلاً: "نعم، يا دانا. إنها قاعدة أو ما شابه ذلك". ولكنها كانت هناك أمامنا تسخر منا. ماذا لو كانت لنا؟ كلا، فهذا مستحيل.

كان السيف يناديني. وكان من السهل اللمس، وبدأت يدي تزحف إلى الأمام.

فحذر ميكا قائلاً: "لا تفعل، إذ سيغضب أبي وأمي إذا لمستها".

فقالت دانا مجدداً: "أعتقد أنها لنا".

قال ميكا: "كلا، ليست كذلك". ولكنه لم يستطع أيضاً إبعاد نظره عن الألعاب الجديدة. واستمرّت دانا بالتحديق أيضاً.

قالت دانا: "ربما يجب علينا أن نسأل أبانا وأمنا".

فقال ميكا: "إنني لن أدخل غرفتهما، فهما نائمان. وتعرفان كم يغضبان إذا أيقظناهما".

قلت، وأنا أهزّ رأسي: "وأنا أيضاً لن أدخل".

فقالت دانا، وهي تنهض عن الطاولة: "أنا سأذهب"، وبدون أي تردّد، اختفت داخل غرفة نوم والديّ.

فقال ميكا: "تلك فتاة شجاعة!"

همست: "أرجو ألا تتعرّض للكثير من المتاعب".

انتظرنا سماع الصراخ، ولكننا بشكلٍ غريب لم نسمع أي صراخ. وظهرت دانا خارج الغرفة، وأغلقت الباب خلفها، وزحفت عائدة إلى الصالة.

"هل كانا ما يزالان نائمين؟"

فهزّت دانا رأسها بإثارة وهي تتقدم من الطاولة، وقالت: "كلا، كانت أمي مستيقظةً، وقالت إن الألعاب لنا. وقالت إن أبي أحضرها إلى البيت من أجلنا".

وللحظةٍ، كان كل ما استطعنا فعله هو التحديق. إذ سمعت ما قالته، ولكنني لم أستطع حمل نفسي على تصديقه.

"مستحيل!"

"هذا ما قالته".

"إذاً يمكننا اللعب بها؟"

"أعتقد ذلك".

"هل أنت متأكدة؟ عليك أن تكوني متأكدةً بهذا الخصوص، يا دانا".

فأصرّت قائلةً: "أمي ".

فدارت أعيننا عائدةً إلى الطاولة. وبأيدٍ مرتجفة حاولنا الوصول إليها. كان السيف خفيفاً في يدي، وكان جديداً تماماً، وحصلنا عليه مقابل .

أخذت دانا التاج ووضعته بلطف على رأسها. وأخذ ميكا السيف الآخر، وابتعد عن الطاولة. ولوّح به عبر الهواء مبتسماً.

صاح: "هيا، لنخرج ونلعب".

فقالت دانا: "ماذا تريدان أن تلعبا؟"

"أنت كوني الأميرة ونحن الفرسان. ونحن سنحميك".

"من ماذا؟"

"من التنانين والأشرار. هيا لنذهب ونعثر على حصن".

"ألا ينبغي أن نرتدي ملابسنا أولاً. فنحن ما نزال نرتدي البيجامات".

فقال ميكا: "سنفعل ذلك بعد وقت قصير". ولم يزعج نفسه بإخفاء نفاد صبره. "لنذهب ونلعب أولاً. وتذكّري بما أنك سألت أبي وأمي، يمكنك إعطاؤنا الأوامر. وسوف نحميك".

هذا ما فعلناه، فلعبنا لساعات ونحن نحمي أختنا من الأذى. قتلت وميكا مخلوقاتٍ خياليةً لا تعدّ ولا تحصى. ودعتنا دانا "سير ميكا" و"سير نكي". فأنقذنا حياتها مائة مرة ذلك اليوم. إذ إنها كادت تموت في الحياة الواقعية في السابق، ففي مخيّلتنا، ما كنا لندع الأمر يحدث مجدداً أبداً.

في طريقنا إلى البيت، أمسكت بيدينا، وقالت لنا: "سأكون دائماً بأمان مع فارسيّ. إنني أحبكما كثيراً".

استمرت في منحنا الأسماء المستعارة لأسابيع بعد ذلك. بنفس الطريقة التي كان يبدو أن والديَّ يحميان بها دانا من الأذى، بدأت وميكا نشعر أننا بحاجة لأن نفعل ذلك أيضاً. إذ كانت على عكسنا هادئةً وعذبة، وكانت على عكسنا راضية بالعالم الذي حولها. لقد كانت دانا أميرتنا، فقررنا في ذلك الوقت أننا سنعتني بها دائماً.

مع انقضاء السنة، استمرّ والداي بالجدال حتى أكثر مما سبق.

كانت تلك الشجارات تحدث عادةً في وقتٍ متأخر من الليل بعد أن نكون قد ذهبنا إلى السرير. كنا نكون نائمين بعمق عندما كانت توقظنا أصواتهما المرتفعة. فكنا واحداً تلو الآخر أنا وأخي وأختي نجلس في أسرّتنا ونصغي. مع كل صرخةٍ، كنا نجفلُ وننظر إلى بعضنا البعض، ونتمنى أن يتوقف الأمر ولا نتمنى شيئاً أكثر من أن يعودا سعيدين ثانيةً. كان من الممكن للشجارات أن تستمرّ لساعةٍ أو أكثر. وأكثر من مرة كنت ودانا ننظر إلى ميكا بحثاً عن أجوبة، ولكن حتى هذا كان عالماً بعيداً عن فهمه.

كانت دانا تسأل: "لماذا يتشاجران؟"

فكان ميكا يجيب قائلاً: "لا أعرف".

كنت أقاطع قائلاً: "من بدأ الشجار؟"

"لا أعتقد أن الكبار يتشاجرون هكذا. أعتقد أنهم يبدأون في نفس الوقت".

فتقول دانا بغضبٍ: "لم لا يقبّلان بعضهما وحسب ويتوقفان عن هذا؟"

"لا أعرف".

"هل علينا أن ندعو أن يتوقفا عن ذلك؟"

كان ميكا يومئ برأسه، وكنا ندعو ونتضرع لله. وبعد ذلك، كنا نصغي محاولين أن نرى إن كانت تضرعاتنا قد استجيب لها. فكانت أحياناً يستجاب لها وأحياناً لا. ولكن في كلتا الحالتين، كنا أخيراً نجبر أنفسنا على الإستلقاء مجدداً. فكنا، ونحن نحدّق في السقف، نشاهد خيالاتٍ، ونشعر بخوفٍ أكبر مما شعرنا به قطّ أثناء مشاهدة أحد أفلام الرعب التي كان والدي يشاهدها.

الفصل الخامس

مدينة فورت لاودرديل بولاية فلوريدا
22 - 23 كانون الثاني

خلال الأيام التي سبقت الرحلة، بدأت وزوجتي نتسوق لنشتري الأشياء التي كنت سأحتاج لأخذها معي. إذ كان المكتب السياحي قد طلب منا أن نحزم كل شيء في حقيبة سفرٍ واحدة، وأخبرنا أنه كان من الأفضل لنا أن نستعدّ لكل أنماط الطقس. لقد كان قول ذلك أسهل من فعلهً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أننا كنا سنكون في نصف الكرة الجنوبي في الصيف حيث تتجاوز درجات الحرارة في أستراليا المائة درجة فهرنهايت على الأرجح، ثم سنكون على بعد مائتي ميل شمال الدائرة القطبية الشمالية في منتصف الشتاء عندما تصل رحلتنا إلى نهايتها في النرويج.

كان الحصول على مستحضرات تنظيف الجسد سهلاً في الولايات المتحدة، إلا أن الأمر لم يكن بنفس السهولة في كمبوديا أو إثيوبيا، وهما بلدان يبلغ فيهما متوسط الدخل أقل من 500 دولار في السنة. في النهاية، أحضرت ثلاثة بنطلونات وثلاثة شورتات وستة قمصان، بالإضافة إلى ملابس داخلية، وكل شيءٍ آخر اعتقدت أنني بحاجة إليه. وحصلت على زوج من أحذية المشي المبطنة المصنوعة من الجلد وقماش الغورتيكس.

قمت أيضاً باستئجار هاتفٍ يعمل عبر الأقمار الاصطناعية لأستعمله في الرحلة. ولكنني حذّرت من أنه لا يعتمد عليه دائماً. فبسبب المواقع البعيدة واختلاف السمات السطحية والموقع الدائم التغيّر للقمر الاصطناعي في الأعلى، قد يكون تلقي الاتصالات مستحيلاً في أغلب الأحيان. ورغم أنني سأكون قادراً على الاتصال بكاثي، إلا أن التواقيت الدائمة التغيّر والرحلات بالطائرة كانت ستجعل من الصعب البقاء على اتصال بشكلٍ منتظم. وقد اتسعت حقيبة السفر والحقيبة المحمولة باليد لكل هذه الأشياء، وبقيت مساحة زائدة للتّذكارات التي كنت أعرف أنني سأجمعها على طول الطريق.

لم يكن عبء عملي قد خفّ على الإطلاق؛ فقد كانت هناك رواية نصف مكتملةٍ، وكان ينبغي أن تكون قد سلّمت قبل ذلك الوقت. ولم تكن لديّ أدنى فكرة إلى أين سأتحرك بالقصة تالياً. فبدأ الشعور يطاردني إلى درجة أنني لم أستطع النوم ليلاً. ولكنني وعدت كات أنني لن أعمل عليها. ومع ذلك، فقد دسست دفتر ملاحظاتٍ داخل حقيبة السفر تحسباً لإمكانية تغيير رأيي.

خلال الأسبوع الأخير، قضيت أكبر وقت ممكن مع الأطفال؛ وأنا أبذل ما في وسعي لأنسى حقيقة أن هذا كان يجعلني أكثر تأخراً في عملي. ذهبت وكات إلى عشاء وداعي في الليلة التي سبقت مغادرتي. وعند ظهر اليوم التالي، أوصلتني بالسيارة إلى المطار. ومع أن الرحلة لم تكن ستبدأ حتى يوم الجمعة في 24 من شهر كانون الثاني، فقد كنت وأخي سنسافر بالطائرة إلى فورت لاودرديل قبل ذلك بيومين، وكنا قد خططنا للّقاء في المطار.

قلت: "هذا هو الأمر إذاً". كنت أحاول استجماع الحماس للرحلة. ورغم شعوري المفاجِئ بها، إلا أنني كنت لا أزال غير متشوّق للذهاب. فبحلول ذلك الوقت، أعتقد أن ترددي قد أصبح عادةً لي.

سألت كات: "لديك كل شيء، أليس كذلك؟ جواز السفر والهاتف والنقود..".

فقلت: "لديّ كل شيء".

فأومأت برأسها، وقالت: "اقضِ وقتاً طيباً".

"سأحاول ذلك".

"فقالت مؤكدةً: "كلا، اقضِ وقتاً طيباً".

فعانقتها قائلاً: "أحبك، يا كات".

"وأنا أيضاً أحبك".

"قبّلي الأطفال نيابةً عني كل ليلة".

"سأفعل ذلك".

"حاولي ألا تعملي بجهدٍ فوق الحدّ".

فضحكت، إذ كانت على وشك أن تقول الشيء نفسه لي، وقالت: "إنك مدين لي بهذا، إنك تعلم ذلك. لا يمكنك أن تصدق كم أنت مدين لي".

فقلت: "أعلم ذلك، وأنا واثق من أنني سأتجاهل فواتير بطاقة الائتمان لعدة أشهر".

فقالت: "أكثر من سنواتٍ أو حتى عقود".

تبادلنا القبلات للمرة الأخيرة. كان كل ما استطعت فعله خلال رحلتي هو التفكير فيها، وكم كنت محظوظاً لزواجي بها. ولم تراود تفكيري أية رؤىً عن الرحلة على الإطلاق.

بعد بضع ساعات، وصلت إلى فورت لاودرديل تحت السماء المشمسة، فاسترجعت أمتعتي، وانتظرت أخي في قسم الأمتعة في المطار. واتصلت بكات لأخبرها أنني قد وصلت. ثم جلست في أحد المقاعد بانتظاره.

بعد نصف ساعة، لم يكن من الصعب تحديد مكان ميكا وهو يمشي عبر المطار. ولكونه طويلاً وأشقر، كان يميل إلى أن يكون بارزاً بين الحشد. وحالما حدّد مكاني عبر مكان الأمتعة، ومدّ ذراعيه فوق رأسه، عرفت ما كان سيحدث، فانكمشت.

"يا أخي نكي! لقد وصلت أخيراً ويمكن للهونا أن يبدأ".

كان صوته يدوّي في مكان الأمتعة. فحدّق الغرباء، والتفتوا نحوي مصدومين. وشعرت بأعينهم تركّز عليّ.

فتمتمت قائلاً: "من الواضح أن أخي لا يخرج كثيراً".

وبعد بضع لحظات، كنا متعانقين وسط الحشد الذي منحنا مساحةً كبيرة فجأة.

"يبدو أنك تشعر بحالٍ جيدة جداً، يا ميكا".

فقال بعفوية: "لقد تناولت كوبين من الكوكتيل في الطائرة، وسأصبح في المزاج المناسب".

حالما ابتعدنا عن بعضنا، بدأت عيناه تلمعان حتى أكثر.

وسأل: "هل تصدّق أننا ذاهبان فعلاً؟ ففي غضون يومين تبدأ مغامرتنا". ثم قال وهو يضع يده على كتفي: "هل بدأت تشعر بالإثارة؟"

"بالطبع".

فقال وهو يشير إلى نفسه: "كلا، لست كذلك. هذا ما يبدو عليه من يشعر بالإثارة. أنت لا تبدو عليك الإثارة".

"إنني أشعر بالإثارة في داخلي".

تجولت عيناه في الأرجاء، وقال: "كيف كانت رحلتك؟"

"كانت جيدة، ورحلتك أنت؟"

"كانت عظيمة. فقد جلست بجانب بضعة أشخاص أنيقين. وأخبرتهم كل شيء عن الرحلة، فلم يستطيعوا تصديق الأمر. هل اتصلت بكات لتخبرها أنكَ وصلت؟"

فأومأت برأسي قائلاً: "نعم، لقد تكلّمنا للتو منذ لحظات قليلة. هل تريد أن تتصل بكريستين؟"

"سأفعل ذلك بعد قليل، إذ أريد أن أسترخي أولاً، وأمدّ ساقيّ لبعض الوقت. وعليّ أن أحافظ على لياقتي، إذ سوف أمشي لمسافاتٍ بعيدة تماماً طوال الأسابيع القليلة القادمة".

"أستفعل ذلك؟"

"ألم أخبرك؟" وبدأ صوته يرتفع حالما تابع قائلاً: "إنني ذاهب حول العالم مع أخي". فتفرّق الحشد حتى أكثر من قبل، وكان بعضهم يبدو خائفاً في ذلك الوقت.

وسأل فجأة: "هيه، هل أنت جائع؟"

"قليلاً".

"حسناً، إنني أتضوّر جوعاً. هل تريد أن نأكل شيئاً بعد أن نترك أمتعتنا في الفندق؟"

"إنني موافق".

بدأ أخيراً عرض الحقائب يظهر أمامنا. وكنت مشغولاً بفحص الحقائب المنسّقة بحثاً عن أمتعته عندما أشار فجأة.

"هناك، الحقيبة الحمراء".

كانت بدون شكٍ أكبر حقيبة رأيتها على الإطلاق، كانت ضخمةً جداً. إذ كانت، وهي تساوي ضعف حجم حقيبتي على الأقل، مشدودةً من الجوانب ومنتفخةً في الوسط. فكان ميكا بحاجةٍ إلى كلتا يديه ليستعيدها. عندما وضعها عمودياً ليتمكن من دحرجتها بدت حتى ممتدةً بشكلٍ أعرض.

فقال بارتياح: "حسناً، إنني جاهز. هيا نذهب".

"هل أنت واثق من أنك أحضرت ما يكفي؟"

"أحضرت كل ما أحتاجه".

فحدّقت في الحقيبة قائلاً: "يبدو أنك حزمت حيوان مزرعةٍ صغيراً في داخلها".

"هناك شيء واحد تعلّمته، وهو أنه لا يمكن لك أبداً أن تحضر أغراضاً فوق اللّزوم عندما تسافر".

"لطالما اعتقدت أن العكس هو الصحيح".

فغمزني بعينه قائلاً: "كلا، هذه مجرد أسطورة تستخدمها شركات الطيران، فلا تصدقها. عندما تنفد أغراضك في الرحلة، لا تقلق؛ يسعدني أن أتشارك معك أغراضي".

وجدنا مطعماً في وسط فورت لاودرديل حيث تناولنا الطعام خارجه، وراقبنا الناس وهم يتجولون داخل وخارج الحانات في أول وآخر الشارع.

تبادلنا المزاح حتى توقف ميكا أخيراَ. ونظر إلي نظرة ملؤها الشك، وهو يميل على كرسيه إلى الوراء.

"إنك لا تزال لا تشعر بالاهتمام بالأمر، أليس كذلك؟ أعني، هذا الذي نفعله؟"

"أكاد أكون كذلك".

"هل فكرت أنك قد تكون مصاباً بالاكتئاب؟"

"لست مصاباً بالاكتئاب، ولكنني مشغول وحسب".

"إن هذا متوارث في عائلتنا، كما تعلم. فبعض أقاربنا مكتئبون".

"لست مكتئباً".

"إنهم يتناولون الأدوية الآن. وقد يفيدك هذا بعض الشيء".

"لست بحاجةٍ إلى أدوية".

"الإنكار أمر بشع، يا نكي".

"لست في حالة إنكار".

"أتفهم ما أعنيه؟ هذا إنكار".

"إنك مزعج، أتعرف ذلك؟"

"نعم، فهذا ما تقوله كريستين".

"إنها سيدة ذكية".

"إنها كذلك، ولكنها ليست هنا، وحالياً نحن نتكلم عنك. إذاً لماذا أنت مكتئب، يا أخي الصغير؟ فأنت بالتأكيد لا تشعر بالإثارة حيال هذا، ونحن على وشك المغادرة. تحدث إلي، وسأكون طبيبك النفسي".

فقلت مجدداً: "لست مكتئباً. وكما قلت، إنني غارق في العمل. إذ ليست لديك فكرة كم كنت مشغولاً. وهذا وحسب.. ليس الوقت الملائم لشيء كهذا".

فقال وهو يهزّ رأسه: "هذا ليس صحيحاً. إنك تختار أن تجعل الحياة تسيطر عليك بدلاً من العكس. وهذا سر كبير، فأنت تختار نوع الحياة التي تريد أن تعيشها".

"إنك دائماً تقول ذلك".

"فقط لأنه صحيح. وباستخدامك كمثالٍ على ذلك؛ إنك دائماً مشغول لأنك تتخلّف عن كل مواعيدك، وتريد أن تفي بها. صحيح؟"

"بالضبط".

"ولكن ماذا إذا أخفقت في موعدك الأخير؟ ليس الأمر أنك ستطرد، أليس كذلك؟"

"كلا، ولكن...".

"ولكنّك تظنّ أن أموراً سيئة ستحدث إذا فعلت ذلك". أنهى الأمر بقوله: "لذا بمعنىً آخر، إنك تتخذ قراراً. فإذا كان قرارك فاقبله إذاً، ولكن لا تجعله يسيطر عليك. وبنفس الطريقة، يمكنك أن تختار أن تشعر بالإثارة حيال الرحلة، فهذا الأمر عائد إليك بالكامل".

فأشحت بوجهي وأنا أهزّ رأسي، وقلت ببطء: "ليس الأمر دائماً بهذه السهولة، فأنت لا تختار كل شيء. إذ أحياناً تفاجئك الحياة بأمورٍ لا يمكنك السيطرة عليها".

فقال بلطفٍ: "ألا تعتقد أنني أعرف هذا؟ انظر، وستعرف تماماً، هذه الرحلة ستكون رائعة، انتظر وحسب. وعندما ينتهي كل هذا، ستعود بذاكرتك، وستكون سعيداً لأنك أتيت. وعندها ستشكرني لأنني أحضرتك معي".

"أنا دعوتك للقدوم، أتتذكّر هذا؟"

فهزّ كتفيه غير مبالٍ وقال: "آه، نعم. حسناً، في هذه الحال، كن مضيفاً جيداً، وتوقف عن إفساد متعتي". واستدار ليلفت انتباه النادلة، وقال: "هذا الرجل بحاجةٍ لكوب كوكتيل".

فضحكت رغماً عني.

ربما كان السبب هو حديث أخي المحفّز، أو ربما كان الكوكتيل، ولكن مهما كان السبب فقد أصبحت تدريجياً أكثر اهتماماً بفكرة الذهاب. وسواء أكان لدي الوقت للذهاب أم لا، أصبح ذلك أمراً غير متصلٍ بالموضوع. ورغم كل شيءٍ، كان مزاج أخي الجيد معدياً. فلطالما كان لأخي هذا التأثير عليّ. إذ كان دائماً بثقته بنفسه وأسلوبه الهادئ ناجحاً في الحفلات. وقد كان الإشبين في ست حفلات زفاف مختلفة.

في اليوم التالي مررنا بغرفة الاستقبال التي كان المكتب السياحي قد أعدّها لتسجيل أسماء الركاب من أجل الرحلة. فوقّعنا السجلّ وأعطيناهم جوازي سفرنا، وحصلنا على بطاقات أمتعتنا. كانت كلها كبيرة وزهرية اللون ومرقّمة حتى يتأكد طاقم المكتب السياحي بسهولة من أنهم سيكونون مسؤولين عن كل حقيبة. كانت إحدى الأمور اللطيفة التي كنا سنعرفها لاحقاً، أن المكتب السياحي قد تولّى أمر كل أمتعتنا. وكانت مسؤوليتنا الوحيدة هي إخراج أمتعتنا من غرفة الفندق في الوقت المحدد.

قضينا فترة العصر ونحن نسترخي بجانب البركة. وفي وقتٍ لاحقٍ في تلك الأمسية، حضرنا حفلة كوكتيل تعارفية وعشاء. فكانت تلك فرصتنا الأولى للقاء زملائنا المسافرين.

كان هناك 86 شخصاً في الرحلة، وكان معظم الموجودين أكبر سناً مني ومن ميكا إلى حدٍّ بعيد. فبدأنا العملية التدريجية للتعرّف على رفاقنا المسافرين.

اختلطنا ودردشنا مع بعض الأشخاص، واتجهنا في نهاية المطاف إلى قاعة الرقص حيث وضعت الطاولات. وأثناء تناول الطعام، تم تقديمنا إلى طاقم المكتب السياحي. وكان عدد قليل تماماً منهم سيسافر معنا للتأكد من أن كل شيء يجري بسلاسة. وتم تقديمنا إلى محاضري الضيوف و"جيل هانا"، وهي الطبيبة التي ستتولى أي مسائل طبيةٍ قد تطرأ.

كانت أكبر منا ببضعةٍ أعوام وحسب. وكانت تبتسم بسهولة، فانتهى بها الأمر بأن أصبحت إحدى أصدقائنا المقربين في الرحلة. ولحسن الحظ، أجلست إلى طاولتنا.

فسألتها: "هل من نصائح؟"

"لا تتناولا الخضار أو السلطات، مهما بدا الفندق جميلاً".

"هل بسبب الأسمدة والتربة؟"

فقالت: "كلا، بل لأنهم يغسلونها بالمياه المحلية، ولا تعرفان أبداً إن كانت معقمة".

"أي شيءٍ آخر؟"

"لا تستخدما مياه الصنبور عند تنظيف أسنانكما أيضاً. اتخذا هذه التدابير الوقائية، وعلى الأرجح ستكونان بخير. وسأقول الأمر نفسه لبقية المجموعة لاحقاً، عندما يحين دوري بالكلام. ولكن انتظرا فحسب، فنصف هؤلاء الناس لن يصغوا وسينتهي بهم الأمر جميعاً مرضى. ولا تريدان أن تمرضا عندما تسافران هكذا، ثقا بي، ليس الأمر مزاحاً".

بينما كانت تتكلم كان باستطاعتي رؤية عينيها وهما تتنقلان بسرعةٍ مني إلى ميكا ثم إليّ مجدداً.

"إنكما أخوان أيها الشابان، صحيح؟"

فأومأنا برأسينا.

"توأمان؟"

نحن في الواقع نتعرّض كثيراً لهذا الأمر، فهززت رأسي.

"كلا".

"ولكنّك أكبر سناً، صحيح؟"

فعبست قائلاً: "كلا، بل هو".

فاستند ميكا وهو يبدو مسروراً إلى حدٍّ كبير بسبب تعليقها. إذ كان ميكا يستمتع بحقيقة أن الجميع تقريباً كانوا يظنّون أنه أصغر مني سناً عندما يروننا معاً".

فقال موبخاً: "لطالما كنت أقول له إنه عليه أن يعتني بنفسه أكثر".

فابتسمت قائلةً: "هل أنتما متزوجان، أيها الشابان؟"

فأجبت: "كلانا متزوجان".

"لماذا أتيتما معاً وليس مع زوجتيكما".

فشرحنا لها عن أطفالنا، وأريناها صور عائلتينا. فرفعت نظرها إلينا أخيراً.

"أعتقد أنه أمر عظيم أنكما تقومان بهذا معاً. إذ لا يكون الإخوة عادةً مقربين كما يجب أن يكونوا. هل أنتما مقربان إلى هذا الحدّ دائماً؟"

فترددت.

واعترفت أخيراً: "ليس دائماً".

في العام 1973، منتصف السنة الدراسية، انتقلنا إلى غراند آيلند في ولاية نبراسكا. أو بالأحرى، انتقل الجميع في العائلة ما عدا والدي. ففي ذلك الوقت، أخبرتنا أمي أننا نغادر لكي يتمكن والدي من إنهاء أطروحته، فانتقلنا إلى منزل دوبلكس صغير على بعد مسافةٍ قصيرة من الزاوية من منزل والديّ أمي. مع أن والدي قد أنهى بالفعل أطروحته تلك السنة إلا أنه ووالدتي كانا قد انفصلا في الواقع. ومع ذلك، فقد مضت سنوات قبل أن نعرف الحقيقة حول هذا الأمر. إذ لم تكن أمي أسمى من إخفاء الأسرار عنا إذا كانت تعتقد أن الحقيقة ستجرح شعورنا.

كانت غراند آيلند بلدة هادئةً صغيرةً في وسط الولاية، وكانت مختلفةً كل الاختلاف عن لوس أنجلوس. إذ كانت هناك مساحات واسعة تفصل بين المنازل. وكانت هناك، عبر الشارع مباشرة من منزل جديّ، المدرسة الابتدائية التي كنا نرتادها. وبخلاف المدارس التي ارتدناها، كان لمدرسة غيتس الابتدائية حقول عشبٍ ضخمة وملعب بايسبول. كانت هناك، على الجانب البعيد خارج أراضي

المدرسة تماماً، مجموعة من سكك القطارات، حيث كانت القطارات تمرّ بانتظام.

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت وأخي نضع القطع النقدية على السكك بانتظار القطار ليسحقها ويسطحها. ولكن على عكس لوس أنجلوس، لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله من حيث الاستكشاف والوقوع في المتاعب. إذ لم تكن هناك مبانٍ متداعية شاغرة حيث يمكننا بناء الحصون، ولم تكن هناك جسور لنتسلقها. ورغم أنه كانت هناك غربان، فلم يهاجمنا أيٌّ منها، وكما فعلت أمي في لوس أنجلوس، فقد حصلت على وظيفة جديدة، وهذه المرة كمساعدة طبيب عيون. فكنا بعد المدرسة، نتوجّه إلى بيت جديّ. وهناك كانت جدتي تعدّ لنا شراب الشعير بالشوكولاته والخبز المحمّص بالقرفة (وهي أروع وجبةٍ خفيفة لفترة بعد الظهر في العالم). كنا إما نلعب في الحديقة أو ننزل إلى القبو حيث كان خالي جو يحتفظ بمجموعته من نماذج الطائرات. كان هناك على الأرجح أكثر من مائة نموذج متضمنة الطائرات المقاتلة وطائرات الزيرو اليابانية. وقد جمعها خالي وكأنها ستعرض يوماً ما في أحد المتاحف. كانت مطلية بتفصيلٍ دقيقٍ ومفرط. ورغم أنه لم يكن يسمح لنا بلمسها فقد كنا نقضي ساعاتٍ ونحن نتفرج عليها.

إن دخول مدرسةٍ جديدة في منتصف العام هو أمر شاق دائماً. فطوال الأسبوعين الأولين، كنت وأخي نقضي معظم أوقات العصر معاً كما كنا نفعل في لوس أنجلوس. فاكتشفنا المنتزهات، وركبنا دراجتينا هناك. وغالباً، كنا نرى عشرات الأطفال الآخرين يلعبون ألعاباً، وكان بعضهم في صفنا. وبعد شهرٍ، كانوا جميعاً هناك أيضاً يتزلجون إلى أسفل التلال.

لكن بحلول تلك السن، بدأت الاختلافات بيننا تصبح واضحة. إذ كان ميكا أطول قامةً وأقوى وذا جسم رياضي أكثر مني، وكان يبدو أنه لا يخاف شيئاً. فكان ينظر إلى الانتقال على أنه مغامرة جديدة، فتعرّف على أصدقاءٍ بسهولة. وكان يتسم بثقةٍ بالنفس كنت أجدها محيّرة، فلطالما كنت أقل أماناً منه. إذ كنت أقلق باستمرار، وكنت أقلق من الوقوع في المتاعب، وأقلق حيال الحصول على درجاتٍ جيدة، وأقلق حيال ما يعتقده الناس بي. كنت أقلق حيال القيام بالشيء الصحيح واللعب مع النوع الصحيح من الأطفال. ورغم أنني قد تعرفت على أصدقاءٍ جددٍ فعلياً، إلا أنني قد استغرقت وقتاً أطول بكثير للتأقلم مع محيطي الجديد.

بينما أدرك الربيع الشتاء، بدأ ميكا يصبح أقل فأقل حاجةً لصحبتي، وعندما كنت أحاول اللحاق به، بدأ يعاملني على أنني مصدر إزعاج. عوضاً عن ذلك، كان ميكا يتصادق مع كرت غريمنجر وهو صبيٍ في صفه، تملك عائلته مزرعة خارج المدينة تماماً. فكان يذهب إلى هناك كل أوقات العصر تقريباً. كانا يقضيان الساعات وهما يتصارعان في مخزن الذرة، ويركبان الجرارات والجياد، ويزعجان الأبقار ببنادق الخردق. فكان ميكا يمتّعنا في البيت بقصةٍ مثيرة بعد الأخرى طوال العشاء. فلم أستطع منع نفسي من أن أحسده، فمهما كان ما فعلته أثناء اليوم لا شيء كان يبدو مثيراً كالذي كان يفعله.

في ذلك الوقت، خضنا شجارنا الأول. ولا أذكر ما الذي كنا نتجادل حوله، ولكن جرّ أمر أمراً آخر. فكانت القبضات تسدد اللكمات، فلكمني على معدتي، وهو يضربني بعنف، ودفعني على الأرض. وحالاً أصبح فوقي وهو يضربني مرة بعد مرة، وكنت عاجزاً عن الدفاع عن نفسي، فكنت أتلقى ضربةً بعد ضربة. والشيء التالي الذي أتذكره هو صوت أمي وهي تصرخ. وقد دفعته بحركةٍ سريعة، وضربته قبل أن ترسله إلى غرفته. فتوارى بعيداً، وبينما وقفت بصعوبةٍ على قدمي، أمسكت أمي بذراعي.

"ما الذي حدث؟"

فبكيت قائلاً: "إنّه يكرهني!"

وحتى في ذلك الحين، لم أكن أعرف إن كان الأسوأ هو ألمي أم شعوري بالإذلال. وحتى عندما حاولت أمي أن تهدّئني أبعدت يدها عن ذراعي.

"دعيني وشأني". واستدرت بعيداً، وبدأت أجري.

لم أكن أعلم إلى أين كنت ذاهباً، فكل ما كنت أعرفه هو أنني لم أكن أريد أن أتكلّم مع أحد، ولم أكن أريد أن أرى أحداً. ولم أكن أريد أن أكون صغيراً، ولم أكن أريد أن أعيش في نبراسكا، ولم أكن أريد شفقة أحد. فكل ما أردته هو أن تكون الأمور كما اعتادت أن تكون. واستمريت بالجري والجري وكأنني بطريقة ما كنت أتمنى أن يتحرّك الوقت عكسياً.

في وقتٍ لاحق، وجدت نفسي عند خطوط السكك الحديدية بعيداً قليلاً عن المنزل. فجلست تحت إحدى الأشجار، وأنا أراقب قدوم القطار. كانت القطارات دائماً في موعدها، وكنت أعلم أن قطاراً آخر سيمرّ بعد ساعةٍ. فقلت لنفسي إنني سأجلس حتى يمرّ كلاهما. ولكن عندما فعلا ذلك، بالكاد لاحظتهما. إذ عوضاً عن ذلك، كنت جالساً ووجهي بين يديّ وكتفاي ترتجفان متمنياً أنّ شجارنا لم يحدث أبداً، لقد بكيت كما لم أبكِ من قبل أبداً.

استطعت أن أشعر أن عيون عائلتي كانت تتجه نحوي عندما دخلت من الباب أخيراً. كان الظلام قد حلّ بحلول ذلك الوقت، وكان الجميع جالسين عند الطاولة. لكن بدت والدتي متفهّمة أنني لست جائعاً. فقامت بمجرد الإيماء برأسها عندما سألت إذا كان ممكناً لي أن أذهب إلى غرفتي. أو بالأحرى غرفتنا، إذ كنا ثلاثتنا مجدداً نتشارك غرفة واحدة. تمددت على السرير في الظلام وحدّقت في السقف.

رغم أن غضبي كان قد هدأ، كنت مشوشاً. إذ قلت لنفسي إنني كنت أريد أن أكون وحدي، وأنه كان من الأفضل لي أن أتولّى أمر مشاعري بطريقتي الخاصة. ورغم ذلك، لم أستطع التخلص من الرغبة التي لدي بأن تدخل أمي إلى الغرفة. إذ كمعظم الأطفال كنت أعتقد أن الاهتمام يساوي الحب نوعاً ما. من بين الأطفال الثلاثة، كنت أنال مقداراً أقل من الأول متضمناً مقداراً أقل من الثاني. فكان ميكا، رغم كل شيء، يعامل كراشدٍ. ولأنه كان أول من يجرّب كل شيء من المشي إلى الكلام إلى الوقوع في المتاعب، فقد تلقّى الاهتمام الذي يمنح لأولئك الذين يحتلّون قائمة الأسرة. أما أختي من جهةٍ أخرى - وهي الأصغر سناً والفتاة الوحيدة - فقد كانت تمنح امتيازاتٍ مضاعفة تقريباً. إذ كانت تقضي وقتاً أطول مع أمي مني ومن أخي، وتقوم بأعمالٍ منزلية أقل ونادراً ما تقع في المتاعب، وكانت الوحيدة التي تحصل على أكثر من زوجٍ من الأحذيةً في نفس الوقت. ويكون التفسير: "إنها فتاة".

في أغلب الأحيان، بدأت أشعر بأنني مهمل.

لم أسمع القرع على الباب حتى مرت ساعة. وبحلول ذلك الوقت، كنت أشعر بالأسف على نفسي بكل معنى الكلمة.

فقلت: "ادخل". ثم قعدت في السرير، وتساءلت عن الذي كانت أمي ستقوله. ومع ذلك، فعندما فتح الباب لم تكن أمي من دخلت. بل كانت دانا بدلاً منها.

قالت: "مرحباً".

فقلت وأنا أنظر فوق كتفها: "آه، مرحباً. هل أمي قادمة؟"

"لا أعرف، أرادتني أن أسألك إن كنت جائعاً".

فقلت كاذباً: "كلا".

جاءت أختي وجلست على السرير. فكانت بشعرها الأشقر الضارب إلى الصفرة والمفروق في

المنتصف، وجلدها الشاحب، ونمشها تبدو مثل جان برادي في الحلقات الأولى من مسلسل فرقة برادي.

"هل تؤلمك معدتك؟"

"كلا".

"هل ما تزال غاضباً من ميكا؟"

"كلا، إنني حتى لم أعد أهتم لأمره بعد الآن".

"آه".

"أعني، إنه لا يهتم لأمري، صحيح؟"

"صحيح".

"وكذلك أمي".

"بل إنها تفعل، أمي تحبك".

"هل قلقت بشأني عندما كنت بعيداً؟"

"كلا، إذ كانت تعرف أنك بخير. ولكنّها تحبك فعلاً".

فهبطت كتفاي، وقلت: "لا أحد يحبني".

"أنا أحبك".

ورغم أن كلام أختي بدا مخلصاً تماماً إلاّ أنني لم أكن في المزاج المناسب لسماعه.

"يا سلام! شكراً".

"رغم ذلك ليس هذا السبب في قدومي، أعني أن أخبرك ذلك".

"قلت إنني لست جائعاً".

"لم آتِ لأخبرك ذلك أيضاً".

"لماذا دخلت إذاً؟"

فوضعت ذراعها حولي قائلةً: "دخلت لأخبرك أنه إن كان ميكا لا يريد أن يكون صديقك المفضل بعد الآن، فسأكون مسرورةً أن أكون صديقتك المفضّلة".

"لست بحاجةٍ لصديق".

"حسناً".

فنظرت في أنحاء الغرفة قبل أن أتنهد، وأقول: "هل تريدين أن تلعبي بمجموعة جوني ويست؟"

فابتسمت قائلةً: "حسناً".

خلال الأشهر القليلة التالية، وبينما كان ميكا يقضي الوقت مع أصدقائه، كنت وأختي قد بدأنا نقضي وقتاً أكثر معاً. ولم تكن مثيرةً مثل ميكا. ولكن رغم أنها لم تكن تريد أبداً القفز من على الأشجار العالية، إلا أنّ الانسجام معها كان سهلاً بشكلٍ مدهش. ومع ذلك، فقد كنت بين الحين والآخر فظاً فوق الحدّ معها، وغالباً ما كان ينتهي بها الأمر وهي تبكي، فكنت أرجوها ألا تقول لأمي.

لكنها، رغم ذلك، كانت تفعل. إذ كانت دانا تخبر أمي بكل شيء. ومع أنها لم تكن تنوي أن توقعني في المشاكل، كان ينتهي بي الأمر وأنا أقوم بمزيدٍ من الأعمال المنزلية فيما تراقبني أمي بعبوس.

بدون وجود أبي قريباً منا، والرعب الذي يتضمّنه العدّ التنازلي الدائم لديفكون، بدأ أخي يختبر حدوده. فكان يبقى خارج المنزل حتى وقتٍ متأخر أكثر مما ينبغي، وبدأ يزعجني أكثر، ويجيب أمي بقلة احترام. وبدأ يتصرف كثيراً كمراهقٍ يانع في سن التاسعة.

لم يكن من الممكن لهذا أن يكون سهلاً على أمي. فقد كانت في الثلاثين من عمرها، وتعمل بدوام كامل، وكانت وحدها. وكان آخر شيءٍ كانت بحاجةٍ إليه هو التوتر (مقابل التوتر و) منا نحن الثلاثة. بدأت تصبح أكثر صرامة مع ميكا - الذي بدأ يجيب بقلة احترام حتى أكثر- ولكنّ أخي في سن التاسعة لم يكن نداً لها. وقد كانت تؤمن بمبدأ العصا والجزرة وكانتً تستخدمهما ببراعةٍ وخبرة مثل محارب الساموراي الذي يستخدم السيف. ولم تكن تشعر بوخز الضمير لقولها أشياء مثل: "أنا أحضرتكم إلى هذا العالم وأنا أعرف تماماً أنني أستطيع إخراجكم منه". ثم تصرفها بعذوبةٍ كالسكر بعد ذلك بلحظة وذراعاها مفتوحتان للعناق.

لم تغيّر أمي وجهات نظرها حول العاطفة الأخوية. فعلى سبيل المثال، رغم أنّ أمي كانت مسرورة لأنني وأختي كنا نقضي المزيد من الوقت معاً، فقد لاحظت أن الأمور قد تغيرت بيني وبين ميكا. ورغم أن بعض الآباء كانوا ليعتبروا تنافسنا الأخوي الجديد مرحلةً عابرة، إلا أن أمي لم تستحسنه، ولم تكن أيضاً راغبةً بتحمله. فبدأت تدلي بتعليقاتٍ مثل: "أنتم الثلاثة ستكونون لبعضكم البعض دائماً، لذا من الأفضل لكم أن تكونوا لطفاء الآن". ومثل: "الأصدقاء يأتون ويذهبون ولكنّ الإخوة والأخوات يظلون دائماً مخلصين لبعضهم البعض". ورغم أنني وأخي كنا نستمع - وربما حتى كنا نفهمها غريزياً - فقد كنا نستمر بالجدال والشجار والسير في طريقين مختلفين.

مع ذلك، ففي إحدى الليالي جاءت أمي إلى غرفتنا عندما كنا تماماً نستعد للذهاب إلى السرير. وقد كنت وميكا قد خضنا شجاراً آخر في وقتٍ مبكرٍ من ذلك اليوم، وهذه المرة لأنني أوقعت دراجته عن غير قصد. ولم تقل أمي شيئاً حول الأمر طوالً العشاء، فاعتقدت أنها اختارت أن تتجاهل الأمر وحسب هذه المرة. فساعدتنا في دعائنا كما اعتادت أن تفعل، ثم حالما أطفأت الأضواء جلست بجانب ميكا بينما كان يزحف تحت الأغطية. وسمعتهما يتهامسان لما بدا وقتاً طويلاً، فتساءلت ما الذي كان يجري. وعندها، مما فاجأني، جاءت وجلست بجانبي.

وقامت، وهي تنحني مقتربة، بتمرير يدها داخل شعري، وابتسمت بلطف. ثم همست قائلةً: "قل لي ثلاثة أشياءٍ لطيفة فعلتها دانا من أجلك اليوم، أي شيء، سواء أكان كبيراً أم صغيراً".

فوجئت بسؤالها، ولكن الأجوبة جاءت بسهولة، فقلت: "لعبت معي ألعاباً، وتركتني أشاهد برنامجي على التلفزيون، وساعدتني في تنظيف ألعابي".

فابتسمت أمي قائلةً: "والآن أخبرني ثلاثة أشياءٍ لطيفة فعلها ميكا من أجلك اليوم".

وهذا ما عليّ أن أعترف أنه كان أكثر صعوبةً بعض الشيء.

"لم يفعل أي شيءٍ لطيف معي اليوم".

"فكّر بذلك، قد يكون أي شيء".

"لقد كان لئيماً طوال اليوم".

"ألم يمش معك إلى المدرسة؟"

"نعم".

"إذاً، هذه واحدة. والآن فكر باثنين آخريْن".

"لم يضربني بشدةٍ فوق الحد عندما أوقعت دراجته".

فلم أكن واثقاً فيما إذا كانت ستتقبل تلك، ولكنها أخيراً أومأت برأسها. "هذه ثانية".

"و...".

ارتبكت، إذ لم يكن هناك شيء، لا شيء آخر إطلاقاً لأقوله. واستغرقني الأمر وقتاً طويلاً حتى أجد شيئاً؛ وليست لدي فكرة ما الذي وجدته في نهاية المطاف، وأعتقد أنني قد لجأت لاختراع شيءٍ ما، ولكن بدا على أمي أنها تتقبله، فقبلتني قبلة ما قبل النوم قبل أن تتحرك نحو سرير أختي. فلم يأخذ الأمر من أختي أكثر من عشر ثوانٍ لتجيب عن نفس الأسئلة. وعندها تسللت أمي من الغرفة.

وفي الظلام، كنت أتقلّب وأغمض عيني عندما سمعت صوت ميكا.

"نكي؟"

"ماذا؟"

"إنني آسف بشأن ضربي لك اليوم".

"لا بأس، وأنا آسف بشأن إيقاع دراجتك".

وللحظةٍ، كان هناك صمت حتى قطعته دانا، قائلةً:

"والآن ألا تظنان أنكما تشعران بتحسن؟"

ليلةً بعد ليلة، كانت أمي تجعلنا نسمّي ثلاثة أشياءٍ لطيفة فعلها إخوتنا لنا، فكنا كل ليلة بطريقةٍ ما قادرين على إيجاد شيء.

ومما فاجأني، فقد بدأت وأخي نتجادل أقل فأقل.

ربما كان اختراع الأشياء أمراً صعباً، إلا أنه بعد فترة أصبح الأمر أكثر سهولة وحسب، ليس فقط لتصبح أكثر لطفاً، ولكن لتلاحظ عندما يكون الآخرون لطفاء معك.

أنهينا عامنا الدراسي، وقد أنهيت الصف الثاني وأنهى ميكا الثالث. وفي شهر حزيران، قرَّر جدي أن يضع سقفاً جديداً لمنزله، وهي محاولة قرر أنني وميكا سنساعده فيها. وكانت معرفتنا ببناء السقف وخبرتنا مع الأدوات يمكن أن تتلخص بكلمةٍ واحدة: ولكننا عرفنا بسرعةٍ أن ذلك لن

يوقفنا. إذ كان ذلك، رغم كل شيء، شيئاَ جديداَ ومغامرة أخرى. خلال فترة أسبوعين، تعلمنا فنّ دق المسامير حتى تقرّحت أيدينا وأصابعنا.

كنا نعمل خلال أبغض موجات الحرّ في حياة طفولتنا. فقد كانت درجة الحرارة تقارب المائة درجة فهرنهايت والرطوبة لا تطاق. وقد أصبنا بالدوار أكثر من مرة ونحن جالسان على سطح البيت الملتهب. إذ لم يكن جدي يشعر بوخز الضمير حيال جعلنا نقف قرب حافة السطح، ونحن بالطبع لم يكن لدينا شعور بذلك أيضاً.

رغم أنني قد نجوت سالماً بعد أن جنيت مبلغ 7 دولارات مقابل أسبوعين من العمل، إلا أن أخي كان أقل حظاً. إذ في عصر أحد الأيام بينما كان يأخذ استراحة قصيرة، قرّر أن يحرّك السلم لأنه كان يبدو قائماً في الطريق. والأمر الذي لم يكن يعرفه هو أن قطّاعة الألواح الخشبية (وهي أداة حادة وثقيلة شبيهة بالمقص) كانت قد تركت على الدرجة العليا. وفيما كان يلتمس طريقه مع السلم انزاحت قطاعة الألواح الخشبية من مكانها وهبطت إلى الأسفل كالقذيفة، فضربته على بعد بوصةٍ تقريباً فوق جبينه. وخلال ثوانٍ، كان الدم يتدفق من رأسه.

وصرخ، فأسرع جدي إليه.

قال بوجه عابس "هذا يبدو عميقاً جداً". وبعد دقيقةٍ، أومأ برأسه قائلاً: "يفضّل أن أحضر خرطوم المياه".

في الحال، كانت المياه تنصب من الخرطوم على رأس أخي. وكانت تلك بالمناسبة الخلاصة الإجمالية للمعالجة الطبية التي حصل عليها لذلك اليوم. فلم يؤخذ إلى الطبيب أو المستشفى. ولم يحصل ميكا على بقية اليوم إجازةً أيضاً. وأتذكر مشاهدتي للمياه تتحول إلى اللون الزهري وهي تتدفق فوق الجرح، وكنت شاكراً لله أن ميكا كان يتمتع مثلي "بجمجمة سميكة".

بحلول الوقت الذي استؤنفت فيه المدرسة في الخريف، أصبحت أخيراً معتاداً على الحياة في نبراسكا. إذ كنت أبلي حسناً في المدرسة - ففي ذلك الوقت، لم أحصل على علامة أقل من "جيد جداً" - وكوّنت صداقاتٍ مع بضعة أطفالٍ آخرين في الصف. كنت أقضي فترات العصر وأنا ألعب كرة القدم. ولكن بينما كانت حرارة الصيف تفسح مجالاً لبرودة الخريف، انقلبت حياتنا مرة أخرى.

فقد أخبرتنا أمي أثناء العشاء في إحدى الليالي قائلةً: "سننتقل عائدين إلى كاليفورنيا. وسنرحل قبل 25 كانون الأول ببضعة أسابيع".

فقد اصطلح والداي (رغم أننا في ذلك الوقت لم نكن مدركين حتى أنهما قد انفصلا رسمياً). وقد حصل والدي على وظيفةٍ كأستاذٍ في جامعة كاليفورنيا الحكومية في مدينة سكرامنتو حيث كان سيعطي دروساً في الإدارة.

هكذا انتهت مدة إقامتنا في نبراسكا بشكلٍ مفاجئ كما كانت قد بدأت.

الفصل السادس

مدينتا ياكسا وتيكال في غواتيمالا
24 - 25 كانون الثاني

في صباح يوم الجمعة، هبطت وميكا على أرض غواتيمالا، ودخلنا في عالمٍ يختلف كلياً عن الذي كنا قد غادرناه لتونا.

بعد المرور عبر الجمارك، ركبت مجموعتنا السياحية سيارات "الفان" التي سارت باتجاه "بيتين" مروراً بمنازل متداعيةٍ وقرىً صغيرة بدت وكأنها قد جمّعت من قطعٍ صغيرة وأجزاء عشوائية من المواد. فكان ذلك من بعض النواحي أشبه بالعودة بالزمن إلى الوراء. فحاولت أن أتخيّل أول ما فكّر به الفاتحون الإسبان عندما وصلوا إلى هذه المنطقة. إذ كانوا أول من اكتشف آثار ما كان في السابق حضارةً مزدهرة، والتي كانت مدنها الكبيرة تتضمّن معابد ترتفع إلى علوٍ يبلغ 230 قدماً، وكانت تظهر كصورةٍ ظليلةٍ مقابل خضرة الأدغال الكثيفة.

لقد كنت مهتماً بحضارة شعب المايا منذ قرأت عنها عندما كنت طفلاً، وعرفت أنهم بلغوا تقدماً فكرياً منقطع النظير في العالم الجديد. إذ كانت حضارتهم في عصرها الذهبي بين عامي 300 - 900 للميلاد تشتمل على المنطقة التي تتضمّن شبه جزيرة يوكاتان وجنوب المكسيك وبيليز وغواتيمالا وأجزاءً من الهندوراس والسلفادور. فقد وصلت الحضارة إلى أوجها وسط أدغال ومستنقعات بيتين في غواتيمالا، حيث بنيت مدن ياكسا وتيكال.

كانت الحضارة عبارةً عن دراسةٍ في المتباينات، أي أنها حضارة وحشية في بعض الأحيان شاركت في التضحية البشرية. فقد كان شعب المايا في آن معاً يستخدمون مفهوم الصفر قبل الأوروبيين بآلاف السنين، وكانوا قادرين على الحساب بمئات الملايين. فكانت معرفتهم بالرياضيات تمكّنهم من رسم خرائط للنجوم ومن التوقع بدقةٍ خسوف القمر، وتطوير تقويم الـ 365 يوماً. ولكن كانت الأسطورة تقول إنهم لم يستخدموا العجلة أبداً.

وصلنا إلى بايوسفير المايا - وهو المتنزه القومي الواسع في بيتين، والذي كان موطن الآثار - حيث تناولنا الغداء في كوخٍ في الهواء الطلق بجانب البحيرة. واستمرينا بالتعرف على رفاقنا، وكان معظمهم قد سافر لمسافاتٍ أبعد مما فعلت وميكا. بعد ذلك بساعة، كنا قد عدنا إلى الطريق مجدداً من أجل محطتنا في ياكسا.

اسم ياكسا هو في نفس الوقت اسم هور وموقع مدينةٍ بنيت قبل أكثر من 1500 عام في وسط الأدغال التي تمتد على جوانبها. لقد كانت ياكسا ذات مرةٍ ثالث أكبر مدينة في إمبراطورية المايا، وهي تبعد 20 ميلاً تقريباً عن تيكال، التي هي أكبر وأهم المدن الشعائرية. مع ذلك، عندما وصلنا لم نرَ شيئاً سوى الأشجار والممرات الترابية تخترق التلال بشكلٍ متعرج. كان يمكننا أن نسمع من بعيد أصوات القرود العاوية. ولكن خضرة الأشجار فوقنا كانت من الكثافة بحيث كان مستحيلاً أن نراها.

بدأ دليلنا يتكلم عن المدينة وحضارة المايا بينما كان يشير في اتجاهاتٍ مختلفة. فلم أستطع رؤية شيء. وفيما استمر، نظرت نظرةً خاطفة إلى ميكا الذي هزّ كتفيه. وعندما سأل الدليل إذا كانت هناك أية أسئلة. تكلمت.

وسألت: "متى سنصل فعلياً إلى هناك، أعني إلى ياكسا؟"

فأجاب: "إننا فيها الآن".

فسألت: "ولكن أين الأبنية؟"

فأشار إلى سفوح التلال المحيطة بنا. وأجاب: "هذه ليست تلالاً كما ترى. إذ يوجد تحت كل رابيةٍ بناء أو معبد".

فعرفنا أن الأشجار في هذا الجزء من الأدغال تتساقط أوراقها ثلاث مرات في السنة. وفيما تتحلل الأوراق مع مرور الوقت تشكّل مزيجاً من الأوراق والروث والذي يتحول في نهاية المطاف إلى تراب. فيساعد التراب على بداية نمو النباتات ثم الأشجار في نهاية المطاف. فتنمو الأشجار وتكبر ثم تموت، وتنمو أشجار أخرى في مكانها. وهكذا ابتلعت الأدغال المباني واحداً تلو الآخر.

فلم يفاجئنا الخبر. إذ إن المدينة قد أهملت منذ ألف سنة - مما يشكّل ثلاثة آلاف طبقةٍ من الأوراق والنباتات المتراكمة بكثافة- وقد نمت الأدغال دون أن يمنعها شيء. فكان من المنطقي ألا نرى أية دلائل على المدينة.

لكننا كنا مخطئين. ففي الواقع، تم ترميم أقسام من ياكسا بشكل كامل قبل هذا الوقت بأقل من على يد علماء الآثار، وذلك بنفسِ الطريقة التي ترمم فيها تيكال الآن. فتم قطع الأدغال والكشف كلياً عن عشرات المباني والمعابد. ومع ذلك، فبسبب الأمطار التي بدأت تدمّر ببطء المعابد التي تم الكشف عنها حديثاً - ولأن الافتقار إلى الموارد المالية قد فشل في منع الدمار- لم يكن لدى الحكومة خيار سوى أن تسمح للأدغال بالتعدي مرة أخرى على ياكسا لصالح تيكال.

وبدأ ميكا ينظر حوله، وكان تعبير وجهه يبدو مندهشاً كالأطفال.

وسألني: "أيمكنك أن تصدق أنّ كل هذه النباتات قد نمت خلال ثمانين عاماً فقط. لقد كان جدّانا على قيد الحياة في ذلك الوقت".

"لا يمكنني التصديق".

"أتساءل كيف ستبدو بعد ثمانمائة عام".

فتأملت قائلاً: "على الأرجح نفسها تقريباً، ألا تظن ذلك؟ باستثناء أن التلال قد تبدو أكبر حجماً بعض الشيء".

"أعتقد ذلك". وحدّق بعينين نصف مغمضتين وهو يحاول أن يُمعن النظر من خلال كثافة الأدغال.

"كيف يمكن بحقّ السماء لأيّ شخصٍ أن يكون حتى قد اكتشف هذا المكان؟ أعني أنني عندما

أرى كومة من التراب فأنا لا أعتقد تلقائياً أن هناك هرماً تحتها".

فوضعت ذراعي حوله قائلاً: "لهذا السبب لست عالم آثار".

بدأ الدليل يقودنا على طول أحد الطرق مستمراً بشرح مظاهر متعددةٍ من المدينة. كنت وميكا نتبع مجموعتنا ورأسانا يدوران من جانبٍ إلى آخر. فبدأ ميكا يفرك يديه ببعضهما، وهو شيء لطالما كان يفعله عندما يشعر بالإثارة.

فقال: "هل يمكنك أن تصدق أننا هنا، يا نك؟ في مدينةٍ لشعب المايا مدفونةٍ في أدغال غواتيمالا؟ إذ قبل ست ساعات كنا في فورت لاودرديل ونحن نأكل الباغل المستدير والجبن القشدي".

"لا يبدو الأمر حقيقياً، أليس كذلك؟"

فقال: "كلا، وسأخبرك شيئاً". وأشار حوله. "لم أكن أعتقد أبداً أنني سأشعر بهذه الإثارة لرؤيةٍ كومةٍ من التراب".

بعد ذلك بلحظاتٍ قليلة، دخلنا ما كان في السابق ساحةً عامة. فكان أمامنا أحد المعابد التي تم اكتشافها بالكامل، وللمرة الأولى، ترسّخت حقيقة ما كنا سنراه في الرحلة. كان المعبد، الذي يأخذ شكلاً يشبه شبه منحرفٍ أسود ورمادي، يرتفع إلى علو مائة قدم في الجو. وقد أعلمنا دليلنا أنه كان مهملاً في العام 900 للميلاد تقريباً قبل وصول كولومبوس بحوالى ستمائة سنة. فكان ذلك يعني أن الفترتين بين استعمال المعبد ووصول كولومبوس، وبين وصول كولومبوس ويومنا هذا هما تقريباً متساويتان، فأدهشتني تلك الفكرة بالذات. وبدت اهتماماتي اليومية فجأةً صغيرة جداً مقارنةً بمد وجزر التاريخ ونهوض وسقوط الحضارات.

كان أخي أيضاً يتفحص المعبد الذي أمامنا باهتمامٍ كبير رغم أن أفكاره كانت مختلفةً بعض الشيء عن أفكاري.

"انظر كم هو مرتفع! عليّ أن أتسلّق ذلك الشيء".

هكذا، وبعد أن أخذنا إذن دليلنا، قمنا بذلك. فجرينا صعوداً في الجانب البعيد من المعبد، وهو عبارة عن مجموعةٍ متداعية من الألواح البالية، وقد تسابقنا بشكلٍ غير منتظم ونحن مربوطان معاً بحبل بالٍ. فكنت وأخي أول الواصلين إلى القمة. فانفردنا بالمكان لأنفسنا خلال الدقائق القليلة الأولى.

كانت السماء ملبّدة بغيومٍ سوداء تحوم في الأفق البعيد، واستطعنا أن نرى خلفنا الهور والكثافة التامة للأدغال الممتدة علىً بعد ثلاثين ميلاً في كل اتجاه. وكان من المستحيل رؤية الأغصان المتشابكة للأشجار، ولكننا رأينا قممٍ ثلاثة أهراماتٍ أو أربعة بارزةً من خلالها وكأنها تحاول الوصول إلى السماء. كان المكان ساكناً كلياً باستثناء صوت أنفاسنا؛ إذ كنا متعبين بعض الشيء من التسلّق. وكانت جوانب الهرم تبدو منحدرةً إلى الأسفل مباشرة. وكان الوقوف إلى جانب الحافة يشعرني بالدوار. وبالرغم من ذلك، لم أستطع وميكا أن نمحو الابتسامة عن وجهينا. إذ قد بدأنا رحلة العمر منذ ساعاتٍ قليلة، وكنا في ذلك الوقت واقفين على ما كان يبدو وكأنه قمة العالم في مكان لطالما حلمنا برؤيته.

قال ميكا فجأة: "التقط لي صورة، فستحب كريستين ذلك".

"لو كانت هنا، هل تعتقد أنها كانت لتصعد؟"

"هذا مستحيل، فهي تكره المرتفعات. وكانت لتكون بين أولئك الناس الذين في الأسفل هناك". قال ذلك وهو يشير إلى المكان الذي كنا نقف فيه. "وماذا عن كاثي؟"

"إنها لا تحب المرتفعات أيضاً، ولكنها كانت لتكون في الأعلى هنا. رغم أنها لم تكن لتقترب كثيراً

من الحافة".

أخذت صورة له وأخذ صورة لي. ثم أخذنا أخرى وبعدها صوراً أكثر أيضاً. واستمرينا بالتحديق بدهشةٍ حتى في الوقت الذي استعدت فيه هاتفي الذي يعمل عبر الأقمار الاصطناعية من حقيبة ظهري.

قلت: "عليّ أن أتصل بكات". فكنت أشعر بالحاجة لمشاركة هذا معها. فطلبت الرقم وسمعت الهاتف يبدأ بالرنين. وقد أدهشني هذا، إذ كنت أجري مكالمة من وسط المجهول. وعندما أجابت، كانت الكلمات الأولى التي خرجت من فمي هي: "إنني واقف على قمة معبدٍ لشعب المايا في الأدغال". وسمعت كاثي تهتف بنفس الإثارة التي كنت أشعر بها.

وسألت: "هل هو رائع؟"

فحدّقت حولي بدهشةٍ، وقلت: "إنه لا يصدّق. والطريقة الوحيدة التي سيكون بها أفضل هي أن تكوني هنا بجانبي".

فقالت: "آه، وأنا أيضاً أفتقدك".

عندما أغلقت السماعة لاحقاً، طلب ميكا الهاتف مني ليتصل بكريستين، ولكنها لسوء الحظ كانت خارج المنزل. فأقفل الهاتف وهو خائب الرجاء بعد أن ترك رسالة على المجيب التلقائي.

انتهت عزلتنا بعد دقيقةٍ بوصول بقية الحشد.

كانت هناك تلك الليلة في الفندق حفلة كوكتيل تبعها عشاء. كان العشاء عبارةً عن بوفيه، ورغم التحذيرات من تناول السلطات والخضار شاهدنا الكثير من الناس يتناولونها على أية حال. وكما توقعت الطبيبة بالضبط، أصبح أكثر من عشرة منهم مرضى خلال أيام، وبقي بعضهم مرضى طوال الفترة الباقية من الرحلة.

تناولنا عشاءنا تلك الليلة مع بوب وكيت ديلفين، اللذين كانا يقسمان وقتهما بين كونيكتيكت ومدينة نيويورك، فأقمنا معهما علاقة فورية. لقد كان لديهما ولدان في مثل سننا تقريباً، فقالا إننا ذكّرناهما بولديهما. وكانت العلاقة بالنسبة إلينا تبدو شخصية بالمثل تماماً.

فسألني ميكا بينما كنا متوجهين نحو غرفتنا: "ألا تذكّرك كيت بأمنا؟"

فأجبت: "نعم، إنها كذلك". وكنت مندهشاً لأنه كان يفكر بالضبط بالشيء الذي كنت أفكر فيه.

فاستغرقنا في الأفكار، ولم نقل شيئاً لبقية تلك الليلة.

بسبب كونها محور حياة المايا، أعلنت تيكال من قبل اليونسكو بأنها موقع تراثٍ دولي، فاستمر الاكتشاف والإصلاحات لعقود. ورغم عدد الزوار، كان الأمر يتطلب جيشاً صغيراً لإيقاف الأدغال عند حدّها.

لقد كانت المنطقة المحيطة بتيكال في إحدى الفترات موطناً لمائة ألف شخص، كان جميعهم يعتمدون على المدينة من أجل الحماية والتجارة. ومع ذلك، فبحلول نهاية القرن العاشر بدأت الحضارة بالانحلال. وقد كثرت النظريات حول السبب؛ مثل زيادة عدد السكان، والحروب، وسقوط الأسرة الحاكمة، والجفاف، والمجاعة والمقدرة الغذائية المتضائلة للتربة، أو مجرد عدم رضا الناس الذي دفعهم إلى العثور على فرص مع قبائل غازيةٍ أخرى. لكن خلال أجيالٍ قليلةٍ، كانت المدينة قد هجرت كلياً، وانتشر الناس في الريف. هكذا، ما يزال نهوض وسقوط إمبراطورية المايا يعتبر أحد أعظم ألغاز العالم، وقد كنت أفكر به بينما كنا في طريقنا إلى المدينة الأثرية.

تتضمن آثار تيكال قرابة ثلاثة آلاف مبنىً بما فيها القصور والمعابد والمنصات وقاعات الرقص والساحات العامة والشرفات، والتي تم بناؤها على مدى فترة ستمائة سنة. هكذا تكون بعض الأقسام بشكلٍ واضح أقدم من الأخرى. ومن الممكن ملاحظة أسلوب بناء المايا المتغير. الأمر الذي مكّن علماء الآثار من تحديد تاريخ مواقع المايا بدقة في كافة أنحاء أمريكا الوسطى والمكسيك.

مع ذلك، فقد كانت الحجارة القربانية هي التي أسرت أخي. إذ كانت تلك الحجارة التي كان الناس يقتلون فوقها كقرابين للآلهة. وكان دليلنا، وهو من المايا، يناقش بفخرٍ الأسباب التاريخية والثقافية للحجارة، عندما مال ميكا وقال هامساً: "اجعل أحداً ما يلتقط صورةً لي وأنا ممد على الحجر بينما تتظاهر بطعني، ألن يكون ذلك رائعاً؟"

في الواقع، وجدت الفكرة رهيبةً بعض الشيء، ولكنني وافقت مرغماً، فسلّمت الكاميرا واتخذنا مواضعنا. وفقط عندما كانت الصورة على وشك أن تلتقط جاء الدليل مندفعاً ووجهه محمرّ، وقال: "كلا، كلا. لا يمكنك أن تستلقي على الحجارة وتلتقط الصور. فهي ذات أهميةٍ دينية عظيمة".

فعارض ميكا قائلاً: "أعلم ذلك، ولهذا السبب أريد الصورة".

"هذا ليس مسموحاً".

"صورة واحدة وحسب".

"كلا!"

فقال وهو يغمز: "آه، صورة واحدة. لن نخبر أحداً".

ورغم أنني ضحكت، إلا أن الدليل حدّق بدهشة. إذ كان من المايا، ككل الغواتيماليين الذين يعيشون في المنطقة. وإنني واثق بأنه قد ظنّ أننا نهينه أو نهين ثقافته. فعندما لم يبتسم نهض ميكا عن الحجر مرغماً. وحالما بدأنا نتبع المجموعة هززت رأسي.

وقلت غير مصدق: "من أين تأتي بهذه الأفكار؟"

فضحك ميكا قائلا: "إنه لم يستحسن ذلك كثيراً، أليس كذلك؟"

فهززت رأسي قائلاً: "بدا غاضباً جداً، وكذلك بدا الناس الذين يديرون الرحلة. إنك تهين ثقافتهم، وسوف توقعنا في المتاعب".

"آه، ستيجاوزون الأمر. إنهم لن يتذكروه حتى".

ولكنّهم فعلوا ذلك بالطبع. فبعد ساعة، سارت إحدى العاملات لصالح المكتب السياحي نحونا فيما كنا نسير. وكانت ربما تكبرنا بنحو عشر سنوات. وكانت قد عملت في رحلاتٍ عديدة. وكانت متمكنةً تماماً من فن تصنيف الناس.

لاحظت قائلةً: "أنتما الاثنان ستسببان المتاعب في هذه الرحلة، أليس كذلك؟"

مشينا على طول ما كان سابقاً الشارع المشجّر الرئيسي الذي يؤدي إلى تيكال، وتجولنا في آثار أحد القصور بينما كانت القردة العاوية تصرخ بتحذيراتها فوقنا. ومن هناك، تحركنا إلى الساحة العامة الرئيسية.

كان هناك هرمان يقعان على كلتا نهايتي الساحة الرئيسية لتيكال. وهما من ضمن أهرامات المايا التي يصوّرها السياح أكثر من غيرها. ورغم أن أحد الهرمين كان خارج الحدود للمتسلقين فقد سمح لنا بتسلق الثاني.

فكان المنظر على القمة يأخذ بالأنفاس. وقد استطاع ميكا أخيراً أن يتصل بكريستين. وعندما أنهى المكالمة، جلسنا عند حافة الهرم وأرجلنا متدلية تحتنا. وكانت الأرض على بعد مائة قدم أسفل منا. واستطعنا رؤية أفراد الرحلة الآخرين متجمعين في مجموعاتٍ صغيرة في أنحاء الساحة العامة الأثرية. وبما أن القليل منهم فقط أرادوا التسلق، فقد انفردنا بالمكان لأنفسنا.

وسألت: "إذاً، كيف حال كريستين؟"

"إنها على ما يرام، وتقول إنها تفتقدني".

"وكيف هي الحياة على الجبهة المنزلية حتى الآن؟"

فابتسم قائلاً: "إنها تصاب بالجنون بعض الشيء. فهي على عكس كات ليست معتادةً على غيابي. فاستمرت تتحدث عن مدى انشغالها؛ إذ لم تتوقف منذ ذهبت إلى المطار. وقالت إنها كانت أربعة أيام من الجحيم، وأنها سوف تتصل بكاثي لتدعمها معنوياً".

فابتسمت قائلاً: "أخبرها أن تتصل عندما يكون الولدان الأكبران في المدرسة. وإلا فإن كات لن تتسنى لها الفرصة للتحدث معها. إذ حالما يكون الخمسة معاً في البيت يصبح البيت مجنوناً. خاصة بين الساعة الخامسة والتاسعة. فنحن ندعوها بالساعات الساحرة. وذلك عندما يصاب الصغار بالتعب، ويئن الكبار لأن عليهم كتابة فروضهم المنزلية، وهي تبدأ بتحضير العشاء، وما تزال نوعاً ما تتدبر أمر أخذ الأولاد من تدريبٍ إلى آخر. وبعد ذلك، يأتي وقت الاستحمام. وإذا حاولت في أي وقت أن تجعل خمسة أطفالٍ يستحمون في آن معاً، فستعرف أن الأمر لا يدعو للاسترخاء. وهي لديها أسلوب جيد في هذا الأمر. فهي زوجة عظيمة، ولكنها عبقرية كأم".

وضع ميكا ذراعه حولي قائلاً: "لقد وفّقنا بزواجنا، أليس كذلك؟"

فاعترفت قائلاً: "نعم، لقد فعلنا ذلك. وأعتقد أن هذا ما تعلمناه من أمنا. أعني، ما كنا نبحث عنه عندما تزوجنا، إذ تزوجنا كلانا بامرأتين ذكيتين، تتمتعان بقلبين كبيرين، وتعشقان أطفالهما بشكلٍ مطلق. وذلك هو ما علمتنا إياه أمي".

"هل تقول إنني جوهرياً قد "تزوجت" بأمي؟"

"كلانا، فعل ذلك".

فرفع أحد حاجبيه قائلاً: "وما الذي تعلمناه من أبينا".

فقلت بصوتٍ مرتفع: "إدارة الغضب؟ كما تعرف، الأمر المتعلق باللسان".

فضحك قائلاً: "نعم، كان ذلك شيئاً مؤثراً، أليس كذلك؟ يا صاح، لقد كان يبدو مخيفاً جداً عندما كان يفعل ذلك. وما زال ذلك يسبب لي الكوابيس". ثم ألقى نظرةً خاطفة عليّ قائلاً:

"هل أخبرتك أنني فعلت ذلك مرة مع آلي؟ لأرى وحسب كيف ستكون ردة فعلها؟"

"وبعدها؟"

"جرت بعيداً وهي تصرخ، ولم تخرج من غرفتها".

فضحكت، وقلت بعد لحظة: "كلا، ما أعتقد أننا أخذناه من أبينا هو حبنا للتعلّم".

"أعتقد ذلك أيضاً. فقد كنت أظن وأنا أكبر أن أمنا ذكية.. ذكية جداً. ولكن أبانا... لقد كان متفوقاً على غيره".

"لقد كانا يشكلان ثنائياً تماماً، أليس كذلك؟"

فقال: "نعم، وقد كانا يوازنان بعضهما بعضاً. فمن كان يدري كيف كنا سنصبح لو أنهما لم يعودا إلى بعضهما بعد إقامتنا في غراند آيلند".

في الأول من كانون الأول عام 1974، أعيد لمّ شمل عائلتنا في "فيرأوكس" في ولاية كاليفورنيا. وهي ضاحية في شمال شرق سكرامنتو بالضبط. وفي غضون دقائق من وصولنا شغّل والدي التلفزيون ليشاهد: "كولتشاك، مطارد الليل" وهو مسلسل رعب، إلا أنه يستحقّ المشاهدة بالكامل، وقد كان والدي يفضّله كثيراً. وسرعان ما كنا نحن الثلاثة جالسين بجانب والدي على الأريكة نأكل الفشار ونشاهد شيئاً مرعباً على التلفزيون، ونحن نكاد نعتقد أننا لم نبتعد عنه على الإطلاق.

كان منزلنا - وهو منزل مستأجر آخر بالطبع - يحتوي على أربع غرف نوم، وهي رفاهية يستحيل فهمها في عقولنا الصغيرة. إلا أنني لم أستطع منع نفسي من ملاحظة أن والدي قد طالب بإحدى الغرف لتكون مكتباً له. وبما أن غرفة النوم الرئيسية قد أخذت بشكلٍ واضح، فقد ترك هذا غرفتين لنا نحن الأطفال الثلاثة، فأعلنت أمي بسرعةٍ أن أختي هي التي ستحظى بغرفتها الخاصة، وكان السبب: "إنها فتاة".

بسبب تأخر الوقت في الفصل الدراسي الأول، منعنا والدانا من الذهاب إلى المدرسة حتى ما بعد رأس السنة عندما بدأ الفصل الدراسي الجديد. لقد اشترى والدي أيضاً كلبةً من نوع دوبرمان، واسمها براندي. وكما اعتدنا أن نفعل في الأماكن الجديدة، خرجت وأخي للاستكشاف، وهذه المرة مع كلبتنا التي جررناها بحبل. كان شارعنا مغلقاً في نهايته بمنازل قليلةٍ في الأعلى تحاذي ما يشبه القفر، وكانت رغبتنا الأولى هي "تعلّم المنطقة". إن فيرأوكس متطورة تماماً في الوقت الحاضر. ولكن في ذلك الوقت، كانت هناك حقول واسعة وتلال وبيت مهجور وأشجار للتسلق، وهو كل شيءٍ يحتاجه الصبية الصغار ليمرحوا. وكان الأمر حتى أفضل من ذلك، إذ لم نكن الأطفال الوحيدين في الشارع. فقد كان كل جيراننا تقريباً يعيشون حياة ترحالٍ وتنقل مشابهة لحياتنا، ولهذا لم يكن الأمر وكأننا الأطفال الجدد الوحيدون في مجمع الأبنية. ففي فترات العصر، كنا نلعب في الشارع خارجاً، وتدريجياً تعرفت وأخي عليهم. وكما حدث في نبراسكا، سرعان ما بدأ أخي يتركني وراءه مفضلاً رفقة أصدقائه الجدد.

رغم حقيقة أنه قد تم لم شمل والديّ، إلا أنهما قد استمرا يعيشان حياةً مختلفة إلى حدٍّ كبير. فكانت أمي، التي عثرت على وظيفةٍ أخرى كمساعدة طبيب عيون، تنهض معنا وتأخذنا إلى المدرسة بينما يكون والدي نائماً. وكانت بعد الذهاب إلى العمل تعود إلى منزلٍ خاوٍ في ليلتين أو ثلاث ليالٍ في الأسبوع، بما أنه كان يتوجب على أبي التدريس ليلاً أحياناً. وفي تلك الليالي التي لم يكن عليه التدريس فيها، كان إما يصحح أوراق الامتحان أو يقرأ آملاً أن يبقى مواكباً للحقل الدراسي الذي اختاره. كان يضطر ككل الأساتذة أيضاً للنشر، وكان من الممكن سماعه عادةً وهو يكتب على الآلة في مكتبه. وكان والدي ووالدتي يلتقيان صدفةً بين الحين والآخر. ولكن بشكلٍ عام، كان يبدو أنهما يقضيان وقتاً قليلاً معاً.

بالرغم من أنه كان من السهل التخمين أنهما لم يكونا يستمتعان بصحبة أحدهما الآخر - إذ إنه لم يكن يبدو على أي منهما أنه يخرج عن عادته ويتحدث مع الآخر، على أية حال - فقد كانت بينهما علاقة مريحة. إذ كانا يمزحان ويضحكان على طاولة المطبخ أثناء العشاء، حتى أنني كنت أحياناً أفاجئ أبي وهو يداعب عنق أمي عندما لا يكونان مدركين أنني أراقب. رغم أنهما لم يكونا محبين بشكلٍ علني معظم الوقت، فلم يكونا متطلبين أو محبين للتملك أو غيورين أيضاً. إذ لم أسمع أياً منهما أبداً يتكلّم بشكلٍ سلبي عن الآخر. ونادراً ما كنت أسمعهما يتجادلان بعد ذلك. فقد وضعا الماضي وراء ظهرهما بنجاحٍ أكبر من أي وقتٍ، وكان يبدو عليهما أنهما بالضبط ما يحتاج إليه كل منهما.

حتى ذلك الوقت، كانا يعيشان حياة تضحية. وأظنّ أن ذلك ما لمّ شملهما أيضاً. إذ رغم كل شيء لم يكن أي منهما يعيش حياة أحلامه. فقد كان والدي يريد حياةً أقل ضغوطاً وأقل مشكلاتٍ مالية، ورغم أنه لم يرغب بثروة ضخمة إلا أنه غالباً ما كانت همته تثبط من الكفاح اليومي لإبقاء الأسرة مكتفية ذاتياً. ولم يكن يستطيع أيضاً أن يتخيّل أي تغيير في المستقبل، وقد أرهقه ذلك أيضاً. ولم تكن أمي مختلفةً. فقد وجدتها في إحدى المرات تبكي في غرفة النوم، وقد أرعبني ذلك الاكتشاف. إذ كان ذلك مختلفاً عن طبيعتها، لدرجة أنني بدأت أذرف الدموع أيضاً، فجذبتني إليها.

قالت: "لقد كنت أفكر وحسب كم كان الأمر ليكون لطيفاً أن نعيش في الريف مع الخيول كما كنت أعيش عندما كنت صغيرة، وربما مع منزلٍ صغير حيث يمكننا الذهاب لركوب الخيل في العطل الأسبوعية.... كان الأمر ليكون رائعاً تماماً. أتمنى لو كان بإمكاننا أن نمنحكم ذلك النوع من الحياة أيها الأطفال".

لطالما تكون الأحلام ساحقةً عندما لا تتحقق. ولكنّ الأحلام البسيطة هي التي غالباً ما تكون أكثر إيلاماً لأنها تبدو شخصيةً جداً ومعقولة جداً و جداً. فتكون دائماً قريباً بما يكفي لتلمسها، ولكنك لست قريباً أبداً بما يكفي لتمسك بها، وهذا كافٍ ليفطر قلبك.

أما بالنسبة إليّ وميكا فقد تحولت حياتنا خلال السنوات الأربع التالية إلى نمطٍ واضح نسبياً. إذ استمر أخي بفرد جناحيه والعثور على أصدقاءٍ جددٍ بسهولة. وتعرفت أختي على أصدقاءٍ حميمين أيضاً، وأصبحت إحداهن بسرعة مثل أختٍ لها. أما أنا، من جهة أخرى، فقد كنت أقل حظاً في الحفاظ على الصداقات، ليس بسبب وجود أي خطبٍ بي (وإنني على الأقل أحبّ أن أفكر هكذا) ولكن بالأحرى بسبب مجرد سوء الحظ.

فقد كان صديقي المفضل في الصف الثالث يدعى تِمْ، إلا أنه انتقل إلى مدرسة الأبرشية في الصف الرابع فلم تعد طرقنا تلتقي مجدداً. وكان صديقي المفضل في الصف الرابع يدعى آندي، وهو أيضاً انتقل إلى مدرسة الأبرشية في الصف الخامس، ولم أعد أراه مجدداً أيضاً. وفي الصف الخامس كان صديقي المفضل يدعى وارن، إلا أنه انتقل في الصف السادس إلى أستراليا. وفي الصف السادس كان صديقي المفضل يدعى كيفن، فعندما توجهنا إلى المدرسة الإعدادية في السنة التالية لم نشترك في صفٍ واحد معاً.

من جهة أخرى، كان أخي أوفر حظاً، إذ لم تزدد الصداقات التي كوّنها إلا قوةً خلال السنين. فلم ينتقل أي من الأطفال بعيداً، ولم ينتقل أي منهم حتى إلى مدرسة مختلفة. وكان أصدقاء ميكا مثله يميلون إلى أن يكونوا مغامرين، فكانوا يقضون فترات العصر والعطل الأسبوعية إما في الحقول قرب منزلنا أو عند نهر أمريكان ريفر على بعد عدة أميال.

في غضون ذلك، بدأت أجد متعة أكثر بالقراءة وحيداً. ولأننا لم نكن نستطيع مالياً تحمّل شراء الكتب. وبما أن مكتبة البلدة كانت صغيرة إلى حدٍ كبير، وكانت فيها عناوين قليلة نسبياً، فلم يكن هناك في البيت شيء كثير لأختار منه سوى مجموعة .مع انعدام خياراتٍ أخرى، بدأت بالمجلد الأول. وعلى مدى العامين التاليين، قرأت المجموعة الكاملة المؤلفة من ستةٍ وعشرين مجلداً، مدخل مختلف واحد في كل مرة. وعندما انتهيت، أعدت قراءتها كلها مجدداً. وبعد ذلك، قرأت الكتاب المقدس من البداية إلى النهاية. ولا يعني هذا أنني كنت أقرأ طوال الوقت أو حتى معظم الوقت. إذ لأننا كنا أطفالاً نحبّ الخروج (مجدداً)، فقد كان العالم الخارجي دائماً مغرياً. وكانت هناك حتى أوقات تجتمع فيها مجموعة أصدقاء ميكا مع مجموعة أصدقائي، وعندها كان الأمر يبدو كالأيام الخوالي.

لقد اعتدنا أن نستمتع باللعب ببنادق الخردق التي أحضرها لنا والدانا بمناسبة 25 كانون الأول في إحدى السنوات. ورغم أنني أعتقد أن هذا شائع بالنسبة لأطفالٍ في مثل سننا، إلا أن ما هو غير

شائع، هو ما كنا نفعله بها. فقد كنت وأخي أساساً - بالإضافة إلى أي أحد آخر كان من الغباء بحيث ينضمّ إلينا - قد تعلمنا أن الإطلاق على الأهداف هو أقل إثارة من الإطلاق على بعضنا البعض، فكانت اللعبة التي طوّرناها بسيطة. إذ كان أحدهم يصرخ "ابدأوا" فكنا جميعاً نتدافع إلى الغابات أو إلى بيتٍ مهجور ثم نطارد بعضنا بعضاً. ولم يكن هناك فرق - بل كان كل رجلٍ لنفسه - ولم تكن هناك نهاية فعلية للعبة أيضاً. إذ إننا كنا نستمر بالاختباء، والمطاردة، والإطلاق على بعضنا البعض حتى موعد العشاء، عندما يتوجب على الجميع الذهاب إلى البيت. كانت هناك قاعدتان فقط: لا إطلاق على الوجه، ويمكن تعبئة بندقية الخردق مرتين فقط (مما قلّل من سرعتها بعض الشيء). ولكن تلك كانت عبارةً عن "إرشادات" أكثر منها قواعد تنفّذ بصرامة. فبالنتيجة، كان الجميع يغشون. وكانت ثمة سعادة شريرة في الإطلاق على أحدٍ ما ورؤيته يصرخ ومراقبته وهو يرقص في دوائر ممسكاً بالجرح ومحاولاً التخلص من الخردقة. بالطبع، ما تفعله الآن تكون له نتيجة في المستقبل، وقد قضيت سنواتٍ مع آثار الضرب في كافة أنحاء جسمي. وفي مناسباتٍ أكثر مما أستطيع أن أتذكر، كان على كل واحدٍ منا أن يسحب خردقة انغرزت في الجلد.

رغم ذلك، فقد كان يبدو على ميكا أنه أكثر من يعاني أسوأ الإصابات من بيننا. وقد كان جزء من السبب هو أنه كان يجهد نفسه دائماً، ويحاول دائماً أن يفعل المزيد. ففي إحدى المرات، عندما كان يلعب ببندقية الخردق خاصته في منزلٍ مهجور مليء بالقمامة، ظنّ أنه سيكون من الممتع أن يركل بقية نافذة كانت قد كسرت منذ وقتٍ طويل. وأعتقد أنه كان يقلّد ما شاهد الناس يقومون به على التلفزيون، ولكن لم يخبره أحد أنهم في التلفزيون يستخدمون نوعاً من الزجاج لا يتناثر. وعلى أية حال، بعد أن ركل النافذة وأطلق على أحدٍ ما يدور حول المنزل، علم أنه قد حان الوقت لإيجاد المخبأ التالي، وبدأ بالمغادرة.

كان الشيء التالي الذي علمه هو أنه سمع صوت تخويضٍ صادراً من حذائه. فاستمرّ بالمشي متجاهلاً ذلك، وهو يظنّ أنه لا بدّ قد داس في بركةٍ من سائلٍ غير معروف.

وكما عبّر بنفسه قائلاً: "ولكنني أدركت أن صوت التخويض بدا أنه يرتفع. وعندما نظرت إلى حذائي لاحظت أن جوربي كان يتحوّل إلى اللون الزهري، وكان حذائي مبللاً. فقلت لنفسي إنه من الواضح أنني قد دست على شيءٍ من الشراب تركه بعض المراهقين. وهكذا سار الأمر معي: خطوة، تخويض، خطوة، تخويض. واستطعت أن أشعر بقدمي تصبح أكثر لزوجة، وعندها أدركت فجأةً أنني لا بد قد جرحت نفسي بالزجاج. لذا جلست وخلعت حذائي. فكان جوربي وحذائي مبللين بالدم. وفجأة، انفجر الدم من جرح فوق كاحلي كالماء من نافورة مياه الشرب. واندفع عالياً مع كل نبضة قلب. وبالعودة بتفكيري إلى الماضي، أعتقد أنني لا بد قد قطعت - أو على الأقل شققت - أحد الأوعية الدموية، لأنه كان ينفجر بالدم فعلياً".

فصرخ منادياً صديقه الذي جاء راكضاً. وباستخدام الجورب الدامي، وضع مرقأةً على كاحله، ومشى أخي بصعوبةٍ بمساعدة صديقه إلى المنزل. ونادى أمي.

لأن ذلك كان يوم العطلة الأسبوعية، فقد صدف وكانت أمي في البيت، فتفحصت كاحله بينما كان الدم يتفجر منه في كل أنحاء مشمع أرضية المطبخ.

وقالت بإيجاز: "هذا يبدو سيئاً جداً". وكالمعتاد، كانت تعرف بالضبط ماذا ستفعل.

ألصقت عليه لاصقةً طبية.

ثم قالت لميكا أن يضع يده على اللاصقة، وأخبرته أنه قد يحتاج للاستراحة لبرهةٍ قبل أن يذهب خارجاً للعب مجدداً.

وبالرغم من كوننا جامحين، فقد كانت أمي تحرص على أخذنا إلى دار العبادة كل أحد، وقد استمرّ

هذا في كاليفورنيا. وكنت وأخي غالباَ نشعر بالملل، فكنا ننكز بعضنا البعض. ومع ذلك، فقد كان التحدي هو أنه لا يسمح للشخص الآخر بأن يجفل، ولا يستطيع من ينكز أن تبدو عليه الحركة وذلك لكي لا تضبطنا أمنا.

لم تكن دانا تحب هذه اللعبة بالتحديد، ورغم أن أمي لم تكن تعلم ما كان يجري إلا أن دانا كانت تعرف بالتأكيد. لقد كانت تتعامل مع دار العبادة بجديةٍ كبيرة لأن أمنا كانت تفعل ذلك - وأعتقد أنها كانت تريد أن تكون مثلها تماماً - فكانت بين دعواتها وتضرعاتها تعبس في وجهنا محاولةً أن تجعلنا نتوقف عن فعل ذلك.

كانت دانا تحبّ أن تصلي. فقد كانت تصلي في الصباح وتصلي في المساء. وكانت تطلب من الله أن يبارك جميع من تعرفهم في نفس الوقت. وكانت تصلي للأقارب والأصدقاء، وكانت تصلي لتكون أكثر لطفاً وصبراً، رغم حقيقة أنها لم تكن بحاجةٍ لمساعدةٍ في أي جزء من هذا. إذ إنها كانت تبدو مطمئنةً مع العالم، ولديها طريقة في جعل الناس مرتاحين حولها. فأصبحت أختي بهدوءٍ بطريقتها اللطيفة الصخرة التي بدأت وأخي نتشبث بها كلما كان سوء الحظ يصيبنا.

لكن رغم أن دانا كانت تحبّ دار العبادة والصلاة إلا أن الذنب كان دائماً ذنبها أننا لم نصل أبداً في الوقت المحدد. فكنا عادةً ندخل متأخرين عشر دقائق، ودائماً بعد أن يكون بقية الرعية جالسين. ولم أكن أمانع القدوم متأخرين (فكما قلت، كنت غالباً أشعر بالملل) ولكنني لم أكن أحبّ الطريقة التي كان الجميع يلتفتون بها لمراقبتنا ونحن نحاول العثور على مقعد. فكنت في لحظاتٍ كتلك، أتمنى لو كانت أختي مثلي ومثل أخي بعض الشيء على الأقل في مجالٍ واحد.

كانت دانا، رغم كل صفاتها الرائعة، لا تتحرك بسرعة. فعندما كانت تستيقظ في الصباح لم تكن تنهض من السرير فوراً. وعوضاً عن ذلك، كانت تجلس متربّعة على الفراش، وتقوم بمجرّد التحديق في الفضاء وهي تبدو حالمةً ومشوشة. وكانت تبقى في تلك الوضعية لمدة عشرين دقيقة - وهذا ما كانت تصفه "بالاستيقاظ" - فكانت في ذلك الوقت فقط تبدأ بالاستعداد للذهاب. وحتى عندها كان كل شيءٍ بطيئاً. فقد كانت تأكل ببطءٍ، وترتدي ثيابها ببطء، وتسرّح شعرها ببطء. وعندما كانت أمي تقول لي ولميكا أن نستعدّ كنا نرتدي ثيابنا في غضون دقائق، أما أختي فقد كانت تأخذ وقتها. وكان عليّ وعلى أخي أن نمشي إلى المدرسة، ولكن غالباً كان يتوجب على أمي أن تصطحب أختي بالسيارة كي لا تتأخر. وكان الأمر يجعلنا نصاب بالجنون في بعض الأحيان. ولكنها لم تكن تدع شكوانا تزعجها أبداً.

اعتادت دانا أن تلاحظ بهدوءٍ، حين كنا نضايقها حيال الأمر، قائلةً: "الناس مختلفون وحسب". ولم تكن أمي تدع تأخر أختي يزعجها أبداً. كانت تشرح لنا، قائلةً: "إنها وحسب تحتاج إلى مزيد من الوقت لتستعد".

فكنت إما أنا أو ميكا نسأل: "لماذا؟"

"لأنها فتاة".

آه.

مع ذلك، فقد كانت لدانا نزوات جامحة بين الحين والآخر. ففي إجازتنا الوحيدة عبر البلاد في صيف العام 1976، ركبت عائلتنا سيارة "الفان" من طراز فولكس فاجن - وهي السيارة الوحيدة التي كانت لنا بين عامي 1974 و1982 - وقضينا بضعة أسابيع ونحن نسافر في أرجاء غرب البلاد. قمنا بزيارة منطقة باينتد ديزرت ذات الصخور الملوّنة، ومدينة تاوس وولاية نيو ميكسيكو، قبل أن نصل أخيراً إلى متنزه غراند كانيون. لقد كان بالطبع واحداً من أروع المناظر في العالم، ولكننا كأطفالٍ لم نعجب به إلى هذا الحدّ. وعوضاً عن ذلك، وحسب اقتراح أختي قررنا أن الأمر سيكون أكثر متعةً أن ننسلّ من خلف حبال المشاهدة ونقترب من الحافة غير المستقرّة والمطوّقة للوادي بينما كان والدانا يشتريان لنا الغداء. وهناك اكتشفنا إفريزاً صغيراً ربما تحتنا بثلاثة أقدام.

فاقترحت أختي قائلة: "لننزل إلى هناك".

نظرت وميكا إلى بعضنا البعض، وألقينا نظرةً خاطفةً على الإفريز، فهززنا كتفينا وأجبنا: "حسناً". أعني، لم لا؟ كم قد يكون خطيراً؟ إنه لا يبدو غير مستقرّ .

على أية حال، تسلّقنا إلى الأسفل، وجلسنا على الإفريز لبضع دقائق، ثلاثة أطفالٍ صغار أرجلهم تتدلى بحريةٍ. وعلى مسافةٍ بعيدة تحتنا، كان باستطاعتنا أن نرى نهر كولورادو وهو يشقّ طريقه متعرجاً كالأفعى عبر الوادي، والصقور وهي تحوم في الأسفل. كانت الطبقات المختلفة للصخور تشبه قوس قزحٍ عمودي وذا ألوان ناعمة. ومع ذلك، فقد شعرنا بعد برهةٍ بالملل.

فقالت أختي: "هيه، لدي فكرة. هيا نتظاهر أننا انزلقنا عن حافة الوادي ونخيف الناس".

فنظرت وميكا إلى بعضنا البعض بتأثرٍ مجدداً. فقد كانت هذه لتكون بصورةٍ طبيعيةٍ إحدى أفكارنا. فأجبنا بانسجامٍ قائلين: "حسناً".

عندها، ونحن جالسون القرفصاء على الإفريز، رفعنا أنفسنا ببطءٍ وأبرزنا رؤوسنا وأذرعنا فوق قمة الوادي، فلم يلاحظنا أحد في البداية. وعلى بعد ثلاثين قدماً خلف الحبال، كان باستطاعتنا أن نرى مجموعةً من الناس يلتقطون الصور، ويحدّقون في اتجاهاتٍ متعددةٍ وهم مندهشون من جمال الطبيعة. وعندما أومأت أختي برأسها بدأنا فجأةً نصرخ بأعلى أصواتنا طلباً للنجدة.

فاستدارت الرؤوس على الفور باتجاهنا، وشاهد الناس ما بدا على أنه ثلاثة أطفالٍ صغار يتشبثون لإنقاذ حياتهم محاولين التمسك. فأغمي على امرأةٍ عجوز، ووضعت أخرى يدها على قلبها وتشبثت أخرى بذراع زوجها. ولم يبدُ على أحدٍ أنه كان يعرف ماذا يفعل. واستمروا ينظرون إلينا بعيون واسعةٍ خائفة ومتسمّرة في مكانها من الصدمة والرعب.

أخيراً تحرر رجل من السحر الذي كان يؤثّر عليه. وكان يخطو فوق الحبل عندما رأى أمي قادمةً مندفعةً باتجاهنا، ويمكنك أيها القارئ على الأرجح أن تخمن ما حصل بعدها.

صاحت أمي قائلة: "ابقوا هناك حتى ألتقط صورةً، أيها الأطفال!"

رغم أن الأمر كان ممتعاً، إلا أننا للأسف لم نستطع البقاء في غراند كانيون. إذ بعد دقائق قليلة أخبرت عائلتنا بأن علينا الرحيل.

"الآن". كما عبّر بلطفٍ الحارس الذي كان مناوباً.

* * *

بعد ستة أشهر، صودرت بنادق الخردق الخاصة بي وبأخي من قبل المأمور. ولم يكن ذلك بسبب حروب بنادق الخردق، بل لأنّ أخي تجاوز الحدّ بعض الشيء، فكان ما حدث على الشكل التالي:

لم يكن هناك أحد لنلعب معه لعبة الحرب عصر أحد الأيام، لذا قام أخي بتجنيد بضعةٍ من تلاميذ الصف الأول لنوعيةٍ مختلفة من الألعاب. فطلب منهم أن ينحنوا ويمسكوا بثنيات ساق البنطال إلى الخارج حتى يتمكن من الإطلاق عبر القماش.

كان يشرح بصبرٍ قائلاً: "لا تتحرك أو أنني قد أطلق على ساقك من غير قصد. إنني أريد وحسب أن أتدرّب على إصابة الهدف".

وكما قلت، على أية حال، فقد جاء المأمور وأخذ بندقيته بعيداً.

بعد ذلك بأسبوع، جاءوا وأخذوا بندقيتي أيضاً. إذ إن أخي قد استعملها لإحداث ثقوبٍ في نوافذ بعض الجيران.

هكذا، انتهت أيامنا في لعب لعبة الحرب.

الفصل السابع

مدينة ليما في البيرو
الأحد 26 كانون الثاني

عندما حان الوقت لنودّع غواتيمالا، استقلينا طائرتنا متوجهين إلى محطتنا التالية: مدينة ليما في البيرو، وهي مدينة يسكنها ثمانية ملايين نسمة، وموطن لحوالى ثلثي عدد سكّان البيرو. كانت ليما، وهي العاصمة السابقة للإمبراطورية الإسبانية والتي كانت تضم: الإكوادور وكولومبيا وبوليفيا وتشيلي والأرجنتين والبيرو، إحدى أكثر مدن العالم ثراءً ورفاهيةً في كل من القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. مع ذلك، فقد أضعف الاستغلال، وسوء الإدارة، ورداءة التخطيط الإمبراطورية الإسبانية في نهاية المطاف، مما أدى إلى الهزيمة المنكرة النهائية للقوات الإسبانية عام 1824 على يد سيمون بوليفار. وقد أدى تعاقب الحكومات طوال فترة الـ 175 عاماً التالية أخيراً إلى الانتخابات الديمقراطية في العام 1980، وقد كنت متلهفاً لأرى كيف كانت البلاد تتطور.

كان الجو قائظاً في ليما عندما هبطنا من الطائرة. فقد كان الفصل صيفاً في أمريكا الجنوبية وأكثر حراً بكثير مما كان عليه في غواتيمالا. حالما ركبنا الحافلات، سلّمنا طاقم المكتب السياحي القوارير الخاصة بنا من المياه، وقدموا لنا الأدلاء السياحيين المحليين الذين كانوا سيتحدثون معنا عن ثقافة وتاريخ الأماكن التي كنا سنزورها. وقد أعطي لنا أيضاً جهاز لاسلكي وسمّاعة أذن والذي قد حوّلناه إلى نفس التردد كما فعل دليلنا. وهكذا، وحتى على بعد مائة قدم، كان بإمكاننا دائماً أن نسمع ما كان يجري.

كانت الساحة العامة المركزية مزدحمةً عندما وصلنا. وقد كانت إحدى المناطق المكشوفة القليلة في مركز المدينة، وهي ذات تصميم يعود إلى عهد الاستعمار، وتتسم بطرق جانبية متقاطعة ومنحنية، وتصطف عليها أزهار مزروعة حديثاً. كان الأطفال يلعبون على العشب وفي النوافير محاولين أن يبردوا أجسادهم من حرارة الصيف. حاول آخرون جهدهم أن يبيعونا التذكارات فاحتشدوا حول مجموعتنا ما إن خرجنا من الحافلة.

التقطنا الصور لكلٍّ من القصر الرئاسي والكاتدرائية حيث كان فرانشيسكو بيزارو مدفوناً. لقد كان بيزارو، كما عرفت، واحداً من سلالةٍ طويلةٍ من الشخصيات التاريخية، وتعتمد سمعته بشكلٍ كبير على وجهة النظر الشخصية. إذ رغم أنه كان معروفاً في إسبانيا كمستكشفٍ، فقد تمكّن أيضاً من

أسر أتاهوالبا، زعيم شعب الإنكا. وعندما طالب واستلم فدية مقدارها غرفة مليئة بالذهب مقابل إطلاق سراحه، قام على كل حال بإعدام الملك فوراً، ثم قام باستعباد السكان الأصليين. فلم أستطع منع نفسي من التساؤل عما يظنّه المنحدرون من أصول الإنكا حيال مكان دفنه المصادق عليه من قبل الكنيسة.

من هناك، توجّهنا إلى كاسا ألياغا الذي يقع بعيداً تماماً عن الساحة العامة الرئيسية. واسمه حرفياً منزل ألياغا، وقد كان واحداً من الأمثلة الأكثر إدهاشاً عن فنّ البناء الإسباني المبكّر في المدينة. وبالرغم من ذلك، فقد كان من الخارج متداخلاً مع مجموعة الأبنية الأخرى. وما لم يكن المرء يعلم أنه هناك، كان ليمرّ بجانبه دون أن يلاحظ وجوده.

مع ذلك، كان هناك وراء الأبواب بيت يدهش العقل.

كان كاسا ألياغا مملوكاً من قبل أسرة ألياغا لمدة أربعمائة سنة، وما يزال مشغولاً من قبل أفراد أسرة ألياغا حتى يومنا هذا. كانت الغرف مصممةً على طراز المزرعة النموذجي. وهو عبارة عن غرفٍ تحيط بساحةٍ مكشوفة، تكملها شجرةُ تينٍ طولها مائة قدم تشمخ نحو السماء. لقد كان أيضاً موطناً لواحدة من أرقى المجموعات الفنية في أمريكا الجنوبية. وبسبب كون البيت كبيراً جداً، ويكلّف الإنفاق عليه كثيراً، فقد فتح أفراد أسرة ألياغا المنزل للسياح. لقد تجوّلت وميكا في الأنحاء بعيونٍ مفتوحة على وسعها. وقد كان كل شيءٍ باستثناء الجدران المكسوّة بالجص - مثل الدرابزينات وإطارات الأبواب وقوالب التيجان والحواجز - منحوتاً بشكل معقدٍ. كانت اللوحات تغطي كل مساحةٍ متاحةٍ على الجدران. وكان الأثاث، وهو بأغلبه من القرنين السابع عشر والثامن عشر، مزخرفاً جداً بحيث كان من المستحيل أن نجعل كاميراتنا تتحدّد.

بينما كنا نمشي عبر المنزل التفت ميكا إلي أخيراً.

وقال: "أيمكنك أن تصدق هذا المكان؟"

"كلا، تلك الشجرة... حسناً، كل شيءٍ فعلاً... إنه لا يصدّق".

"أراهن بأنك تحصل على بعض الأفكار الجيدة للمرة القادمة التي تعيد فيها تنسيق ديكور منزلك، أليس كذلك؟"

فضحكت قائلاً: "عليّ أن أعترف أنه قد يكون لطيفاً تعليق لوحاتٍ لأسلافٍ مشهورين".

"إنك تعني إن كان لدينا أيٌّ منهم".

"بالضبط، إذ بينما كانت أسرة ألياغا تبني هذا المكان، كان أسلافنا على الأرجح يضعون الحدوات على الجياد ويعملون في المزارع".

فأومأ برأسه، ونظر حوله. كانت مجموعتنا قد انتشرت في أنحاء غرفٍ مختلفة في المنزل.

"ومع ذلك، كن صادقاً؛ هل كنت لترغب بالعيش هنا؟"

فهززت رأسي، وقلت: "كلا، لن أفعل. إنه لا يصدّق، ولكنه لا يلائم ذوقي بالفعل. ولا بدّ أن الحفاظ على المكان بحالةٍ جيدة يبقي المالكين مستيقظين ليلاً".

"أعرف ما تعنيه. أعني، هل يمكنك أن تتخيّل كم يستغرق نفض الغبار عن هذا المكان؟ كانت كريستين من جرّاء ذلك".

بدأ طاقم المكتب السياحي يجمعوننا معاً ويحصون الرؤوس، ويتأكدون أن الجميع موجودون. وبعد أن غادرنا كاسا ألياغا ركبنا الحافلة لرحلة العودة إلى الفندق.

لقد أصبح هذا روتيننا على مدى الأسابيع القليلة التالية. فرغم أن رحلة كرحلتنا لها فوائد، فقد كان البرنامج محدداً بحرص، ولم يكن هناك في عدة أماكن سوى وقت قليل لنبقى أو نستكشف بمفردنا.

لقد كانت تلك ليلة بطولة السوبر باول في كرة القدم. وكان فريق تامبا باي باكانييرز سيلعب مع فريق أوكلاند رايدرز. كان عدد من الناس في الرحلة بمن فيهم ميكا يريدون مشاهدتها. ولأنه كان يعيش في سكرامنتو فقد كان فريق "رايدرز" فريقه المفضّل، حتى أنه ذهب إلى بعض المباريات تلك السنة. ولم نكن حتى واثقين إن كانت المباراة ستبث على التلفزيون في البيرو. لقد كان هناك هتاف حقيقي في الحافلة عندما أكدّ المكتب السياحي أن ذلك سيحدث. كانت المباراة ستنقل عن طريق القمر الاصطناعي في الحانة، وقد تطلّب ذلك على ما يبدو من طاقم المكتب السياحي قليلاً من الحيلة. فقد كان القليل من الناس في البيرو يهتمون ببطولة السوبر باول، وكانت لعبة كرة القدم - التي مهمة للبيروفيين - لا تعرض على التلفزيون.

لأننا كنا نريد مقعداً جيداً، كنت وميكا أول الواصلين، وبدأنا بطلب الأطعمة اللذيذة التقليدية التي تسبق المباراة. وبدأ الآخرون ينضمون إلينا تدريجياً. لقد كان نصف الحشد يفضّل فريق تامبا باي، والنصف الآخر يفضّل فريق أوكلاند. عندما حلّ الوقت لبدء المباراة، كانت حانة الفندق تبدو كحانةٍ في أية مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن أي من السكان المحليين في الجوار.

لم يكن هناك عرض قبل المباراة. وعوضاً عن ذلك، قبل بداية المباراة بخمس دقائق تقريباً، ومض التلفزيون مرة أو مرتين، فوجدنا أنفسنا نشاهد الفريقين مصطفين من أجل بداية المباراة.

قال ميكا: "أترى، كل ما نقوم به جديد. أصدقني القول، من الذي تعرفه قد شاهد على الإطلاق مباراة السوبر باول في ليما؟"

فاعترفت قائلاً: "لا أحد".

"هل أنت مستمتع حتى الآن؟"

"استمتعت بشكل كبير".

"هل تفكّر بالعمل؟"

"كلا، أفكّر بالمباراة وحسب".

فقال، وهو يلوّح بقطعة بطاطا مقلية: "هذا جيد، ما زال هناك أمل بك".

وصاح أحدهم في الخلف: "ارفعوا الصوت، لا نستطيع أن نسمع في الخلف".

فاستخدم الساقي جهاز التحكم عن بعد، وبدأت درجة الصوت ترتفع. ومع ارتفاع الصوت، بدأت الأصوات المألوفة تفهم. وسمعنا هدير الحشد وأسماء اللاعبين يتم الإعلان عنها في الملعب، ثم رمي القطعة النقدية. وعندها فقط بدأ المعلنون تعليقهم.

انحنى الجميع إلى الأمام.

وصاح أحدهم: "ماذا يقولون بحق السماء؟"

فأجاب آخر: "لا أعرف، أعتقد أنهم يعلنونها... ".

وبالطبع، يصبح الأمر منطقياً تماماً حالما تفكّر به.

"بالإسبانية؟"

فعرض ميكا قائلا: "إنها اللغة الرسمية في البيرو. وإسبانيا".

فلم يعتقد أحد أن الأمر طريف.

فتذمّر أحدهم قائلاً: "كنت أعتقد أنها تعرض على القمر الاصطناعي من الولايات المتحدة. ربما تكون باللغة الإنكليزية على قناةٍ أخرى".

فتجوّل الساقي بين القنوات. فهكذا كان الأمر: إما بالإسبانية أو لا شيء.

فانحنيت نحو ميكا وقلت: "الآن لديك فعلاً قصة لترويها. إذ إنك لم تشاهد فقط فريقك المفضّل يلعب السوبر باول في ليما في البيرو، ولكن يمكنك أن تخبرهم أنك سمعتها ".

"الآن بدأت تتحمّس. هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله".

استرخينا لمشاهدة المباراة. ولم يكن فريق رايدرز يلعب بشكلٍ جيدٍ، وسرعان ما تخلّف عن الفريق الآخر. فأصبحت هتافات ميكا تدريجياً أقل تكراراً. وبحلول منتصف الوقت، كان يهزّ رأسه.

فحفّزته قائلاً: "ينبغي أن تتحلى بالإيمان".

"أعتقد أنني أفقده".

فقلت عن عمد: "لقد سمعت هذا من قبل". وكنت أتذكر محادثاتٍ أجريتها مع زوجته كريستين. "إذاً، هل ما زلت تتجنّب دار العبادة؟"

فابتسم، ولكنه لم ينظر إليّ. فقد كان الدين والإيمان موضوعاً ناقشناه غالباً حتى خلال سنوات طفولتنا. ومع ذلك، فقد كان الموضوع منذ زواج ميكا يثار بانتظامٍ أكثر. لم تكن كريستين كاثوليكية. فكانا، عوضاً عن الذهاب إلى القداس، يحضران صلاةً مسيحيةً غير مذهبية. وخلافاً للقداس الذي كنت أفضّله، وهو تقليدي جداً مع اختلافٍ ضئيل من أسبوعٍ لآخر، كان ميكا يفضّل صلاةً ذات تنظيم أقل ووقتٍ أكثر للتأمل الشخصي. أو، بدقةٍ أكبر، كانت تلكً أسبابه الأصلية عندما شرح لي التغييرً. ولكن حتى تلك الاختلافات لم تعد مؤخراً تشكّل فرقاً.

"دعني أخمّن. كريستين قالت لك أن تسألني عن هذا الأمر في الرحلة، أليس كذلك؟"

فلم أقل شيئاً، وغيّر ميكا جلسته في مقعده.

"كلا، فإنني أذهب أحياناً فقط لأن كريستين تريد مني ذلك. فهي تظنّ أنه من المهمّ لي أن أذهب لأجل الأطفال".

"و؟"

"وماذا؟"

"وهل تستفيد شيئاً من هذا؟"

"ليس فعلاً".

"هل تصلّي بأية حال؟"

"لم أصلِّ منذ ثلاث سنوات".

إن حياةً بدون صلاةٍ هي أمر لا يمكنني تخيُّله. فقد كنت بدرجةٍ كبيرة أعتمد على الصلاة لمدة تساوي مدة تجنّبه لها.

"ألا تشعر أنك تفتقد شيئاً؟"

فقال باقتضاب: "إنني لا أصلي لأن الأمر لا يفيد. فالصلوات لا تصلح أي شيء. والأمور السيئة تحدث بأي حال".

"ألا تعتقد أنها تساعدك على تولّي أمر تلك الأوقات الصعبة، رغم ذلك؟"

فلم يجب، فعرفت من صمته أنه لم يكن يريد الحديث عن الأمر، ليس بعد على أية حال.

في النهاية، كانت المباراة نصراً ساحقاً. فقد سيطر فريق تامبا باي على المباراة. فغادرت وميكا الحانة لنتمرن في نادي الفندق أثناء الشوط الثاني، فعدونا ورفعنا الأثقال. وبعد ذلك، عدنا إلى غرفتنا، وسقطنا فوق السرير منهكين.

قلت: "إنني آسف لأن فريقك خسر".

فقال: "ليس أمراً هاماً. فأنا لست كما اعتدت أنت أن تكون. أتتذكر؟ عندما كنت طفلاً؟ لقد اعتدت أن تبكي عندما كان فريق فاكينغز يخسر".

لقد كان فريق فايكنغز مينيسوتا فريقي المفضّل عندما كنت أكبر. وقد اخترته لأنه المكان الذي ولدت فيه دانا.

"أتذكّر ذلك، لقد انفطر قلبي عندما خسروا بطولة السوبر باول".

"أية واحدة؟ فقد خسروا مجموعةً من البطولات؟"

"شكراً لتذكيري بذلك".

"لا مشكلة". وتوقف، ثم قال: "تعرف حقاً أنك كنت مجنوناً عندما كان الأمر يتعلّق بفريق فايكنغز، أليس كذلك؟"

"أعلم ذلك. إنني أميل إلى الذهاب إلى أقصى الحدود في الكثير من الأشياء".

"ما تزال تفعل ذلك".

"جميعنا لديه مشاكل، حتى أنت".

"ذلك غير صحيح. فأنا سعيد تماماً، ألم تلاحظ ذلك؟ لقد كنت أنا الذي استطعت بالقوة المجرّدة لشخصيتي المبهجة إخراجك من أعماق اليأس منذ يومين فقط".

فأدرت عيني قائلاً: "ذلك وحسب لأننا في الرحلة. وعليك أن تتذكر أنه لطالما كان فعل شيءٍ كهذا أسلوبك أكثر مما كان أسلوبي. فقد كبرت وأنت تحب المغامرة. واعتدت أن تخرج بحثاً عنها. وقد كنت ألحق بك محاولاً منعك من الوقوع في الكثير من المتاعب".

فابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: "لقد كنت بالفعل أقع في الكثير من المتاعب، أليس كذلك؟"

"الكثير، وخاصةً عندما كان الأمر يتعلق بالأسلحة".

فغمرت وجهه نظرة الذكريات السعيدة، وقال: "أتعلم؟ إنني لا أفهم وحسب لماذا كان ذلك يحدث. فأنا لم أكن طفلاً سيئاً. إذ كنت أحاول قضاء وقت طيب وحسب".

فابتسمت مفكراً: .

أدرك والداي أخيراً، لكونهما الشخصين الحكيمين الرائعين، أنني وميكا لسنا محلّ ثقةٍ تماماً عندما يتعلق الأمر ببنادق الخردق بالرغم من الأوقات الطيبة التي قضيناها معها. ورغم توسلاتنا، رفضا أن يشتريا لنا بنادق جديدة، ولم يفكرا بإعطائنا بنادق طويلة عندما عرضنا ذلك على سبيل

التسوية. وبدلاً من ذلك، اشتريا لنا أقواساً وسهاماً.

استمتعنا بتلك الأقواس. ولم يكن هدفنا طيباً تماماً، ولكن ما افتقرنا إليه في الدقّة عوضناه في السرعة. كان باستطاعتنا إرسال تلك السهام ونحن نهمهم، فكنا عملياً نغرزها في الأشجار. وقد تعوّد أخي على ذلك بسهولةٍ أكبر مما فعلت. فوصل في نهاية المطاف إلى حدّ أنه كان يستطيع فعلياً إصابة هدفٍ كبير بعض الشيء من على بعد ثلاثين قدماً في خمسة بالمائة من الوقت على الأقل مقابل الثلاثة بالمائة التي استطعت تحقيقها.

اقترح أخيراً قائلاً: "هيه، هيا نضع تفاحةً على رأسك وسأحاول أن أصيبها".

فقلت: "لدي فكرة أفضل. هيا نضع التفاحة على رأسك أنت".

فهمهم قائلاً: "ربما ليست فكرةً حسنة".

في أحد الأيام، عندما كنا خارجاً مع قوسينا وسهامنا في الغابات، انحرف أحد السهام عن طريقه متوجهاً نحو مجموعةٍ من العمال يركبون هيكل أحد المنازل (ففي غضون سنوات منذ انتقلنا إلى هناك بدأ بناء المنازل الجديدة بشكلٍ جدي). وعندها، لم يستقرّ السهم قريباً جداً من العمال، ولكنه لم يكن بعيداً جداً أيضاً، فغضب منا أحد النجارين كثيراً حتى عندما حاولنا أن نشرح أن الأمر كان صدفة. وقال بصوتٍ هادر: "لا مجرد تفكيرٍ حتى بإطلاق السهام في هذه الأنحاء". وحتى أسوأ من ذلك، فقد رفض أن يعيد إلينا السهم مهما توسلنا. وبما أنه كان لدينا ثلاثة سهامٍ لنبدأ بها فقد كان فقدان إحداها مشكلةً كبيرة.

تواريت وأخي متوجهين نحو شارعنا ونحن نرغي ونزبد. وحال وصولنا إلى قمة التلة، قرر أخي أنه لن يتّبع أوامر أحد الغرباء، وخاصةً لأنه احتفظ بالسهم.

وكما عبّر بقوله: "لا يمكنه أن يأمرني ماذا أفعل".

فلقّم أخي سهماً وشدّ القوس ثم انحنى إلى الوراء بغية إطلاق السهم إلى الأعلى مباشرةً نحو السماء في تعبير عن التحدي من نوع "خذ هذه". وأطلق السهم فارتفع نحو السماء أعلى فأعلى حتى أصبح مجرّد نقطة في السماء.

وهو بالطبع لم يلاحظ النسيم الخفيف عصر ذلك اليوم. ولم يطلق أخي بشكلٍ عمودي فعلياً أيضاً، رغم أنه - والله على ما أقول شهيد - كانت تلك نيّته. وعوضاً عن ذلك، كانت لدى السهم زاوية كافية تماماً ليغيّر اتجاهه نحو المنزل (والعمّال) في أسفل التلّة، ومن هناك كانت الغلبة للريح. فشاهدت السهم يغير مساره وأنا أشعر بصدري يبدأ بالانقباض حالما أدركت إلى أين كان متجهاً.

"ميكا؛ هل ذلك السهم متوجه إلى حيث أظنه متوجهاً؟"

"آه، لا... لا... لا...لاااا...لاااااا!!!!!!"

بدأ أخي، الذي شحب وجهه مثلي، يثب إلى الأعلى والأسفل في إنكارٍ متّقد كما لو أنه يأمل بتغيير ما هو واضح. وشاهدنا السهم وهو يبدأ باتخاذ مسارٍ قوسي باتجاه الأسفل نحو العامل الذي صادر القوس السابق. ولو أن ميكا كان يحاول ذلك عمداً، لما كانت هناك فرصة لكي يطلق سهماً من على بعد مائتي ياردة بتلك الدقّة.

صرخ ميكا مستمراً بالوثب إلى الأعلى والأسفل: "لاااا... لاااااا!!!!!"

راقبت السهم وهو يهبط باتجاه الموت بحدّ ذاته، وكنت أزداد ثقةً مع مرور كل ثانية أننا فعلاً سنقتل الرجل. ولم أكن مرعوباً إلى هذا الحدّ قطّ. وبدأ الوقت يصبح بطيئاً، وكان كل شيءٍ يتحرّك بإصرارٍ مرعب. وكنت أعرف أن الأمر سينتهي بنا في إصلاحية الأحداث وربما حتى السجن.

عندها انتهى الأمر.

فقد أصاب السهم الأرض على بعد أقلّ من قدم واحد من المكان الذي كان الرجل يعمل فيه بالرفش، واستقرّ في كومةٍ من التراب. فقفز جانباً بصدمةٍ ورعبٍ.

قال ميكا بتنهدٍ طويل: "آه، الحمد لله"، وابتسم.

فوافقته قائلاً: "إنك محق، فقد نجونا بأعجوبة".

لم نكن بالطبع، في ذلك السن - وتلك اللحظة بالذات - قادرين أن نفهم كيف سينظر العامل إلى تلك الحادثة بالذات. فخلافاً لنا، هو لم يكن شاكراً لله على الإطلاق. فقد كان في إحدى الدقائق يقوم بعمله، وفي الدقيقة التالية كان على وشك أن يخترق بسهم أطلقه طفلان على قمة التلة. كلا، لم يكن شاكراً لله ولا حتى قليلاً. لقد كان غاضباً! وحتى من على بعد مائتي ياردة، رأيناه يرفع نظره باتجاهنا ويرمي برفشه جانباً ويبدأ الإسراع نحو شاحنته.

فسألت ميكا وأنا ألتفت نحوه: "هل تظنّ أنه علينا الهرب؟"

لكن ميكا كان قد رحل أصلاً مسرعاً بالعودة إلى شارعنا، وكانت ساقاه تتحركان بسرعةٍ لم أرها من قبل.

جريت خلفه. وبعد ثلاثين ثانية كنت أتحرك بضجةٍ عبر مروج الجيران. وألقيت نظرةً خاطفةً من فوق كتفي، فرأيت الشاحنة تقف بضجةٍ عند حافة الغابات، ورأيت الرجل يقفز من الشاحنة ويبدأ بمطاردتنا بقية الطريق على قدميه.

لقد أمسك بنا على أية حال، وكان حتى أكثر غضباً عن قرب مما كان يبدو عليه عن بعد. عندما علم والدي بما حدث غضب أيضاً فعوقبنا لبضعة أسابيع. وحتى أسوأ من ذلك، فقد جاء المأمور لاحقاً عصر ذلك اليوم، وصادر قوسينا وسهامنا.

باستثناء رحلتنا إلى متنزه غراند كانيون، كنا نقضي إجازاتنا مع أقارب لنا في مدينة سان دييغو.

لأيّ سببٍ كان، فقد انتقلت غالبية أقارب كلٍّ من والدي ووالدتي إلى هناك، ونتيجةً لذلك، كان باستطاعتنا زيارتهم والاستمتاع بالشاطئ دون الحاجة إلى إنفاق الكثير من النقود. يمكنني أن أضيف أن هذا من حسن حظ عائلةٍ لا تملك الكثير من المال الفائض.

كنا دائماً نقود مدة العشر ساعات التي يستغرقها الوصول إلى هناك، وثلاثتنا محشورون في مؤخرة سيارة الفان من طراز فولكس فاجن مع كلبتنا براندي والأمتعة المنسّقة. رغم أننا كنا نتوقف من أجل الوقود مرتين طوال العشر ساعات، فلم نكن نشتري طعاماً أو أشربة. وعوضاً عن ذلك، كانت وجباتنا تتألف من سندويشات اللحم والفطائر والليموناضة التي كانت أمي قد أحضرتها من المنزل.

كانت تلك أوقاتاً رائعة. إذ لم يطلب منا والدانا أبداً وضع أحزمة الأمان (هل فوجئت حقاً بهذا البوح؟)، وكنا نقرأ أو نلعب الألعاب أو نتصارع في الخلفية، فيما ننطلق أسفل الطريق الخارجي رقم 5 متوجهين إلى منزل جدة آل سباركس. ولا أعني النوع من المصارعة حيث ننكز بعضنا بعضاً وننتحب، بل أعني مصارعة مكتملة بقبضات الطوق، واللكمات، ولوي الأذرع والأرجل، ومؤكّدة بالصراخ والدموع. لقد كان والداي يتجاهلانها لبرهةٍ، ولكنها أحياناً كانت تصل إلى مرحلةٍ حيث كان أبي ينظر أخيراً من فوق كتفه ويصرخ علينا قائلاً: "توقفوا عن هزّ الفان اللعينة". مستهلاً بذلك العد التنازلي لديفكون الذي كان لا مفرّ منه ويبدو أننا كنا غير قادرين أبداً على تجنبه. كنا بالطبع نحدّق بوالدنا وكأنّ لديه قصب ذرة ينمو من أذنيه متسائلين ما الذي من الممكن بحقّ السماء أن يكون قد أزعجه.

كان ميكا يهمس قائلاً: "لقد كان ذلك خطأك. إذ ما كان عليك أن تبكي".

فكنت أقول: "ولكنك كنت تؤلمني".

"إنك بحاجةٍ لتتعلم أن تصبح أكثر قسوة".

"لقد كنت تلوي أذني. وظننت أنك ستمزّقها".

"إنك تبالغ".

"إنك أبله".

فيضيق عينيه، ويقول: "ماذا دعوتني؟"

فكانت دانا تضيف مساعدةً: "لقد دعاك بالأبله".

فيحدق ميكا قائلاً: "سأريك من هو الأبله...".

في تلك اللحظة، كانت المصارعة تبدأ مجدداً. وغالباً ما كنت أخبر الناس أننا لم نكن أبداً الفان إلى سان دييغو، بل غالباً كانت الفان نوعاً ما إلى هناك.

كنا أشبه بالريف يأتي إلى المدينة عندما كان الأمر يتعلّق بزيارة أبناء عمنا. إذ كانت عائلاتهم تميل لكونها أفضل حالاً منا مالياً، وحالما كنا نصل كنا نعبر الباب بصخبٍ إلى غرفة نوم أبناء العم. إذ كنا نعلم أنه خلف الباب يوجد النعيم بحدّ ذاته، فكنا نقوم بمجرد التحديق بدهشةٍ للحظة ودموع صغيرة تترقرق في عيوننا. فقد كانت لديهم ألعاب أكثر مما رأيناه قط، وكنا نقوم بسرعة باستغلالها جيداً، فكنا نسأل ممسكين بشيء ما: "هيه، ما هذا؟" وسرعان ما كنا نهزّ القطع محاولين أن نكتشف ما هي.

فكان ابن العم يعلن بفخر: "إنها رافعة البناء الجديدة التي تعمل بالبطارية. ويمكنها تجميع بيوتٍ كاملةٍ من لا شيء...".

صوت فرقعة.

فكان ابن العم يتسمر في مكانه برعبٍ لرؤية اللعبة وقد تحوّلت إلى قطعتين.

كنا نسأل: "ماذا حدث؟"

فكان ينشج بالبكاء قائلاً: "لقد... لقد... كسرتها".

"آه، أسف بشأن ذلك. هيه... ماذا تفعل هذه؟"

"إنها السيّارة المطوّرة تقنياً ذات جهاز التحكم عن بعد المكتملة مع...".

صوت فرقعة.

فكنا نقول مجدداً: "آه، آسف. هيه، ما هذه؟"

حالما كانت الألعاب تنكسر (وكنا دائماً نتساءل كيف يمكن أن تطرأ حوادث كثيرة كهذه في وقتٍ قصير)، كنا نحاول اللعب مع أبناء عمنا. ولم يكونوا ينظرون إلى ذلك على أنه لعب. فلم نكن نفعل شيئاً معهم لم نكن نفعله في البيت - فقد كان بالنسبة إلينا متعةً مألوفة - ولكنه بالنسبة إليهم كان يشبه التعذيب الخالي من الرحمة. إذ لم يكن يبدو أن أحداً منهم قد عاش طفولةً كطفولتنا، أي: طفولة بدون قواعد فعلية. وعلى سبيل المثال، كنا نجد متعةً عظيمة في لفّ الصغار في بساطٍ حتى يتثبتوا، ويختنقوا، ويعجزوا عن الحراك. ثم كنت وأخي نتبادل الأدوار في القفز من الأريكة على الانتفاخ

الطري حيث تكون أجسامهم، ونحن نصرخ قائلين "نجحنا" عندما نسحقهم فعلا، أو أننا كنا نغطسهم - لمدة طويلة جداً فعلياً - في البركة حتى يشارفوا على الموت. أحياناً كنا نعلّم أبناء عمنا كيفية اللكم بقوةٍ موضّحين ذلك على أذرعهم الصغيرة.

"ليس هكذا. ارفع ذراعك إلى الوراء واستخدم عظم البرجمة حقاً، هكذا..."

صوت ضرب!

وإذا كانت هناك مشكلة واحدة في زيارة أبناء عمي - ويؤلمني أن أعترف بها بما أنهم من العائلة - فهي أنهم منتحبون. فقد كانوا يبكون طوال الوقت عندما يكونون بالقرب منا. وإنه لأمر غريب كيف كان والداهما يتعاملان مع الأمر.

على أية حال، كانت الزيارة تصل إلى نهايتها في نهاية المطاف، ويحين وقت الرحيل. فكنا نتوجّه إلى سيارة الفان ونلتفت لنرى أبناء عمنا شاحبين كالأشباح ويرتجفون وهم يلوحون لنا مودّعين، وأذرعهم الصغيرة مغطاة بالكدمات.

فكنا ننادي قائلين: "نراكم السنة القادمة!"

في طريقنا إلى منزل جدتي لاحقاً، كان أخي يسألني:

"ما الذي كانوا يفعلونه بوجوههم عندما غادرنا؟"

"هل تعني الطريقة التي كانوا ينظرون بها بذعرٍ بعينين نصف مغمضتين وينحنون إلى الجانب فجأةً؟"

"نعم".

"ربما هو نوع من التقلّص في الوجه".

فكان ميكا يهزّ رأسه قائلاً: "أولئك الأطفال المساكين لم يكونوا هكذا عندما وصلنا. لا بدّ أن هذا قد حدث فجأة".

كانت رحلاتنا بحدّ ذاتها دائماً مغامرة أيضاً. ففي إحدى المرات عندما انطلقنا إلى سان دييغو، كان لدى والدي 21 دولاراً في محفظته - وهو المبلغ الكامل الذي أحضره للعائلة لكامل عطلة الأسبوع - فكانت مشيئة القدر أن تتعطل سيارتنا في جبال تيهاتشابي على بعد ساعة شمال لوس أنجلوس. فقطرت سيارتنا إلى محطة الخدمة الوحيدة القريبة حيث عرفنا أن سيارة الفان كان فيها تسرّب في الزيت. وكانت القطعة تستغرق أسبوعاً على الأقل لتصل، ولكن كان الميكانيكي يعتقد أنّ بإمكانه أن يلحم شيئاً ما مع بعضه طوال الليل مما قد يسمح لنا بالوصول إلى وجهتنا. وكان ذلك بالطبع يكلّف مالاً وهو شيء لم يكن والدي يملكه.

كانت تربط بين والدي والمال علاقة غريبة ومتناقضة تقريباً. وأعتقد أنه كان يريد المزيد منه. ولكن عندما لم يكن لديه خيارٍ آخر، لم تكن لديه فكرة كيف يشرع في كسب المزيد من المال. في نفس الوقت، لم يكن يريد أبداً أن يفكر بالمال، ولكنه كان مجبراً على فعل ذلك بسبب وضع عائلتنا. كان يتوجب أن يوضع كل شيءٍ ضمن ميزانية، ولم يكن تعطل السيارة هذا ضمن الميزانية. القول إنه كان غاضباً هو تصريح مكبوت، فقد كان مخيفاً بكل معنى الكلمة. لقد تخطى كلياً العدّ التنازلي لديفكون وتوجّه مباشرة إلى الهجوم النووي. فاتصل بوالدته في سان دييغو التي وعدته أن ترسل له بالتلغراف بعض المال المطلوب للإصلاحات. ولكن الإصلاحات لم تكن ستكتمل حتى اليوم التالي. فقضى اليوم وهو يتحرك جيئةً وذهاباً ويصفّر لحن الموتى ولسانه ملتف خارج فمه.

في وقتٍ متأخرٍ من عصر ذلك اليوم، تناولنا آخر سندويشات اللحم والفطائر وأنهينا الليموناضة

مما أغضب والدي أكثر. وبدون مالٍ لشراء طعام أو حتى المكوث في فندق، انتهى بنا الأمر نائمين في مؤخرة سيارة الفان مع الكلبة طوال الليل. وعندما استيقظنا لم يكن هناك مال للفطور أيضاً، فلم نأكل حتى وصلنا إلى سان دييغو عصر اليوم التالي.

مع ذلك، لم يكن هذا أسوأ جزءٍ من رحلتنا، ولم يكن غضب والدي أيضاً. وعندما أفكّر بتلك الرحلة بالتحديد، تعود ذاكرتي دائماً إلى اليوم الأول بعد ساعةٍ تقريباً من وصولنا إلى المرآب.

كما قلت، كان والدي أكثر من غاضبٍ في ذلك الوقت، وكنا قد تعلّمنا أن نبقى بعيدين في لحظاتٍ كتلك. ومع عدم وجود شيءٍ آخر لنفعله، قرّرت وأخي وأختي أن نرى ماذا يوجد في البلدة، ولكننا سرعان ما عرفنا أنه لا يوجد الكثير. فقد كانت عبارة عن مكان توقفٍ للراحة مهدم أكثر منه بلدة حقيقية. كانت حارّة كجهنم مع حفنةٍ فقط من الأبنية المتداعية للسقوط مصطفةٍ علىً طول الطريق الخارجي في الاتجاهين، ولا توجد أية مساحةٍ صغيرة من الظل. ولم يكن هناك حتى مقهى أو مطعم فيه تلفزيون موضوع في الزاوية قد يساعد على تمضية الوقت.

كانت تلك إحدى المرات التي شعرنا فيها حقاً بالملل. وحمداً لله، سرعان ما صادفنا كلباً بدا عليه أنه يستمتع بانتباهنا. فقضينا بضع دقائق ونحن نداعبه وكان ودوداً ومرحاً وسعيداً بشكل لا يصدق؛ وعوّدنا أنفسنا على مناداته سباركي (نسبةً إلينا بالطبع). ومع مرور الوقت، اندفع على أقدامه، وراقبناه وهو يبدأ بالهرولة مبتعداً، وهو يبدو مسروراً جداً. فألقى نظرةً خاطفة علينا، وهو يكاد يبتسم، كما أزال أعتقد، وتوّجه نحو الطريق حيث ضربته فوراً سيارة تندفع بسرعةٍ ستين ميلاً في الساعة.

لقد شهدنا كل التفاصيل. فقد سمعنا صوت الارتطام، وشاهدنا الكلب يدور بصورةٍ غير طبيعية قبل أن يميل باتجاهنا والدم يتدفق من فمه وهو يتدحرج حتى توقف على بعد أقل من بضعة أقدام. فأبطأت السيارة من سرعتها ولم تتوقف. كانت العائلة التي في السيارة تبدو مرعوبةً بقدر ما كنا. وبعد أنينٍ وعواء ولهاث حتى آخر نفس، مات سباركي عند أقدامنا. ومع كون أبي في مزاج قاسٍ كهذا وأمي تحاول تهدئته، كان كل ما استطعنا فعله هو التعامل مع الرعب الأخير بالطريقة التي تعوّدنا عليها: مع بعضنا البعض كأخوة. ونحن مجرّد ثلاثة أطفالٍ صغار على جانب الطريق الخارجي نمسك ببعضنا البعض محاولين أن نفهم لماذا كانت الأمور الرهيبة تحدث.

الفصل الثامن

مدينتا كوزكو وماتشو بيكتشو في البيرو

27 - 28 كانون الثاني

بعد محطتنا الوجيزة في ليما في البيرو استعددنا للسفر إلى كوزكو، وهي أقدم منطقةٍ مأهولة بالسكان باقية في نصف الكرة الجنوبي، وهي العاصمة السابقة لإمبراطورية الإنكا. ومدينةً كوزكو، بتعداد سكانٍ يبلغ 275.000 نسمة، هي مدينة متألقة ببيوت اللِبن والأسقف المكسوّة بالآجر والشوارع المُلتفة المرصوفة بالحصى والكاتدرائيات الفخمة والأسواق المكشوفة، وبينما حلّقنا فوق المدينة كنت وميكا مسحورين كلياً بجمالها.

لقد تمّ تحذيرنا في الطائرة خلال الرحلة من دوار المرتفعات. ومدينة كوزكو متموضعة على جبال الأنديز على ارتفاع 11.500 قدم، فأخبرنا أن نتحرك ببطءٍ حالما خرجنا من الطائرة. وقد وقف عدة أعضاءٍ من طاقم المكتب السياحي في أقسام متنوعةٍ من قسم الأمتعة مكررين تحذيراتهم مراراً وتكراراً بينما كانت مجموعتنا تتحرك بشكل رثّ.

"هونوا عليكم، لا تجعلوا نفسكم ينقطع. سيروا ببطء".

فهمس ميكا قائلاً: "كنت لتظنّ أننا نتسلق قمة إفرست ولا نمشي عبر أحد المطارات".

فأومأت برأسي موافقاً أن الأمر بأكمله سخيف. فقد يتأثر بعض الناس، ولكننا كنا شابين وقويينٍ نسبياً. فمشينا بسرعتنا العادية، متجاهلين تحذيراتهم، فانتهى بنا الأمر بأنه كان علينا الانتظار طويلاً حتى يصل الجميع إلى الحافلات.

مع ذلك، بينما كنا ننتظر، ارتسمت على وجه ميكا نظرة قلقة. فأخذ نفسين عميقين.

وقال: "أتعلم؟ أعتقد أنني أشعر بذلك فعلاً".

"حقاً؟"

"بعض الشيء. إنه نوعاً ما يجعلني... مشوشاً".

في النهاية، جعلنا الأمر نشعر أننا مشوشان وكأننا أفرطنا في الشُرب. ولأيّ سببٍ كان، بدأنا نقهقه وعجزنا عن التوقف. فكان كل شيءٍ يلفت انتباهنا على أنه طريف على نحو مفرطٍ بينما سارت بنا الحافلة: الثيابُ التي كان الناس يرتدونها، والطرق الوعرة المرصوفة بالحصى التي جعلت صوتنا يهتزّ، وبشكلٍ خاص اسم المكان الذي كنا على وشك زيارته: سوكسيفومان.

كان عندما يلفظ بشكل صحيح - سوكسي فومان - يبدو كشخص ذي لكنةٍ روسية يحاول أن يقول "سيكسي وومان" (امرأة مثيرة). وفي حالتنا المشوّشة، لم نستطع التخلي عن الموضوع. فكان هو كل ما استطعنا التحدث عنه.

فكان ميكا يقول: "إنني لا أستطيع الانتظار لرؤية السوكسي فومان". فكان دماغي الذي يفتقر للأوكسجين يجعلني أضاعف الضحك.

كان يضيف قائلاً: "أتساءل أين هي السوكسي فومان. تعرف أنني لا أحب شيئاً كالسوكسي فومان".

فكنت أتوسل قائلاً: "أرجوك... توقف وحسب، اتفقنا؟"

"إنني حقاً حقاً حقاً أريد أن أتسلق السوكسي فومان. تعرف أن البيرو مشهورة بالسوكسي فومان".

وعندها، أدمعت عيناي.

تناولنا الغداء في فندقنا في كوزكو. وكان الفندق، الذي كان ديراً سابقاً، أحد أكثر الفنادق التي كنا سنزورها إثارةً للاهتمام. كان، مثل كاسا ألياغا، مصمماً حول ساحةٍ مركزية، ولو على مساحةٍ أكبر بكثير. كانت الغرف، التي بنيت أصلاً في العام 1640، قد جرى تعديلها لتسمح للأوكسجين أن يدخل إليها. وكما لاحظ ميكا عندما دخل إلى البهو قائلاً: "إن هذا حتى أفضل من السوكسي فومان".

في فترة العصر، بعد أن هدأت القهقهات، حظينا أخيراً بفرصةٍ لزيارة حصنٍ الإنكا. ولم يكن بالضبط ما توقعناه، فقد كان، بموقعه على نجدٍ كبير يشرف على كوزكو تماماً، محاطاً بجدران صخريةٍ من كلا الجانبين، وكان شبيهاً بمدرّج أكثر منه بقلعةٍ دفاعية. وقد شكّلت الجدران باستخدام قطعٍ ضخمةٍ من الغرانيت، وكانت الحجارة مقطوعةً بدقة كبيرة ومكدَّسة بحيث إنه من المستحيل حتى اليوم أن تزلق قطعة من الورق بينها.

كانت السحب القاتمة فوقنا تضفي على الطبيعة مظهراً منذراً بالشؤم. وقد تجولنا في المنطقة مع بوب وكيت ديلفن اللذين أصبحا صديقين حميمين. وبينما كنا نصغي إلى الدليل وهو يتحدث عن البناء الحجري المعقّد، أعلمانا أنهما قد احتفلا بعيد زواجهما الحادي والأربعين. وبعد ذلك ببرهةٍ بينما كنت وميكا نستكشف بمفردنا، رأينا بوب وكيت معاً من بعيد. فقمنا بمجرّد مراقبتهما لبعض الوقت.

وسأل ميكا: "يبدوان سعيدين، أليس كذلك؟"

"نعم، يبدوان كذلك. وأعتقد أن السبب هو أنهما سعيدان فعلاً".

"إن أربعين عاماً وقت طويل. إنهما متزوجان منذ وقتٍ أطول مما عشت أنا".

"وكذلك الكثير من الناس في هذه الرحلة".

فسأل ميكا: "ما الذي تعتقد أنه سرّ الزواج الذي يدوم طويلاً؟"

"لا أعلم إن كان هناك سرّ، فكل زوجين مختلفان. وما ينفع لزوجين قد لا ينفع لزوجين آخرين".

"أعلم ذلك. ولكن إذا استطعت أن تختار شيئاً واحداً، فماذا سيكون؟"

فترددت. وكانت السماء في الأعلى مسودَّة كالفحم، وكانت الغيوم تنتشر وتغيّر اتجاهها وشكلها كل دقيقة.

وقلت أخيراً: "الالتزام. إذ يجب أن يكون كلا الشخصين ملتزم. وأعتقد أنه إن كان الشخصان ملتزمين بالزواج، وإذا أرادا فعلاً أن يجعلاه ينجح عندها سيجدان طريقةً ليفعلا ذلك مهما يحدث في الحياة. وإذا تزوجت امرأةً غير ملتزمةٍ - أو إذا كنت غير ملتزم - وحدثت مشكلة ما فإنّ الزواج لن ينجح. فالزواج شاق".

فقام ميكا بمجرّد الهمهمة.

"وماذا عنك؟ ما هو السّر باعتقادك؟"

"ليست لدي فكرة. فأنا متزوج منذ أربع سنواتٍ فقط. ولكن بالنسبة لي ولكريستين، أظن أنه التواصل. فعندما نتكلم عن القضايا ونكون منفتحين مع بعضنا البعض تكون الأمور رائعة بيننا. وعندما نحتفظ بالأمور لأنفسنا تستفحل الضغائن والامتعاضات، وينتهي بنا الأمر ونحن نتشاجر".

فلم أقل شيئاً.

"ماذا؟ ألا تعتقد أن التواصل مهم؟"

فهززت كتفي قائلاً: "بماذا ينفع الكلام إذا لم يكن أي منكما ملتزماً؟ فإذا تورّط أحدكما في علاقةٍ

غرامية أو أصبح مدمناً على المخدرات أو مؤذياً، فمجرد الكلام عن الأمر لن يزيح الألم بعيداً، أو يصلح الثقة التي فقدت. وفي النهاية، أهمّ شيءٍ في الزواج هو الأفعال. وأعتقد أنّ الناس يتكلمون فوق الحدّ عن الأشياء التي تزعجهم عوضاً عن أن يقدموا فعلاً على القيام بالأشياء الصغيرة التي تحافظ على الزواج قوياً. فعليك أن تعرف ما تحتاجه زوجتك منك ثم تفعله، وتتجنب فعل الأشياء التي تضرّ العلاقة. وإذا تصرّفت زوجتك بنفس الطريقة يمكن لزواجكما أن ينجح في أي ظرف".

فابتسم قائلاً: "مثلك وكات؟"

فقلت بهدوءٍ: "نعم، مثلي وكات".

عدنا بعد حصن سوكسيفومان لنتجول في الكاتدرائية الرئيسية في كوزكو حيث كانت الثروة كافيةً لتصعق الخيال. وهي أكبر من كاتدرائية سانت باتريك في نيويورك. كانت الكاتدرائية موطناً لمئات الصور الجصية واللوحات الزيتية للشخصيات الدينية، بينما كان الذهب والفضة يلمعان في كل مكان. فلم تكن المذابح فقط مموَّهة بالمعادن الثمينة بل الجدران بأكملها أيضاً. عندما يفكر المرء أن الإسبانٍ قد أرسلوا الأغلبية الضخمة من الثروة إلى إسبانيا يكون من السهل فهم لماذا كان بيزارو مصمماً على غزو إمبراطورية الإنكا.

رغم كون الكنيسة ساحرةً، كان اهتمام ميكا يبدو مركزاً على موضوعٍ محدد. فاستطاع بعد جهدٍ أن يلفت انتباه الدليل.

المتاحف

في كل مكان ذهبنا إليه، كنا نؤخذ إلى المتاحف، لذا كان باستطاعتنا رؤية التحف الفنية والتي تمثل تاريخ السكان المحليين. بصراحةٍ تامة، كان الكثير منها مملاً تماماً. فقد تعلمنا، على سبيل المثال، أن كل ثقافةٍ تقريباً في الماضي كانت لديها - مفاجأة! - صناعة الفخّار. ونتيجةً لذلك، قضينا الكثير من الوقت ونحن ننظر إلى الجرار والأوعية. مهما اعتبرت الأمر، كان هذا بعد وقتٍ قصيرٍ مثيراً بقدر النظر إلى الجرار والأوعية في خزانة مطبخك. مع ذلك، فقد كان أدلاؤنا يحبون الجرار والأوعية. وكان يبدو أنهم يستطيعون التحدث عن الجرار والأوعية لساعات. وقد كانوا يتحدثون عن الجرار والأوعية.

فكانوا يقولون: "وهذه... هذه هي الجرة التي اعتادوا تخزين الماء فيها. والآن، هناك؛ لاحظوا كم هي مختلفة عندما تقارن بتلك التي كانت تستخدم لشرابهم! هل ترون الاختلاف في الشكل واللون! إنه حتى حجم مختلف. ومن المدهش أن تدركوا كم كانوا متقدمين كحضارة. سوائل مختلفة، جرار مختلفة. تخيّلوا ذلك وحسب!"

فكان ميكا يكرر: "يا للعجب، تخيّلوا ذلك وحسب!"

كنت أضيف قائلاً: "إنني أحاول".

"سوائل مختلفة، جرار مختلفة".

"إنه أمر يجفل منه العقل، أليس كذلك؟"

كنا بين الحين والآخر، نتعلم شيئاً آسراً حقاً. فقد كانت العظام، على سبيل المثال، تجعلنا عادةً نتوقف. وكذلك فعلت الأسلحة والجماجم. وخاصةً الجماجم، إذ كانت في متحف كوزكو مجموعة من الجماجم في خزائن زجاجية. ورغم أن اللافتات كانت بالإسبانية استطعنا بعض الشيء أن نكتشف معنى الشيء المعروض وأن نميّز كلمة " ".

لم يكن دليلنا يشعر بالإثارة حيال الجماجم وفكرة الجراحة البدائية كما كنا نفعل. فبدا وكأنّه يريد أن يقلل من قيمة ما كنت وميكا نراه، وكأنّ ذلك يلقي بالشكوك على دماثة شعب الإنكا الأوائل.

فجادل قائلاً: "هذا ليس مهماً. تعالوا، دعوني أريكم الجرار والأوعية، فهناك المزيد في الأعلى".

فقلنا: "سنلحق بكم".

تبيّن أن الإنكا كانوا منهمكين في جراحة الدماغ مما فتننا. وكان باستطاعتنا رؤية الثقوب التي حفروها عبر الجماجم. كانت الثقوب كبيرة بحجم ربع الدولار. ومن عدد الجماجم والتنوع في مواضع الثقوب، لم تكن تلك ممارسة غير شائعة. وبينما كنا نحدّق بها، حاولنا أن نتخيّل مم كان المريض يعاني أو ما كان كبير الجراحين يقوله عندما كان يشرح ضرورة العملية الجراحية.

"

. "

"حسناً، يا كبير الجراحين. طالما أنك تعرف ما تفعله".

"طبعاً أعرف ما أفعله. ألم ترَ جرارنا وأوعيتنا؟ إننا حضارة متقدمة. والآن ناولني عظمة النمر تلك، وانحنِ على تلك الصخرة، ودعني أحفر".

"حسناً".

في صباح اليوم التالي قدنا الحافلات إلى محطة القطار في كوزكو لنباشر الرحلة عبر وادي أوروبامبا الأسطوري في طريقنا إلى ماتشو بيكتشو. لقد وصف أدلاؤنا مناظر الوادي على أنها بعض أجمل المناظر في العالم. كانت رحلتنا كما أعلن عنها في كل شيءٍ وأكثر من ذلك. فقضيت وميكا ثلاث ساعات ونصف محدقين عبر النوافذ ونحن نتفرّس في أطراف الجرف المرتفعة والمكوّنة من الغرانيت، ونتعجب من النهر الذي بدا غالباً قريباً بما يكفي لنلمسه. وكان من الممكن، في بعض الأماكن، رؤية آثار الإنكا التي تعرضت للعطب، مثل جدارٍ هنا وبناءٍ للتخزين هناك.

عندما نزلنا بدايةً عبر الوادي، ثم بدأنا نتسلق نحو جبال الأنديز، كانت السماء الزرقاء تفسح مجالاً لغيوم بيضاء مليئةٍ بالضباب. أصبحت جبال الأنديز خضراء بغاباتها، وترجّلنا عند قريةٍ متداعيةٍ للسقوط مقامة على حافتي نهر أوروبامبا الذي كان هائجاً في ذلك الوقت. وكانت السماء ماطرةً، بينما اتجهنا أسفل شارعٍ ضيق مزدحم بالباعة سدّ أيضاً مسد سوق البلدة. ومن هناك، ركبنا حافلةً تحركت بنا على طول الطّرق المتعرجة الضيقة والتي كانت تنتهي عند ماتشو بيكتشو على ارتفاع أكثر من ألفي قدم.

كانت قصة مدينة الإنكا المفقودة في أعالي جبال الأنديز تعتبر أكثر بقليلٍ من تراثٍ شعبي عندما وصل المستكشف هيرام بينغهام إلى البيرو عام 1911. فقد قام، وهو يريد إثبات وجودها، باستئجار أدلاءٍ محليين، وباشر البحث للعثور عليها. وتم اختيار الأدلاء لأنهم، كما يفترض، كانوا يعرفون موقعها. وبعد أن توجهوا عبر الوادي، قادوه إلى جرفٍ مغطى بالغيوم. وحالما شقّ مع فريقه طريقهم إلى الأعلى، قابلوا بعض السكان الأصليين الذين أدلوا بملاحظةٍ عن "المنازل قرب الزاوية بالضبط". وفي غضون دقائق، سرعان ما صادف بينغهام آثار المدينة الأسطورية، المدينة التي يقدر أنها كانت موطناً لأكثر من 2500 نسمة. وحتى هذا اليوم، لا أحد واثق من سبب بناء المدينة. فقد تكون قد استخدمت كقاعدةٍ أمامية ضد الناهبين الإسبان الغزاة. وتوحي اكتشافات أخرى بأنها كانت مكاناً يستريح فيه الملك، مثل مخبأ للإجازات. أشار البعض إلى دليل أن معظم المقيمين كانوا من النساء مما عقّد النظريات أكثر. والمعروفُ هو أن المدينة قد هجرت بعد وصول الإسبان بوقتٍ قصير.

خرجت وميكا من الحافلة. في البداية، كان الغطاء من الضباب والغيوم من الكثافة بحيث يمنعنا من رؤية أي شيء. عوضاً عن ذلك، بينما كنا نتقدّم بشكلٍ متعرِّج على طول حافة الجرف، اتخذت الآثار شكلاً تدريجياً. كأنها تقريباً كانت تتكشّف بشكلٍ عرضي. ففي البداية، لم يكن هناك شيء محدد. وتدريجياً، تشكّلت الصور. ثم فجأةً، كان بإمكاننا رؤيةً كل شيء، فكان كافياً ليصعقنا حتى الصمت.

يعود جزء من تأثير ماتشو بيكتشو إلى مجرّد الموقع. بينما توجد بعض الآثار على قمة الجبل، فالأجزاء الأخرى مبنية مباشرةً على حافةٍ الجرف. كانت الأماكن المنبسطة تبدو كخطواتٍ عملاقةٍ منحوتةٍ من جانب الجرف. وخلفها مباشرةً، كانت المعابد والمنازل الغرانيتية لشعب الإنكا القديم. كانت الأسقف التي صنعت أصلاً من الخشب والقش قد بليت منذ وقت طويل، ولكن كان باستطاعتنا رؤية البنى نفسها. وكانت الدرجات المنحدرة المرتبطة مع بعضها البعض كالشقق في المنازل المتمازجة وسط المباني. كانت أماكن العبادة منتشرةً في القرية الصغيرة مع أماكن مكشوفةٍ تكتمل بالبلاطات القربانية. كانت المنحدرات الخضراء، في كل مكان حولنا، مرتفعةً من بعيد. وكانت خيوط رفيعة من الغيوم تتحرك بشكلٍ متعرج عبر القمم. وإذا كانت تيكال قد أدهشتنا، فقد كنا بكل معنى الكلمة عاجزين عن الكلام عند فن عمارة ماتشو بيكتشو. فكانت تلك المحطة المفضلة بالنسبة إليّ في الرحلة بأكملها.

توجّهنا عبر الآثار مع دليلٍ برفقتنا ليخبرنا عن التاريخ والثقافة. ورغم ذلك، فقد شعرت مرة بعد مرة بأنني مجبر على الانفصال عن المجموعة لأقوم بمجرد الوقوف وحدي لبعض الوقت. فقد كان مكاناً من النوع الذي يجب أن لا أن تزوره وحسب. وشعر ميكا بنفس الطريقة. ففي أحد الأوقات، جلسنا بهدوءٍ على حافة أحد الآثار وأرجلنا متدلية، ونحن نحدق بالمشهد المذهل، ولا يشعر أي منا بالحاجة لقطع الصمت.

استمرينا طوال الساعات القليلة التالية باستكشاف الآثار. كان يفترض بنا بعد ذلك التوقف لتناول الغداء في المطعم. لقد كنت وميكا لنبقى في الموقع ولكنّ برنامج الرحلة لم يكن يسمح بذلك، فتوجهنا بتذمرٍ لننضم إلى الآخرين.

بعد الغداء، توجّهنا عائدين إلى فندقنا في كوزكو، فوصلنا بعد حلول الظلام تماماً. وقد مرّ أحد المحاضرين في الرحلة بغرفتنا وأخبرنا أن نأتي، وعندما وصلنا شاهدنا ما طلبه من مطعمٍ محلي.

... هندي مشوي.

وقال: "هيا. لنجرِّبه. لقد جعلت أحد الأدلاء يطلبه من مطعمٍ محلي. وسوف نلتقط الصور".

وقد جعلني النظر إليه أشعر بالغثيان فجأة، فانحنيت نحو ميكا وقلت: "ما يزال محتفظاً بالرأس والمخالب".

فهز ميكا كتفيه قائلاً: "يفترض أنه طبق شهي. وبالإضافة لذلك، فإن اللوحة تظهر أنه قد قدّم في العشاء الأخير".

"إنك لا تفكر حقاً في أكله، أليس كذلك؟"

"قد أتذوقه... إنها الفرصة الوحيدة التي ستكون أمامي. إنهم لا يقدمونه حيث نعيش".

"حقاً؟ هل ستتناول لقمةً؟"

"أعتقد أنه عليّ ذلك. واصنع لي معروفاً".

"ما هو؟"

"التقط لي صورةً، من أجل آلي".

"ذلك مزعج، سوف تصرخ".

"كلا، لن تفعل ذلك. ستعتقد أن الأمر طريف. وسوف ألتقط صورةً لك وأنت تتناول لقمةً أيضاً".

"أنا؟"

"بالطبع. فإنني لا أستطيع أن أدعك تفوّت لحظةً كهذه. وكما يقولون "عندما تكون في روما.. (تصرف كالرومان)".

نظرت مجدداً. وقلت: "إن الأمر يجعلني أشعر قليلاً بالغثيان لمجرد التفكير به".

"لهذا السبب أنا هنا، لأساعدك على تجربة الأمور الجديدة، ولأجعلك توسّع تجربتك".

"شكراً".

فقال: "هيه، ما فائدة الإخوة؟ الآن، جهّز الكاميرا".

ففعلت ذلك، والتقطت صورةً بينما كان يتناول لقمة. وفعل الشيء نفسه لي وأنا أتناول لقمةً صغيرة، كانت معدتي تزبد مثل حممٍ بركانية متوهجة.

"الآن، لم يكن ذلك سيئاً جداً، أليس كذلك؟"

فاعترفت قائلاً: "أعتقد أنني سأتقيأ".

فضحك قبل أن يضع ذراعه على كتفي قائلاً: "فكر بالأمر بهذه الطريقة؛ إنه وحسب الشيء الأخير في سلسلةٍ طويلةٍ من الأمور الغبية التي قمنا بها. حتى أنه هذه المرة لم يكن خطراً".

خلال تلك السنوات الأولى في مدينة فيرأوكس، حتى حين بدأنا نختبر حدود شجاعتنا من خلال الأعمال المثيرة المتهورة، استمرينا بالانجراف بعيداً عن بعضنا البعض. فقد كان ميكا يقضي وقتاً أكثر مع أصدقائه وكنت أقضي وقتي مع أصدقائي. وبين الحين والآخر، كان الأمر ينتهي بأصدقائنا في نفس المكان، ولكن ذلك نادراً ما كان يحصل.

مع ذلك، كانت هناك أحداث معينة اجتزناها معاً، ولو في أوقاتٍ مختلفة. فمع اختفاء الحقول والغابات بسبب ظهور تطورات بناء المنازل الجديدة، بدأنا نقضي المزيد من الوقت عند نهر أمريكان ريفر القريب. كانت هناك قوافل دراجاتٍ وأماكن للوح الانزلاق (وهو نوع يشبه التزلج على الماء. فقط يكون اللوح أكبر حجماً ومربوطاً إلى شجرة على طول الضفة بدلا من قارب. ويبقيك التيار منتصباً). كان هناك أيضاً جسر مشاة يمتد فوق النهر على ارتفاع 45 قدماً فوق الماء. فكان القفز من الجسر إلى المياه الباردة في الأسفل هو أحد الطقوس المقبولة للطفولة. إذا هبطت في المكان الخاطئ فستلقى حتفك. لقد قفزت من الجسر للمرة الأولى عندما كنت في العاشرة. كان ميكا قد فعل ذلك قبل عام. ولاحقاً، قفزت من الحاجز على قمة الجسر (الذي بني بهدف منع القافزين من القفز بالطبع)، مما أضاف عشرة أقدام للقفزة. وقد قام ميكا بتلك القفزة أيضاً قبل أن أفعل ذلك بكثير. ومع ذلك، فقد كان نشاطنا المفضل هو ركوب الحبل المتأرجح، وكنا نقضي فيه الساعات. وكان الحبل، وهو مربوط إلى مركز الجسر، ممدوداً بشكلٍ محكم مع اللوح مثبتاً به، وكنا نقفز من الجسر واللوح بين ساقينا. فكنا ونحن متشبثون بالحبل، نشعر بالقوة ونحن ننقضّ فوق الماء بسرعة ثمانين ميلا في الساعة قبل أن نتأرجح إلى الأعلى نحو الجسر مباشرة. وقد كان ذلك خطراً وغير قانوني، وكان المأمور غالباً يصل لمصادرة الحبل المتأرجح. وبينما كان يفعل ذلك، كان يحدّق بي وبأخي.

كان يسأل أحياناً: "ألا أعرفكما؟"

فكنا نجيب ببراءة: "ماذا تعني بذلك".

كنت وميكا أيضاَ نتسلق الجروف على طول النهر. وقد كانت عمودية تقريباَ، وكان التراب غير مستقر. لقد انزلق كل منا في أكثر من مناسبة، فكنا نقع من على ارتفاع حوالى ثلاثين قدماً، ونكاد نكسر كواحلنا أو سيقاننا. كدت في إحدى المرات أن أفقد أحد أصابعي وأنا أتسلق الجرف - فقد وصل الجرح إلى عظم البرجمة - ولكن أمي قالت لي ألا أقلق لأنها كانت تعلم بالضبط ماذا تفعل. (وضعت لاصقة طبية عليه).

لكن غالباً، لم أكن وميكا نفعل هذه الأمور معاً. فإذا كنت أذهب إلى النهر بين الحين والآخر، كان ميكا يذهب إلى هناك يومياً تقريباً. وإذا قفزت من الجسر مرةً، كان هو يفعل ذلك عشر مرات، ويجد طريقة لزيادة الخطر (لنقفز ونحن نركب دراجتينا!). وإذا ذهبت مرةً إلى بيت أحد الأصدقاء يوم الإثنين، كان ميكا يذهب لبيت أحد الأصدقاء عصر كل يوم. فكان ميكا ببساطةٍ مني في كل شيء بما في ذلك المشاكل التي بدأ يتورط فيها. ورغم كونه تلميذاً جيداً نسبياً، استمرّ بالتورط في الجدالات مع المدرسين والشجارات مع التلاميذ الآخرين. كان والدي يستدعى إلى مكتب مدير المدرسة ثلاث مرات في السنة على الأقل. ومن جهةٍ أخرى، كنت أقضي سنة بعد الأخرى وأنا أنال العلامات التامة وأقوم بالواجبات الإضافية، وأسمع المدرسين يدلون طوال الوقت بملاحظاتٍ مثل: "إنك بكثير مما كان عليه أخوك". كنت أقرأ باستمرار. ليس فقط الموسوعات والكتاب المقدس ولكن التقاويم والأطالس أيضاً. فقد كنتٍ أقوم بمجرد التهامها، وبشكلٍ غريبٍ، كان يبدو أن المعلومات ، مهما كانت غامضة وغير متصلة بالموضوع. وكنت معٍ وصولي إلى الصف السادس مذهلاً في توافه الأمور. فإذا أشار أحدهم إلى أي بلدٍ في العالم كنت أسرد الإحصائيات وأسمي العاصمة وأقول ما هي أهم الصادرات أو أسرد معدل الأمطار، بعد تصفّح المعلومات. ومع ذلك، لم يكن الأمر بالضرورة شيئاً يجده أطفال آخرون في عمري مؤثراً جداً.

فقد تكون مجموعة منا واقفة قرب مكان منعزل، على سبيل المثال، عندما يقول أحدهم للآخرين:

"هيه، كيف كانت رحلة تخييمك في متنزه يوزمايت؟"

"آه، لقد كانت عظيمة. فقد نصبت ووالدي خيمة وذهبنا لصيد السمك. يا صاح، كان عليك أن ترى كم اصطدنا من السمك. وقد رأينا شجر السكوية أيضاً. يا صاح، كانت تلك أكبر أشجار رأيتها في حياتي".

فكان آخر يسأل: "هل تمشيتم قرب منطقة هاف دوم".

"كلا، ولكن يقول أبي إنه يمكننا أن نفعل ذلك في المرة القادمة التي نذهب فيها، ويقول إنه يفترض بالمكان أن يكون رائعاً".

"إنه كذلك، فقد ذهبت مع أبي، وكان المكان رائعاً جداً".

في تلك الأثناء، إذا لاحظ أحدهم وقوفي هادئاً جانباً قد يحاول إشراكي في الحديث.

"هيه، هل ذهبت إلى متنزه يوزمايت من قبل، يا نك؟"

فكنت أجيب: "كلا، لم أفعل. ولكن هل عرفتم أنه حتى قبل أن يصبح متنزهاً قومياً في العام ، كانت الأرض قدٍ أعطيت فعلياً إلى وصاية ولاية كاليفورنيا عام 1864 من قبل الكونغرس الأمريكي، وأصبحت قانونيةً بتوقيع أبراهام لنكولن؟ وستظنون أنه مع كون الحرب الأهلية حامية الوطيس لن يكون لديه الوقت لشيءٍ كهذا ولكنه فعل ذلك. وفي النهاية، مهّد استخدام ائتمان الأراضي الطريق ليلوستون ليصبح المتنزه القومي الرسمي الأول عام 1872. وهل عرفتم أن شلالات يوزمايت، وهي خامس أكثر شلالات العالم ارتفاعاً ويبلغ ارتفاعها 2450 قدماً، هي فعلياً تتكون من ثلاثة شلالات متفرقة؟ أو...".

كانت أعين أصدقائي تحدّق في الفراغ بينما كنت أستمر بالكلام وأستمر.

نعم، ذلك كان أنا: السيد شعبي.

كانت أختي أيضاً تكوّن شخصيتها الخاصة. فقد كانت مثلي تنسجم مع مدرّسيها رغم أن درجاتها كانت عادةً تحوم حول علامة "متوسط" في كل صفٍ تقريباً. ورغم أن والديّ كان كلاهما خريجي جامعة وينظران للتعليم على أنه هام - فقد حازت أمي على شهادة في التعليم الابتدائي وكان أبي أستاذاً جامعياً - لم يبدُ أي منهما مهتماً بأداء أختي الدراسي. فلم يكونا يحثّانها على العمل بجدٍ أكبر، ولا كانا يساعدانها في دراساتها أيضاً، ولا كانا يمانعان إن حصلت على علاماتٍ متدنية. ومع ذلك، يكون السبب مجدداً: "إنها فتاة".

بالرغم من هذا، فقد قاما بتسجيلها في دروسٍ في الفروسية وهما يعتقدان أن مهارةً كهذه ستخدمها على المدى الطويل.

كلما كنت أتفوق في المدرسة أكثر كنت أحاول بجهدٍ أكبر لأبلي حتى أفضل، وكأن ذلك لأتفوق على إخوتي. نوعاً ما، كنت أعتقد أن والديّ سيغدقان عليّ الانتباه الذي كنت أشعر أنه يمنح تلقائياً لأخي وأختي. فإذا كان ميكا ينال الانتباه لأنه كان الأكبر سناً، وكانت أختي تنال الانتباه لأنها كانت الفتاة الوحيدة، أردت أنا الاهتمام لشيءٍ ما، أي شيء. فقد كنت أتوق إلى اللحظات التي كنت أستطيع أن أكون فيها مركز الانتباه على طاولة العشاء. لكن مهما فعلت لم يكن يبدو كافياً أبداً. ورغم أنني لم أشك أبداً أن والديّ كانا يحباننني، لم يسعني إلا أن أفكر في أنه لو كانت أمي لا تملك خياراً آخر، لكنت من يضحى به لإنقاذ الاثنين الآخرين. لقد كان أمراً رهيباً لأفكر به - وإنني كأبٍ الآن أعلم أن الانتباه ليس كالحب - ولكن لم يكن الإحساس ليرحل عني. الأسوأ من هذا، فقد بدأتُ ألاحظ تلك اللحظات بحدّة متزايدة دائماً. فعندما كان الخريف يحلّ، ويكون وقت ملابس المدرسة الجديدة، كنت أحصل على شيئين جديدين وملابس ميكا المستعملة، وكان كل من ميكا ودانا يتلقيان أشياءً أكثر مما كنت أتلقى بكثير. كانت أمي - إذا اعترفت بمشاعري على الإطلاق - تقوم بمجرد هزٍ كتفيها، وتقول: "ملابس ميكا جديدة بالنسبة لك". وبينما كنت أكبرُ كان كل من والديّ غافلاً عن الطريقة التي ينظر فيها طفل مثلي إلى أفعالهما.

لن أنسى أبداً أحد أيام 25 كانون الأول عندما استيقظنا لنجد ثلاث دراجات تحت الشجرة. وقد كان يوم 25 كانون الأول بلا شك أكثر الأيام إثارة في السنة بالنسبة لنا لأننا نادراً ما كنا نحظى بأي شيء نريده في الأوقات الأخرى. فكنا نعدّ الأيام ونتحدث بلا نهايةٍ عما كنا نريده. في تلك السنة بالذات، كانت الدراجات على رأس القائمة. لقد كانت الدراجات تعني الحرية، وتعني المتعة. لقد كانت الدراجات التي كنا نملكها سابقاً قد أصبحت غير قابلة للاستخدام من جراء الاستهلاك والاهتراء. عندما خرجنا خلسةً إلى غرفة المعيشة كانت أضواء الشجرة متوهجة، فحدّقنا بهدايانا بدهشة.

فكانت دراجة ميكا جديدة ولامعة.

وكانت دراجة دانا جديدةً ولامعة.

وكانت دراجتي... لامعة.

للحظةٍ، ظننت أيضاً أنها جديدة. ولكن بعد ذلك ببطءٍ شديد، بدأت أميّزها برغم الطلاء الجديد. وكحلمٍ مزعج، أدركت أن والديّ قد أعطياني دراجتي نفسها، وإن كانت دراجةً مصلّحة. ومع أنها قد كلّفت مالاً لإصلاحها فقد حطّمني أن أفكر أنني قد أعطيت هدية كنت أملكها سابقاً، بينما حظي ميكا ودانا بهديتين جديدتين.

عندما كان الأمر يتعلّق بالدرجات الدراسية، اعتاد والدانا أن يضعا سجّلاتنا المدرسية على الثلاجة، ولم أكن أستطيع الانتظار لتصل أمي إلى البيت لأتمكن من أن أريها كم أبليت حسناً. فعندما رأت سجلي المدرسي قالت إنها فخورة بي. ولكن عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، لاحظت أن السجلات المدرسية قد نزعت ووضعت خلسةً في الدرج. وعندما سألت أمي عن السبب قالت: "إنها تجرح شعور الطفلين الآخرين".

بعد ذلك، لم تعد السجلات المدرسية تعلّق أبداً. وربما في وقتٍ لاحق فقط، توصلت إلى أن أدرك أن ميكا ودانا كانا يعانيان من أمورٍ يقلقان بشأنها أيضاً.

رغم تلك الإساءات الطفيفة التي كنت أدركها في طفولتي، فقد كنت أعشق أمي. كذلك مجدداً كان كل من كان يعرفها، بمن فيهم أصدقاؤنا وكلبتنا براندي. إذ كانت براندي ليلاً - وكان وزنها ثمانين رطلاً - تزحف إلى الأعلى وتتمدّد على حضن أمي بينما تكون جالسةً تقرأ في غرفة المعيشة.

كان أسلوب أمي يجعل من الصعب ألا يحبّها المرء. فقد كانت دائماً متفائلةً مهما كانت الأمور رهيبة، وكانت تجد الأمل في الأمور التي يجدها معظم الناس لا تحتمل. فعلى سبيل المثال، كانت أمي تعمل (كغيرها من الأمهات الأخريات)، ولكن كان عليها ركوب الدراجة إلى العمل. وسواء أكان المطر ينهمر بغزارة أو كانت الحرارة 105 درجات فهرنهايت، كانت أمي ترتدي ثيابها للعمل وتقفز على الدراجة وتبدأ بإعمال الدواسات طوال الأربعة أميال إلى العيادة. كانت لدراجتها سلة على المقود واثنتان أخرتان خلف المقعد. بعد العمل، كانت تقود الدراجة إلى متجر البقالة وتحمل أي شيءٍ كنا نحتاج إليه ثم تقود إلى البيت. كانت دائماً - أعني - تبتسم بابتهاج عندما تدخل من الباب. مهما كان النهار شاقاً، ومهما كانت تشعر بالحرّ أو مبللة، فقد كانت تجعل نفسها تبدو وكأنها المحظوظة، وأن حياتها لم تكن لتكون أفضل.

"مرحباً، يا شباب. من الرائع أن أراكم! لا أستطيع أن أخبركم كم اشتقت إليكم اليوم".

بعدها، كانت تتحدث مع كل واحدٍ منا، وتسألنا عن أيامنا. فكنت وميكا ودانا، واحداً تلو الآخر، نزودها بالتفاصيل بينما تبدأ بطهو العشاء.

كانت أمي أيضاً امرأةً كثيرة الضحك، فقد كانت تضحك على أي شيءٍ مما كان يشدّ الناس إليها بشكلٍ طبيعي. ولم تكن مفرطة في التفاؤل، ولكن كان يبدو عليها أنها تدرك أن الحياة فيها المسرّات والأحزان، ولم يكن الأمر يستحق الطاقة لينزعج المرء من الأحزان، ليس لأنه لا مفر منها وحسب بل ولأنها تنقضي أيضاً.

كان يبدو على أمي أيضاً أنها تعرف أمهات ، فعندما كنت ألتقي بشخص جديد، كان هذا الصديق الجديد يذكر باستمرار كم كانت تحب الحديث مع . وقد كان هذا دائماً يستوقفني كلغز، لأن أمي لم تكن لديها حياة اجتماعية. كانت تقضي تقريباً كل أمسياتها والعطل الأسبوعية معنا في البيت. كانت تتناول الغداء وحدها. وما كان والداي بالمناسبة يشاركان في نشاطاتٍ اجتماعية معاً، ولا كانا حتى يخرجان في ما قد يعتبر موعداً. طوال كل سنواتي وأنا أكبر، أتذكر أن والديّ قد خرجا معاً إلى إحدى الحفلات فقط، فصدمنا ذلك بكل معنى الكلمة عندما ذكرا عرضياً أنهما كانا خارجين في تلك الأمسية. كنت في الثالثة عشر في ذلك الوقت. وبعد أن غادرا، عقدت وميكا ودانا اجتماعاً لمناقشة الأحداث غير الاعتيادية. وقلنا: "إنهما يتركاننا وحدنا؟ ماذا يمكن أن يكونا معتقدين؟ إننا مجرد أطفال؟" (بغض النظر عن أننا كنا وحدنا ... ولكن من يحتاج إلى المنطق عندما تشعر بالأسف على نفسك؟).

كيف كان الناس يعرفونها إذاً؟ فتبين أن أمي كانت تعتني بأمهات الأصدقاء الجدد في عيادة طبيب العيون، وكانوا يجرون محادثاتٍ معها. ولكنّ الأمر لم يكن مجرد حديث تافه، فقد كانت لدى أمي طريقة في جعل الناس ينفتحون لها. فكان الناس يبوحون لها بكل شيء، وكانت المستشارة الاجتماعية الحقيقية في فيرأوكس. عندما كنت بين الحين والآخر أذكر صديقاً جديداً كانت تهز رأسها وتقول شيئاً مثل: "لا بأس أن يأتي إلى هنا، ولكن لا يمكنك الذهاب لعنده، فأنا أعرف ما يجري في ذلك المنزل".

مع ذلك، كانت أمي - وستكون دائماً - شخصاً غامضاً بالنسبة إلي. ورغم أنني كنت أعرف أنها كانت تحبني، لم أستطع منع نفسي من أن أتعجب لماذا لم تكن تعترف بنجاحاتي. رغم أننا نحن الأطفال كنا محور حياتها، كانت تدعنا نجوب الأماكن الخطرة بتهورٍ ونقوم بأمورٍ خطرة. لطالما حيرتني تلك التناقضات، وإنني حتى الآن متحيّر في تفسيرها. لقد تخليت عن فهمها منذ وقت طويل. ولكن إن كان هناك شيء ثابت في الطريقة التي ربتنا بها، فقد كان رفضها أن تدع أيًّا منا ينغمس في أي نوعٍ من رثاء الذات. وقد حققت ذلك من خلال أسلوب مغضب من الجدال، كانت فيه التصريحات الثلاثة التالية تتكرر في سياقاتٍ متنوعة:

إنها حياتك + تعليق اجتماعي.

ما تريده وما تحظى به هما عادةً أمران مختلفان تماماً.

لم يقل أحد أبداً إن الحياة عادلة.

فعلى سبيل المثال، في جدالٍ أجريته معها عندما كنت في الحادية عشرة:

قلت: "أريد أن أخرج لأنضمّ لفريق كرة القدم. فهناك دوري المدرّب بوب وارنر وكل أصدقائي سيلعبون".

فأجابت: "إنها حياتك. ولكنني لا أريد أن أكون مسؤولة عنك وأنت تعرج على عكازين طوال حياتك لأنك أصبت ركبتك وأنت طفل. وبالإضافة لذلك ليس لدينا المال لهذا الأمر".

"ولكنني أريد ذلك".

"ما تريده وما تحظى به هما عادة أمران مختلفان تماماً".

"هذا ليس عدلاً. إنك دائماً تقولين هذا".

فهزت كتفيها قائلة: "لم يقل أحد أبداً إن الحياة عادلة".

فتوقفت مجرِّباً طريقة أخرى.

"لن أصاب بأذى، إن كان هذا ما تقلقين بشأنه".

فنظرت إلي، وقالت: "شخص بحجمك؟ ستصاب بأذىً حتماً. فقد رأيت لاعبي كرة القدم، وأنت بالنسبة إليهم لست أكثر من حشرة على زجاج السيارة الأمامي. إنك صغير جداً".

كانت محقَّة في ذلك، فقد كنت صغيراً.

"أتمنى لو كنت أكبر حجماً مثل أصدقائي".

فوضعت يداً مواسية على كتفي، وقالت: "يا عزيزي، لم يقل أحد أبداً إن الحياة عادلة".

"أعلم ذلك، ولكنني ما زلت...".

فعرضت قائلةً: "تذكر هذا وحسب، اتفقنا؟" وصار صوتها ناعماً بعاطفة الأمومة، ثم قالت: "سيساعدك هذا لاحقاً في الحياة عندما تصاب بخيبة أملٍ حيال أي شيء. فما تريده وما تحظى به هما عادةً أمران مختلفان تماماً".

"ربما أنتِ محقة. وربما ينبغي أن أجرِّب رياضة أخرى".

فابتسمت أمي برقةٍ وكأنها تستسلم لجدالي أخيراً، وقالت: "هيه، افعل ما تريده. إنها حياتك".

كلما كنت أكبر، كنت أكره تلك الجدالات لأنني كنت أخسر كل واحدٍ منها. ولكن رغم ذلك، لم أكن أستطيع في أعماقي أن أهرب من الشعور بأن أمي كانت على الأرجح محقةً حيال تلك الأشياء. فرغم كل شيء، كانت تتحدث عن خبرة.

الفصل التاسع

جزيرة إيستر آيلند في تشيلي
29- 30 كانون الثاني

بينما كنا ننظر من نافذة الطائرة، كانت جزيرة إيستر آيلند تظهر لناظرينا ببطء، فكانت مشهداً بعيداً ونائياً أكّد فقط على مدى ابتعادنا عن محيط المألوف.

كمعظم الجزر في جنوب المحيط الهادئ، استوطنها البولينيزيون في بداية الأمر. وبما أن إيستر آيلند كانت بعيدة جداً عن بقية جزر بولينيزيا المأهولة بالسكان - على بعد حوالى 2.200 ميل عن ساحل تشيلي، وهي أبعد جزيرة مأهولة بالسكان - طوّر السكان الأصليون ثقافتهم الفريدة، والتي تضمنت نحت التماثيل المعروفة باسم مواي.

من بين كل الأماكن المدرجة في النشرة الأصلية، كانت إيستر آيلند هي أكثرٍ ما أثار اهتمامي. إذ كنت قد قرأت عن تماثيل المواي، وكنت أتوق لرؤيتها ولمسها منذ كنت طفلاً. ولأنها كانت بعيدة جداً، كنت مدركاً تماماً أن هذه الرحلة قد تكون هي المرة الوحيدة التي قد تطأ فيها قدماي الجزيرة، فمددت عنقي وأنا أنظر من النافذة بينما كانت الطائرة تحوم استعداداً للهبوط.

كان أول ما لفت انتباهي هو ندرة وجود الأشجار. إذ أعتقد أنني قد تخيّلت أشجار النخيل والغابات المطرية النموذجية في كافة أنحاء جنوب المحيط الهادئ. ولكن عوضاً عن ذلك، كانت الجزيرة إلى حدٍّ كبير مغطاةً بالمروج العشبية، وكأن جزءاً من ولاية كانزس قد أسقط في وسط المحيط. في وقتٍ لاحق، اكتشفنا من علماء الآثار أن غياب الأشجار يفسر جزئياً التاريخ الثقافي لإيستر آيلند. لكن في نفس الوقت، أتذكر أنني كنت أفكر كم كانت تبدو غريبة.

هناك شيء آخر مثير للاهتمام يتعلق بإيستر آيلند وهو منطقة التوقيت الذي تقع فيها. لأننا كنا نطير نحو الغرب، كنا نعبر مناطق التوقيت ونخسر يوماً في طريقنا إلى أستراليا. ولكنّ هذا مكننا من زيادة أيامنا إلى الحدّ الأعلى. فإذا غادرنا في الساعة العاشرة، على سبيل المثال، وطرنا لمدة خمس ساعات، قد نصل بعد ثلاث ساعات فقط من مغادرتنا كما تقاس في التوقيت المحلي. ولأن الجزيرة كانت جزءاً من تشيلي، وبهذا تشترك بمنطقة التوقيت الشرقي (بالإضافة إلى نيويورك وميامي)،

رغم وقوعها جغرافياً غرب كاليفورنيا، فقد قيل لنا إن الشمس لن تغرب حتى الساعة 10.45 مساءً.

قدّم العشاء في الهواء الطلق، وبعد ذلك، قام بعض أعضاء الرحلة بجولةٍ نحو جرفٍ على شاطئ البحر ليشاهدوا الشمس وهي تغرب. كانت الأمواج تتكسر على الصخور بعنفٍ وترتفع نهاياتها من أربعين إلى خمسين قدماً في الهواء. في الغرب، تحولت السماء إلى اللون الزهري والبرتقالي قبل أن تتحول أخيراً إلى أزهى لونٍ أحمر رأيته في حياتي. وبعدها، هبط ظلام كثيف.

كنت وميكا جالسين معاً، نراقب كل هذا عندما التفت إلي أخيراً.

وقال: "أعتقد أنني أعرف ما هي مشكلتك".

"أية مشكلة؟"

"لماذا تتوتر إلى هذا الحدّ طوال الوقت".

"لماذا تستمر بالتحدث إليّ عن هذا الأمر؟ ها أنا ذا أستمتع بغروب الشمس في جنوب المحيط الهادئ للمرة الأولى وأنت تريد سبر حالتي النفسية".

فقال متجاهلاً إياي: "مشكلتك هي أنك تحتاج إلى المزيد من الأصدقاء".

"لديّ أصدقاء. لدي الكثير من الأصدقاء".

"أصدقاء شبان؟"

"نعم".

"لكن هل تقوم بشيءٍ معهم؟ هل تخرج معهم؟ هل تذهب لصيد السمك أو ركوب القارب أو أيًّا كان ما تفعلونه في الجنوب؟"

"أحياناً".

"أحياناً أم نادراً؟"

فترددت، ثم قلت: "حسناً، لا أفعل الكثير معهم، ولكنني لا أستطيع ذلك. إذ لكي يتوفر لدي الوقت للخروج مع الأصدقاء عليّ أن أتخلى عن الوقت مع عائلتي، لدي الكثير من الأطفال لأفعل هذا. وبالإضافة لذلك، معظم أصدقائي لديهم أطفال أيضاً. لست الوحيد الذي لا يتاح له الكثير من وقت الفراغ لمجرد الخروج للتسكع".

"ومع هذا ينبغي عليك ذلك، أن تقوم بمجرد التسكع. ليس كل الوقت، بالطبع. ولكن ينبغي عليك أن تحاول لتجعل الأمر منتظماً أكثر، كما أفعل أنا. فقد انضممت لدوري كرة قدم داخلي، ونحن نلعب كل يوم خميس. مجرد مجموعةٍ من الشبان نستمتع بوقتنا هناك، وعليك أن تفعل شيئاً كذلك".

"ليس لدينا دوري كرة قدم داخلي. فأنا أعيش في بلدة صغيرة، أتتذكر ذلك؟"

"ليس عليك أن تتسكع في كرة القدم. يمكنك أن تفعل أي شيء. الفكرة هي أنك يجب أن تفعل شيئاً، فالعلاقات هي أهم شيء في الحياة، والأصدقاء جزء من هذا الأمر".

فابتسمت قائلاً: "لماذا لدي انطباع بأنك تظن أن الحلّ لكل مشاكلي هو أن أكون مثلك أكثر؟"

فهزّ كتفيه وقال: "هيه، ما قلته لك صحيح". فضحكت.

"إذاً ما زلت تظنّ أنّ عليك الاعتناء بي، أليس كذلك؟"

"فقط عندما أعتقد أنك بحاجة لذلك، يا أخي الصغير".

"وماذا إذا بدأت أتكلم معك عن الله لأنني أعتقد أنك تحتاج ذلك؟"

فقال: "تفضل، سأصغي".

كانت السماء فوقي مليئة بنجوم متجمعة معاً في كوكبةٍ لا يمكن تمييزها، فخرجت الكلمات تقريباً بصورة غير متوقعة.

"

."

في صباح اليوم التالي، بدأنا رحلتنا لرؤية أول تماثيل المواي، والتي تقع على بعد أقل من بضع دقائق من فندقنا، أعلى الساحل فحسب. ولو كنا نعرف أين كنا ذاهبين لكنا استطعنا رؤيتها من غرفتنا في الفندق.

بينما ركبنا في سياراتٍ الفان مع علماء الآثار الذين امتهنوا دراسة التماثيل، أخبرنا أنه كان هناك سابقاً أربع عشرة قبيلةً مختلفة تقريباً في الجزيرة، ولكل واحدةٍ حاكمها. وقد أمر هؤلاء الحكام بنحت تلك التماثيل من الصخور البركانية - وقد صنع معظمها ليشبه الحكام المذكورين - ومع مرور الوقت، ازدادت تلك التماثيل كبراً لأن كل حاكم كان يحاول فرض أهميته على الشعب. كانت بعض تماثيل المواي يصل وزنها إلى ثلاثين طناً وارتفاعها إلى اثني عشر قدماً، وكان أحد التماثيل غير المنتهية يبلغ ارتفاعه ستة وستين قدماً، ويقدّر وزنه بخمسين طناً تقريباً.

بعد ذلك، أخبرنا عن غياب الأشجار.

عندما استعمرت إيستر آيلند في البداية، كانت تشبه الجزر الأخرى في المحيط الهادئ. ولكن مع توسع عدد السكان، أصبحت الأشجار هي الأكثر استعمالاً من كل المصادر الطبيعية. فقد استخدمت في بناء المساكن وإشعال نيران الطهو. وكانت الأشجار التامة النمو تستخدم لدحرجة تماثيل المواي عبر الجزيرة. عندما هاجر البولينيزيون في الماضي، وبسبب كون الجزر مزدحمة جداً، توجه الناس في قواربهم بحثاً عن مناطق جديدة. لأن إيستر آيلند كانت منعزلة جداً، لم يكن هناك مكان آخر يذهبون إليه، فأدى الازدحام والاستعمال المفرط للمصادر إلى الحروب الأهلية التي استمرت عبر الأجيال. في غضون ذلك كله، استمرّ قطع الأشجار. وفي النهاية، كانت كلها قد انمحت، فانتهى الأمر بالسكان الأصليين وهم يحرقون كل شيء استطاعوا إحراقه من أجل الطهو بما في ذلك منازلهم وقواربهم. أصبح الصيد عند الشواطئ المصدر الوحيد للطعام، ولكن يشك بأن تأثير ظاهرة انخفاض درجة حرارة المياه (لانينا) قد برّد فجأةً المياه حول الجزيرة، واستمر لعامين متسبباً بالقضاء على الحيد البحري فأصبح السمك أقل وفرة بكثير. وفي النهاية، تحول السكان الأصليون إلى آكلي لحوم البشر.

مع مرور الوقت، نبتت مجدداً في نهاية المطاف بضع أشجار نخيل. ولكن لإسراع العملية، كانت أشجار النخيل التامة النمو تستورد من جزيرة تاهيتي. ومع ذلك، فقد ثبت في النهاية أن تلك الأشجار كانت مريضة، فلم تمت وحسب وإنما انتهى بها الأمر إلى أن تقتل أشجار النخيل الباقية على الجزيرة. والآن، هناك أماكن قليلة فقط حيث ما تزال هذه الأشجار باقية.

كان أول تمثالٍ زرناه ساحراً، وكذلك كان الثاني والثالث. في الوقت الذي شاهدنا فيه الرابع والخامس بدأت الجدّة تتناقص تدريجياً. ورغم أن علماء الآثار المحليين قد أكدوا لنا أن كل واحد كان مختلفاً، فقد بدت كلها لعيني غير المدربة نفس الشيء تماماً: محجرا العينين وأذنان طويلتان وأنف وفم، وكلها منحوتة من الصخور البركانية.

من هناك، توجهنا إلى المقلع حيث اقتلعت كل الصخور التي نحتت. فكان علينا عبور الجزيرة

لنصل إليه، وقد استوقفتني المسافة التي نقلت التماثيل عبرها أكثر من التماثيل بحدّ ذاتها. فبينما كنا نقود، حاولت أن أتخيّل كم كان عدد الناس الذين شاركوا في نقل كل تمثال.

بينما قدنا باتجاه المقلعَ حيث تمّ اقتلاع الصخور ونحت تماثيل المواي، تكشفت أمامنا مراع مكشوفة خضراء على كلا الجانبين. خلف المراعي، كان باستطاعتنا رؤية قطعانٍ من الخيول البرية تقفز على طول المراعي.

كانت الخيول رمزاً للازدهار في إيستر آيلند. وقد تم استيرادها في أواخر العام 1800، ولكن لأن الجزيرة كانت منعزلة جداً، كان العلف باهظاً كثيراً بحيث لم يكن من الممكن استيراده. فترك المالكون الخيول تركض بحرية لكي تتمكن من الرعي على عشب الجزيرة. وكانت عضلاتها رشيقةً، وكان وبرها يلمع في ضوء الشمس مما ألهم ميكا أن يلتقط صورة لها.

كان البركان يرتفع بمقدار 1.400 قدم، ويمكنك أن ترى في كل مكان حول القاعدة تماثيل مهجورة. كان بعضها ممدداً على جانبه، وكان البعض الآخر نصف مدفون على طول ممر يتقدم نحو الجانب البعيد من الجزيرة. في المقلع نفسه، كان بعضها منتصباً في مراحل مختلفةٍ من الاكتمال. ومجدداً، لم يكن هناك جواب للسؤال الذي يتعلق بالسبب: إذ كان هناك تخمين يتعلق بالحروب. ككل الأماكن الكثيرة التي زرناها، لم يكن هناك شيء مؤكد. ولكن تقريباً، كان يبدو أن العمال قد غادروا ليومهم ولديهم النية التامة للعودة في اليوم التالي.

كان ممر متعرج يؤدي إلى قمة البركان، فتوجه حوالى ثلث مجموعتنا في نهاية المطاف إلى القمة. من القمة، كان من الممكن رؤية منحنيات الأرض. كنت وميكا أول الواصلين. كان السير تحت سماءٍ زرقاء صافية وبدرجات حرارة بحدود 21 درجة مئوية منعشاً. لم يكن هناك شيء يحيط بالجزيرة سوى امتدادٍ لا نهاية له من الماء. تساءلت كيف تمكن البولينيزيون من البقاء على قيد الحياة في المحيط الهادئ الواسع مدةً طويلة بما يكفي ليكتشفوا الجزيرة.

على القمة، التقطنا الصور قبل أن نجلس قرب حافة منحدر شاهق. وبينما كنا نسترخي، سحب ميكا الصورة التي التقطها للخيول، وحدّق بها.

قال ميكا: "كانت أمي لتحب هذه. كانت ستضعها بإطار".

قلت: "كانت لتفعل ذلك، ودانا أيضاً".

"هل تتذكر عندما أخذنا دروس الفروسية تلك؟"

"في الواقع لا، إذ كنت أنت ودانا من فعلتما ذلك، أتتذكر؟"

"نعم. لماذا لم تركب الخيل معنا؟"

قلت: "لأنه لم يكن هناك نقود كافية، وأنتما الاثنان كنتما متحمّسين للأمر أكثر مني".

فوضع ذراعه حولي، وقال: "الابن الأوسط المسكين دائماً يشعر أنه مهمل".

"لم أكن بأنني مهمل، بل مهملاً بالفعل".

"كلا، لم تكن كذلك. لقد كان والدي ووالدتي دائماً فخورين بك. وقد اعتادا أن يقولا لي إنه عليّ أن أبلي أفضل في المدرسة، مثلك".

"لهذا السبب نزعا سجلي المدرسي عن الثلاجة، صحيح؟"

"كلا، لم يفعلا ذلك".

"بل فعلا ذلك".

"حقاً؟"

"حقاً".

"إنني لا أتذكر".

"ما كنت لتفعل".

ضحك، وقال: "أليس أمراً غريباً كيف تعمل الذاكرة؟ إنك تتذكر أشياءً مختلفةً وخاصة عندما تخلف أثراً في النفس؛ تعلم، من نوع الأحداث التي يتحدث عنها الناس إلى معالجيهم النفسيين وهم مستلقون على الأريكة. أتذكّر أنني في إحدى المرات قد طلبت جهاز ستيريو وسماعتي أذنين للعيد. ليس جهازاً كبيراً ولكن فقط لغرفتي. ولا بد أنني كنت في الثانية عشرة أو نحو ذلك، وقد توسلت لذلك الشيء. ولا بد أنني قد طاردت أمي لأشهر من أجله. وفي صباح العيد، أتذكّر خروجي ورؤيتي له تحت الشجرة: سماعتي أذنين وجهاز ستيريو. كانت هناك بطاقة تقول لميكا، وكنت أشعر بإثارةٍ كبيرة؛ فقد كانت أفضل هدية حظيت بها على الإطلاق. ثم خرجت أمي، وعندما بدأت أشكرها بدأت تقول: "لا لا لا. فقط سماعتا الأذن لك، أما جهاز الستيريو فهو للعائلة". فتحطمت. أعني أنه الشيء الوحيد الذي أردته. بالإضافة لذلك، ما الفائدة من سماعتي الأذنين بدون جهاز ستيريو؟ فالأمر يشبه حصولك على فردة حذاء واحدة".

"لقد كان أبوانا عجيبين أحياناً، أليس كذلك؟"

"أحيانا؟ نعم، أوافقك الرأي".

جلست صامتاً لبضع دقائق متأملاً الماضي. وتدريجياً بدأ الناس يغادرون القمة، فقد كان للرحلة برنامج يجب التقيّد به. قلت أخيراً: "هيا، لنذهب. إذ علينا رؤية المزيد من التماثيل".

حين نظرت إلى ميكا بدا عليه أنه مستغرق في التأمل بصورةٍ غريبة، فعرفت فجأةً أنه كان يفكر في الماضي أيضاً، وكانت عيناه مركّزتين على الأفق.

قال بهدوء: "كلا، دعنا ننتظر هنا لبضع دقائق أخرى، وبعدها سنذهب".

فنظرت نحو الأفق وأنا أتبع نظرة أخي، وقلت: "حسناً".

بعد النزول عن البركان، سافرنا إلى البقعة الوحيدة التي يصوّرها السياح أكثر من غيرها في إيستر آيلند.

كانت تماثيل عملاقة من المواي - قرابة عشرين أو نحو ذلك - تقف معاً في خطٍ مستقيم على طول الساحل. حتى سنواتٍ قليلة مضت، كانت كلها واقفة. وقد كان بعضها مكسوراً إلى قطع. كان علماء الآثار الذين انضموا إلينا كأدلاء قد ساعدوا ليس في إصلاحها وحسب، ولكن في وضعها منتصبة مرة أخرى.

فكرت أن تلك هي التماثيل التي لا بدّ أن جاكوب روجيفين، وهو أميرال هولندي، قد رآها عندما أصبح أول أوروبي يكتشف الجزيرة في أحد الفصح عام 1722. تروي الأسطورة أن اعتقاده الأول كان أن الجزيرة كانت مأهولة بالعمالقة. فقط عندما اقترب من الشاطئ، أدرك أن رجالاً من الحجم العادي كانوا يعملون بين التماثيل. مع ذلك، لم تكن التماثيل قد تمّ ترميمها بالكامل. فقد عرفنا أنه في الأصل كانت لكل التماثيل على الجزيرة أعين. وقد كانت منحوتة من الخشب، ومطليةً بشكل بؤبؤ العين، ولكنها في نهاية المطاف بليت دون أن تترك شيئاً سوى محجري العين، فمنحت التمثال مظهراً هيكلياً.

سألني ميكا: "لماذا تظن أنهم لم يضعوا عيوناَ مجدداَ. لقد أوقفوها منتصبة، لذا ليس الأمر أنهم يعتقدون أنه لا يجب إزعاج التماثيل".

"ليست لديّ فكرة، ربما يعتقدون أن الأمر يسبب الخوف لنا نحن السياح".

فحدّق ميكا نحو التماثيل، وقال: "لن أصاب بالخوف".

"ولا أنا".

فتوقف، ثم قال: "أعتقد أنها ستبدو أفضل بعيون".

"وأنا أيضاً".

"ربما يجب أن نبدأ حركةً. سمّها، "مقل عيونٍ للتماثيل"".

"إن لها نبرةً لطيفة، أؤيدها".

فاستمر بالتحديق قائلاً: "إنني فعلاً أعتقد أنها ستبدو أفضل، ألا تظن أنت ذلك؟"

فأدركت وأنا واقف بجانب ميكا أن هناك أوقاتاً كثيرة كنا نتحدث فيها ليس لأننا بحاجةٍ لإبلاغ شيءٍ مهم، ولكن لمجرد أن كل واحد منا كان ينال الراحة من صوت الآخر.

بعد التقاط الصور عدنا إلى سيارة الفان وتوجهنا إلى أناكينا، وهو خليج صغير يواجه شاطئاً ذا رملٍ أبيض كان ينتشر فيه أحد البساتين القليلة الباقية من شجر النخيل. للمرة الأولى، رأينا قسماً من الجزيرة يبدو استوائياً، وكان أحد المواي الأثريين يبدو واقفاً كحارسٍ على بداية الشاطئ وهو يراقب السابحين.

بعد حفل شواءٍ على الشاطئ، ذهبت وميكا وبعض الآخرين للسباحة. عندها، كانت مجموعتنا قد بدأت تنقسم إلى زمر. فكان البعض مغامرين وأرادوا أن يجرِّبوا كل ما استطاعوا، وبدا أن الآخرين كانوا ينظرون إلى المناظر على أنها أمور مزعجة بالنسبة لهم ليتحملوها بين الوجبات وحفلات الكوكتيل. كان بعض ذلك يتعلق بالسن وبعضه يتعلق بالآراء. فكنت وميكا من مجموعة المغامرين، وكنا دائماً نضع رحلات "الماشي السريع" في مقابل رحلات "الماشي البطيء". ولم تكن الفرصة للسباحة في المحيط الهادئ شيئاً سنفوته. ورغم أنه كان شيئاً صغيراً، فقد كان سيكون شيئاً آخر في سلسلة "الأمور التي تحصل للمرة الأولى في حياتنا" التي كنا سنختبرها معاً.

قال لي ميكا بينما كان يشير إلى الناس الجالسين على الشاطئ: "إنهم لا يعرفون ما يفوتون، أليس كذلك؟"

"ربما ليس بالأمر الهام بالنسبة إليهم، فالكثير من هؤلاء الناس قد سافروا من قبل".

فقال: "ربما، أو ربما لم يفعلوا ذلك قطّ في الماضي أيضاً. فبعض الناس لا يعرفون وحسب كيف يستمتعون. إنهم حتى غير راغبين بالمحاولة".

فألقيت نظرةً خاطفة بحذرٍ على ميكا متسائلاً فجأةً إن كان يتحدث عني.

في الصف السابع، توجه ميكا إلى مدرسة باريت جونيور الثانوية، واستمرينا نبتعد عن بعضنا البعض. مع ذلك، فقد كنت وأختي نقترب من بعضنا أكثر. كانت تضحك طوال الوقت، وكانت لديها طبيعة عذبة تجعلني تقريباً أشعر بالذنب حيال أي نوعٍ من الأشخاص كنت. فقد كانت نادراً ما تغضب، وكنت أحياناً أسمعها مصادفةً تتحدث مع أمي عن مدى شعورها بالفخر بنا. ولم يكن من الممكن لي ولميكا بالنسبة لها أن نرتكب خطأً. فكلما كنا نعاقب كانت أختي أول من يأتي إلى غرفتنا لتصغي إلى شكوانا عن ظلم ألحقه بنا والدانا.

لطالما كان يبدو على أختي أنها تعرف كيف كنت أشعر في أعماقي، فقد كانت هي الوحيدة التي فهمت أن التفوق في المدرسة له علاقة بعقدة نقص أكثر من أي حب شخصيّ للمدرسة. كانت أحياناً تطلب مني أن أساعدها في فروضها، وتستخدم تلك الفرص لتبني ثقتي بنفسي. كانت تقول: "أتمنى لو كنت ذكية مثلك". أو تقول: "إن أبي وأمي سعيدان جداً بأدائك الجيد".

كانت دانا، ونحن نكبر، هي الوحيدة التي حظيت على الإطلاق بحفلة عيد ميلاد. ذلك بسبب، كما كانت أمي تشرح: "إنها فتاة". وما كان هذا ليكون سيئاً جداً - فلم أكن أنا ولا ميكا نطالب بحفلة - ولكن لأنني وأختي كنا نشترك بنفس يوم عيد الميلاد، فقد كان الأمر يشعرني قليلاً بالغرابة أن يكون عليّ مراقبة أختي وهي تجرى لها حفلة بينما كنت أراقب من بعيد وأنا أقف جانباً. مع ذلك، رغم أن أمي لم تفهم الأمر كانت أختي تفعل. في إحدى السنوات، جاءت إلى غرفتي باكراً في الصباح يوم عيدنا، وجلست على حافة سريري، فاستيقظت بعد أن دفعتني بيدها، وسألتها ماذا كانت تفعل.

فبدأت تغني: "عيد سعيد لك....".

بعد ذلك، أعدت غناء الأغنية لها. فكان ذلك، في كل سنة بعدها، طقسنا السري. كنا نغني لبعضنا البعض، نحن الاثنان فقط. لم نخبر أحداً عن ذلك، فقد كان ذلك سرّنا. استمر كذلك لسنوات، وبعد الغناء لبعضنا البعض، كنا نتحدث لبعض الوقت، فكنت أخبرها كل شيء - عن آمالي ومخاوفي وصراعاتي ونجاحاتي - وكانت تخبرني الشيء نفسه.

عندما كانت في الثانية عشرة، سألتها: "ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين، ما الذي تريدينه أكثر من أي شيء؟"

فنظرت أختي في أنحاء الغرفة بابتسامة حالمة، وقالت: "أريد أن أتزوج وأنجب أطفالاً، وأريد أن أمتلك خيولاً".

كنت أعلم أنها اكتسبت هذا من أمي. فلطالما كانت أمي تريد حصاناً أكثر من أي شيء في العالم. إذ إنها عندما كانت تكبر، كانت تمتلك حصاناً اسمه تيمبو، وكانت غالباً تتحدث عن الحصان والأوقات الرائعة التي كانت تقضيها وهي تمتطيه.

فسألت: "أهذا هو كل شيء؟"

"هذا هو كل شيء. هذا هو كل ما أريده من الحياة".

"ألا تريدين أن تكوني ثريةً أو مشهورةً أو أن تقومي بأمورٍ مثيرة؟"

"كلا، فهذا لك ولميكا".

"ولكن ألن تشعري بالملل مع ذلك؟"

فقالت باقتناعٍ: "كلا، لن أفعل".

فلم تكن أختي، كما عرفت حينئذٍ، ذلك الشخص العصبي المعقد الذي كنته أنا. وعندما خرجت من الغرفة، أتذكر أنني تمنيت أنني إن لم أستطع أن أكون مثل ميكا، أن أتمكن عوضاً عن ذلك أن أكون مثلها.

عندما بدأت في مدرسة باريت جونيور الثانوية في السنة التالية، انضممت إلى ميكا في رحلة الحافلة إلى المدرسة، ولكننا لم نكن نجلس معاً أو حتى يبدو علينا أننا نتحدث. فقد كان طلاب الصف الثامن يشغلون عالماً مختلفاً عن طلاب الصف السابع - فقد كانوا الرجال الكبار في حرم المدرسة - ونادراً ما كانت طرقنا تلتقي في الأروقة أو في الاستراحة. بعد المدرسة وفي العطل الأسبوعية، كان ميكا يسرع لرؤية أصدقائه، بينما كنت أبقى للمنافسة في فرقٍ رياضيةٍ متنوعة. رغم أنني كنت

رياضياً جيداً فلم أكن استثنائياً، ولم أميز نفسي في ملعب كرة القدم أو عندما كنت أجري في مضمار السباق والملعب.

في السنة التالية، بدأ ميكا المرحلة الثانوية، وانفصلنا مجدداً أثناء المدرسة وبعدها. عندها، أصبحت معتاداً على القيام بأموري الخاصة.

في منتصف سنة 1978، عندما كنت في الصف الثامن انتقلنا مجدداً إلى البيت الأول والوحيد الذي امتلكه والداي في حياتهما.

تولينا أمر الانتقال بأنفسنا. فمن يحتاج للدفع لشركة نقل عندما يتوفر هناك صبيان قويان وسيارة فان من طراز فولكس فاجن؟ هكذا، كنا يوماً بعد يوم نقوم بتحميل كل شيء من المنزل إلى مؤخرة سيارة الفان، وننقله إلى البيت الجديد.

لكنّ سيارات طراز فولكس فاجن ليست فعلاً مصممة للأحمال الثقيلة فوق العادة، لم أكن وأخي نأبه بكم كنا نحمّل في سيارة الفان خاصتنا. فكنا نملأ مؤخرة السيارة بكتب أبي حتى لا يكون هناك بوصة واحدة فارغة. كان وزن السيارة على الأرجح نصف طن، وكانت تسير وهي منخفضة فوق الحدّ في المؤخرة. وفي أثناء ذلك، كانت مقدمة السيارة فعلياً تميل نحو الأعلى كشخصٍ ينظر إلى الأفق البعيد.

"لقد جعلناها كلها محمَّلة، يا أمي".

فحدقت أمي بسيارة الفان وقالت: "تبدو وكأن إحدى العجلات على وشك الانفجار".

"ذلك فقط لأنها ثقيلة في المؤخرة، ستستقيم عندما نفرغها".

فقالت: "أتعتقدان أنها آمنة للقيادة". ولماذا سألتنا، لن أعرف أبداً. ولم أكن وميكا نملك رخصة قيادة.

"بالطبع هي آمنة، لم لن تكون كذلك؟"

كان الخبر الجيد أن سيارة الفان نجحت في الوصول إلى البيت الجديد. أما الخبر السيئ فكان أن سيارة الفان - حتى بعد تفريغ كل الكتب - لم تستقم على الإطلاق. فقد حطمنا أي دعم كان هناك في المؤخرة.

سألت أمي أخيراً: "هل ما زالت المقدمة تميل باتجاه السماء أم أنني أراها هكذا؟"

"ربما تنظرين إليها وأنت منحنية، أو أن الشارع غير مستوٍ".

أملنا رؤوسنا ونحن نتحقق من سيارة الفان وننظر إلى أول وآخر الطريق.

فقالت أمي أخيراً: "أعتقد أنكما كسرتما شيئاً ما".

فقلنا: "كلا، ستكون على ما يرام. امنحيها بعض الوقت وسوف تعود إلى طبيعتها".

"سيغضب والدكما".

فطمأناها قائلين: "لن يلاحظ حتى، ولكن حتى لو لاحظ لن يأبه بذلك".

بالطبع لاحظ والدي، وبدأ العد التنازلي لديفكون عند وصوله إلى البيت، رغم أننا كنا من الذكاء بمكانٍ لنكون بعيدين مسافة كافية في ذلك الوقت. ولحسن الحظ، ففي الوقت الذي وصلنا فيه إلى البيتٍ، كان قد هدأ، فإن سيارة الفان كان يبدو عليها أنها تسير جيداً، رغم الشكل الغريب الذي كانت تبدو عليه. وإذا كانت تسير بشكلٍ جيد، فكان هذا يعني أنه ليس هناك حقاً سبب لإصلاحها. فذلك

سيكون إنفاقاً لمالٍ لم نكن نملكه. لذا في النهاية، لم تصلح سيارة الفان أبداً. وطوال السنوات الثلاث التالية - حتى استبدلناها بسيارة فان الفولكس فاجن الجديدة المحسّنة - كنا نقود في أنحاء البلدة ونحن نبدو وكأننا ننقل صغار الحيتان إلى حديقة الحيوانات.

كان بيتنا الجديد صغيراً. وهو عبارة عن منزل ريفي من طابق واحد مع مرآب محوّل إلى غرفة. كان يحتوي على أربع غرف نوم وغرفة مكتب وغرفة معيشة ومطبخ. كانت اثنتان من الغرف (وهي المكتب وغرفة النوم الرئيسية) قد حوّلتا من المرآب. كان عمر البيت خمساً وعشرين سنة، وكان في حاجةٍ ماسة للإصلاحات. وحتى مع تحويل المرآب، كانت مساحته أقل من 1300 قدم مربع.

لكنه بالنسبة لنا كان رائعاً، فقد كان لي ولأخي ولأختي غرف خاصة للمرة الأولى في حياتنا، وقد استغرقنا جميعاً وقتاً لتزيينها بأسلوبنا الخاص. كانت أمي فخورةً بصورةٍ هائلة أن تحظى أخيراً ببيتٍ تستطيع أن تدعوه ملكاً لها. لقد أمضت السنوات القليلة التالية وهي تصلح المكان وتضيف انطباعات شخصيتها. إذ كان هناك ستة عشر جداراً كلها مطلية بألوان مختلفة؛ وقد غيرت أمي طلاء الجدران أكثر مما يغير الناس فراشي أسنانهم، وفي كل عطلة نهاية أسبوع، كان عليّ وعلى ميكا أن ننهي "قائمة" أمنا قبل أن نتوجه للعب. فكنا نقضي أيام السبت صباحاً ونحن نبني الأسيجة، ونطلي الجدران مرة بعد مرة، ونزرع الشجيرات والأشجار، ونصقل خزائن المطبخ بورق الصنفرة، وننفذ أي خطةٍ صدف وخطرت ببالها أثناء وجودها في العمل.

لأن العائلة كانت تملك القليل من المال الفائض للإنفاق على أشياءٍ كهذه فقد كانت عمليةً بطيئة. فعلى سبيل المثال، كانت أمي تشتري لبناء السياج دزينةً من الألواح الخشبية كل أسبوع، وكان ذلك كل ما كان يمكنها الاستغناء عنه من راتبها، فاستغرقها الأمر خمسة أشهر لتجمع كل الخشب الذي كنا نحتاجه لبناء السياج، وفعلنا ذلك. لكن لحسن الحظ - في رأيها على أية حال - كان العمل مجانياً. فقد كلّفت وميكا - دون شك بناءً على خبرتنا في بناء السقف في نبراسكا - ببناء السياج، وفعلنا ذلك. وبما أن الأمر انتهى به مائلاً - خلافاً لكونه مستقيماً في أعلاه - كان ببساطةٍ إحدى النتائج التي اعتقدت وأخي أن أمنا قد توقعتها قبل أن تقرر أن تفوّضنا للقيام بالمشروع.

بدأ والدانا، وهما يعرفان أنني وأخي سنستمر بالقيام بمعظم العمل في المنزل، يمنحاننا أدواتٍ كهدايا عيد. فكانت تلك طريقةً لإصابة عصفورين بحجر واحد. إذ لم نكن نحصل على شيءٍ غير متوقع وحسب (كيف يمكنني أن أتوقع الحصول على مطرقة للعيد إن لم أكن أريد واحدة؟) ولكنهما كانا يدّخران النقود في نفس الوقت. كان ذلك أفضل بكثير من منحنا الأسلحة مجدداً وفي وقتٍ متأخرٍ من صباح أحد الأعياد، جلست بجانب ميكا على الأريكة.

وسأل: "ماذا كنت تظن بعيد هذه السنة؟"

فقلت وأنا أومئ نحو هداياي: "كان عظيماً بالنسبة لنجار. ماذا سأفعل بمطرقة ؟ هل يريدانني أن أبدأ بصنع الأثاث في الأيام التالية؟"

فهزّ ميكا رأسه وتنهد قائلاً: "نعم، أعرف ما تعنيه، ولكن على الأقل لديك الكثير منها فأنا لدي منشار المنحنيات. لأيّ شيءٍ ستجعلني أمي أستعمل هذا. لقد كنت أريد بنطال جينز ليفيز، حباً بالله".

فجلسنا صامتين.

فسألت: "والدان عجيبان، أليس كذلك؟"

لم يجب ميكا. وعندما ألقيت نظرةً خاطفةً عليه رأيته يحدّق بمنشار المنحنيات.

"ماذا؟"

فهزّ رأسه وجعّد حاجبيه، وقال: "لا شيء فعلاً. هذا الصندوق هنا يذكر فقط أن هذا الشيء

يستطيع اختراق الخشب القاسي كخشب البلوط".

"إذاً؟"

"أليس الخشب القاسي في غرفتي خشب بلوط؟"

"أعتقد ذلك".

ففكر ملياً في الوضع، وقال: "ألا توافقني أن والديَّ قاسيان بعض الشيء".

فوافقته قائلاً: "بكل تأكيد، إنهما كالحراس في معتقل غولاغ".

فحدّق بدهشةٍ وكأنه قد أصبح فجأةً في حضرة أحد سكان المريخ.

"عم تتحدث، يا نك؟"

"لا تهتم بذلك".

"إنك عجيب أحياناً أيضاً".

"أعلم ذلك". كنت قد سمعت ذلك من قبل. "ولكن ماذا كنت تقول؟"

"حسناً، ماذا إذا استخدمنا هذا الشيء لمصلحتنا؟"

"ماذا تعني؟"

فانحنى نحوي وهمس خطته، وعليّ أن أعترف أنه كان بالتأكيد على وشك القيام بشيء ما. ومما لا ريب فيه، حالما عاد والداي إلى العمل - وكنا لا نزال في عطلة المدرسة - استخدم أخي منشار المنحنيات ليحفر حفرة في أرض خزانته كانت تؤدي إلى المساحة الفارغة تحت المنزل. وبتلك الطريقة بعد أن يكون في السرير كما يفترض، كان يتسلل خارجاً في الليل عن طريق غرفة نومه دون أن يعلم والدانا بالأمر على الإطلاق.

وبالطبع، فعل ذلك.

كان الوقت بحدود تلك الفترة عندما قررت أمي أنها تعبت من العمل بدوام كاملٍ والقيامٍ بكل الطهو وتنظيف أنحاء المنزل، وهكذا كان والدي من وقعت عليه القرعة ليصبح الطاهي.

أتذكر سماعي عن الأمر عندما عدت من المدرسة عصر أحد الأيام، وأعتقد بصدق أن والدي كان يشعر بالإثارة حياله. فقال لنا إنه سيعدّ إحدى وجباته المفضلة، وهي وجبة اعتاد أن يتناولها عندما كان طفلاً. فمنعنا من الدخول إلى المطبخ لنرى ماذا كان يحضّر.

"إنها مفاجأة".

لم أعرف وميكا ودانا ماذا نفهم من ذلك. فالشيء الوحيد الذي طهاه والدي طوال حياته كان قوانص الدجاج، ليس الجوانح ولا الأفخاذ ولا الصدور بل القوانص. لقد كان والدي ببساطةٍ يحب تلك الأشياء. فكان يقلي مِلأ صحنٍ منها، ورغم أننا قد اكتسبنا ميلاً إليها فقد كان من الواضح أن القوانص لم تكن على قائمة الطعام تلك الليلة.

كانت القوانص المقلية، أو أيٍ شيء مقلي، تسبب رائحةً زكيةً في المطبخ. ولكن كل ما استطعنا شمّه كان شيئاً محروقاً ومسفوعاً - كالدقيق المنثور على النار - وأكثر من مرةٍ سمعت والدي يهتف ويسرع إلى الباب المنزلق الخلفي للمطبخ لكي يخرج الدخان من المطبخ. ثم كان يقول وهو يخرج رأسه فجأة إلينا في غرفة المعيشة: "إنكم يا شباب ستحبون هذا!" أو "إن الطهي لكم يا شباب

سيكون عظيماً! لا أستطيع الانتظار لأشارك بالمزيد من وصفات طفولتي. إنني فعلاً أتعلم القيام بذلك الآن".

في نهاية المطاف، بعد ثلاثة أو أربعة هتافات، دعانا إلى الطاولة، ولم تكن أمي قد عادت من العمل بعد. وجلسنا في مقاعدنا، فأحضر والدي الطعام من الموقد ووضعه أمامنا.

كان هناك شيئان: طبق من الخبز المحمّص و... و...

نظرنا عن كثب، ولكننا مع ذلك لم نستطع أن نعرف. كان وعاءً، مهما كان، وشيئاً شبيهاً بالصلصة رمادياً وبنياً ومتكتلاً مع بقعٍ من اللون الأسود مختلطةٍ فيه، وكانت الملعقة مستقرةً على الكتلة التي تتجمد ببطء.

"ربما أكون قد أحرقتها بعض الشيء ولكنها ستكون جيدة. تناولوها".

فلم يتحرك أحد منا.

سألت دانا أخيراً: "ما هي، يا أبي؟"

فقال: "إنها فاصولياء. لقد طهوتها مستخدماً وصفةً سرية".

فنظرنا إلى الوعاء مجدداً. وبالتأكيد لم تكن تبدو كالفاصولياء، ولم تكن رائحتها كالفاصولياء أيضاً. فقد كانت رائحتها تقريباً غير طبيعية. وقد ذكرتني بشيء أكله الكلب وهضمه جزئياً ثم طرح مجدداً. ولكن حسناً... فاصولياء وخبز محمص و...

وسألت: "ما هو الطبق الرئيسي؟"

"ماذا تعني؟"

"مثل الهمبرغر أو الدجاج؟"

"لستم بحاجةٍ إليه، ليس مع هذه الوجبة".

فسأل ميكا: "ما هذه الوجبة؟"

فقال: "الفاصولياء مع الخبز المحمص". كان صوته يرنّ من الفخر. "لم تطهُ والدتكم لكم هذه أبداً، أليس كذلك؟"

فنظرنا بشكلٍ خاطف إلى بعضنا البعض، ثم هززنا رؤوسنا.

فمدّ أبي يده نحو الوعاء. وقال: "من سيكون الأول؟"

فلم أتحرك وكذلك ميكا. فتنحنحت دانا أخيراً.

"أنا يا أبي".

فابتسم بابتهاج، وبعد أن وضع قطعة خبزٍ محمص على طبقها، بدأ يغرف من الوعاء. كانت سميكةً وقاسية، فكان على والدي فعلاً أن يُعمِلَ الملعقَةَ فيها. ولم تزدد الرائحة إلا سوءاً حالما بدأ يخترق المادة. فرأيت أنف والدي يتجعد.

قال: "كما قلت، قد أكون أحرقتها بعض الشيء ولكنها ستكون جيدة. استمتعوا بها".

سألت دانا: "هل ستتناول البعض، يا أبي؟"

"كلا، تفضلوا أنتم الثلاثة، وأنا سأراقب فقط. فأنتم يا شباب ما زلتم تكبرون وتحتاجون للطاقة. يا

ميكا؟"

حفر أبي مجدداً مكشراً وهو يُعمل الملعقة في الفاصولياء، وكأنه يحاول الغرف من البوظة المثلجة.

"كلا، شكراً. إذ يفترض بي أن أتناول الطعام في بيت مارك، ولا أريد أن أفسد شهيتي".

"لم تذكر هذا من قبل".

"أعتقد أنني نسيت. ولكنني حقاً يجب أن أستعدّ، فقد كان يفترض بي أن أكون هناك قبل عشر دقائق".

ونهض عن الطاولة بسرعةٍ واختفى.

"حسناً، ماذا عنك يا نك؟"

فقلت وأنا أرفع طبقي: "نعم، حسناً". ووضعت قطعة خبز محمص عليه، فسقطت مادة صلصة الفاصولياء المحروقة مثل كرة البايسبول في طبقي، وكادت تتدحرج عنه وتضرب الطاولة.

فاقترح والدي قائلاً: "مدّها وحسب قليلاً، فهي أفضل بتلك الطريقة".

فبدأت وأختي نضرب العشاء مدّه دون أن نصل لنتيجة؛ ونحن مرعوبان من فكرة استهلاكه فعلياً. ولكن فقط عندما عرفنا أنه ليس بإمكاننا تأجيل الأمر لمدة أطول من ذلك، دخلت أمي من الباب.

"مرحباً، يا شباب! كيف حالكم؟ من الرائع أن أراكم". وتوقفت وجعّدت أنفها.

"ما هذه بحق السماء؟"

فقال أبي: "إنه العشاء، هيا، فنحن بانتظارك".

فتحركت نحو الطاولة، وألقت نظرةً واحدة على الطعام، وقالت: "أيها الأطفال، أحضروا تلك الأطباق إلى المجلى".

فقال أبي: "ولكن...".

"بدون لكن. سأصنع معكرونة السباغيتي. هل تريدون أيها الأطفال السباغيتي عوضاً عن ذلك؟"

فأومأنا برؤوسنا بلهفةٍ ونهضنا عن الطاولة بسرعة.

"حسناً، أحضروا فقط مواد البقالة من سلتي، وسأبدأ في غضون دقائق".

ولأيّ سبب كان، لم يكن والدي منزعجاً إلى هذا الحدّ. في الواقع، أعتقد أنها كانت خطته طوال الوقت، لأنه بعد ذلك منع من الطهو لنا. كلما كانت أمي تتذمر من فشله في تولي المزيد من المسؤولية المنزلية، كان باستطاعته أن يقول بصدق: "لقد حاولت ولكنك لا تسمحين لي".

أصبح الطعام نوعاً غريباً من الهوس في منزلنا، ولأننا لم نكن نستطيع مادياً تحمل النوع نفسه من الأكلات الشهية التي كان يبدو أن الأطفال الآخرين يحصلون عليها - الكعك والتوينكي والهوهو... إلخ - فطوّرنا عقلية إفراطٍ في الطعام عندما كانت الفرصة تسنح. فإذا كنا نزور منزل أحدهم على سبيل المثال، كنا نلتهم أي شيءٍ نستطيعه ونأكل حتى نشعر أننا سننفجر. بالنسبة إلينا أن نتناول ثلاثين أو أربعين حبة من بسكويت أوريو في جلسةٍ واحدة. في بعض الأوقات، كنا نترك أصدقاءنا في غرفهم، ونتسلل إلى المطبخ، ونشنّ غارةً على خزانة الأطعمة، ونأكل أكثر.

كان الأمر بنفس الطريقة عندما تكون أمي من الجنون بحيث تشتري أي شيء حلو، مثل سيريال على سبيل المثال. وكقاعدةٍ، كان لدينا في المنزل تشيريوز فقط. فإذا صدف واشترت أمي فروت لوبس أو تريكس في إحدى النزوات، كنا نتناول العلبة بأكملها . فلم نكن ببساطةٍ نفهم أن ندخر البعض لصباح اليوم التالي. فقد كان تفكيرنا يسير على النحو التالي:
". فكنا نأكل حتى نصاب بالغثيان. وفي إحدى المرات، بعد أن استهلك ميكا خمس أوعية كبيرة من فروت لوبس وفعلت الشيء نفسه في أقل من نصف ساعة، جلسنا بجانب بعضنا البعض على الأريكة وبطوننا منتفخة.

سأل ميكا: "أعتقد أنه قد يكون هناك مكان كافٍ لوعاءٍ واحد أخير".

"أعلم، لقد كنت أفكر بذلك لتوي".

"أينبغي علينا تركه لدانا؟"

"كلا، بالتأكيد لا. فقد أكلت الوعاء الأخير في المرة الماضية".

"ذلك هو ما كنت أفكر فيه. ولكنني ممتلئ جداً، ولا أستطيع تناول قضمة أخرى".

فحاولنا أن نريح أنفسنا بالتنقل في الأنحاء. وأخيراً التفت ميكا إليّ.

"هل تريد اقتسامه، نصفه لي ونصفه لك؟"

"حسناً".

كان والدي أيضاً يحب الطعام الحلو، فكان دائماً يحتفظ بمخبأ لبسكويت أوريو في المنزل، ولكن بما أنه كان يعرفنا فقد كان يخبئها دائماً في مكتبه.

فقادنا هذا إلى تنقيب مكتبه بحثاً عنها. وعادةً، كنا نجدها بعد بضع دقائق، فكان كل واحد منا يهرّب قطعة أو اثنتين، وذلك لكي لا يلاحظ فقدان أيٍّ منها. ثم كنا نعود مرةً ثانية وثالثة، ودائماً نغير ترتيب البسكويتات الباقية على أمل أن تبدو العلبة وكأنها قد بعثرت. في الوقت الذي كان يعود فيه إلى البيت من العمل، تكون هناك بسكويتتان مكسورتان باقيتان.

فكان يحمل العلبة التي أغلبها فارغ أمامه وينظر إلى الفتات وعيناه بارزتان.

كان يصرخ: "متوحشون. أطفالي هم ملاعين". كنا نسمعه يبحث عن مفاتيحه. وحالما كان يجدها، كان يركب السيارة إلى المتجر ليشتري علبة أوريو أخرى. كان ينظر إلينا من مكتبه بعين الغضب طوال الليل.

في اليوم التالي، كان البحث عن علبة البسكويت يبدأ مجدداً. وحالما كنا نجدها كنا نأكلها دون مقاومة حتى تبقى بسكويتة واحدة مكسورة أو اثنتان.

فكنا نسمعه يصرخ: "متوحشون. أنتم جميعاً مجموعة من الملاعين".

الفصل العاشر

جزيرة راروتونغا في جزر كوك آيلندز
31 كانون الثاني

في صباحنا الأخير في إيستر آيلند نهضنا باكراً للإفطار، وانتهينا بينما كانت الشمس تشرق لتوها. كانت الصباحات المبكرة قد أصبحت نموذجية في رحلتنا. فكان الإفطار يبدأ في الساعة 6.30، وكنا نجتمع في الردهة قبل الساعة 8.00 لنبدأ زيارة المواقع. كان الأمر يستغرق ساعاتٍ لتتحرك مجموعتنا إلى أي مكان: فبوجود تسعين شخصاً ومائتي حقيبة أمتعة، كنا شبيهين بقافلةٍ بطيئة الحركة أكثر من حملةٍ سريعة الحركة. كان وقت المغادرة للطائرة في حوالى الساعة العاشرة صباحاً، وعادةً ما نكون مستيقظين قبل ذلك بخمس ساعات، بوجود أشياءٍ قليلة لنراها.

كانت هذه الصباحات المبكرة، ووجبات العشاء المتأخرة، والأيام الطويلة عند المواقع، والسفر إلى أماكن بعيدة في الأيام السبعة الماضية قد أضيفت إلى بعضها البعض، فبحلول نهاية وقتنا في إيستر آيلند، بدا الجميع متعبين. ومع ذلك، كنا لا نزال في ثلث الطريق عبر الرحلة.

كانت الرحلة إلى راروتونغا، وهي الجزيرة الرئيسية في أرخبيلٍ في المحيط الهادئ يعرف باسم كوك آيلندز، تستغرق سبع ساعات، وقد أكملنا بعضاً من تلك الساعات في الطريق غرباً ووصلنا في فترة العصر الباكر. لم تكن هناك رحلات على البرنامج، وعوضاً عن ذلك، كنا بمفردنا لبقية اليوم، وكنا سنرحل إلى أستراليا في الصباح. كنا متوقفين في راروتونغا لقطع الرحلة الجوية التي تستغرق أربع عشرة ساعة بين إيستر آيلند وآيرز روك.

كانت راروتونغا مشبعةً بالبخار عندما نزلنا من الطائرة وأكثر دفئاً بكثير مما كانت عليه إيستر آيلند. فكان يوماً نموذجياً على الجزيرة: سماء زرقاء، مع غيوم كثيفة منتفخة بشّرت بأمطار فترة العصر المتأخر، ورطوبة عالية، ونسيم خفيف دائم. كانت الجزيرة بحدّ ذاتها جميلة. كان الطريق الرئيسي يحيط بالجزيرة، وكانت القمم المركزية مغطاةً بالغيوم ونباتات الجزيرة الكثيفة. كان البولينيزيون قد استقروا فيها أصلاً مثل إيستر آيلند، وكانت على الأرجح أكثر شهرة بسبب الكابتن بلاي ومتمردي السفينة الذين قد ألقي بهم على سواحل الجزر في القرن الثامن عشر.

عندما وصلنا إلى الفندق، تفرقت المجموعة. فذهب البعض للغداء، وانسحب آخرون للقيلولة في غرفهم. ومع ذلك، فقد ذهب آخرون للجلوس عند الشاطئ أو بجانب البركة، وقرر البعض الذهاب

للغطس، أما أنا وميكا فقد قررنا استئجار دراجاتٍ بخارية لاستكشاف الجزيرة.

كان محيط الجزيرة يبلغ خمسةً وعشرين ميلاً تقريباً. كما في إنكلترا، كانت السيارات تسير على طرف الشارع المعاكس للطرف الذي يستعمل في الولايات المتحدة. ورغم أنّ الأمر قد تطلّب بعض الاعتياد، لم تكن الطرق مزدحمة، فاندفعنا في طريقنا ونحن نتوقف هنا وهناك لالتقاط الصور. كانت أشجار النخيل تمتد إلى آخر ما يمكن أن تراه العين. وتساءلنا إن كانتٍ إيستر آيلند تبدو هكذا في السابق، فأحزنتنا الفكرة. ورغم أن إيستر آيلند كانت بسيطةً جداً وجميلةً بطريقتها الخاصة فقد كان الفرق بين الجزيرتين مذهلاً.

تشتهر جزر كوك آيلندز باللآلئ السوداء، فتوقفت وميكا لشراء بعضها لزوجتينا. خلال الأسبوع الماضي، كان ميكا قد تحدث إلى كريستين مرتين، أما أنا فقد تحدثت مع كات أربع مرات. ولم تستمر أي من محادثاتنا أكثر من دقائق قليلة. كانت حياتهما محمومة أكثر من المعتاد، ولكن كان روتينهما نفسه، وقد أدهشنا أن نفكر بكل الأماكن التي زرناها منذ رأيناهما للمرة الأخيرة.

كان هناك شيء منعش حيال القيادة والريح تهب على وجهك. وبينما كنا نطوف حول الجزيرة، كان عقلي يتجول. وكان جزء من ذلك أنني وميكا كنا بمفردنا وبدون برنامج، ففكرت بطفولتنا وبالأماكن التي عشنا فيها والأشياء التي فعلناها. وحاولت أن أتخيّل ماذا كان أطفالي يفعلون، وتصورت كيف كانت كاثي تبدو وهي تقف أمام المرآة في الصباح.

كان أفضل شيءٍ هو أنني لم أفكر أبداً بالعمل وأنا أقود الدراجة، ولا حتى لثانية. وللمرة الأولى منذ سنوات، بدأت أشعر وكأنني في إجازة.

أخذت وميكا بعض الماء المعبأ في زجاجات، وتوقفنا عند أحد الشواطئ العامة في الطرف البعيد من الجزيرة. كانت الشواطئ مفروشة بالمرجان، كانت الأمواج خلف الحيد البحري ترتفع عالياً قبل أن تصطدم به. كنت وميكا الوحيدين هناك، ولم نستطع أن نرى أية منازل من الشاطئ. وباستثناء الصوت الخافت للسيارات المارّة على الطريق خلفنا، كان من السهل أن نعتقد أننا كنا الوحيدين على الجزيرة.

لوقتٍ طويل، قمنا بمجرد الجلوس ومراقبة الأمواج.

كان المحيط بلون الفيروز الباهت، وحتى أنه من موقعنا المواتي كان من الممكن رؤية قاع البحر من خلال الماء. سبحت أسراب من الأسماك ذات الألوان الزاهية مروراً بنا. كانت أعيننا تتجول معها. إن الكثير من جزر جنوب المحيط الهادئ تتمتع بأنواعها المحلية الخاصة، فبعض الأسماك الموجودة في جزيرتي هاواي أو فيجي يمكن أن توجد فقط هناك، فتساءلت إن كنت أرى نوعاً لن أراه مجدداً أبداً.

قال ميكا: "الآن هذا هو سبب مجيئنا إلى راروتونغا: شاطئ جميل وطقس جميل، ونحن بمفردنا تماماً. أيمكن أن يصبح الأمر أفضل؟"

"إنها ليست بالضبط كإجازتنا في غراند كانيون، أليس كذلك؟"

فابتسم ابتسامةً عريضة، وقال: "تلك كانت رحلةً رائعة، أليس كذلك؟"

فقلت: "كانت عظيمة".

فصحح قائلاً: "بل كانت فظيعة. فقد كنت صغيراً جداً وحسب لتتذكرها كما أتذكرها أنا. إذ إننا في النهاية كنا قد دفعنا والدي نحو الجنون تقريباً. فقد كان يقود طوال اليوم ويرى أحد المناظر، ثم كنا نخيّم خارجاً في سيارة الفولكس فاجن ليلاً لأننا لم نستطع الدفع للفنادق. ألا تتذكر أنه لم يكن لدينا جهاز تكييف هواء؟ لقد كنا نقود هناك عبر الصحراء في منتصف الصيف والشمس تتوهج عبر

النوافذ وتطهونا في الداخل. فكنا نشوى ليلاً ونهاراً ونتذمر طوال اليوم، وكنا نتصارع حتى نصبح زلقين من العرق، ونصرخ طوال الوقت، وكان أبي متذمراً تماماً".

فتظاهرت بعدم التصديق قائلاً: "والدنا؟ السيد ديفكون؟ لا بد أنك تفكر بشخصٍ آخر".

فضحك، وقال: "أعتقد أننا نتذكر تلك اللحظات عن أبي بهذا الوضوح لأنه كان شخصاً هادئاً جداً. فقد كنت بالكاد أعرف أنه قريب معظم الوقت، ثم فجأة، بووم. ولا يكون والدنا هو والدنا؛ إذ إنه يصبح فجأةً ذلك الشخص المخيف جداً".

"هل تتذكر عندما أخذنا لمشاهدة فيلم " " في ليلة الافتتاح لأنه سمع أنه الفيلم الأكثر رعباً الذي أخرج على الإطلاق؟ أو عندما شاهدنا فيلم " "في التلفزيون، كم كان عمرنا؟ إحدى عشرة سنة أو نحو ذلك؟"

"شيء من هذا القبيل".

"هل كنت لتدع آلي تشاهد أفلاماً كتلك؟ أعني، في غضون عامين؟"

كانت ابنته آلي في العاشرة من عمرها.

"ليست هناك فرصة، إذ كانت كريستين لتقتلني. إنها لن تدعني حتى أحضر أفلاماً مرعبةً إلى البيت".

فتنهدت قائلاً: "كاثي تفعل نفسَ الشيء. هل أخبرتك أنني استأجرت فيلم " " من أجل مايلز؟"

"كلا، وما هو ذلك؟"

"إنه ذلك الفيلم عن المستذئبين. كتب ستيفن كينغ القصة التي اقتبس منها. واعتبرت أن مايلز قد يرغب بمشاهدته معي، فهذا ما اعتاد والدي أن يفعله، صحيح؟ لذا سمحت له بمشاهدته".

"وبعدها؟"

"كان يرى الكوابيس لمدة أشهر، وكانت كاثي شاحبةً بكل معنى الكلمة. وقد حصلت على ما لا تتخيّله من التحديقات الغاضبة. إنها لا تزال تثير الموضوع كلما عرضت أخذ مايلز لمشاهدة أحد الأفلام، فهي تحذّر قائلة: "

".

فابتسم ميكا وقال: "يبدو أن زوجتينا وأطفالنا لا يتمتعون بالتقدير لأفلام الرعب الجيدة التي نقدّرها نحن".

فاعترفت قائلاً: "إنه لأمر مؤسف. فقد كان كل ما أردته هو مشاركة شيءٍ مع مايلز كان أبي يتشاركه معي وأنا أكبر، من نوعية الأشياء مثل صيد السمك أو لعب لعبة التقاط الكرة أو الذهاب إلى المتاحف".

فقال: "أفهمك تماماً، يا أخي الصغير". ووضع ذراعه حولي. وقال: "عليك أن تعترف بهذا لأبي، فقد علّمنا فعلاً أن نقدر الأمور الهامة في الحياة".

حالما عدنا إلى الفندق قررنا الذهاب للغطس.

مع أنني غطست في البحر الكاريبي وهاواي، لم أكن أبداً متأثراً كما كنت في ذلك اليوم. فقد كانت آلاف من أسماك نجوم البحر الزرقاء الزاهية، وأسماك البركودا، وأسماك الحيد البحري الملونة

تسبح في المياه الصافية الدافئة، وقد جعل تيار خفيف الطوفان على سطح المياه الضحلة ممكناً ببذل القليل من الجهد. وفوقنا، كانت الغيوم تملأ السماء مما سمح لنا بالخروج دون أن تحرقنا الشمس، وقد بقينا في الماء حتى عندما بدأ المطر يهطل.

بعد ذلك، تناولنا طعامنا في الهواء الطلق في فناء الفندق، وكنا نحاول أن نقرر ما سنفعله لاحقاً في المساء، وبما أنه لم يكن هناك شيء مخطط له، بدت العودة إلى الغرف مضيعةً للوقت. فاقترح الساقي الذي كان نادلنا أيضاً أن ننتقل من حانةٍ إلى أخرى وقال إنّ سيارةً ستتوقف بجانب الفندق قرابة الساعة الثامنة إن نحن طلبنا ذلك.

والتنقل من حانةٍ لأخرى هو أساساً على النحو التالي: "تأتي سيارة الفان وتأخذك من حانةٍ إلى الحانة التالية طوال الأمسية. ومع ذلك، فسواء أكان الشخص يشرب أم لا هذا تقريباً أمر غير متصلٍ بالموضوع. فعلى مدى سنوات، زرت بلداناً عديدة وتعلمت أنك لا تكتشف فعلياً ما عليه أحد البلاد حتى تلتقي الناس في بيئةٍ مريحة وهم يفعلون ما يفعلونه بشكلٍ طبيعي. كل شخصٍ تقريباً قابلته في حياتي في أوضاعٍ كتلك هو ودود، فمعظم الناس في العالم يستمتعون بتمرينٍ لغتهم الإنكليزية والسماع عن أمريكا. إذ إن بلدنا بكل سلبياته مكان يجده الأجانب ساحراً وآسراً في آن معاً، فهم يحبون بعض الأشياء ويكرهون أخرى، ولكن كل واحدٍ لديه رأي حياله. وفي نفس الوقت، لطالما كان يستوقفني كم هم الناس متشابهون مهما كان المكان الذي يعيشون فيه. ففي كافة أرجاء العالم، لا يريد الناس وحسب فرصةً لتحسين وضعهم ولكنهم يريدون أن يحظى أطفالهم بفرصٍ أكثر مما حصلوا هم عليه. السياسيون هم تقريباً موصوفون بقلة الاحترام لذا فهم دهماويون في كلٍ من اليمين واليسار.

لم يكن ساقينا مختلفاً عن ذلك، فرغم أنه كان خائب الأمل نوعاً ما لأننا لن نسافر إلى نيوزيلندا - وهي بلده الأصلي - أضاف بالفعل أنه قد زار الولايات المتحدة.

فقال ميكا: "آه، صحيح؟ أين؟"

"ذهبت إلى لوس أنجلوس، وسان فرانسيسكو، وسياتل، ولاس فيغاس، ودنفر، ودلاس، ونيوأورلينز، وشيكاغو، وديترويت، وفيلادلفيا، ونيويورك. فقد قضيت أحد فصول الصيف وأنا أسافر في أنحاء البلاد".

وسأل ميكا: "هل رأيت متنزه غراند كانيون".

فقال: "نعم، بالطبع. ووجدته رائعاً. كان جبل رشمور وأشجار الجبارة العملاقة جميلاً. ومكاني المفضل هو لاس فيغاس".

فسألت: "هل ربحت في لاس فيغاس؟"

"كلا، لقد خسرت. وقد لعبت لعبة الماكينة الشقية. ولكنّ الأمر كان ممتعاً. إنها أكثر المدن جموحاً، وقد أحببت المكان هناك. هل ذهبتم إلى هناك ذات مرة؟"

فقال ميكا: "بالطبع، من سكرامنتو. إنها على بعد ساعةٍ وحسب بالطائرة".

فهزّ الساقي رأسه ونظرة سعادةٍ على وجهه، وقال: "إنني أخبر الناس؛ إذا أردتم رؤية أمريكا، اذهبوا إلى فيغاس. الأضواء والعروض والإثارة. إنها أمريكا".

بينما كنا نتناول طعامنا، انضمت الطبيبة جيل هانا إلينا. كانت طوال الأيام القليلة الماضية مشغولةً، بما أن الكثير من الناس قد تعرّضوا لمشاكل في المعدة. كانت كالجميع تبدو خاملة. عندما ذكرنا أننا خارجان تلك الليلة، رفعت حاجبيها.

"ألستما متعبين أيها الشابان؟"

فأجاب ميكا: "بعض الشيء. ولكن ينبغي أن تأتي أيضاً، سيكون الأمر ممتعاً".

"شكراً، ولكنني ذاهبة إلى الفراش. هل هناك أحد آخر ذاهب معكما؟"

فقال ميكا: "سنرى، سنسأل في الأنحاء في غضون وقتٍ قصير".

مما لا يدعو للدهشة، رفض معظم من سألناهم، مهما حاولنا أن نجعل الأمر يبدو ممتعاً. ولا بد أننا تحدثنا إلى عشرات الأشخاص، ولكنّ تشارلز فقط، وهو أحد المحاضرين في الرحلة، قال إنه قادم. فقلنا له إننا سنقابله في البهو عند الساعة الثامنة.

قال ميكا: "سنأخذ قيلولةً قصيرةً وحسب، وسنراك بعد ذلك".

توجهنا عائدين إلى غرفتنا، واستلقينا واستغرقنا في النوم، ولم يستيقظ أي منا حتى صباح اليوم التالي. عند الإفطار، جاء تشارلز إلى طاولتنا، وقال: "أين كنتما أيها الشابان الليلة الماضية؟ لقد كنت بانتظاركما، وكنت مستعداً لقضاء وقتٍ رائع".

فقال ميكا بارتباك: "إنني آسف بشأن ذلك".

"لا يمكنني التصديق أن الأخوين سباركس قد تعبا فعلاً".

فقال ميكا: "أحياناً يحصل هذا مع أفضل الأشخاص".

حالما غادر تشارلز، انحنيت باتجاه ميكا، وقلت: "لا أستطيع أن أصدّق أننا نمنا طوال الليل. أعتقد أننا نتقدّم في السن، أليس كذلك؟"

"أعرف ما تعنيه. ففي الكلية، كان يبدو عليّ وكأنني لا أتعب أبداً، فقد كان باستطاعتي الخروج طوال الليل. لقد كنت جامحاً".

فسألت: "الكلية؟ من تحاول أن تخدع؟ لقد كنت جامحاً في ".

في العام 1979، بدأ ميكا المرحلة الثانوية، وطوال العامين التاليين كانت تربط أخي بكل واحدٍ من أفراد العائلة علاقة ضعيفة. ووصل إلى السنّ الذي بدأ فيه يشكك في سلطة والديّ ويتصرف وفقاً لذلك. غير أن ميكا، كما يمكن التوقع على الأرجح، كان من ذلك، حتى عندما وصل إلى سنّ المراهقة. فقد ثمل عند النهر، ووجدت أمي في إحدى المرات مخدّر المارجوانا في جيب بنطاله الجينز، فعاقبته لشهرٍ بعد أن هددته بالمدرسة العسكرية. في سن الخامسة عشر، جاء ميكا إلى المنزل أيضاً وإحدى أذنيه مثقوبة فجعلته أمي ينزع الحلق بعدما هددته مرة أخرى بالمدرسة العسكرية.

كانت دائماً تهدّدنا بالمدرسة العسكرية. وقد كان كل من والديّ قد ذهبا إلى المدرسة الداخلية، وقد شاركنا كل منهما بقصصهما المرعبة التي تنتهي دائماً بعبارة: "لكنها على الأقل لم تكن مدرسة عسكرية". فكنا ونحن أطفال مرعوبين من فكرة تلك المؤسسات معتقدين أنها قد صممت على يد الشيطان نفسه. لكنّ ميكا أصبح يصغي إلى والدينا أقل فأقل، وقد توصل إلى أن أدرك أنه لن يبعد بالفعل أبداً، وإذا كان هناك سبب فهو فقط لأن العائلة لا تستطيع تحمل نفقة ذلك. هكذا، أصبحت تصرفاته أسوأ فأسوأ. وأثناء سنته الأولى في المدرسة، كان المزاج في المنزل متوتراً إلى أقصى حدّ، وكنت وأختي غالباً مندهشين كيف كان يرفع صوته بوقاحةٍ في وجه أمنا وأبينا.

إن الصورة المثالية مهمة لمعظم المراهقين، ولم يكن ميكا استثناءً. فلقد سئم من كونه فقيراً، وحتى أسوأ، من أن يبدو فقيراً. فحصل في سنّ السادسة عشر على وظيفةٍ كغاسل صحونٍ في قاعةٍ

لبيع المثلجات، وبدأ يدّخر نقوده. فاشترى سيارة مستعملة، وتعلّم كيف يصلحها. واشترى ثياباً جديدة، وبدأ يواعد وسرعان ما أصبح جديًّا بشأن فتاةٍ اسمها جولي وبدأ يقضي كل وقت فراغه معها. لم تكن أمي تعتقد أنها كانت فكرة حسنة أن يكون جدياً إلى هذا الحدّ بشأن فتاة في هذا السن المبكر، فتجادلا بشأن ذلك أيضاً. في إحدى المرات، ضبطتهما نائمين في وقت القيلولة في غرفته، فحدث اضطراب كبير. ولا أعتقد أنني رأيت أمي أكثر غضباً مما كانت عليه.

في ذلك الوقت، توجهت أمي نحو مكتب أبي. ولطالما لم تكن لأبي علاقة بتربيتنا، ولكنّ أمي لم تستطع أن تتقدّم أكثر من ذلك بدون مساعدته.

فقالت: "لقد ربيتهم إلى هذا الحدّ، وقد حان دورك الآن".

فقام أبي بمجرد إيماءةٍ برأسه. فقد كان ذلك، كما فكر على الأرجح، أفضل بكثيرٍ من الطهو أو التنظيف.

بعد ذلك، أتذكّر بعض الأمسيات التي كنت أجد فيها ميكا جالساً في المكتب وهو يتحدث مع أبي. كان أبي ذكياً بصورةٍ استثنائية وكان يقرأ بشكلٍ دائم تقريباً. فقد كان يدرّس نظرية السلوك والإدارة في جامعة كاليفورنيا الحكومية في سكرامنتو، وقد قرأ كل كتابٍ يمكن تصّور أنه قد كتب عن تلك المواضيع. كان هناك جدياً، آلاف الكتب في مكتبه في أي وقت - فكانت مكدَّسة على طول الرفوف أو مكوَّمة على الأرض أو مخزنة في صناديق - لقد قرأ كل واحد منها. في الأمسيات، كان بإمكاني دائماً أن أجده جالساً عند مكتبه وقدماه مسنودتان على المكتب وهو يقرأ. كان يقرأ بسرعة مدهشة. ففي المعدل، كان ينهي كتاباً أو كتابين في أمسيةٍ واحدة. كان يدوّن الملاحظات وهو يستمر بالقراءة. وكانت ساعاته تختلف عن ساعات أيٍ واحدٍ آخر في العائلة. فبسبب كونه يدرّس في فترات العصر كان يسهر حتى الساعة الخامسة صباحاً وعندها ينام حتى الظهر.

مع أن والدي كان يبقي باب مكتبه مفتوحاً فقد كنا جميعاً نعرف أنه يكون أكثر راحة وحده. لقد كان مستمعاً هادئاً ويقظاً. فعندما كان يتحدث إلى زملائه، كان دائماً يستوقفني كم كان يبدو عليهم أنهم يعشقونه. كان باستطاعة والدي أن يصغي إلى شخصٍ يثرثر باستمرارٍ دون أن يشعر بالحاجة لمقاطعته. وما كان ليقدم النصيحة على الإطلاق ما لم تُطلب منه. عوضاً عن ذلك، كان يوضّح مشكلتك ويعيد صياغة ما قلته بطريقةٍ تبلور أفكارك وتسمح لك بحلّ المشكلة بمفردك.

عندما كان يتحدث إلى ميكا - ولاحقاً عندما كان يتحدث إليّ - كان روتينه دائماً نفسه. فقد كان يسأل عما يجري فيما يتعلق بموضوعٍ معين، ثم كان يصغي بينما كنا نملأ الفراغ. كلما كنت وميكا نتحدث كان ما يقوله أقل. وأحياناً، كانت تلك المحادثات من جانبٍ واحد تستمر حتى ساعة. كنا عادةً نغادر مكتبه ونحن نفكر بوضوحٍ أكبر، ونعتقد أنه أحد أذكى الناس الذين قابلناهم في حياتنا.

في النهاية، أعطانا والدي ثلاث قواعد صارمة كنا ملزمين بها طوال سنوات مراهقتنا:

لا تشرب وأنت تقود السيارة.

لا تجعل إحدى الفتيات حاملاً.

كن في البيت بحلول وقت منع التجول؛ ألا وهو منتصف الليل لطالب السنة الأولى، وتزيد نصف ساعة عن كل سنةٍ نقضيها في المدرسة الثانوية.

كان والدي، بالمناسبة، حكيماً ليقدم لنا تلك القواعد بالتحديد عندما فعل ذلك. فقد كنا سنصل قريباً إلى السن الذي قد تصبح واحدةٌ أو أخرى في تلك القواعد قضية. لكن بما أننا كنا نتبع القواعد الثلاث كلها أصلاً فقد بدت معقولة كلياً في ذلك الوقت. حتى أكثر أهمية، فبحلول سنوات مراهقتنا كنا بمفردنا لمدةٍ طويلةٍ بحيث إن أي شيء أكثر كان ليبدو شديد القسوة (قليلٌ جداً، متأخر جداً)، وكان

بلا شك ليؤدي إلى تمردٍ تام. على كل حال كانت تلك القواعد تبدو وكأنه قد تم التفكير فيها ملياً، وقد وافق ميكا على الالتزام بها.

لا بد أن يقال أن ميكا قد اتبع تلك القواعد، وتلك القواعد فقط. فكان كل شيء آخر، على ما يبدو، متاحاً. طوال العامين التاليين استمرّ بالضغط على الحدود الخارجية. في ليالٍ أكثر مما أستطيع عدّه، أتذكر أنني كنت أصغي إلى والدي ووالدتي وهما يقلقان بشأنه.

فكان أحدهما يقول: "إنه يستمرّ بالميل ليكون أكثر جموحاً. ماذا نفعل؟"

وكان صمت طويل يتبع ذلك.

وكان الآخر يجيب: "لا أعرف".

أحدثت تلك السنة تغييراتٍ بالنسبة لي أيضاً. فقد بدأت أنافس في مضمار السباق والملعب. ورغم أنني لم أكن عظيماً فقد كنت واحداً من أفضل طلاب السنة الأولى في الفريق. وهذا لا يعني الكثير، بما أنه في الأحداث البعيدة، لم يكن هناك سوى حفنة منا.

رغم ذلك، ما زلت أحب لعبة مضمار السباق والملعب. وكما أرادت مشيئة القدر، كان هناك أسطورة حقيقية لمضمار السباق يعيش في فيرأوكس أيضاً. وقد كان بِلي ميلز، وهو هندي من قبيلة أوغلالا سو نشأ في فقر في بلاك هيلز في ولاية داكوتا الشمالية، وقد ربح الميدالية الذهبية الأولمبية في سباق جري العشرة آلاف متر في دورة ألعاب طوكيو عام 1964. وما تزال تلك الميدالية تعتبر أعظم فوز في تاريخ مضمار السباق والملعب الأولمبي. فقد كان الأمريكي الوحيد الذي فاز على الإطلاق في سباق العشرة آلاف متر الأولمبي. وقد حطّم الرقم القياسي في العام التالي مثبتاً موهبته للأجيال. لقد قرأت عنه منذ سنواتٍ في أحد التقاويم التي كنت أقرأها وأنا طفل، وكنت مسحوراً بقصته، وعندما علمت أنه يعيش في فيرأوكس كنت مبتهجاً كثيراً، وأتذكر أنني جريت نحو المطبخ لأخبر أمي.

فقالت: "آه، بِلِي. إنني أعرفه وأعرف زوجته بات".

فاتسعت عيناي، وقلت: "أحقاً تفعلين؟"

فقالت بهدوء: "نعم، فهما يحصلان على نظارتيهما من عيادتنا. إنهما شخصان رائعان".

فكان كل ما أمكنني فعله هو التحديق بها وأنا أفكر أنني أقف قرب أحدٍ تكلّم فعلياً مع بطل أمريكي حقيقي.

كان ذلك أمراً مثيراً بالنسبة لطفل. وبعد التحدث إلى أمي، كنت دائماً أترقبه. كنت أشعر بالإثارة عندما كنت أراه (وكنت قد حفظت شكله) ذاهباً إلى متجر البقالة أو إلى المطعم، ولكنني لم أستطع استجماع شجاعتي لأعرّفه بنفسي. عندما علمت أن مباريات السباق غير الرسمية في المنطقة تجري في المدرسة الثانوية المحلية أردت الذهاب لأنني شككت بأنه قد يكون هناك أيضاً. فكان هناك بالتأكيد، وعندما رأيته تسمرت في مكاني، فكنت أراقبه وهو يمشي وأنا أفكر في نفسي: "هكذا يتحرك أسرع رجل في العالم". وكنت أحاول تقليده. وغنيٌّ عن القول إنني أردت التأثير فيه بموهبتي، ولكن بصراحةٍ، لم يحدث ذلك أبداً. وقد كانت لبلي ثلاث بنات، وكانت ابنته الصغرى تنافس. ومع ذلك، فقد كانت عظيمةً على عكسي، ولم تخسر سباقاً واحداً أبداً.

قادتني معرفة ماضي بلي إلى القراءة عن عدائين آخرين، فكنت أحلم بالعدو مثل هنري رونو، وسباستيان كو، وستيف أوفيت. ولكن ذلك هو كل ما كان عليه الأمر؛ مجرد حلم. ورغم ذلك، فقد ذهبت إلى فريق مضمار السباق، وأصبحت تدريجياً صديقاً لهارولد كوبالدت، وهو طالب في السنة الثالثة، وكان أيضاً في الفريق.

كان هارولد، مثل بِلِي، أسطورةً تقريباً، ولو أسطورةً في المدرسة الثانوية. فقد كان هارولد أحد أسرع العدائين في البلاد (فقد كان سيسجل أسرع وقتٍ في البلاد في سباق الميلين لطلاب السنة الثالثة ويحمل الرقم القياسي لطلاب السنة الثالثة الأمريكيين لفترة). كنت معجباً به، مثل إعجابي ببِلِي، من بعيد. كان هناك مجدداً عالم من الاختلافات بين حياة طلاب السنة الأولى وطلاب الصفوف العليا. ومع ذلك، ففي عصر أحد الأيام قرابة نهاية الموسم، كان الفريق يعدو كمجموعة، فوجدت نفسي أعدو بجانب هارولد. وبدأنا نثرثر حتى صمت هارولد في نهاية المطاف.

قال لي هارولد بعد لحظاتٍ قليلة من الصمت الودي: "لقد كنت أراقبك وأنت تعدو، ويمكنك أن تصبح عظيماً إذا بذلت جهداً، ليس جيداً فحسب بل عظيماً، فأنت موهوب في هذا".

لا أتذكّر شيئاً يتعلق بالعَدْو ذلك اليوم، فقد بدوت وكأنني أطفو محمولاً على الكلمات التي قالها. فلم يكن هناك شيء قد يكون أحد قد قاله لي من الممكن أن يعني لي أكثر مما أخبرني به. فلم تغذي كلماته خيالي وحسب وإنما لامست صميم أعماقي، وأنا الذي لطالما سعيت إلى الاستحسان من والديّ. فقد قال:
...

فعاهدت نفسي من تلك اللحظة أن أجعل من كلماته توقعاً. وعوضاً عن قضاء الصيف وأنا أتصرف بحماقة، كما اعتدت أن أفعل، قررت أن أتمرن بدلاً من ذلك. فتدربت بجد - أكثر مما تدربت طوال الموسم - وكلما كنت أعمل بجدٍ كنت أريد أن أعمل بجد أكثر. فكنت أعدو مرتين يومياً وغالباً في درجات حرارةٍ تتعدى المائة درجة فهرنهايت، فكنت غالباً أعدو حتى أتقيأ من الإجهاد. ورغم كلمات هارولد، لم أكن رياضياً موهوباً، ولكن ما كنت أفتقر إليه في الموهبة عوضته بالرغبة والجهد.

كان أخي في أثناء تلك الفترة يعمل ويكسب المال. في العامين الماضيين، كان قد نضج بعض الشيء، وبدأ بسرعة يصبح رجلاً. كان رجلاً وسيماً أيضاً. وباجتماع ذلك مع ثقته بنفسه وسحره الطبيعيين، أصبح بسرعة لا يقاوم بالنسبة للجنس الآخر. فلم تكن حقيقة أن تكون لديه صديقة ثابتة تبدو مهمة، إذ كانت الفتيات يحتشدن بجانبه أو يعجبن به من بعيد. فقد كان أخي بشكلٍ أساسي جذاباً صغيراً.

لم يكن هذا ينطبق عليّ. فقد كنت أقصر قامة من ميكا وكانت ذراعاي وساقاي نحيلتين، ولم تكن لدي أي من ثقته بنفسه. مع ذلك، لم يكن الأمر مهماً. فقد منحني العدو الفرصة للتفوق إذا عملت بجد كفاية، وبدأت أركّز عليه باستثناء كل شيءٍ آخر في صيف ذلك العام.

بالرغم من كل ما سبق كنت قلقاً بشأن ميكا كما كان والداي يفعلان، وقرابة نهاية الصيف، وبعد الكثير من الضغط، أقنعته بالانضمام إلى فريق العَدْو معي. إذ كان متوقعاً للفريق بقيادة هارولد أن يكون أحد أفضل الفرق في الولاية، وكان سيسافر إلى المباريات كلها في كل من مدينتي باي آريا ولوس أنجلوس، حيث كانت ستكون لدينا الفرصة بعد المباراة لزيارة مدن الملاهي والممشى الخشبي؛ وهي أماكن لن يكون لدينا لا المال الكافي ولا العذر لزيارتها في الأحوال العادية. فقلت: "كل ما عليك فعله هو الركض بسرعة كافية لتكون من السبعة الأوائل، وستحصل على متعة لا يمكنك تخيُّلها على الإطلاق".

أخيراً، أيّدني في ذلك. وحالما بدأ أخي العدو نجح بسرعة ليصبح من السبعة الأوائل. فكان فريقنا لا يهزم. في أغلب الأوقات، كان هارولد يبلي حسناً بنفس القدر، فقد حطّم أرقاماً قياسية في كل مباراة تقريباً، وانتهى به الأمر وهو يحرز المركز الثاني في بطولات المدرسة الثانوية القومية.

رغم أن ميكا لم يركّز على العدو كما كنت أفعل، فقد كان لدي تصميم على التفوق فيه. ومع ذلك، فقد غيّره الأمر نحو الأفضل، فقد كان جزءاً من فريقٍ يعتمد عليه - ومما لا يدعو للدهشة، باعتبار

الطريقة التي نشأ فيها - فقد تحمّل المسؤولية بجد. وبدأ شيئاَ فشيئاَ يتورط في مشاكل أقل، وكلما أصبح الفريق أكثر نجاحاً كان يصبح أكثر فخراً بكونه جزءاً منه. لم يكن يبدو أمراً مهماً أنني كنت أسرع منه، بل كان في الواقع أول من يهنئني على ما كنت أحققه.

ومع ذلك، فقد كان أكثر ما يهمني هو أننا كنا نقضي الوقت معاً من جديد للمرة الأولى منذ سنوات. والأهم من كل ما سبق أننا كنا نستمتع بذلك الوقت.

* * *

كانت سنتي الثانية بمثابة تحول، فلم أتعلم أن أحب الألعاب الرياضية والعدو وحسب ولكنها كانت المرة الأولى في حياتي التي تفوقت فيها في الأداء الجسدي على أخي.

في نفس الوقت، استمريت بالتركيز على نيل علاماتٍ جيدة. لسوء الحظ، كان الأمر يصبح شيئاً فشيئاً نوعاً من الهوس، إذ لم أكن أريد أن أستمر في نيل العلامات الممتازة دائماً، ولكن أردت أن أكون الطالب الأول في كل صف.

بدأت أيضاً ألتهم الروايات. كانت أمي، مثل أبي، قارئةً نهمة، وكانت تتردد على المكتبة العامة مرتينٍ في الشهر. فكانت تسجل في أي وقت استعارتها لستة أو ثمانية كتب وتقرأها كلها. وكانت تحديداً تحب أعمال المؤلفين جيمس هيريوت ودك فرانسيس. أما أنا، فقد اكتشفت الكلاسيكيات - مثل
-
وأصبحت أحب أعمال ستيفن كينغ، وذلك لأنني نشأت على أفلام الرعب القديمة، فكانت تؤثر بي، كنت أقرأها مرةً بعد مرة بينما أنتظر بلهفةٍ إصدار عنوان جديد.

في سنتي الثانية، التقيت أيضاً بصديقتي الحقيقية الأولى، واسمها ليزا، وكانت مثلي تعدو، وكانت أصغر مني بعام. كانت مشيئة القدر أن يكون والدها هو بلي ميلز بطلي عندما كنت صبياً.

تواعدنا طوال الأعوام الأربعة التالية. ولم أغرم بليزا فقط بل بعائلتها أيضاً. فقد كان بلي وبات مختلفين عن والديّ بأنه كان يبدو عليهما أنهما يجدان متعةً بالغةً حيال إنجازاتي. أكثر من ذلك، فقد كان بلي يتحدث معي عن تدريبي والأهداف التي أريد أن أحققها، وكانت لديه طريقة في جعلي أعتقد أنها ممكنة.

كانت حياتي تزداد انشغالاً، فبين المدرسة والعَدْوِ وكتابة الفروض وليزا لم يكن لدي وقت كثير للقيام بأي شيء آخر. لم أكن أملك أي مال أيضاً، فتوصلت إلى أن أدركت أن هذا الوضع ليس بالضبط ما يوصل إلى المواعدة، وبما أن والدينا ما كانا يعطياننا مخصصاتٍ ولا كانا يفتحان محفظتيهما إذا أردنا الذهاب إلى السينما، فقد قررت أن أتبع طريقة أخي. فبعد انتهاء موسم العدو، وبالإضافة إلى كل الأشياء التي كنت أفعلها، حصلت على وظيفةٍ كغاسل صحون في نفس المطعم حيث كان أخي يعمل. في البداية، كنت أعمل حتى موعد الإغلاق في ليلتين من ليالي المدرسة، فكنت مع البقشيش أكسب مبلغاً محترماً بالنسبة لطالب مدرسة ثانوية. فكانت كل دقيقة من اليوم محسوبة - إذ كنت مشغولاً من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل تقريباً، سبعة أيام في الأسبوع - وبقي هذا البرنامج بشكلٍ أساسي لا يتغير حتى تخرجت بعد ذلك بعامين.

كنت وميكا، في تدريباتنا على العدو، نتحدث غالباً عن كل من الماضي والمستقبل، وأحياناً كنا نتحدث عن أحلامنا، وفي أوقاتٍ أخرى، كنا نتحدث عن النقود.

فسألني: "هل تتوقف على الإطلاق عن التفكير في مدى كوننا فقراء عندما كنا أصغر سناً؟"

"أحياناً، ولكنني بصراحةٍ، لم أكن أعرف أبداً فعلاً أننا كنا فقراء وذلك لغاية بضعة أعوام خلت".

فقال: "إنني أكره كوني فقيراً، ولطالما كنت أكره ذلك. إنني لا أعرف ماذا سأفعل عندما أكبر،

ولكنني لن أكون فقيراَ. أريد أن أكون مليونيراَ بحلول سن الخامسة والثلاثين. ولا أعرف كيف. ولكنّ هذا ما سأفعله".

فقلت: "ستنجح في ذلك".

"وماذا عنك؟"

فابتسمت قائلاً: "أريد أن أكون مليونيراً بحلول سن الثلاثين".

فلم يقل ميكا شيئاً. وقد كانت خطواتنا تتحرك بانسجام، فكانت أقدامنا تضرب الأرض بدقة تامة.

فسألت أخيراً: "ماذا؟ ألا تظن أنني سأنجح في ذلك؟"

فقال: "لا أعلم. إنني أعتقد وحسب أن سن الخامسة والثلاثين هو أكثر واقعية".

"إذاً، ماذا ستفعل لتنجح؟"

"من يدري. وماذا عنك؟"

"ليست لدي أية فكرةٍ على الإطلاق".

كنت وأخي نعدو معاً ونعمل معاً، وبدأنا في وقت فراغنا نتسكع مع نفس الأصدقاء، وهم هارولد ومايك لي (وهو عضو آخر في فريق العدو) وترايسي بيتس (وهو بطل ولاية كاليفورنيا في المصارعة)، وكنت وميكا نطلق على أنفسنا اسم عصابة المهمات.

ورغم سمعتنا العامة كطلابٍ رياضيين نموذجيين، فقد كنا نتشارك حياةً من نمط حياةٍ "الدكتور جيكل ومستر هايد". إذ كنت معهم عندما ثملت للمرة الأولى في حياتي. وكنا نجد متعةً بالغةً في استعمال الألعاب النارية بطريقةٍ ليست ذكية تماماً أو حتى قانونية. فكنّا نفجّر صناديق بريد الأصدقاء، ونهتف بابتهاج عندما تنطلق إلى الجو مع صوت انفجارٍ مرتفع. كنا أيضاً نغطي أسقف منازل الأصدقاء بورق المرحاض حتى تبدو وكأن الثلج قد تساقط في الليلة الفائتة. في إحدى المرات، قريباً من 25 كانون الأول، صادفنا شارعاً كان فيه كل بيتٍ مزيناً بالأضواء البراقة. فقمنا، طوال الساعتين التاليتين - ونحن نعتقد أننا طريفون كثيراً - بفك كل مصابيح الإضاءة ونقلها. ثم قمنا بملء ستة أكياسٍ قمامة بلاستيكية بالأضواء، فبدت المنازل وكأن "هادم سعادة الآخرين" قد زارها. إنني فعلاً وحقيقةً لا أستطيع أن أفسر لماذا كنا نفعل أشياء كهذه، فقد كانت صبيانية ومحرجة. لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير أننا لو سنحت لنا الفرصة للعودة بالوقت إلى الوراء لانتهى بنا الأمر نقوم بتلك الأمور مجدداً.

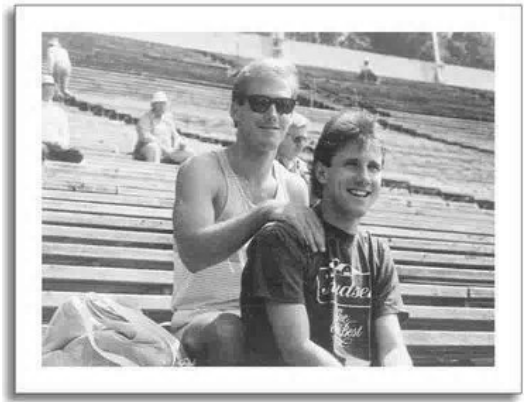

بسبب الوقت الذي كنت وأخي نقضيه معاً، أصبحنا مقربين مجدداً. ففي ذلك الوقت، على أية حال، تغيرت علاقتنا عما كانت عليه في السابق. فلم نعد بعد ذلك مجرد أخوين، بل أصبحنا صديقين

حميمين. ومنذ سنتي الثانية وصاعداً، لم نخض أي جدال أو شجار بشأن أي شيء.

في فصل الربيع، تنافست وأخي في نفس المباريات، وبدأ تدريبي يثمر. فتمكنا، مع وجودي أنا في البداية وهارولد في الأساس، من تحقيق رقم قياسي في مباراة بعد الأخرى، وانتهى الأمر بفريقنا المختلط وهو يعدو أسرع وقت في البلاد. فاز هارولد ببطولة الولاية لمسافة الميلين، وكان وقتي في ال- 800 متر متفوقاً بين طلاب السنة الثانية في أنحاء البلاد.

من بين عائلتي، كان ميكا فقط هو من يتواجد هناك ليشجعني. فنادراً ما كان والداي ينجحان في الحضور إلى المباريات، وفي الواقع، لقد شاهداني طوال مهنتي وأنا أعدو - وأحطم الأرقام القياسية - مرة واحدة.

مع أن البعض قد يظن أن عدم اهتمام والديّ أمر غريب، فهو لم يزعجني أبداً. فبالرغم من كل شيء، هما لم يشاهدا ميكا يعدو ولا دانا تشارك في فريق التدريب أيضاً. فالأهم من ذلك هو أننا كنا نقوم بتلك الأمور من أجل أنفسنا، فقد كنا بمفردنا لمدة طويلة في ذلك الوقت، ولم أتوقعهما أن يحضرا تلك الأحداث. أظن أن ثلاثتنا نحن الأطفال كنا نتفهم أن والدينا كانا مشغولين جداً خلال الأسبوع - في العمل، وإبقاء المنزل في حالة جيدة، والعناية بالمسؤوليات اليومية، ورعايتنا، والمكابدة مع الأمور المالية - ولم يبدُ الأمر عادلاً أن نطلب منهما تكريس العطل الأسبوعية لنا أيضاً في حين أننا كنا نفهم أن الأنشطة الأخرى كانت تساعد أكثر على الاسترخاء بالنسبة إليهما.

على سبيل المثال، كانت أمي تحب العمل في الحديقة أو المنزل، ولم يكن هناك شيء يجعلها أكثر سعادةً من زراعة الشجيرات الصغيرة والأشجار أو طلاء إحدى الغرف. كلما كنت أعود من إحدى المباريات تكون لديها لطخة من التراب أو الطلاء على خديها، وبنطالها الجينز يكون مبقعاً وملطخاً كبنطال العامل. كان أبي من جهة أخرى، يستخدم عطل نهاية الأسبوع لاستدراك العمل في بيت هادئ، فكان يستمتع بالتنظيم وإعادة ترتيب الكتب التي تصطف على الرفوف. مما لا شك فيه، أنه أمر لطيف أن يكون لديك منزل هادئ مرة بين الحين والآخر. وفيما إذا كانا يستغلان ذلك لقضاء بعض الوقت الخاص معاً، لم يكن أي منا يعرف على الإطلاق. إذ كان والدانا خصوصيين عندما كان الأمر يتعلق بعلاقتهما الشخصية، وكانا يخبراننا القليل عن أيامهما. ولم يكن أي منا يكلّف نفسه عناء السؤال.

تمرن ميكا معي خلال الصيف التالي، وكطالب سنة رابعة، أصبح واحداً من أفضل العدائين في المنطقة. في معظم المباريات، كان كل واحد منا يحرز المركز الثالث، ولكنّ ميكا لم يصبح جديًّا بشأن العدو كما كنت.

بعد التخرج، ذهب إلى جامعة ولاية كاليفورنيا الحكومية في سكرامنتو فوضع كل طاقته في الاستمتاع بالحياة عوضاً عن ذلك. فكان يواعد فتاةً جميلة تلو الأخرى، ويتزلج في العطل الأسبوعية، ويقوم بالتزحلق على الثلج، وقد أغرم بركوب الدراجة في الأرياف، وكان يذهب لركوب القارب والتزلج على الماء، ويقضي العطل الأسبوعية في سان فرانسيسكو وليك تاهو ويوزمايت. كان يذهب لركوب الطوف في المنحدرات حتى أتقنه في نهاية المطاف بما يكفي ليصبح دليلاً. كان عضواً في طاقم يخت كان يسابق في العطل الأسبوعية، وانتقل إلى شقة قرب حرم الجامعة، وانضم إلى طلاب آخرين في الحانات والنوادي الليلية. في كل عطلة أسبوعية، كان يقوم، على ما يبدو، بشيء جديد ومثير ويبتهج بحريته الجديدة. في نفس الوقت، حافظ على درجاته جيدة، وعمل كمتدربٍ في مؤسسةٍ تجارية لبيع العقارات.

من جهة أخرى، قضيت سنتي الرابعة في توتر عصبي. إذ أصبحت الدرجات الجيدة ، وكنت على حافة التخرج بالمرتبة الأولى، ولم أرد ذلك الشرف أن يضيع من قبضتي في اللحظة الأخيرة. علاوةً على ذلك، كنت أعلم أنني إذا استمرَّيت بالعَدْو بشكلٍ جيد فهناك فرصة لكي أحصل

على منحة دراسية - وهو هدف حددته لنفسي - ولكن كان ما يزال عليّ أن أتلقى عرضاً، الأمر الذي لم يحصل حتى شهر نيسان. فاستمرّيت بالعمل لخمس وثلاثين ساعة في الأسبوع. وكنت أقضي أي وقت فراغ توفر لي مع صديقتي. فأدى التوتر للمحافظة على استمرار كل هذا إلى نوباتٍ رهيبة من الأرق، فكنّت أنام أقل من ثلاث ساعات في الليلة، وكنت أشعر دائماً أنني في حالة توتر.

كنت جزئياً أحسد ميكا على الحياة التي كان يعيشها، فقد كنت معجباً بقدرته على أن ببساطةٍ بدون أن يكون عليه أن شيئاً. كنت في أروقة المدرسة أصغي إلى بعض الأصدقاء وهم يصفون العطلات الأسبوعية في بحيرة فولسوم لايك، أو كم استمتعوا بالتزلج في وادي سكاو فالي. كان صوت يهمس داخلي: ربما عليّ أن أحاول الحصول على مزيدٍ من المتعة. ولكنني كنت في كل مرة أسمعه أجبر نفسي على دفع الصوت بعيداً. فكنت وأنا أهزّ رأسي أقول لنفسي إنه لم يكن لدي الوقت، وإنني لا أستطيع أن أخاطر بالخسارة، وإنني قريب جداً من خط النهاية لأستسلم الآن.

لكنني لم أكن سعيداً بالضرورة، فقد أصبحت أهدافي غاياتٍ في نفسها ولنفسها، فكانت هناك سعادة ضئيلة في السعي وراءها. مع ذلك، فقد استمريت نوعاً ما. فكما أردت بالضبط تخرجت بالمرتبة الأولى. وقبلِ ذلك بشهر، بعد أن عدوت واحداً من أسرع الأوقات في سباق الثمانمائة متر في البلاد، قبلت منحة دراسية رياضية كاملة من جامعة نوتردام. وبعد ثلاثة أشهر، كنت أعيش في ساوث بيند في ولاية إنديانا على بعد ألفي ميل عن العائلة الوحيدة التي عرفتها في حياتي.

نوعاً ما لم أكن أريد الذهاب إلى الكلية. فإذا كنت تعيش طفولةً كالطفولة التي عشتها فستكون مجبراً على أن تقيم رابطة مع عائلتك. فقد كان أخي وأختي إلى جانب والديّ الأشخاص الوحيدين الثابتين في حياتي. ورغم أنني كنت أعرف أن الأمر لا مفر منه، فقد كان الأمر ما يزال مخيفاً بالنسبة إليّ أن أتركهم ورائي.

رغم أنني كتبت الكثير عني وميكا، فإنني لا أريد أن أترك انطباعاً عند القارئ أن أختي كانت أقل أهمية بالنسبة إلي. ففي السنوات المبكرة، كنت وأختي نلعب معاً بقدر ما كنت ألعب مع ميكا، ولو بطرق مختلفة. إذ لطالما كانت هي التي كنت أتحدث إليها عن مغامراتنا، وكانت هي من كنت أتحدث إليها عندما كنت أعاني من مشكلةٍ في علاقتي مع ليزا. وفي النهاية، كنت أتحدث إلى أختي عن كل شيء كنت أشعر به وأنا أكبر. كانت أختي تبدو أنها تفهم أكثر من أي شخص آخر لماذا أصبحت الشخص الذي كنته. وحتى أفضل من ذلك، فقد كانت أختي تحبني، وكانت تبدو وحدها من تملك القدرة على وضع الأمور في منظورها الصحيح بالنسبة إلي. كانت صراعاتي هي دائماً صراعاتها، وصراعاتها صراعاتي. وإذا سألت أخي فسوف يقول تماماً الأمور نفسها عنها، لأن علاقته مع دانا كانت شبيهة بعلاقتي معها.

قرابة نهاية سنتي الرابعة، أتذكر أنني سمعت أختي تبكي في غرفة نومها. وبعد أن قرعت الباب، دخلت لأجدها جالسة على السرير ووجهها بين يديها.

فسألت، وأنا أجلس إلى جانبها: "ما الخطب؟"

"كل شيء".

"كلا، أخبريني. ماذا حدث".

فقالت: "إنني أكره حياتي".

"لماذا؟"

فقالت: "لأنني لست مثلك ومثل ميكا".

"لست أفهم".

"أنتما أيها الشابان - كلاكما - تملكان كل شيء. إنكما جيدان في كل شيء، ولديكما أصدقاء مقربون، وأنتما جيدان في الرياضة، وتحصلان على درجاتٍ جيدة، وتتمتعان بشعبيةٍ وكلاكما لديه صديقة. الجميع يعرف من أنتما أيها الشابان، ويتمنى أن يكون مثلكما. أنا لست مثلكما أنتما الاثنان من أية ناحية، وكأنني قد أنجبت من والدين مختلفين".

فقلت: "لطالما كنت الأفضل، فأنت أعذب شخصٍ قابلته في حياتي".

"وإن يكن؟ لا أحد يأبه لأمري".

فأمسكت بيدها.

"ما الذي يزعجك فعلاً؟"

فلم ترد أن تجيب. فنظرت في فترة الصمت في أنحاء الغرفة، فكانت ككل الفتيات المراهقات، تملك صور مجلاتٍ متنوعة تغطي الجدران، وكانت توجد على طاولة زينتها مجموعة من الأجراس والجياد الخزفية. كان هناك كتاب مقدس موضوع على نهاية الطاولة بجانب مسبحة. وقد استغرقت وقتاً طويلاً حتى تمكنت من إخراج الكلمات.

"لقد تلقت هولي دعوة لحفلة السنة الثالثة".

وقد كانت هولي صديقة أختي الحميمة، وكانتا لا تنفصلان لمدة سنوات.

"ذلك أمر جيد، أليس كذلك؟"

وعندما لم تجب غاص قلبي حالما أدركت فجأةً لماذا كانت منزعجة.

"ولكنك منزعجة لأن أحداً لم يدعُكِ".

فبدأت تبكي مجدداً، فوضعت ذراعي حولها. وقلت ملطفاً: "ستتلقين دعوةً، فأنت فتاة رائعة، وأنت جميلة ولطيفة، وأي أحد لا يدعوك هو غبي فوق الحدّ ليدرك ماذا يفوّت على نفسه".

فقالت: "إنك لا تفهم. أنت وميكا.. حسناً، كل الفتيات يعتقدن أنكما ظريفان. وهن دائماً يخبرنني كم أنا محظوظة بكونكما أخويّ. ولكن من الصعب... أعني، لا أحد على الإطلاق يقول إنني جميلة".

فأصريت قائلاً: "إنك جميلة".

فقالت: "كلا، لست كذلك، أنا متوسطة الجمال، وعندما أنظر في المرآة أعرف ذلك".

استمرّت بالبكاء، ورفضت أن تقول المزيد. وعندما غادرت الغرفة أخيراً، أدركت للمرة الأولى أن أختي كانت تكابد مع أمور تقلق بشأنها كما يفعل الجميع، وكانت تقوم بمجرد إخفاء ذلك طوال الوقت. ولكنني حالما خرجت، كنت متأكداً من أنها ستتلقى الدعوة، وقد كنت أعني ما قلته لها.

لكن مرت الأيام ولم يأتِ أي فتىً راكباً على حصان ليكون فارسها مرتدياً درعاً لامعاً، كان

باستطاعتي أن أرى الألم في تعبير وجهها المجروح الخائب الأمل. وقد كان يقتلني أن أفكر أن لا أحد يبدو مدركاً كم هي مميزة، وكم من الحبّ يمكنها أن تمنح لأي أحد بمجرد أن يطلبه. كنت أعشق أختي بنفس الطريقة التي لطالما كنت أعشق فيها أخي، وأعتقد أنني كوالديّ شعرت بالحاجة لأحميها.

هكذا، في إحدى الأمسيات قبل موعد الحفلة بأسبوع تقريباً، ذهبت إلى غرفة أختي. فإذا كانت الصديقات يعتقدن أنني وسيم، وإذا كن يعتقدن أنني أتمتع بشعبية، لذا فلم أكن أريد شيئاً أكثر من أن يروا كم من الوقت الممتع يمكننا أن نقضي معاً. وبالنسبة لي، لم يكن يشكّل فرقاً أن نكون أخاً وأختاً، وسأكون أن أشاهد معها وأردت العالم بأكمله أن يعرف ذلك.

فقلت بجدية: "هلا تذهبين إلى الحفلة معي، يا دانا؟"

فقالت: "لا تكن سخيفاً".

فوعدت قائلاً: "سنستمتع، وسآخذك إلى عشاء فاخر، وسأستأجر سيارة ليموزين، وسنرقص طيلة الليلة. سأكون أفضل رفيقٍ حظيت به على الإطلاق".

فابتسمت، ولكن هزت رأسها قائلة: "كلا، الأمر على ما يرام، لا أريد الذهاب على أية حال، فقد تخطيت الأمر الآن، لا يهم".

فتردّدت محاولاً أن أرى إن كانت تعني ذلك، وقلت: "هل أنت واثقة؟ سيعني الأمر لي الكثير".

"نعم، إنني واثقة. لكن شكراً لسؤالي".

فنظرت إليها قائلاً: "تعلمين أنك تفطرين قلبي".

فضحكت ضحكة صغيرة حزينة، وقالت: "ذلك غريب، فهذا بالضبط ما قاله ميكا".

"ماذا تعنين؟"

"لقد دعاني إلى الحفلة أيضاً، البارحة".

"ولست ذاهبةً معه أيضاً؟"

"كلا".

أحاطتني بذراعيها، وضمتني ثم قبلتني على خدي. وقالت: "ولكنني أريدك أن تعرف أنكما أفضل أخوين يمكنٍ أن تحظى بهما أخت، وإنني أشعر بفخرٍ كبيرٍ عندما أفكر بكما أنتما الاثنان، وإنني أكثر الفتيات حظاً في العالم، وأحبكما كثيراً".

فانقبضت حنجرتي، وقلت: "وأنا أيضاً أحبك، يا دانا".

الفصل الحادي عشر

صخرة آيرز روك في أستراليا2 - 3 شباط

إنه لمن الصعب، ما لم تسافر فوق المحيط الهادئ أن تدرك كم هو محيط كبير. فقد حلّقنا لمدة أربع ساعات للوصول إلى إيستر آيلند وسبع ساعات أخرى للوصول إلى راروتونغا. وقد استغرق الوصول إلى مدينة بريزبين في أستراليا سبع ساعات أخرى عبرنا خلالها خط التوقيت العالمي. من هناك، كان ما يزال أمامنا ثلاث ساعات حتى نصل أخيراً إلى آيرز روك في متنزه أولورو كاتا تيوتا في وسط القفر الأسترالي.

ساهم عبور خط التوقيت العالمي فقط في جعل الرحلة أطول. وإنه لشعور غريب أن تدرك أن يوماً يبدو أنه قد تلاشى من حياتك. وليس هذا فقط، بل استغرق توقفنا في بريزبين ساعتين. وقد استوقفني بدهشة أننا أمضينا ما مجموعه اثنتي عشرة ساعة في الطريق، إذا أخذنا بعين الاعتبار أننا كنا أصلاً في منتصف الطريق عبر المحيط عندما بدأنا.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الفندق، ارتسم على وجوه الجميع مظهر المسافرين المتعبين. كان بإمكاننا أن نسجّل أسماءنا في البهو من أجل النزهات في اليوم التالي. رغم أن الجميع كانوا سيذهبون إلى آيرز روك في فترة العصر، فقد كانت فترة الصباح مفتوحة. إذ يمكنك استئجار دراجة هارلي، على سبيل المثال، واستكشاف أجزاءٍ من القفر بمفردك، أو أخذ رحلة بالمروحية فوق أولغاز أيضاً؛ وهي مناطق بارزة من الصخور والوديان قرب آيرز روك. كانت هناك أيضاً نزهة على الأقدام عبر قسم من الأولغاز، ونزهة عند شروق الشمس إلى آيرز روك، والتي كنا سنغادر الفندق من أجلها قبل الفجر.

رغم أنني وأخي أردنا النوم، فقد استيقظنا في الوقت المناسب نوعاً ما للانضمام إلى مجموعة رحلة شروق الشمس. كان الجو لطيفاً والظلام حالكاً في الصحراء. وبدون أضواء، كان من الممكن رؤية عشرات الآلاف - إن لم نقل الملايين - من النجوم. كانت حافلتنا واحدة من صفٍ طويل من الحافلات التي توجهت إلى هناك صباح ذلك اليوم. اكتشفنا لاحقاً أن فندقنا كان كبيراً بما يكفي ليأوي أكثر من ثلاثة آلاف ضيف. ورغم أن هذا قد لا يعني شيئاً في مدينة مثل أورلاندو أو شيكاغو، فهو في وسط القفر أمر مدهش، وقد عرفنا أنه في أية لحظة، يكون في الفندق بحدّ ذاته عدد من النزلاء أكثر من أي مدينة تقريباً على بعد مئات الأميال في أي اتجاه.

آيرز روك هي أكبر صخرة من قطعةٍ واحدة في العالم. وبمحيطٍ قدره خمسة أميال، كانت ترتفع

إلى ألف قدم تقريباً في الهواء، وتمتد إلى أكثر من ثلاثة أميال تحت السطح. لم تكن آيرز روك في ظلام ما قبل الفجر شيئاً غير ظل مظلم، وكان من المستحيل تقريباً الرؤية إلا إذا كنت تنظر مباشرة باتجاهها. فخرجت مجموعتنا غير المرتبة بتعثر من الحافلة، وتوجهت نحو منطقة المشاهدة.

مع مرور الوقت، بدأ الضوء يتوهج في الأفق. وحالما بدأ ينتشر ببطء، توجه نظرنا إلى الصخرة. كان من المفترض بالنسبة لآيرز روك، وهي مؤلفة من حجر رملي خشن التبلّر وغني بسليكات الألمنيوم، أن تتنوع في اللون اعتماداً على الوقت من اليوم وحالة الجو. رغم ذلك، ففي البداية على أية حال، كان من الصعب فهم لماذا كان كثير من الناس يجدونها ساحرة. إذ لم يكن فيها شيء من البريق الشديد الاحمرار الذي بسببه اشتهرت الصخرة. فقمت وأخي بالتقاط الصور ثم المزيد من الصور، ونحن نشعر بخيبة الأمل. مع ذلك، سرعان ما ارتفعت الشمس عالياً بما يكفي لتضيء السماء الشرقية. وعندما توصلنا إلى نتيجة أن سمعة آيرز روك هي كذبة إعلامية أكثر منها حقيقة، حدث الأمر فجأة.

أصابت الشمس الصخرة في زاويةٍ بحيث إنها بدأت تتوهج باللون الأحمر وكأنها جمرة ضخمة متوهجة. كان كل ما استطعتُ وميكا فعله للدقائق القليلة التالية هو التحديق بها ونحن نفكّر أنها كانت إحدى أكثر الأشياء التي رأيناها في حياتنا إدهاشاً.

آثرتُ وميكا ركوب المروحية عوضاً عن نزهة على الأقدام عبر الأولغاز، وبحدود الساعة الثامنة صباحاً، كنا في المطار مجدداً مستعدّين للمغادرة.

عرفنا أنه كان هناك سببٍ وجيه دفع منظمي الرحلة لأخذنا إلى الصخرة في الوقت المبكر الذي ذهبنا فيه. إذ كان الجو حاراً أصلاً في الوقت الذي وصلنا فيه، فقد كان الطقس صيفاً في الصحراء رغم كل شيء، وقد ساعد غطاء المروحية فقط على زيادة الحرارة. وبوجود خمسة أشخاصٍ محتشدين في الداخل، كان الجميع يتعرّقون خلال لحظاتٍ من الإقلاع.

قضينا في الجو مدة تفوق الثلاثين دقيقة بقليل، ولكن ذلك منحنا مناظر من المستحيل أن نراها بأية طريقة أخرى. فقد طفنا حول آيرز روك، وطرنا فوق الأولغاز، واكتشفنا إبلاً برية تدب عبر الصحراء. كما أخبرنا، كان هناك عشرات الآلاف من الإبل البرية في أستراليا. وهي في الأساس غير أصلية، فقد استوردت من أجل مهاراتها في البقاء للمساعدة على الاستقرار في القفر. هرب بعضها وترعرع. ومع مرور الوقت، تضخّم عددها. فأعيد تصديرها مرةً أخرى في الوقت الحاضر إلى الشرق الأوسط.

بسبب شفرات المروحة التي تدور وهدير المحرك، كانت المحادثة مستحيلة. ولكن كلما كان يصدف وأنظر نظرةً خاطفةً إلى ميكا، كنت ألاحظ أنه لم يتوقف عن الابتسام.

حالما عدنا من رحلة المروحية، كان لدينا بعض وقت الفراغ حتى الغداء، فقرّرنا الذهاب للهرولة في أنحاء المكان.

بسبب آلاف الأميال التي اجتزناها على ساقينا طوال حياتنا، كانت الهرولة طبيعيةً بالنسبة لكلينا. وبعد أن بدأنا المشي بخطوات معتدلة أصبحت خطواتنا ذات سرعةٍ متزامنة.

قلت: "هذا يشبه الأيام الخوالي عندما كنا في المدرسة الثانوية".

"لقد كنت أفكر للتو بالشيء نفسه".

"كم تهرول غالباً في هذه الأيام؟"

فأجاب ميكا، وكانت أنفاسه منتظمة وثابتة: "ليس كثيراً، فأنا أجري عندما ألعب كرة القدم، ولكن إن حاولت فعل ذلك كل يوم يؤلمني ظهري".

"أعرف ما تعنيه. فقد اعتدت أن أعدو عشرين ميلاً بسرعة أيام الأحد، ولكنني في هذه الأيام لا أستطيع حتى أن أتخيّل ذلك. وإذا عدوت مسافة أربعة أميال أشعر أنني حققت شيئاً مهماً بالفعل".

فقال: "هذا لأننا نتقدم في السن. هل تدرك أن اجتماع المتخرّجين من المدرسة الثانوية العشرين سيحلّ بعد بضعة أشهر؟"

"هل أنت ذاهب؟"

"أعتقد ذلك، إذ ستكون رؤية الجميع أمراً ممتعاً. لكن عندما أفكر بالمدرسة الثانوية أفكر بمايك وهارولد وبك وبترايسي. تلك كانت أوقاتاً رائعة". أصغيت لبرهة إلى صوت أقدامنا على التراب المضغوط. "هل تتذكّر عندما خرجت وهارولد في موعدٍ مزدوج تلك المرة؟ عندما عثرت وترايسي عليكم وجعلناكم تنزلون زجاج نافذة السيارة لكي نتمكن من إطلاق صاروخ زجاجةٍ داخل سيارتكم".

فضحكت: "كيف لي أن أنسى؟ لقد انفجر الشيء عند أقدامنا وأخافنا للغاية".

فقال: "نعم، تلك الذكريات هي التي تبقى معي. أولئك الشباب كانوا رائعين. وهم الوحيدون الذين لا زلت أتحدّث معهم حتى الآن. ومن الصعب أن تصدق أن كل هذا حدث قبل عشرين عاماً".

بعد الغداء والاستحمام، توجهنا عائدين إلى آيرز روك مع بقية مجموعتنا. كان الوهج في ذلك الوقت قاسياً. فقد كانت الحرارة تتجاوز المائة درجة (فهرنهايت)، ومع وجود الشمس فوق رؤوسنا، كانت آيرز روك حجراً رملياً، ولونها غير جدير بالملاحظة. كان الذباب يحتشد بأعدادٍ كبيرة في كل مكان، فكان عليك أن تتحرك بشكلٍ مستمر إذ إنها ستستقر على شفتيك أو أهدابك أو ذراعيك أو ظهرك. فقد كانت هناك من الذباب، وبدا السياح وكأنهم قد تناولوا حبوب الهزهزة.

خلال الساعات القليلة التالية، توقفت الحافلة في أماكن متنوعة حول آيرز روك، والتي تعتبر مقدّسة بالنسبة للأروميين (السكان الأصليين). كنا نتوجه إلى هناك ونتمشى في الأرجاء ونستمع إلى إحدى القصص ثم نتوجّه عائدين إلى الحافلة. تمّ إرشادنا إلى بعض الكهوف المطلية، وحفرة مياه شرب حيث أصبحنا عرضةً لمحاضراتٍ لا تنتهي عن التاريخ الأرومي.

عند المحطة الثالثة أو الرابعة، التفتّ لأقول شيئاً لميكا. كانت عيناه غير معبّرتين أو مركّزتين. كنا في ذلك الوقت نصغي إلى قصة تتعلق بأحد الصدوع في الصخرة، وكانت تتعلق بشبح محاربٍ تاه في الصحراء، وذلك فقط ليخوض معركة ضد روح أخرى. بطريقةٍ ما، طبعت صور المعركة على الصخرة. كان هذا بدوره قد قاد الناس ليعرفوا أين كانت حفرة مياه الشرب، حيث إنهم بحثوا في الصخرة عن الصورة المذكورة، فهناك عرفوا أنهم قريبون أو شيئاً من هذا القبيل. كانت الحرارة اللاذعة تجعلني أشعر بالدوار فكان من الصعب الحفاظ على تسلسل الشخصيات في الأسطورة.

تنهّد ميكا وهو يضرب الذباب الذي يئز، وقال: "هل لاحظت أنه كلما كان شيء ما أقل إثارة للاهتمام أراد الناس التحدُّث عنه أكثر؟"

"هيا، إنه مثير للاهتمام. فهي ثقافة لا تعرف شيئاً عنها".

"السبب في أننا لا نعرف شيئاً عنها هو أنها مملة".

"إنها ليست مملة".

"إنها صخرة كبيرة في وسط الصحراء".

"وماذا عن الألوان؟"

"شاهدنا الألوان في الصباح. أما في النهار فهي صخرة كبيرة، ولم يأكلني الذباب وتطهني

الشمس، وأنا أتعرض لقصصٍ لا نهاية لها عن معارك الأشباح".

"ألا يدهشك أن الناس قد تمكنوا من العيش فعلياً هنا لآلاف السنين؟"

"يدهشني أنهم لم يغادروا قط. ماذا؟ أتعني أنه لا أحد من السكان الأصليين قد تجول نحو الساحل، وشاهد الشاطئ، وشعر بالنسمات اللطيفة وهو يصطاد السمك للعشاء. وقال لنفسه: !"

"أعتقد أن الحرارة تؤثّر عليك".

"آه، نعم. إنها تؤثر عليَّ، فأنا أموت هنا. وأشعر أن الصقور فوق رأسي تنتظر فقط أن أفقد الانتباه".

في وقتٍ لاحق ذلك اليوم، توجهنا عائدين إلى آيرز روك للمرة الثالثة. فكانت تلك فرصتنا الأخيرة لنرى كيف تغيّر ألوانها عند غروب الشمس.

أفضى ميكا إليَّ قائلاً: "لقد بدأت أكوّن انطباعاً أنه ليس هناك شيء نفعله في الجوار إلى جانب التحديق بآيرز روك".

فقلت: "لن يكون الأمر سيئاً. فقد سمعت أنه يفترض أن تكون هناك موسيقى أرومية أصلية الليلة".

فقال وهو يرفع يديه عالياً: "يا سلام، إنني لا أطيق الانتظار".

كما ثبت في النهاية، كانت الأمسية إحدى أكثر الأوقات التي كانت جديرةً بالذكرى في الرحلة. فقد بدأت بحفلة كوكتيل - ونعم، حدّق الجميع في آيرز روك عندما بدأت الشمس تغرب - ولكن بعد ذلك، أخذنا إلى أرضٍ صغيرةٍ مقطوعة الشجر حيث وضعت الطاولات مكتملة مع ملاءات طاولات بيضاء وشموعٍ وسطيّة وتنسيقات زهورٍ جميلة. كان المكان رائعاً والطعام لذيذاً، فكان لديهم في البوفيه، من ضمن أشياء أخرى، لحم كل من التمساح والكنغر مطهوّ مع التوابل. اعتدلت درجة الحرارة، وحتى الذباب بدا وكأنه قد اختفى.

تناولنا الطعام في الصحراء تحت سماء كانت تظلم تدريجياً، وبمرور الوقت، بدأت النجوم تظهر بكاملها. ولاحقاً، أطفئت الشموع، وبدأت عالمة الفلك تتحدّث. فاستخدمت ضوءاً مسلّطا لتشير إلى المناطق المتنوعة في السماء، وقامت بوصف العالم في الأعلى.

لم تكن السماء داكنةً وصافية وحسب بما يكفي لتمييز النجوم المفردة في الامتداد الواسع للمجرة، ولكن لأننا كنا في نصف الكرة الجنوبي كانت السماء غريبةً كلياً بالنسبة إلينا. فكنا جميعاً مسحورين. فعوضاً عن الدبّ الأكبر وبولاريس (النجم الشمالي)، شاهدنا الصليب الجنوبي، وعرفنا كيف كان البحارة يستخدمونه في الإبحار. كان كوكب المشتري أقرب للأرض مما كان عليه منذ عقود، وكان يتوهج ساطعاً في السماء. أما كوكب زحل فكان مرئياً أيضاً، مما جعلها المرة الأولى التي أرى فيها في حياتي كلا الكوكبين في سماءٍ واحدة، وحتى أفضل من ذلك، فقد اكتشفنا أن المكتب السياحي قد أعد ترتيباتٍ لوجود أجهزة تليسكوب. في تلك الأمسية، شاهدت أقمار المشتري وحلقات كوكب زحل، ورغم أنني قد رأيتها في الكتب إلا أنني لم أرَها أبداً من خلال عدسة. كانت تلك المرة الأولى بالنسبة لميكا، أيضاً.

في طريق عودتنا إلى الفندق، أسند رأسه على المقعد، في صورةٍ توحي بالرضا، وقال: "كان الصباح عظيماً، وكان المساء هو الأفضل في الرحلة حتى الآن".

"إن الوسط فقط هو ما كان يمكنك أن تستغني عنه، صحيح؟"

فابتسم دون أن يفتح عينيه، وقال: "إنك تقرأ أفكاري، يا أخي الصغير".

دفعت رأسي إلى الوراء، وأغمضت عينيّ أيضاً. ولم يكن أحد في الحافلة يتكلّم، وبدا معظمهم مسترخياً مثلنا. فتجول عقلي في السكون. مرّت السنوات بسرعةٍ شديدةٍ بحيث إنه لم يسعني إلا أن أشعر أن حياتي بدت غامضة، وكأنني كنت تقريباً أنظر إليها بعيني شخص آخر. ربما كان ذلك بسبب الأمسية التي قضيتها لتوي أو ربما كان ذلك عائداً إلى الإرهاق. لكن فجأة، في وسط هذه الأرض الأجنبية، لم أشعر أنني مؤلف في السابعة والثلاثين من العمر أو زوج أو حتى أب لخمسة أطفال. وعوضاً عن ذلك، بدا الأمر تقريباً وكأنني أبدأ لتوي في العالم وأواجه مستقبلاً غير أكيد بشكلٍ يشبه الطريقة التي شعرت بها عندما نزلت للمرة الأولى من الطائرة في ساوث بيند في ولاية إنديانا في شهر آب عام 1984.

أثبتت سنتي الأولى في نوتردام نفسها على أنها تحدٍّ. فللمرة الأولى في حياتي، لم أكن أذكى طالبٍ في الصف، وكانت دراساتي أصعب بكثير مما تخيّلت أنها ستكون. كنت أدرس بمعدل أربع ساعات يومياً، ولم أبلِ تقريباً بشكلٍ جيدٍ كما كنت آمل. وعلى مدى السنوات الأربع التالية، كان عدد الساعات التي كنت أدرس فيها يزداد.

وجدت أن الابتعاد عن البيت صعب. فقد افتقدت عائلتي وأصدقائي، وافتقدت ليزا، ولم أنسجم مع زميل الغرفة الجديد. والأسوأ من كل شيء، أنه في الأسبوع الثاني لوصولي أجهدت وتر العرقوب لديَّ، وحاولت أن أتدرّب رغم الألم فأصبت بحالة مؤلمة جداً من التهاب وتر العرقوب، فتورم وتر العرقوب لديَّ حتى أصبح بحجم كرة الغولف. وبحسب قول الأطباء، كان الشيء الوحيد الذي يسمح له بالشفاء هو التوقف عن العدو نهائياً.

بحلول تلك المرحلة، كان العدو أهمّ شيء في حياتي. كانت فكرة عدم العدو مضادةً لكل شيء كنت أؤمن به. فقد كان حلمي أن أحذو حذو العدّاء بلي ميلز وأن أمثل الولايات المتحدة في الفريق الأولمبي وأربح الميدالية الذهبية. إنني أعلم الآن أنه حتى لو أنني لم أتأذَ أبداً فقد كان الحلم حلماً لا يتحقق. كان من الممكن أيضاً أن أتمنى أن أطير.

كما قلت، كنت عداءً جيداً، ولكنني لم أكن عظيماً. إذ لم أكن أملك السرعة الطبيعية أو القوة لأكون عالمياً. وصلت بالفعل إلى حيث وصلت بالتدريب بجهدٍ أكثر من معظم طلاب المدرسة الثانوية. استعدت هذا الإدراك في الوقت الذي كانت فيه الإصابة مدمرةً بالنسبة إلي. وللمرة الأولى في حياتي، شعرت وكأنني كنت أفشل.

استمرت الإصابة بشدة خلال الخريف، وشفيت قليلاً في الشتاء، قبل أن تتدهور حالة الإصابة من جديد. في ذلك الوقت تقريباً، انفصلت عن ليزا، وحكم القدر علينا بالفراق. واستمرّت الكلية بكونها تحدياً، وذلك جزئياً لأن ذهني كان في مكان آخر.

تدبرت بطريقة ما شقّ طريقي بصعوبةٍ إلى موسم خارجي جزئي. حتى أن الأمر انتهى بي وأنا أحطم الرقم القياسي للجامعة كعضوٍ في أحد فرق البدل. كانت تلك مباراتي الأخيرة للسنة. وبحلول الوقت الذي أنهيت فيه السباق كنت بالكاد بإمكاني السير. فقد تورم وتر العرقوب لديَّ إلى حجم الليمونة. كانت أية حركة موجعة جداً. وكان وتري، بكل معنى الكلمة، يصدر صريراً كمفصل صدئ كلما كنت أخطو خطوة. وعندما وصلت إلى البيت في إجازة الصيف، كنت بحاجة إلى عكازين لأتمكن من النزول من الطائرة.

كنت تعيساً طوال الأسابيع القليلة الأولى من الصيف. إذ لم يكن لديَّ عمل ولا صديقة. ولأن أخي كان قد انتقل من البيت، لم يكن لديَّ أحد لأتسكع معه في الأنحاء. وبالإضافة لذلك، كنت ممنوعاً بأوامر الطبيب من العدو لمدة ثلاثة أشهر، الأمر الذي جعلني فقط متأخراً عن نظرائي.

حاولت أمي أن تخترع طرقاً لتبهجني، أو أن ذلك ما دعته على الأقل. فقد كانت تقول: "قم بطلاء غرفة المعيشة، فإن ذلك سيبهجك"، أو "نعّم الباب بورق الصنفرة حتى تتمكن من طلائه بلونٍ مختلف، فإن ذلك سيرفع معنوياتك".

لو أن أفكارها نجحت، لكنت أسعد شخص على كوكب الأرض. مع ذلك، فقد كان الأمر أنني كنت أتسكع في الأنحاء بملابس ملطخة بالطلاء، وأنا أعمل طوال النهار في مشاريع متنوعة، وأتمتم أن كل ما أردته كان أن أعدو، وأتساءل لماذا لا يساعدني الله أو يصغي إليَّ. وبحلول منتصف شهر حزيران، أصبحت أمي مستاءةً من موقفي. وبينما كنت أندب الورطة التي كنت فيها للمرة المائة عند طاولة المطبخ، هزت رأسها أخيراً.

"مشكلتك هي أنك تشعر بالملل. فأنت بحاجة لتجد شيئاً تفعله".

"لا أريد أن أفعل شيئاً سوى العدو".

"وماذا إن لم تستطع؟"

"ماذا تعنين؟"

"ماذا إن لم تتحسّن إصابتك؟ أو حتى إذا تحسّنت. ماذا إذا لم يعد بإمكانك التدرُّب بالطريقة التي اعتدت أن تتدرَّب بها خوفاً من الإصابة مجدداً؟ إنك لا تريد أن تمضي حياتك وأنت لا تفعل شيئاً".

"أمي...".

"هيه، إنني فقط أعرض ما هو واضح هنا. وأعلم أن الأمر لن يكون عادلاً. ولكن لم يقل أحد أبداً إن الحياة عادلة".

فأخفضت رأسي نحو الطاولة.

فقالت بحزم: "آه، كلا. لن تجلس هنا وحسب عند الطاولة وتستمر بالتصرف على هذا النحو. لا تتجهّم وحسب. افعل شيئاً حيال الأمر".

"مثل ماذا؟"

"إنها حياتك".

فرفعت رأسي بإحباط، وقلت: "أمي...".

فقالت وهي تهزّ كتفها: "لا أدري..." ثم نظرت إليَّ وقالت الكلمات التي، في نهاية المطاف، غيّرت حياتي إلى الأبد.

"ألّف كتاباً".

حتى تلك اللحظة، لم أفكر أبداً بالكتابة بالرغم من أنني كنت أقرأ طوال الوقت. ولكن أن أجلس فعلاً وأخترع قصة من عندي؟ كانت تلك فكرةً سخيفة بحدّ ذاتها. إذ إنني لم أكن أعرف شيئاً عن فنّ الكتابة، ولم تكن لديَّ رغبة عارمة في رؤية كلماتي مطبوعة. ولم أدرس في صفٍ للكتابة الإبداعية، ولم أكتب أبداً في الكتاب السنوي أو صحيفة المدرسة. لم أكن أشك أنه كان لديَّ نوع من الموهبة الخفية عندما يتعلق الأمر بتأليف النثر. ومع ذلك، ورغم تلك الأمور، كانت الفكرة نوعاً ما مغرية، فوجدت نفسي أجيب قائلاً: "حسناً".

في صباح اليوم التالي، جلست عند الآلة الكاتبة الخاصة بوالدي، ووضعت الورقة الأولى، وبدأت أكتب. وقد اخترت الرعب كنوعية للنص، فاستحضرت شخصية تسبِّب الموت العرضي أينما ذهبت.

طوال ستة أسابيع، وبعد الكتابة لمدة ست أو سبع ساعاتٍ في اليوم، كنت قد انتهيت من كتابة ثلاثمائة صفحة. وأتذكّر أنني طبعت الجملة الأخيرة، ولا أدري إن كنت قد شعرت بإحساسٍ أعلى بالإنجاز على الإطلاق حيال أي شيء فعلته في حياتي.

كانت المشكلة الوحيدة هي الكتاب. فقد كان مريعاً، وكنت أعرف ذلك. كان رديئاً جداً بكل معنى الكلمة. ولكن في النهاية، ماذا كان يهم؟ إذ لم أكن أنوي أن ينشر، وقد كتبته لأرى إن كنت أستطيع ذلك. وحتى عندها، كنت أعرف أن هناك فرقاً كبيراً بين الشروع برواية وإنهائها فعلياً، وبشكل أكثر إدهاشاً، حتى وجدت أنني استمتعت بالعملية فعلاً.

لقد كنت في التاسعة عشر، وأصبحت مؤلفاً بالصدفة. إنها لطريقة غريبة تلك التي تحدث بها الأمور في الحياة.

لأنني كنت بعيداً عن البيت ثمانية أشهر في السنة، كان لديَّ وأخي وقت قليل لنرى بعضنا البعض. فقد استمر ميكا بقضاء العطل الأسبوعية وهو يجرِّب أشياء جديدة ومثيرة. في تلك الأثناء، استمرّت إصابتي بإزعاجي. فلم أكن أعدو عبر الملعب ولا في مضمار السباق، ولكنني كنت أركّز على استعادة نجاحي السابق.

كنت قد كوّنت صداقاتٍ جديدة مع بعض طلاب السنة الأولى الآخرين في السنة الماضية، كان بعضهم في فريق سباق مضمار، وقد أصبحوا من أعتمد عليهم لمساعدتي على مرور سنةٍ أخرى من التحدّي. لكنني تعلّمت شيئاً من التوجه إلى الجامعة، فقد تضاءل اعتمادي على الأسرة أكثر مما حدث مع أخي وأختي. فقد كانت دانا لا تزال تعيش في البيت، وكانت طالبة سنة أولى في المدرسة الثانوية، ورغم أن ميكا كان يعيش في شقته الخاصة، فقد كان ما يزال يذهب إلى البيت ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع. إذ كلما كنت أتصل بالبيت كنت أجده هناك.

بعد أن غادرت من أجل سنتي الثانية بوقت قصير، ذكرت أمي أن الكلبة براندي لم تكن على ما يرام. وقد كان عمرها اثنا عشر عاماً - وهي ليست كبيرة بالنسبة لبعض الأنواع، ولكنها عجوز بالنسبة لنوع دوبرمان من الكلاب - كان باستطاعتي سماع القلق في صوت أمي. فقد كانت أمي تحبها مثلما كنا نحن جميعاً. وعندما ألححت عليها كانت تتهرّب بعض الشيء عند الإجابة.

"حسناً، لقد فقدت بعض الوزن، ويبدو أن التهاب مفاصلها يزداد سوءاً".

عندما حضرت إلى البيت في إجازة الخريف، صدمت بمظهر براندي. إذ لم أكن قد رأيتها منذ شهرين، ولكنها خلال هذين الشهرين، تحولت من متمتعةٍ بالصحة نسبياً إلى هيكلٍ عظمي يمشي. كانت معدتها مجوّفة، ومن الممكن عدّ أضلاعها عبر الغرفة. فيما سارت ببطءٍ نحويَ استطعت رؤية التعبير الفرح في عينيها. كان ذيلها - وهو نحيل عظمي وبدون وبر تقريباً - يهزّ بتحية بطيئة، فانحنيت ومسّدتها برفق، وأنا أشعر بارتعاشها وارتجافها تحت يدي. فابتلعت الغصة التي في حلقي.

قضيت معظم اليومين التاليين مع الكلبة، أجلس بجانبها وأربت عليها بلطف، وكنت أعلم حتى أنها لن تستمر على قيد الحياة حتى 25 كانون الأول. فكنت أتمتم إليها وأذكّرها بكل المغامرات التي خضناها معاً ونحن نكبر.

في اليوم السابق لليوم الذي كنت سأتوجه فيه عائداً إلى نوتردام، استيقظنا لنجد أن براندي قد ماتت.

كنت وأخي نحبس دموعنا بينما ذهبنا لإحضار أختنا. فلم تتظاهر دانا بالقوة وبدأت تنتحب على الفور، وكان صوتها وهي تنتحب هو ما جعلني وأخي نبكي أيضاً. في وقتٍ لاحق في ذلك الصباح، قمنا والدموع تلسع عيوننا بحفر حفرة في الحديقة الخلفية ودفناها. لقد رحلت الآن باستثناء

الذكريات التي سنحتفظ بها إلى الأبد.

قال ميكا بجدية: "لقد انتظرتك حتى عدت إلى البيت. وأعتقد أنها لا بدّ كانت تعلم أنك عائد وأرادت رؤيتك للمرة الأخيرة".

بعد ذلك بسنوات، اكتشفنا حقيقية ما حدث لبراندي. فكما علمنا، لم تمت براندي فعلاً في نومها، بل ماتت في عيادة الطبيب البيطري في وقتٍ سابق في ذلك الصباح بينما كانت أمي تمسكها بإحكام والحقنة الأخيرة تعطى لها. وبعد ذلك، بينما كنا لا نزال نائمين، أعادت أمي براندي إلى البيت ووضعتها في السرير لكي نجدها. إذ لم تكن تريدنا أن نعرف أن براندي قد أذلت، بل أرادتنا نحن الثلاثة أن نعتقد أن براندي قد ماتت بسلام في نومها. فقد كانت تعلم أن فكرة قتلها كانت لتدمرنا، واعتقدت أنه كان من المهم تجنيبنا تلك المشاعر.

بالرغم من أننا كنا قد كبرنا، وبالرغم من أنها كانت دائماً تشدد على الصرامة، لم تكن تريد أن تجعل موت براندي أكثر قسوةً علينا مما يجب.

خضعت لجراحة في كلٍّ من عرقوبي وقدمي في شهر نيسان من سنتي الثانية في الجامعة. وقد كان كل من وترِ العرقوب ووترِ أخمص القدم لديَّ (وهو وتر يمتدّ على طول أسفل القدم) قد تعرضا لتلفٍ شديدٍ نتيجةً للتدريب المكثف. كان من غير المؤكد فيما إذا كنت سأعدو مجدداً على الإطلاق. مع استمرار اتقاد الحلم، مررت بفترة إعادة تأهيل، بدأت أهرول في شهر تموز. بحلول شهر آب، كنت أعدو بدون ألم للمرة الأولى منذ سنوات. فتدربت بجهدٍ، وسرعان ما حطمت الرقم القياسي لأسرع أوقات تدريبٍ عدوتها في حياتي. في التدريب المثابر الثاني في اليوم، على سبيل المثال، كنت أجتاز خمسة أميالٍ في أقل من ثلاث وعشرين دقيقة دون أن ينقطع نفسي أبداً.

رغم ذلك، فبحلول شهر تشرين الأول، عاد الألم وازداد سوءاً، فتلقيت حقنة كورتيزون في موقع الإصابة القديمة. كانت - وهي مضادة للالتهاب - تخدر المنطقة، فاستمرّيت بالعدو. ومع عودة الألم بعدها بستة أسابيع، تلقيت حقنة كورتيزون أخرى، وسرعان ما أصبحت أتلقاها كل شهر، ولكنني تمكّنت من إنقاذ موسمٍ محترم رغم ذلك. بحلول الصيف، كنت بحاجة لتلقي حقنة كورتيزون كل أسبوعٍ لأستمر بالتدريبِ - فكنت قد تلقّيت ما يقارب ثلاثين حقنة منذ العملية الجراحية - وكان عليَّ أن أزيدَ سرعتي، كان كل من وتر العرقوب ووتر باطن القدم متورمين. وبينما كنت أعرج خارجاً إلى مضمار السباقِ من أجل التدريب، أدركت بشعور من النهائية الثاقبة أنني ببساطةٍ لم أعد أستطيع أن أفعل ذلك مجدداً.

علّقت حذائي إلى الأبد وأنا أشعر بالحزن وبالارتياح بشكل غريب. فباستثناء تحطيم رقم قياسي في المدرسة، والذي بقي مستمراً لتسعة عشر عاماً، فشلت في الوصول إلى الأهداف الأخرَى التي وضعتها لنفسي. لكن رغم حقيقة أن العدو كان القوة التي حدّدت حياتي طوال السنوات السبع الأخيرة، فقد كنت أعلم أنني سأعيش بدونه.

لقد منحت ذلك أفضل محاولة لديَّ، ولكن لم يكن مقدَّراً لهذا الأمر أن يكون. إذا كان عليَّ أن أقوم بذلك كله من جديد - وأفشل في الوصول إلى حلمي مجدداً - فسأفعل. إذ إنك عندما تطارد حلماً فإنك تتعلم عن نفسك، وتتعلم عن قدراتك وحدودك وقيمة العمل الجاد والمثابرة.

عندما أخبرت والدي بقراري - مشاركاً إياه بخيبة أملي بالإضافة إلى الارتياح بمعرفة أنني اتخذت قراراً أخيراً - وضع ذراعه حول كتفي.

وقال: "الجميع لديهم أحلام. وحتى إذا لم تحقِّق حلمك بالطريقة التي أردتها، فهذا لا يجعلني أقلّ فخراً بك. فالكثير من الناس لا يحاولون أبداً".

في ذلك العام، حصلت أمي أخيراً على الفرس التي لطالما أرادتها. وهي فرس عربية عمرها ثلاث سنوات، وقد دعتها تشينوك.

تمّ إيواء تشينوك وإطعامها في إسطبلٍ عند نهر أميركان ريفر، وقد كانت أمي تمرّ لإطعام الفرس وتدريبها قبل العمل وبعده. وقد كان بإمكانها قضاء الساعات وهي تنظف وبر تشينوك بالفرشاة وتنظف إسطبلها والطين من على حوافرها.

رغم وجود ممرات للركوب على طول أميركان ريفر، فقد مرت شهور قبل أن تتمكن أمي من امتطائها. فقد عاشت تشينوك معظم حياتها في مرعى (إلى جانب معزاة)، ولم يوضع سرج على ظهرها أبداً، الأمر الذي كان جزءاً كبيراً من السبب الذي جعل أمي تتمكّن مادياً من شرائها. كانت شديدة التوتر مثل الكثير من الخيول العربية، ولكن أمي كانت تتمتع بموهبة فطرية عندما كان الأمر يتعلق بتهدئتها، وسرعان ما سمحت تشينوك لأمي بإسراجها عندما اعتادت على ذلك. ولم يبدُ على تشينوك أبداً أن ذلك يعجبها، ولكن أمي كانت صبورة. أتذكّر الفرح في صوت أمي في أحد الأيام عندما اتصلت بي هاتفياً.

قالت: "لقد امتطيت تشينوك لساعاتٍ اليوم. ولا تصدق كم كان الأمر رائعاً".

فقلت: "إنني سعيد من أجلك، أمي".

لقد عاشت أمي حياة تضحية، وكانت أحلامها دائماً تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لأحلامنا. ولم يسعني إلا أن أشعر أنه قد حان الوقت أخيراً لأن تحصل على شيء يجعلها سعيدة.

في وقتٍ لاحق، حصلت على حصانٍ ثانٍ يدعى نابليون. كان نابليون ذا طبيعة جيدة ومزاج هادئ، وهو نوع من الأحصنة كان مثالياً بالنسبة لأبي. ومما فاجأني، أن أبي وافق على امتطائه أيضاً.

مع أن أبي لم يكن مرتاحاً على السرج، إلا أنني أعتقد أن تلك كانت طريقته ليظهر لأمي أنه كان راغباً ببذل جهدٍ لإنجاح الزواج. إذ إن سنواتٍ من الابتعاد العاطفي قد وتّرت علاقتهما. كان ميكا يذكر أنه كان يعتقد أن أمي كادت تصل إلى نقطة الانهيار. رغم أنها كانت في السابق راغبةً بالبقاء متزوجةً من أجل الأطفال، فقد كانت في ذلك الوقت تتساءل بصوتٍ مرتفع عمّا إذا كانت لتكون أكثر سعادةً بدون أبي. لا أعرف إن كان أي من أمي أو أبي قد فكر جدياً بالطلاق. ولكنني، مع ذلك، أعرف أن أمي على أية حال قد قالت الكلمة بتكرارٍ متزايدٍ في الهاتف وفي أرجاء المنزل. كان أبي بلا شك يسمعها تقول ذلك أيضاً.

إن التقارب دائماً صعب عندما تكون المسافة قد توسّعت عبر السنين، وأحياناً يستحيل التغلب عليها. رغم ذلك فقد منحهما ركوب الخيل معاً طريقةً جديدةً لفعل ذلك بالضبط. وشيئاً فشيئاً، بدا أن والديّ كانا يستمتعان بشعورٍ ناشئٍ من التجدد بينهما.

استمر أخي بعيش حياته الخالية من الهمّ. بعد التخرج من الجامعة عام 1987، ذهب وأحد الأصدقاء إلى أوروبا، وتجوّل على الدراجة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا لقرابة الشهر. وشاركني عند عودته بقصصٍ عن المغامرة قبل أن يذهب في رحلةٍ إلى الجبال لركوب الطوف.

في شهر آب، بدأ يعمل بدوام كاملٍ كسمسار عقاراتٍ تجارية، واستمر بالمواعدة بنشاط. فقد كان يحضر فتاة مختلفة إلى البيت كلّ عدة أسابيع لتقابل والدينا. كانت كل واحدةٍ منهن تبدو متيّمة به. بمرور الوقت، اتصلت بي أمي لتطلعني على خبر أنه قد أحضر فتاة محددة مرتين. فقد كان ذلك بالنسبة لميكا أقرب شيءٍ إلى صديقةٍ ثابتة منذ سنوات. عندما أحضرها للمرة ، أعتقد أن أمي كانت تعرف أن ذلك كان جديًّا.

في نوتردام، كنت أتقدم شيئاَ فشيئاَ نحو نيل درجةٍ في تمويل الأعمال مع أمل الالتحاق بكلية القانون بعد التخرج. في شهر آذار عام 1988، قرّرت وبعض الأصدقاء أن نذهب بالسيارة إلى ولاية فلوريدا لقضاء إجازة الربيع الأخيرة. لأن والد أحد زملائي في السكن كان يملك شقةً في جزيرة سانيبل، ففضّلنا الذهاب إلى هناك بدلاً من الذهاب إلى الوجهة المعتادة مثل دايتونا أو فورت لاوديرديل.

في ليلتنا الثانية هناك، لاحظت فتاة تمشي مع صديقتيها عبر موقف السيارات لمجمع الشقق.

كانت جذابةً - ولكن هكذا كان كل واحد عملياً بعد الغروب في المدينة - ولكنها تلاشت من ذهني بسرعة. ومع ذلك، بعد لحظة، عندما كنت وأصدقائي نكاد نصل إلى الردهة سمعنا أصواتاً تنادينا من الرواق الخارجي في الطابق السادس.

"هيه، هل أنتم مقيمون هنا يا شباب؟"

وعندما نظرنا إلى الأعلى لاحظنا الفتيات الثلاث أنفسهن.

فأجبنا: "نعم".

"حسناً، يفترض بنا أن نلتقي بعض الأصدقاء. ولكنهم لم يأتوا بعد، وعلينا الذهاب إلى الحمام. هل يمكننا استخدام حمامكم؟"

فصحنا قائلين: "طبعاً! نحن في الطابق الثامن".

فصعدن وقدمن أنفسهن على أنهن طالبات في السنة الرابعة من جامعة نيوهمبشير، وقدناهن إلى غرفتنا ليستخدمن حمامنا. وبعد ذلك بلحظة، كنّ ثلاثتهن يقفن في المطبخ، ولكنّ عينيّ كانتا مسمّرتين على المرأة التي كنت قد لاحظتها في وقتٍ سابق. كانت عن قربٍ تملك أجمل عينين رأيتهما في حياتي، فقد كان لونهما غير عادي ويبدو تقريباً غير حقيقي. كان كلّ ما استطعت فعله هو عدم التحديق.

فقلت أخيراً: "مرحباً، أنا نك".

فابتسمت قائلةً: "مرحباً، يا نك. أنا كاثي".

كنت أودُّ أن أقول للقارئ إن الانجذاب الأولي كان متبادلاً، ولكنني سأكون كاذباً لو قلت هذا. بقيت الفتيات في غرفتنا لنصف ساعة أو نحو ذلك. ودعوننا إلى الطابق السفلي إلى منزل أصدقائهن. بينما كنا هناك حصلت على رقم هاتفهن من أحد أصدقاء كاثي. ووعدت بالاتصال في اليوم التالي لأرى إن كنّ يردْن التسكع خارجاً عند الشاطئ خلف مجمع الشقق.

عندما قرّرن الانضمام إلينا في صباح اليوم التالي، كنت متوتراً بشكلٍ ملموسٍ حيال رؤية كاثي مجدداً. كنت آمل أن أكون قد تركت انطباعاً جيداً لديها. عندما رأيتها ورأيتْ صديقتيها قادمات باتجاهنا على الشاطئ، نهضت بسرعة لتحيّتهن.

وقلت بتلهف: "مرحباً، يسرّني أنكن تمكنتن من الحضور".

الأمر الذي أجابت عليه كاثي بقولها: "آه، مرحباً، أنا كاثي. التقيت بك البارحة، أليس كذلك؟"

رغم جرح كبريائي ما كان ذلك ليردعني، وانتهى بنا الأمر نتحدّث لساعات. عندما ذكرن أنهن ذاهبات إلى نادٍ ليلي قريب، تحدّثت إلى رفاقي الممانعين حول الذهاب، وبحثت عن كاثي على الفور. بعد أن رقصت معها لساعة، انحنيت نحوها، وقلت: "أتعلمين؟ سنتزوّج بعضنا في يوم من الأيام".

فضحكت، وحسب غير مصدقة، وقالت: "أعتقد أنك بحاجةٍ إلى كأس شرابٍ آخر".

كيف كان بإمكاني أن أعرف بهذه السرعة أنها كانت الفتاة المناسبة لي؟ لقد كانت لحظة غريبة مدركة بالحدس، ولكن يمكنني أن أقول بصراحة .

لقد كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا، فقد كانت مثلي طالبةً في السنة الرابعة تسعى لنيل شهادةٍ في الأعمال. كانت كاثوليكية مثلي، وتذهب إلى دار العبادة كل أحد. كانت أيضاً ابنةً وسطى رغم أنها كانت إحدى أربعة أولاد. كان لديها مثلي أخ أكبر منها وأخت أصغر منها. وكان والداها فقيرين أيضاً مثل والديّ قبل أن يحصلا على منزلة الطبقة الوسطى، لم يطلقا أبداً. وكانا - ماذا عن هذه كمصادفة؟ - يتشاركان ذكرى زواج والديّ (31 آب). كانت أيضاً رياضيةً (إذ كانت بطلة ولاية في ألعاب القوى)، وكانت تريد أطفالاً كما كنت أريد، وتريد البقاء في البيت لتربيهم كما كنت أريد لزوجتي أن تكون.

لكنْ أكثر شيءٍ جذبني إليها كان . فقد كانت تضحك كثيراً، وهو أمر ينطبق بسهولةٍ على أي شخص يستطيع أن يجد حسّ الفكاهة في أي موقف. كانت أيضاً ذكيةً وقارئةً جيدة. كانت عذبة الحديث وراغبةً بالإصغاء وواثقةً من معتقداتها، وأكثر من كل شيء، فقد كانت دافئة. إذ كانت تعامل أصدقائي وكأنّهم أصدقاؤها لسنوات، وكانت تلوّح وتبتسم للأطفال وكبار السن على حدٍّ سواء. فكانت تبدو مهتمةً بصدقٍ بالجميع.

لقد لاحظت كل تلك الأشياء. وبينما كنا نرقص لفتني أنها كانت كل شيء كنت أتمنّاه في رفيقة حياتي.

* * *

عندما عدت إلى نوتردام، اتصلت بأخي.

وقلت: "لقد قابلت الفتاة التي سأتزوجها، يا ميكا".

"أين ومتى؟ ألم تكن في إجازة الربيع وحسب؟"

"نعم، وهناك التقيت بها".

فقال: "يا صاح، لقد كنت في إجازة الربيع. ما الذي بحق الله جعلك تفكّر في الزواج؟"

"انتظر فقط حتى تقابلها".

"ولكنها كانت إجازة الربيع".

فقلت بمرح: "أعلم ذلك، أليس الأمر رائعاً؟"

في غضون الشهرين اللذين سبقا التخرج، كتبت لكاثي مائة رسالة. وجاءت لزيارتي في نوتردام مرتين. في يوم التخرج، حضر والداي لزيارة نوتردام للمرة الأولى. بينما كنت أريهم المكان الذي كان بيتي طوال السنوات الأربع الماضية، كنت أتحدّث بشكلٍ رئيسي عن كاثي، وكم أصبحت تعني لي خلال الشهرين الماضيين. بعد التخرج، بينما كان والداي في طريقهما عائدين إلى البيت، سافرت إلى نيوهمبشير لحضور حفل تخرج كاثي، فقدّمتني لأهلها. بعد ذلك بعشرة أيام، أحضرتها إلى سكرامنتو لتقابل والديّ.

حيّاها والدي ووالدتي بعناقٍ فوري. بقيت كاثي في المطبخ وهي تتحدّث مع والدتي لساعة. في تلك الليلة، بعد أن ذهبت كاثي إلى السرير، صرّحت أمي قائلة: "كاثي رائعة، إنها حتى أفضل مما وصفتها".

فاعتقدت أن قلبي سينفجر، وكان كل ما قلته هو: "يسرّني أنها أعجبتك، يا أمي".

بعد التخرج في شهر أيار في العام 1988، كانت فكرتي الأولى هي: ؟

لقد كنت لسنواتٍ طالباً ورياضياً، وقد لاحقت هذين الهدفين بقوةٍ غير متردّدة. كنت أفعل ما يقال لي، وأتبع القواعد. ورغم ذلك، أصبح العالمان كلاهما ورائي، ووجدت نفسي بلا هدف. إذ لم تكن لديَّ فكرة من أنا وما كنت أريد فعله وأين سيقودني المستقبل. فقد كنت دائماً أؤمن أنه لأنني كنت أتبع القواعد فإن العالم سيضع طريقاً أمام عتبة بابي. ولكن لم يبدُ أن العالم كان يأبه بي أبداً.

رغم التخرج مع درجات الشرف العالية لم يتمّ قبولي في أيٍّ من كليات الحقوق التي تقدّمت إليها. هكذا فقد أغلق الباب قبل أن ينفتح. حصل جميع أصدقائي على وظائف في شركاتٍ في نيويورك أو شيكاغو، ولكنّ تلك الوظائف كانت تميل لكونها قريبة من الأماكن التي نشأوا فيها. أنا أيضاً أردت الذهاب إلى البيت، وبأفكارٍ غامضةٍ تملأ رأسي عن المستقبل، وجدت نفسي على متن الطائرة عائداً إلى سكرامنتو. كان عملي الأول هو خدمة الموائد. رغم أنني أحمل درجة جامعية، وجدت نفسي أجني الحدّ الأدنى من الأجور.

في تلك الأثناء، بدأت أستكشف المهن محاولاً إيجاد منطقة تهمّني. مع أنني كنت مشوشاً، إلا أنني لم أكن بالتحديد قلقاً. بحلول الوقت الذي انتقلت فيه كاثي إلى سكرامنتو في آب، كنت قد اتخذت القرار أخيراً بأن أجرِّب تثمين العقارات. في حوالى الوقت نفسه، اشتريت وميكا منزلين للإيجار في منطقة متداعية من المدينة، وأصلحناهما، وكنا نقوم بتأجيرهما أيضاً. في وقت الفراغ القليل المتبقي، كتبت روايةً ثانية عنوانها " "، وهي رواية بوليسية قديمة الطراز. ومع ذلك، فقد كنت أعرف أنها لم تكن صالحةً بما يكفي لتنشر.

بدأت أعمل في الشركة المحلية كمثمن عقاراتٍ متدرب في النهار، بينما استمرّيت بخدمة الموائد والكتابة في الليل. ادخرت في نهاية المطاف مالاً كافياً لشراء خاتم ماسي صغير. وفي عيد ميلاد كاثي في 12 تشرين الأول عام 1988، طلبت يدها راكعاً على ركبتي، فوافقت.

بعد بضعة أيام، طلبت من ميكا أن يكون إشبيني، وأنا أفكر بأنه لم يكن بجواري طوال فترة شبابنا فقط، ولكنه سيستمر بأن يكون إلى جانبي إلى حيث يمكن أن يأخذنا المستقبل.

الفصل الثاني عشر

مدينة أنغكر في كمبوديا
4 - 5 شباط

بنيت المعابد في أنغكر في كمبوديا - وهي منطقة تبلغ مساحتها حوالى 120 ميلاً مربعاً - من العام 879 إلى 1191 قبل الميلاد عندما كانت إمبراطورية الخمير في أوجها. لقد اكتشف أكثر من مائة معبد كانت في السابق محاطة بالمدن التي كان ملوك الإمبراطورية يحكمون منها ملكاً كان يغطي قسماً واسعاً من جنوب آسيا بما فيه بورما، وتايلند، ولاوس، وفييتنام، وجنوب الصين، وكمبوديا. استمرّ حكمهم قرابة الخمسمائة عام حتى 1432 عندما نهب السياميون (التاي) مدينة أنغكر، فنقلت العاصمة جنوباً إلى بنوم بيه. ولم تستعد أنغكر مكانتها السابقة أبداً، وانجرفت نحو الغموض، بينما استمرّت الأدغال بتعدّيها الذي لا ينتهي. وبمرور الوقت، أصبحت أنغكر أسطورة - وقد كان الناس الذين رأوا الآثار يدّعون أنها قد بنيت على أيدي الآلهة - وقد نشر بعض المستكشفين المغامرين من أوروبا قصصاً عن آثارٍ شهيرةٍ بين نظرائهم. وفي العام 1860 أعاد المستكشف الفرنسي هنري موهوت لفت نظر العالم إلى أنغكر.

كان الفرنسيون مسحورين بالآثار، فبدأوا جهداً مكثفاً لترميمها. ورغم أن كل ما تبقى من أنغكر كان المعابد نفسها التي تعتبر إحدى أعظم إنجازات البشرية في فن العمارة. كانت المدن، التي بنيت أبنيتها من الخشب، قد بليت منذ وقت طويل، واختفت في الأدغال المحيطة.

إن الأغلبية الساحقة من المعابد في منطقة أنغكر متأثرة بالهندوسية والبقية بوذية. إذ في فترة بنائها، كان كل من المعتقدين سائداً في الإمبراطورية. فبينما كان الحكام يأتون ويذهبون - كان الهندوس يحلّون محلّ البوذيين، والعكس صحيح - وقد تمّ بناء المعابد لتعكس الفترات المتغيرة. مع ذلك، فقد تنوّع فنّ العمارة بشكلٍ ضئيلٍ فقط. لقد تضمّن معظمها بناء معابد شبيهةٍ بالجبال في الوسط محاطةٍ بجدرانٍ مربعةٍ أو دائريةٍ أو أرصفةٍ ومنطويةٍ ضمن خندقٍ مائي أو جدارٍ محيطي.

أنغكر وات، أي حرفياً: "معبد المدينة"، هو ليس فقط المعبد الأكبر في مجمّع أنغكر، ولكنه كان أكبر معلم ديني باقٍ. ولأنه بني خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر على يد سوريافارام الثاني، يعتبر النقطة العليا في فن عمارة الخمير. كانت المنحوتات على الجدران تصف مشاهد هامة من الأدب الهندوسي، بالإضافة إلى أحداثٍ من حكم سوريافارام الثاني بتفصيلٍ دقيقٍ ومعقّد. إن الدراسة

والفهم الكامل للمنحوتات النافرة - على جدرانٍ يبلغ ارتفاعها اثني عشر قدماً، وتمتد بطول أكثر من كيلومتر - ستستغرق سنوات. لقد كُتبت كتب كاملة عن موضوع المنحوتات وحدها، وهو أمر أبعد بكثير من مجال هذا الكتاب ليحاول حتى التعليق عليها.

وكما يقولون، عليك أن ترى الشيء لكي تصدّقه.

كانت الرحلة بالطائرة إلى كمبوديا تستغرق سبع ساعات أخرى، فبدأت أدرك ما هو فعلاً السفر العملي حول العالم. ففي النهاية، سنكون قد سافرنا بالطائرة مسافة 36000 ميل، وقضينا حوالى ثلاثة أيامٍ كاملةٍ في الجو.

لم أكن واثقاً ماذا أتوقع عندما وصلت إلى كمبوديا. فرغم أنني قد سافرت إلى هونغ كونغ وكوريا من أجل منافسات سباق المضمار، إلا أنني لم أكن مستعداً لمدينة بنوم بيه عندما هبطنا. بطريقةٍ غريبة، استوقفتني البلاد بكونها موحيةً بالأمل ومأساويةً في آنٍ معاً. فقد كان الطريق العام الرئيسي ينطلق بسرعةٍ وباهتياج مثل كل المدن حول العالم، ولكن عوضاً عن السيارات، كان الناس يقودون السكوتر. وخلف مباني شقق الأحياء الفقيرة، كانت هناك المباني المرتفعة الجديدة لكل رجلٍ يرتدي بذلة العمل. ورأيت شخصاً آخر فقد إحدى ساقيه في مناجم البلاد التي ما تزال تنتشر في الريف. وفي كل مكانٍ كنت أنظر إليه، كنت أرى تناقض البلاد، بلاد تكافح لتضع ماضيها وراءها لكي تؤمّن مستقبلاً أكثر ازدهاراً.

كانٍ توقّفنا في بنوم بيه قصيراً، وكنا سنذهب إلى المتحف الوطني والقصر الملكي قبل العودة مباشرة إلى المطار لنستقل رحلتنا إلى أنغكر.

كنت أعتقد أن المتحف الوطني هو أيضاً ممثل لكمبوديا. كان هناك متسولون عديدون يناشدون السياح من أجل مبالغ زهيدة، وكانت هناك في الداخل أشياء أخرى تذكر بالحرب التي احتدمت لعقود. رغم أن المتحف كان مليئاً بأشياءٍ للاقتناء وتماثيل لآلهةٍ هنديةٍ متنوعة (شيفا وفيشنو وبراهما)، لم يكن هناك زجاج على أيٍّ من النوافذ، فكان كل شيءٍ هكذا معرضاً للعوامل الجوية، إذ إن النوافذ قد أتلفت في الحرب قبل ربع قرن، ولم يكن هناك مالٌ لاستبدالها. وكان القليل من الأشياء المعروضة مثبَّتا، وعوضاً عن ذلك، كانت الأشياء ببساطةٍ موضوعةً على مساند. كان معظم التماثيل مكسوراً، وكانت ثقوب الرصاص تنتشر على الجدران المفتتة المكسوة بالجص. كان السقف مغطىً بعلامات الماء، وكانت البقع جاريةً على الجدران، وكانت الأرض مكسوَّة بالإسمنت فقط.

مع ذلك، كان الأدلاء يتحدّثون بفخرٍ في أصواتهم عن المتحف، والثقافة، وروح شعبهم. بحلول الوقت الذي غادرنا فيه، كنت وأخي مقهورين. فمن كل الأماكن التي كنا قد ذهبنا إليها حتى ذلك الوقت، كانت كمبوديا أكثر الأماكن غرابةً وغموضاً، لقد شعرنا أننا غريبان.

عند ذلك، تجولنا في القصر الملكي؛ وهو في الواقع سلسلة من عشرين بناءٍ ومعبدٍ تقريباً داخل مجمع أبنيةٍ مسورةٍ في حجم مجمع أبنيةٍ في المدينة. أحد الأبنية هو القصر نفسه حيث يعيش الملك، وبناء آخر هو قاعة الاستقبال، وهو بناء رائع ذو سقوفٍ عاليةٍ مطليةٍ وسجاداتٍ حمراء طويلةٍ وأعمدةٍ مرتفعة، حيث يتمّ إحضار أعيان البلاد عندما يريدون مقابلة رسمية مع الملك. في معبدٍ قريب، وما زلنا في أراضي القصر، رأينا تمثال بوذا الفضي العملاق، وعلى عكس كل القطع الفنية الثقافية، لم يكن قد دمّر في الحرب. كان يبدو أنه يحتلّ مكاناً مركزياً في قلوب الكمبوديين، وكان محاطاً بمئاتٍ من القرابين التي هي عبارة عن زهور صغيرة.

استغرقت محطتنا في بنوم بيه أقل من ثلاث ساعاتٍ، رغم أنها قد بدت أطول بكثير. ومع عبء الماضي الذي كان يثقل علينا، انطلقنا نحو أدغال أنغكر حيث كنا سنصل بالضبط بعد الغروب.

إن الطريق الرئيسي من مطار أنغكر يؤدي أيضاً إلى المعابد. كانت هناك فنادق ضخمة تشمخ

وسط ما كان في السابق أدغالاً. كانت فخامة بعض هذه المنشآت تسبب الدهشة (فهي تعتبر في أي بلدٍ في العالم فنادق خمس نجوم). كانت المباني المضيئة محاطةً بمناظر طبيعية مصممة بترف ومضاءة بأنوار خافتة. كانت أشجار النخيل الباسقة ونبات السرخس الوافر تحاذي طرق الدخول المتعرجة، وكانت الأزهار تنمو في كل مكان تستطيع العين رؤيته، وكانت بضعة فنادق تفتخر بغرف تكلّف أكثر مما يستطيع الكمبودي العادي أن يكسب في السنة. كان بعضها يحتوي على منتجعاتٍ صحيةٍ وتجميلية، وكانت كلها تحتوي على مطاعم راقية تتطلب ارتداء السترات الرسمية.

كل هذا، بينما كان الناس على الطريق خارجاً يركبون الدراجات الهوائية أو السكوتر.

تمّ إعلامنا في فندقنا أن نزهةً إلى أنغكر وات قد تمّ التخطيط لها عند شروق الشمس. آثر معظم الناس بمن فيهم ميكا عدم الذهاب. فكانت تلك المرة الأولى والوحيدة في الرحلة بأكملها التي لا أكون وميكا فيها معاً لرؤية أحد المناظر. بغضّ النظر عن بعض اللحظات هنا وهناك، كانت تلك المرة الأولى التي لم نكن فيها معاً منذ أسبوعين تقريباً.

سألني أحد أعضاء الرحلة في الطريق على متن الحافلة كيف كنا ننسجم معاً.

فقلت: "بشكلٍ جيد، فالسفر سهل مع ميكا".

"ألا يزعجك ذلك؟ أعني، أنك معه الوقت؟"

ففكرت بالأمر، مدركاً أخيراً كم كان الأمر يبدو غريباً.

قلت: "في الواقع، لا يزعجني ذلك. إذ إنه يبدو علينا دائماً أننا نريد فعل الشيء نفسه. وأعتقد أننا منسجمان وحسب".

فقال وهو يهزّ رأسه: "هذا مدهش. فأنتما أيها الشابان تنسجمان أكثر من معظمٍ الأزواج. فإذا راقبت عن كثب ستعرف أن بعض الأزواج قد بدأوا أصلاً يملّون من بعضهم البعض قليلاً".

كنت متشوقاً لرؤية أنغكر وات. كان البناء نفسه - وهو مربع الشكل ذو معبدٍ جبلي مرتفعٍ في الوسط، وثلاثة أسيجةٍ رباعيةٍ متحدة المركز، وجدرانٍ محيطةٍ طولها حوالى 275 ياردة تقريباً، وكلها محاطة بخندقٍ مائي ضخم - يتمّ الوصول إليه عبر معبرٍ طويل. اتجهنا نحو الجدران الخارجية، وخلفها تماماً، طلب منا الدليل التوقف. لم نستطع أن نرى شيئاً في الظلام على الإطلاق.

مع مرور الوقت، بدأت السماء خلف المعبد تتوهج باللون الأحمر، ثم انتشر ليصبح لوناً برتقالياً واضحاً، وأخيراً أصبحت السماء صفراء اللون. على خلفية السماء المتغيرة، تحدّد شكل المعبد بالظلال، وكانت الملامح غير مرئية. رغم ذلك، لم أستطع إبعاد نظري. فحتى من مسافة بعيدة، ومع أنني قرأت عنه، جعلني حجم أنغكر وات أتوقف. إذ إنه لو بني مؤخراً لكان من الممكن أن يعتبر ضخماً. فلا بدّ أنه، عندما تمّ بناؤه منذ ثمانمائة سنة، كان يتحدّى كل المفاهيم.

بقينا مدةً طويلةً بما يكفي لمشاهدة السماء تتحول من اللون الأصفر إلى اللون الأزرق، وعندها ركبنا الحافلة عائدين. وبينما كنا نقود، بدأ ريف أنغكر يتفجّر بالحياة. بدأت الطرقات تصبح مزدحمةً براكبي السكوتر، وهم ينطلقون بسرعةٍ ورشاقةٍ حول الحافلة التي تتحرك بتثاقل. لم يكن يبدو أن هناك قوانين للقيادة. فقد كان الناس يقودون على كلا الجانبين، ويشقون طريقهم داخل وخارج حركة السير، ويغيرون اتجاههم في اللحظة الأخيرة، ولكن بطريقةٍ ما كان الأمر ينجح.

كان راكبو السكوتر بطريقتهم الخاصة مؤثرين بقدر ما كانت أنغكر وات. علمنا أن السكوتر صنع معظمها في الصين. وكانت تكلف حوالى ستمائة دولار. وهي ليست أكبر من الدراجة النارية، النسخة الكمبودية من سيارة "شيفي سبيربان".

قال أحدهم: "هناك أربعة أشخاصٍ على تلك السكوتر". فتكوّم كل واحدٍ في الحافلة باتجاه النافذة لرؤيتها.

فصاح آخر: "هناك، هناك خمسة". فانتقلنا جميعاً إلى النوافذ على الجانب الآخر من الحافلة.

"أرى ستة".

"مستحيل!"

"في الخلف هناك، انظروا".

فنظرنا. ونظرت بدهشةٍ إلى منظر سكوتر عليها ستة أشخاص، وقد كانت تتحرّك ببطء، ولكنها رغم ذلك كانت تتحرك وتغير اتجاهها مثل كل السكوترات.

قال أحدهم أخيراً: "لن تصدقوا هذا. ألقوا نظرة أمامنا".

"ماذا؟"

فأشار قائلاً: "أعدّ على تلك السكوتر".

كان هناك رجل جالس في الوسط، ويبدو أن الآخرين كانوا أطفاله. فقد كانت فتاتان صغيرتان جالستين خلف الوالد، وكان ثلاثة أطفالٍ آخرين أمامه. وكان ابنه، الأصغر سناً بين المجموعة، جالساً على كتفيه. وهو طفل يبدو في الخامسة من عمره. كانوا جميعاً يرتدون الزيّ الموحّد. فكان يبدو من الواضح أن الأب كان يأخذ أطفاله إلى المدرسة.

بينما استمرّينا في طريقنا نحو الفندق، كان الجميع على متن الحافلة يبحثون بإخفاقٍ عن سكوتر تحمل ثمانية أشخاص. وكأن سبعة لم يكونوا كافيين في ذلك المحيط غير العادي.

بسبب الحرارة والرطوبة في كمبوديا، كان يومنا مقسوماً إلى جزئين. ففي الصباح، كنا سنزور المعابد والمناظر الأخرى - وهي: تا بروم وبايون وحديقة الفيل - وبعد الغداء، كنا سنقضي بضع ساعاتٍ في الفندق، وفي وقتٍ متأخر من العصر، كنا سنزور أنغكر وات.

كان تا بروم هو محطتنا الأولى. ورغم فخامة أنغكر وات، فقد كان معبدنا المفضل لزيارته. ولم يكن كبيراً، وكان معظمه متهدماً، ولكنّ نمو الأدغال هو ما أسرنا. فقد كانت جذور التين الخانق والقطن الحريري الضخمة المحتجبة في الظل تنسج حول المداخل وتزحف فوق الجدران، وكأن الجذور كانت تنسكب من الجذع. وكان يبدو وكأن الأدغال كانت تعمل على التهام المعبد كما ابتلعت في السابق كل المعابد الأخرى.

لم يكن بالإمكان إيقاف الجذور، ورغم أن الضخمة منها قد لفتت انتباهنا أولاً، فقد كشف فحصها عن كثبٍ أكثر عن الجذور الأكثر دقة التي تشق طريقها بين الكتل الحجرية. وفي نهاية المطاف، سوف تتفكك الكتل الحجرية. وخلال عقدين من الزمن، سيتمّ العثور على تلك الكتل الحجرية على الأرض مع أخرى لا حصر لها كانت مكومة حولنا.

كان المعبد، رغم كونه في حالةٍ مريعةٍ من العطب، نوعاً ما محافظاً على شكله الأصلي، وككل المعابد التي كنا سنراها، كان يحتوي على جدرانٍ مربعةٍ متحدة المركز (أنفاقٍ في الواقع) محيطةٍ بمعبد جبلي. وقد قمنا بشق طريقنا بشكلٍ متعرِّج عبر الآثار نحو المركز، وخلافاً للكثير من المواقع التي زرناها، حالما انعطفنا حول الزاوية، كان من السهل أن تبتعد البقية من مجموعتنا عن ناظرينا.

قال ميكا: "هذا رائع!"

"إنه مدهش، أليس كذلك؟"

"إنه يذكرني بالمغامر إنديانا جونز ومعبد دووم رايد في ديزني لاند".

فتذمرت قائلاً: "يا لك من أميركي شديد الأميركية".

"ألا تعتقد أنه يذكّر بهذا؟ أو أنه قد يكون موقع تصوير فيلم. وكأن أحداً ما قد تخيّل ما يبدو عليه معبد أثري ثم بناه. فهو يبدو حقيقياً فوق الحدّ ليكون حقيقياً".

"حقيقي فوق الحدّ ليكون حقيقياً".

فأومأ برأسه، وقال: "بالضبط، وكأن أحداً ما قد له".

بعد ذلك بأربعين دقيقة، كنا قد عدنا إلى الحافلة. كانت محطتنا التالية في بايون. وهناك كانت الأدغال قد شُذبت، فسرنا عبر الآثار. وخلافاً للحرارة في أستراليا، كانت الحرارة في أنغكر قد ازدادت حدّتها بسبب الرطوبة، وكان البعوض منتشراً، فاستهلكنا مقادير كبيرةً من مبيد الحشرات.

كان بايون غير جديرٍ بالملاحظة مقارنةً بتا بروم. كانت له نفس هيئة المعابد الأخرى، رغم أننا قد رأينا بالفعل الأمثلة الأولى للمنحوتات النافرة التي تشتهر بها المعابد. وقد استطعنا العثور في الحجر الرملي على صورٍ متنوعة، وكانت كل واحدةٍ منها تتبع بقصة.

كان من الصعب تتبّع القصص. فمن بين كل لغات البلاد التي زرناها، كانت اللغة الكمبودية هي الأكثر غرابة. إذ كانت الأصوات اللغوية مختلفة جداً بحيث إن الكلمات البسيطة تبدو غير مفهومة. هكذا، فكلما كان الدليل يتحدّث حتى بالإنكليزية، كان علينا أن نتخير من بين الكلمات الثقيلة والوقفات الطويلة بينما كان أدلاؤنا يتلعثمون بالكلمات. لم يكن الأمر صعباً بالنسبة لنا فقط لنفهم ما كانوا يقولونه، ولكنهم كانوا يعانون من صعوبةٍ مماثلةٍ في فهمنا.

سأل ميكا: "لماذا يدعونها منحوتاتٍ نافرة، بدلاً من أن يقولوا منحوتاتٍ وحسب؟"

فأجاب دليلنا بابتسامةٍ مجاملة وهو يتلعثم: "هذه... آ... هي.. آ.. منحوتات ".

"ولكن لماذا ؟"

قال وهو يشير إلى الجدار: "أترى؟ منحوتات ". وهو يلفظ الكلمة بحرص. " ".

قال ميكا وهو يعلم أنه لم يحصل على جواب شافٍ: "آه، شكراً على أية حال".

فانحنى الدليل قائلاً: "أنا على الرحب والسعة".

كانت الشمس فوق رؤوسنا مباشرةً، وكانت شديدة الحرارة عندما وصلنا أخيراً إلى حديقة الفيل. وقد قيل لنا إن الحكام قد اعتادوا أن يجلسوا على قمة الجدار - وهو بشكلٍ أساسي، جدار طويل وسميك بفيلةٍ منحوتةٍ عليه - لمشاهدة العروض في الساحة العامة أمامهم.

سأل ميكا: "أي نوعٍ من العروض؟"

"مثل... ال-... ال-..."

"مسرحية؟"

"كلا، ال-...."

فعرض ميكا قائلاً: "سيرك؟"

"نعم، السيرك. مع البهلوانات على ال-...." ولوّح الدليل بيده وهو يقلّد الكلمة التي يبحث عنها.

"الأرجوحة؟"

"نعم، الأرجوحة. وكانت هناك نساء... آ..." وتحرّك الدليل قليلاً وهو يهزّ وركيه إلى الجانب.

"راقصات؟"

"نعم، راقصات. و... آ... آ..."

فاقترح ميكا: "فيلة؟"

"كلا، لا توجد فيلة".

* * *

كانت استراحة الثلاث ساعاتٍ حالما وصلنا إلى الفندق موضع ترحيبنا. فقد قمت وميكا ببعض التمارين الرياضية، وتناولنا الطعام، وأخذنا قيلولة قبل أن نتوجّه إلى أنغكر وات. بحلول ذلك الوقت، كان قد قيل لنا مراراً وتكراراً أن الساعتين هناك لن تكونا كافيتين لنستمتع به بما يكفي.

علمنا، بطريقةٍ ما، أنهم كانوا على حق، وذلك ببساطةٍ بسبب حجمه ومداه. ورغم ذلك، ما لم تكن متمكناً من قصص الإله الهندوسي فيشنو، وكان لديك الصبر لتعرف كيف ترجمت تلك القصص إلى صور، فساعتان هما أكثر من كافيتين. كان أحد محاضري المكتب السياحي في الرحلة مسحوراً به بكل معنى الكلمة - وقد درس بتمعنٍ - المنحوتات النافرة في أنغكر وات. بعد أن توجهنا عبر المعبر إلى الجدران الرئيسية المحيطة بالمعبد، أصبح شديد الإثارة، وبينما كنا نحدق، ونلتقط الصور لأقسامٍ من المنحوتات - وعليَّ أن أعترف أنها مفصلة بشكلٍ مدهش - كان محاضرنا يتوقف كل بضعِ خطواتٍ ليشير إلى أقسامٍ متنوعةٍ من الجدار وهو يصفها بتفصيلٍ أكثر حتى، وصوته يضجّ بالحماس.

بصراحةٍ، لقد أربكنا وحسب.

فقد كان يقول: "الآن هنا حيث عبر فيشنو النهر. انظروا أين يقف. أترون المعبد ومقدمة الصورة".

كنا نحدّق باحثين عن المعبد ونجده ونحن نفكر: . ثم، لسوء الحظ، كان المحاضر يستمر.

"كما تعرفون على الأرجح، فإن المعبد خلفه يمثّل الكون الذي يتمركز في جبل ميرو - بكلمات أخرى، إنه نموذج الكون في عالمٍ صغير! وهذا كما هو كل شيءٍ في أنغكر وات، هو نفس التمثيل! وكل هذه المنحوتات النافرة تأتي من رامايانا والمهابهاراتا بالإضافة إلى البهاغافاد-جيتا والتي هي رائعة بكل معنى الكلمة، إذا فكّرتم بها. وعلاوةً على ذلك، فإذا تحرّكنا إلى الأمام ستلاحظون مشاهد من حياة سوريافارام الثاني نفسه الذي قرّر بشكلٍ واضح أن يجسّد نفسه مع راما وكريشنا وهما تجسيدا فيشنو. هكذا أثبت نفسه على أنه ديفاراجا. يمكّنكم أن تتخيّلوا وحسب ما الذي اعتقده جايافارمان الثاني حيال ذلك، وخاصة بعد هزيمة الشمس. أمامنا فقط سترون المنحوتة النافرة الشهيرة التي تصف التجدّد الكوني والذي يعرف أيضاً بمخيض بحر الحليب!"

في ذلك الوقت، كانت عينا ميكا قد اكتسبتا لمعاناً فارغاً مألوفاً.

"حليب؟"

"هذا هو ما قاله".

فاستمرّ ميكا بقوله: "ماذا يفترض بهذا أن يعني. ومَن هو راما؟ وما هو بحقّ السماء الديفاراجا؟"

"هل تريدني أن أسأل؟"

فقال بسرعة: "كلا، فربما إن لم يسأل أحد قد يتحرّك في نهاية المطاف". توقف ميكا للحظةٍ قبل أن يهزّ رأسه ويقول: "أعني، هل يعتقد حقاً أننا نعرف كل هذه الأمور عن شيفا؟"

"فيشنو، إنه يتحدّث عن الإله ".

فقال: "أيًّا كان. ما أعنيه هو أنني لا أعرف أي شيء عن هذا. ولن أتذكر أي شيء عن هذا. إنه كثير؛ أعني، إن ارتفاع الجدار عشرة أقدام، وهو يحيط من كل النواحي بالمعبد وطوله نصف ميل. وهو مدهش معمارياً. وأستطيع أن أفهم لماذا استغرق عقوداً لبنائه. ولكن ما لم تعش من أجل هذه الأشياء تبدو المنحوتات متشابهة".

فقلت: "منحوتات . ".

"أياً كان".

في تلك الأثناء كان محاضرنا لا يزال يستمر ويستمر بالحديث، وهو يصبح أكثر إثارة.

"لاحظوا خارج رؤوس الحجر الرملي الأربعة فوق الجدار المحيط. هل يمكنكم رؤيتها. إنكم تعتقدون أنها تمثل حراس الاتجاهات الأربعة أو ربما البودهيساتفا أفالوكيتيشفارا!"

عندما وصلنا إلى مركز أنغكر وات، وقفنا عند قاعدة المعبد الجبلي، وكان المحاضر في مرحلةٍ حيويةٍ جداً.

"إنه لأمر مثير للاهتمام أن تقارن الديانة البوذية لكلٍّ من ماهايانا وثريفادا. ولكن لأسبابٍ تاريخية، يمكنكم أن تتذكّروا أن الأرواحية كانت أيضاً منتشرة في أوائل إمبراطورية الخمير؛ على سبيل المثال، الإيمان بنيك تا. وربما أنكم لاحظتم الإله الأفعى ناغا قرب المدخل. هذا...".

فقاطع ميكا قائلاً: "أرجو المعذرة؟"

فتوقف المحاضر، وقال: "نعم؟"

فأشار ميكا إلى المعبد الجبلي قائلاً: "هل يمكننا أن نتسلّق هذا الشيء؟"

فقضينا الساعة الباقية ونحن نستكشف الآثار وحدنا، فتسلقنا الدرجات المنهارة المنحدرة، وتجولنا عبر الممرات الصخرية، وأخذنا الوضعيات لالتقاط الصور، وتفحصنا أنغكر وات من أعلى النقاط التي تمكّنا من الوصول إليها.

قال ميكا وهو ينزل من الطريق المعبّدة: "أرجو ألا يكون هناك اختبار في أيٍّ من هذا، إذ إنني سأخفق".

"وأنا كذلك".

فتوقف، ثم قال: "هل تدرك أننا غائبان منذ أسبوعين؟"

"لا يبدو الأمر كذلك".

"إنه نوعاً ما أمر حزين أن تفكر به. إذ كنت أحلم بالرحلة منذ أشهر، وقد سبق ووصلنا إلى منتصف الطريق. إن الأمر يمضي بسرعة".

فقلت: "إن الأحلام غريبة بهذه الطريقة. فأنت تريد شيئاً ما بشدةٍ وتحصل عليه نوعاً ما، وفجأةً يكون قد مضى. مثل سباقات العدو؛ فكل ذلك التمرين من أجل بضع دقائق في مضمار السباق. والسرّ

كما تعلمت هو أن تقدّر العملية حقّ قدرها".

"هل تتفلسف عليَّ؟"

فاعترفت قائلاً: "كلا، إنني أتحدّث وحسب لأسمع رأسي يثرثر".

فقال: "جيد، فقد حظيت بفلسفةٍ أكثر من كافيةٍ ليوم واحد".

ومشينا أبعد بقليل.

وسألت: "هل تفتقد كريستين؟"

فقال: "نعم، والأطفال أيضاً. ماذا عنك؟"

فأومأت برأسي قائلاً: "إنني أفتقدهم منذ غادرنا".

تزوّجت وكات في مانشستر بولاية نيوهمبشير، وهي مسقط رأس كاثي. كان عليها في الأشهر الستة السابقة أن تقوم بكل الإستعدادات عبر البلاد. فقد ذهبت إلى البيت مرتين فقط. فبدأت أفهم أن عروسي المستقبلية كانت فعالةً تماماً عندما كانت بحاجةٍ لذلك.

تزوجنا في 22 تموز عام 1989 في دار العبادة الذي كانت ترتاده وهي تكبر. وبينما كان والدها يقودها إلى الممشى لم أستطع أن أبعد نظري، إذ كانت عيناها تضيئان من تحت خمارها. كانت يداها ترتجفان قليلاً عندما أمسكتهما بيديّ. وبالكاد أتذكر المراسم، فاللحظة الوحيدة البارزة في ذهني هي عندما وضعت الخاتم في إصبعها. كان حفل الاستقبال أيضاً غير واضح. كنا منهكين عندما وصلنا إلى هاواي لقضاء شهر العسل. كان شهر العسل هديةً من بلي وبات ميلز اللذين أصبحا يحبان كاثي بقدر ما أحبها. بدأت ليزا، التي وجدت شخصاً جديداً في حياتها منذ وقتٍ طويل، تشير إليَّ مازحةً على أنني "الصديق السابق الذي لم يغب أبداً".

لأن المراسم وحفل الاستقبال قد أقيما في الجانب الآخر من البلاد فقد تمكن عدد قليل من أصدقائي من الحضور. مع ذلك، قرّرت أمي أن تقيم حفلةً في سكرامنتو على شرفنا. فزينت الحديقة الخلفية، وأعدت كعكة، ووضعت الشراب والطعام حتى توقّف جميع من عرفتهم منذ الطفولة لتهنئتنا. استمرّت الحفلة لساعات، وكانت من بعض النواحي أكثر متعةً من حفل الاستقبال الأصلي. فكنت قد عدت من شهر العسل في هاواي، وكنت أملك عقارين مؤجرين مع ميكا، وكنت قد أنهيت روايتي الثانية، ولو أنها لم تنشر، وكنت أشعر بالإثارة للعمل الجديد الذي كنت أبدأه، وكنت مغرماً بعمقٍ

بزوجتي الجديدة. فكانت تلك، كما زلت أعتقد، إحدى أفضل الأمسيات والصيفيات التي قضيتها في حياتي.

وإن كان ممكناً، فقد كانت أمي تشعر بالإثارة حتى أكثر مما كنا نفعل. وأثناء الأمسية، ذكرت أنها تفكر بالاستقالة من عملها في المستقبل القريب. إذ بما أننا في ذلك الوقت قد تخرجنا من الجامعة، وبما أن والدي قد أصبح يجني من المال أكثر مما كان يفعل على الإطلاق؛ لم يعد هناك سبب لتستمر بالتوجه إلى العيادة كل يوم. فقد عملت لمدةٍ طويلةٍ بما فيه الكفاية كما قالت. وكانت تريد أن تقضي وقتها وهي تستمتع بالعائلة وتركب الخيل مع والدي.

قالت، وعيناها تلمعان إثارة: "في الواقع، إننا ذاهبان لركوب الخيل مجدداً في عطلة نهاية الأسبوع القادم".

* * *

في ليلة يوم جمعة - بعد زواجنا بستة أسابيع - ذهبت وكاثي إلى حفلٍ شواءٍ في منزل والديّ. وكنا الأبناء الوحيدين هناك. إذ كان ميكا في كانكن، وكان سيصل عائداً إلى البيت يوم السبت، وكانت دانا في لوس أنجلوس مع صديقها. كانت أمسيةً هادئة، فطهونا العشاء وأكلنا، ثم استقرّينا في غرفة المعيشة لمشاهدة أحد الأفلام. عندما تأخّر الوقت، ذكرت أنني وكاثي يجب أن نتوجّه إلى البيت. فقبّلت أمي على وجنتها بينما كانت جالسةً على كرسيها.

قلت: "قد نمرّ غداً ليلاً".

فقالت: "حسناً، نحب أن تأتيا. قودا بأمان".

ولوّحت قائلاً: "إلى اللقاء، يا أمي".

بحلول الظهر، كان أبي وأمي يركبان الخيل على الممرات على طول نهر أميركان ريفر. وكمعظم أيام شهر آب في وادي سكرامنتو، كانت درجة الحرارة تتراوح بين التسعينات (فهرنهايت)، وكان الهواء الجاف ساكناً، وكانت غيوم قليلة فقط تنتشر في الأفق. وقد تشارك أبي وأمي غداء رحلةٍ في إحدى المناطق الظليلة التي تمتدّ على طول الشارع العريض المزدان بالأشجار. بعد برهةٍ قصيرة، كانا يركبان الخيل مجدداً. وبسبب الحرارة، لم يعدُ الحصانان ولم يهرولا، وعوضاً عن ذلك، ركبهما والداي في مسيرٍ بطيء، وهما يشاهدان المناظر الطبيعية بين فتراتٍ قصيرةٍ من الحديث.

لأن النهر قد شكّل انعطافاً، أصبح الممر ضيقاً، فقاد والدي حصانه نابليون إلى الأمام، وكانت والدتي وفرسها تشينوك خلفهما تماماً. وحسب قول والدي، لم يحدث أي شيءٍ غير اعتيادي فيما بعد، ولم يكن هناك ضجيج مفاجئ ولا أفاعي ولا شيء ليجفل أياً من الحصانين. كان الممر ذو الحصى مفروشاً بالصخور. وكما أشار، كانت هناك أوقات، يكون فيها منعطف بسيط. ولكن مجدداً، لم يكن هناك ما يسبِّب أية مشكلةٍ لأيٍّ من الحصانين في اجتيازه على الإطلاق. في الواقع، لقد كان الحصانان، وآلاف الأحصنة الأخرى على مرّ السنين، يمرّان فوق امتداد ذلك الممر عشرات المرات.

مع هذا، ففي ذلك اليوم، ولأي سببٍ كان، تعثرت تشينوك.

كنت في مطبخ شقتي عندما رنّ الهاتف. عندما أجبت، كان والدي يبدو سريع النفس متقطعه. بدأ قائلاً: "لقد تعرّضت أمّك لحادث. فقد وقعت عن الحصان، وأخذوها إلى مركز يوسي دايفز الطبي...".

"هل هي على ما يرام؟"

"لا أعرف، لا أعرف". كان صوته مرعوباً وآلياً في آنٍ معاً. وقال: "لقد كان عليَّ أن أحضر

الحصانين، فلم أتحدّث مع الطبيب. عليَّ الذهاب إلى هناك".

"إنني في الطريق إلى المركز الطبي".

قدت وكاثي السيارة إلى المستشفى مرعوبين، ونحن نحاول أن نقنع نفسينا أن الأمر لم يكن خطيراً. وحالما اندفعنا نحو غرفة الطوارئ، سألنا الممرضة عما كان يجري.

وبعد أن تفحّصت ملاحظاتها، وتوجهت عائدةً لتتحدّث مع أحدهم، انضمت إلينا مجدداً.

وقالت: "إن أمك تخضع لعملية جراحية. إذ يعتقدون أنها قد مزقت طحالها وقد تكون ذراعها مكسورة".

فتنهدت بارتياح. إذ كنت أعلم أن الإصابات خطيرة، ولكنها ليست بالضرورة مهددةً للحياة. وبعد لحظةٍ، أسرع مايك مارون عبر الباب، وهو صديق قديم من المدرسة الثانوية كان يركض معي في سباق اختراق الضاحية.

فسألت: "ماذا تفعل هنا؟"

"كنت أجري في الممر عندما رأيت مجموعةً من الناس، وميزت والدك بينهم. فساعدته على إعادة الحصانين، وأتيت إلى المستشفى مباشرة من هناك. ما الذي يحدث لأمك؟"

كان مايك ككل أصدقائي يحب أمي، وبدا خائفاً بقدر ما كنت خائفاً.

فقلت: "لا أعرف، يقولون إنها مزّقت طحالها، ولكن لم يخرج أحد ليتكلّم معي. أنت كنت هناك؟ هل كان الأمر خطيراً؟ كيف كانت حالها؟"

فقال: "لم تكن واعية، هذا هو كل ما أعرفه. فقد جاءت المروحية بعد بضع دقائق فقط من مجيئي".

بدا العالم يدور حولي في دوامةٍ بحركةٍ بطيئة.

"هل هناك أي شيءٍ تحتاجني أن أفعله؟ هل أستطيع الاتصال بأحد؟"

فقلت: "نعم". وأعطيته أرقام هواتف الأقارب من جهة كلٍّ من أبي وأمي. "أخبرهم بما حدث، وأخبرهم أن يتصلوا بالآخرين جميعاً".

فدوّن الأرقام بسرعة.

قلت: "واعثر على ميكا أيضاً. إذ يفترض به أن يكون على متن الطائرة عائداً من كانكن عصر هذا اليوم. إنه قادم إلى سان فرانسيسكو".

"أية خطوطٍ جوية؟"

"لا أدري".

"في أي وقتٍ سيأتي؟"

"لا أدري، افعل ما يمكنك فعله. واعثر على دانا أيضاً. إنها في لوس أنجلوس مع مايك لي".

فأومأ مايك برأسه، وقال: "حسناً، سأهتم بالأمر".

وصل أبي بعد دقائق، وكان شاحباً ومرتجفاً. وقلت له ما عرفته، فانفجر بالبكاء. فعانقته وهو يبكي. بعد ذلك بلحظة، كان يتمتم قائلاً: "إنني على ما يرام الآن، إنني على ما يرام". محاولاً إيقاف الدموع.

جلسنا، ومرت الدقائق دون كلمة، عشر دقائق، عشرون دقيقة. حاولت تصفح إحدى المجلات، ولكنني لم أستطع التركيز على الكلمات. جلست كاثي بجانبي ويدها على ساقي. ثم اقتربت أكثر من والدي. كان يجلس وينهض ويمشي ثم يجلس مجدداً. ثم كان ينهض ويمشي ثم يجلس مجدداً.

بحلول ذلك الوقت، كانت قد مرّت أربعون دقيقة. ولم يعرف أحد ما كان يجري.

كان ميكا قد نزل لتوّه من الطائرة عندما سمع اسمه يعلن عنه عبر جهاز مكبر الصوت في مطار سان فرانسيسكو الدولي، يطلبون منه الردّ على الهاتف المجاني.

قال له الصوت على الجهة الأخرى: "من فضلك، اذهب مباشرةً إلى مركز يوسي دايفز الطبي".

"ما الذي يجري؟"

"هذا هو كل ما تقوله الرسالة".

ففزع فجأة، وقفز إلى سيارة ليموزين - إذ لم تكن سيارات التاكسي متوفرة - لتقلّه إلى منزل أحد الأصدقاء حيث كان قد ترك سيارته طيلة الأسبوع.

كان على مسافة ساعتين من سكرامنتو.

بعد ساعة، خرج رجل لطيف الحديث يرتدي بذلةً للتحدُّث معنا.

"سيد سباركس؟"

فنهضنا جميعاً، متسائلين إن كان هو الطبيب، فقال إنه لم يكن كذلك.

قال: "أعمل في المستشفى كمستشار. أعرف أن هذا صعب، ولكن تعالوا معي من فضلكم".

فتبعناه إلى غرفة انتظار صغيرة. كنا العائلة الوحيدة في الغرفة، فبدت وكأنها قد خصّصت من أجلنا. كان الأمر ثقيل الوطأة، وشعرت بصدري ينقبض حتى قبل أن يقول الكلمات.

قال لأبي: "إن زوجتك تعاني من نزيفٍ دماغي". كان صوته لطيفاً ومكتئباً بتعاطفٍ واضح.

فتدفقت الدموع من عيني أبي مجدداً، وهمس والدي: "هل ستكون على ما يرام؟" وبدأ صوته يصبح أنعم، وكان باستطاعتي أن أسمع الرجاء الذي يحتويه. "من فضلك، أخبرني أنها ستكون بخير...".

قال الرجل: "إنني آسف جداً. ولكن لا يبدو الأمر جيداً".

بدأت الغرفة تدور، وكان كل ما استطعت فعله هو التحديق به.

وقلت بصوتٍ أجش: "إنها لن تموت، أليس كذلك؟"

فقال مجدداً: "إنني آسفٍ جداً". ومع أنه بقي معنا، لا أتذكّر أنه قال أي شيءٍ آخر. فكان كل ما أتذكره هو أنني وصلت فجأةً إلى كاثي وأبي وسحبتهما نحوي بقوة، وأنا أبكي كما لم أبكِ من قبل في حياتي.

* * *

تلقّت دانا المكالمة، وكانت على متن الطائرة التالية القادمة إلى سكرامنتو. اتصلت ببعض الأقارب، وأخبرتهم بما كان يجري. وواحداً تلو الآخر، كنت أسمعهم ينفجرون بالبكاء ويعدون أنهم سيكونون هناك في أسرع وقتٍ ممكن.

زحفت الدقائق وكأننا كنا نعيش في نسيج الزمن. وانهرنا نحن الثلاثة محاولين استعادة أنفسنا

مرة بعد مرة. ومرت ساعة قبل أن نتمكّن من رؤية أمي. عندما دخلنا إلى الغرفة لنراها، كان الأوكسجين يعطى لها، وكانت تتلقى السوائل. وكان باستطاعتي سماع آلة القلب تصدر صوت "بيب" بثبات.

وللحظةٍ واحدةٍ وحسب، بدت وكأنها نائمة. ورغم حقيقة أن عقلي كان يعرف ما كان يحدث، مع ذلك تمسكت بالأمل وأنا أصلي لتحدث معجزة.

في وقت لاحق من ذلك المساء، بدأ وجهها يتورم. إذ كانت السوائل ضروريةً لحماية أعضائها من التلف في حال قمنا بالتبرع بها. وشيئاً فشيئاً، كانت تبدو أقلّ شبهاً بأمي.

كان بعض الأقارب قد وصلوا، وكان الآخرون في طريقهم. فدخلوا جميعهم إلى الغرفة وخرجوا منها. ولكن لم يستطع أحد منهم الانتظار لمدةٍ أطول. إذ لم يكن أمراً محتملاً الوجود مع أمي لأنها لم تكن هي - فقد كانت أمي دائماً ممتلئة بالحياة - ولكن بدا من الخطأ أن يقفوا في الممر. فكان كل واحدٍ منا يتنقل إلى الأمام والوراء محاولاً أن يفهم أي الخيارات أقل فظاعة.

وصل المزيد من الأقارب، وبدأ الممر يحتشد بالأصدقاء أيضاً. كان الناس ينظرون إلى بعضهم البعض طلباً للدعم. ولم أكن أريد أن أصدق ما يجري، ولم يرد أحد أن يصدقه. لم تغادر كاثي جانبي، وكانت ممسكة بيدي طوال هذا كله، لكنني كنت أشعر بنفسي باستمرار أشد نحو أمي.

عندما لم يكن هناك أحد في الغرفة، دخلت وأغلقت الباب خلفي. وفجأةً، تدفقت الدموع من عيني. فمددتُ يدي إلى يدها، وشعرت بالدفء الذي لطالما شعرت به، وقبّلت ظهر يدها. كان صوتي مرهقاً. ورغم أنني قد سبق وبكيت معظم فترة العصر، فإنني لم أستطع التوقف ببساطة عن ذلك عندما كنت معها. فرغم التورم، كانت تبدو جميلة. وكنت أريد - من كل قلبي وروحي وأكثر من أي شيءٍ أردته - أن تقوم بمجرد فتح عينيها.

همستُ عبر دموعي: "من فضلك، يا أمي، من فضلك، إذا كنت ستتخطين هذا الأمر فعليك أن تفعلي هذا قريباً، اتفقنا؟ إن الوقت ينفد منك. من فضلك، حاولي. حسناً، شدّي على يدي وحسب، فنحن كلنا بحاجةٍ لك...".

أخفضتُ رأسي إلى صدرها، وأنا أبكي بشدة، وأشعر أن شيئاً داخلي قد بدأ يموت أيضاً.

وصل ميكا، وحالما رأيته انفجرتُ بالبكاء بين ذراعيه، ووصلت دانا بعد ميكا بساعة، وكانت بحاجةٍ للمساعدة وهي تتحرّك في الممر باتجاهنا. كانت تنتحب، فقد كانت دموعها دموع شخص لم يخسر أماً فقط بل صديقة مفضلة أيضاً. بمرور الوقت، قدتها وأخي إلى الغرفة. لكننا حذرناها بشأن التورم. ولكن أختي انهارت مرةً أخرى حالما رأت كم أصبح الأمر سيئاً. إذ كانت أمي تبدو غير حقيقيةٍ وغريبة في أعيننا.

همست: "إنها لا تبدو مثل أمي".

فأمسك ميكا بها بقوة، وهمس: "انظري إلى يديها، يا دانا. انظري إلى اليدين وحسب. فهما لم تتغيرا. ما زال يمكنك رؤية أمنا هناك".

فبكت قائلةً: "آه، يا أمي. آه، يا أمي. أرجوك عودي".

لكنها لم تستطع الردّ على توسّلاتنا. إذ إن أمي التي ضحّت بالكثير من أجلنا، والتي أحبت أطفالها أكثر مما تستطيع أي أمٍّ أخرى، والتي كانت أعضاؤها ستوهب لإنقاذ حياة ثلاثة أشخاص، توفّيت في الرابع من أيلول عام 1989.

كانت في السابعة والأربعين من عمرها.

الفصل الثالث عشر

مدينة بنوم بيه في كمبوديا
6 شباط

بعد يومين قضيناهما في أنغكر، ركبنا الطائرة عائدين إلى بنوم بيه، هذه المرة من أجل رحلةٍ في متحف الهولوكوست ونزهةٍ إلى كيلينغ فيلدز.

يقع المتحف في مركز بنوم بيه التي تمّ الاستيلاء عليها من قبل الخمير الحمر في العام 1975. كان بول بوت قائد الخمير الحمر يأمل في إنشاء دولةٍ شيوعية مثالية، فقام بإخلاء المدينة بكاملها، وأجبر مليون شخص على الذهاب إلى الريف. وباستثناء جنود الخمير الحمر، الذين كان معدل أعمارهم اثني عشر عاماً، أصبحت بنوم بيه مدينة أشباحٍ إلى حدٍّ كبير.

مع رحيل القوات الأميركية من فييتنام وعدم رغبة أي دولة بالتدخل، بدأ بول بوت حكمه الدموي. كان عمله الأول هو دعوة كل الجماهير المثقفة لتعود إلى المدينة حيث قام بإعدامهم بشكلٍ فوري. أصبح التعذيب أسلوب حياة، والموت للآلاف. بمرور الوقت، ومن أجل توفير كلفة طلقات الرصاص، كانت معظم عمليات الإعدام تنفّذ عن طريق ضرب الضحية على مؤخرة الرأس بواسطة أعمدة الخيزران الثخينة. على مدى السنوات القليلة التالية، قتل أكثر من مليون شخص إما عن طريق الأذى المفروض أو عمليات الإعدام في المكان الذي يعرف الآن باسم كيلينغ فيلدز (حقول القتل).

في رحلتنا بالطائرة، كنت وميكا نتوقع وصولنا بشيءٍ من التردد. إذ رغم أننا كنا نريد رؤية كلٍّ من المتحف وكيلينغ فيلدز، فقد كان شعورنا بالإثارة ممزوجاً بالخوف. فخلافاً للكثير من المواقع، لم يكن هذا جزءاً من التاريخ القديم، بل كان تاريخاً حديثاً وموطناً لأحداثٍ يريد الناس نسيانها رغم معرفتهم أنه لا ينبغي عليهم ذلك أبداً.

لم يكن متحف الهولكوست يبدو من الخارج جديراً بالملاحظة. فقد كان بناءً من طابقين بشرفات مطلّة، وكان مبنياً خارج الطريق العام ويشبه المدرسة الثانوية التي كانها أصلاً. لكن وراء مظهره الحميد كان ذلك السلك الشائك الشرير الذي يحيط به، فقد كان ذلك هو المكان الذي كان بول بوت يعذّب فيه ضحاياه.

علمنا أن دليلنا كان يرتاد المدرسة هناك. فكان الأمر يشعر بالإرباك وكأنه غير حقيقي تقريباً عندما أشار إلى صفه السابق قبل أن يتحرّك بنا إلى المعروضات.

كانت هناك سلسلة من الأمور المرعبة: كإحدى الغرف حيث كانوا يستخدمون الكهرباء لتعذيب الضحايا، والغرف الأخرى التي كانت تبرز أجهزةً مخيفةً بشكل مماثل. لم تتبدل الغرف منذ استعادة بنوم بيه، فقد كانت بقع الدم على الأرضيات والجدران ما تزال مرئية.

كان معظم ما رأيناه ذلك اليوم بعيداً عن التصديق، فحقيقة أن معظم الخمير الحمر كانوا أطفالاً كانت تقريباً أكثر رعباً لتفكر بها. لقد قيل لنا إن جنود الخمير الحمر كانوا يقتلون ضحاياهم بدون ندم وبفعاليةٍ عملية. أطفال يقتلون الأمهات والآباء والأطفال الآخرين بضربهم على مؤخرة رؤوسهم. كان ابني الأكبر في مثل سن الجنود تقريباً، الأمر الذي جعلني أشعر بالاشمئزاز.

كانت على الجدران صور للضحايا، وكانت بعض الصور تظهر سجناءً وهم يعذّبون، وأخرى تظهر صور الجثث المستخرجة من الأرض في كيلينغ فيلدز. في كل زاويةٍ من الغرفة الرئيسية، كان هناك معبدان صغيران يحويان جماجم الضحايا التي اكتشفت في المخيم بعد فرار الحراس. كانت هناك على الجدار لوحة لصبي صغير في زيّ الجنود يضرب ويقتل أحد الضحايا في كيلينغ فيلدز. كان الفنان، كما علمنا، قد فقد عائلته هناك.

لم يستطع أحد في الرحلة أن يفكر بأي شيء يقوله. عوضاً عن ذلك، تنقلنا من منظرٍ إلى منظر ونحن نهزّ رؤوسنا ونتمتم بصوتٍ يكاد لا يسمع: فظيع، شرير، محزن، مثير للاشمئزاز.

رغب أكثر من شخص من أفراد الرحلة بالمغادرة، فقد كانت حدة الأمر ساحقة.

سألت الحارس أخيراً: "هل فقدت أحداً من عائلتك؟"

فعندما سئل تكلّم بشكلٍ ثابت وكأنه كان قد سئل السؤال ألف مرة، وكان باستطاعته أن يجيب بروتين. في نفس الوقت، لم يستطع إخفاء نوعٍ مما بدا تقريباً عدم تصديقٍ مذهول في كلماته.

"نعم، لقد فقدتهم جميعاً تقريباً، زوجتي وأبي وأمي وجديّ وجميع عماتي وأعمامي".

"هل كان لديك أي أخوة؟"

فقال: "نعم، أخ أصغر مني سناً".

"هل ما يزال حياً؟"

فقال: "لا أدري. إذ لم أرَه منذ الحرب، فقد كان عضواً في الخمير الحمر".

* * *

سافرنا إلى ضواحي بنوم بيه واستدرنا نحو كيلنغ فيلدز. على كلٍّ من جانبي الطريق الترابي، كانت هناك منازل متهدّمة، وكان هناك في منتصف الطريق مصنع ملابس، وكانت عشرات النساء مجتمعاتٍ في الخارج وجالساتٍ على التراب وهن يتناولن الغداء أثناء مرورنا.

كانت كيلنغ فيلدز، التي يستحيل تمييزها ما لم تكن تعرف الموقع، تبدو حقلاً تنتشر فيه الخنادق، وأصغر بشكلٍ ملحوظٍ من بقية الريف الذي مررنا به. فكانت أصغر بكثيرٍ مما تخيّلتها ستكون؛ ربما مائة ياردة من كل جانب. في المركز كان هناك معبد تذكاري لتبجيل القتلى وهو السمة الوحيدة التي يمكن تمييزها.

طوال الساعة التالية، تمّ إرشادنا من موقعٍ إلى آخر. هنا المكان حيث اكتشفت مائة ضحيةٍ، وفي موقعٍ آخر، عثر على مائتي ضحية، وهناك على أربعمائة. في موقعٍ آخر، علمنا أن الهياكل العظمية التي استخرجت، قد تمّ دفنها بدون رؤوسها، ولذلك كان من المستحيل أن يعرف عدد الذين تمّ استخراجهم. وفي هذا الحقل بالذات، علمنا أنّ الآلاف قد ماتوا. كان من المستحيل معرفة الأرقام

الدقيقة.

قمت وميكا بمجرد التجوال ونحن نشعر بالحزن والاشمئزاز. أُرشدنا في نهاية المطاف إلى المعبد التذكاري، فدخلنا إليه.

كان المعبد الأبيض اللون عبارةً عن كتلة حجرية مستطيلة تقف على حافتها بارتفاع 40 قدم وعرض عشرة أقدام. لم نكن نعرف ما نتوقّع، ولكن ما وجدناه تركنا مصعوقين. ففي أعلى الجدار في قمة المعبد، كانت هناك رفوف ضمن زجاج تتكدّس فيها آلاف وآلاف الجماجم.

وفي طريق عودتنا إلى الحافلة لخّص ميكا مشاعري الخاصة بثلاث كلمات:

"كان هذا جحيماً".

في أغرب تناقض في الرحلة بأكملها، وهو تناقض جعلني أشعر بفقدان التوازن لبقية اليوم. فقد ذهبنا من كيلينغ فيلدز مباشرةً إلى السوق الروسية لبضع ساعاتٍ من التسوق التافه.

كالكثير غيرها من الدول الآسيوية، أتقنت كمبوديا فن القرصنة. كانت السوق الروسية بناءً يحتشد بمئات الباعة وهم يبيعون كل شيءٍ من أقراص الدي □ي دي المنسوخة إلى الملابس المقلّدة. كانت أقراص الدي □ي دي تكلّف ثلاثة دولارات، وكانت سراويل الجينز التي يفترض بها أن تكون من ماركة غاب تباع بنصف هذا السعر.

كانت السوق مزدحمة، فقد كان يبدو أن كل سائح يزور البلاد قد سمع عن المكان وقرّر الزيارة في نفس الوقت. رغم حقيقة أن معظم مجموعتنا السَياحية كانوا ميسورين مالياً بحيث يستطيعون تحمّل دفع ثمن البضائع الحقيقية في موطنهم، فقد غادر جميعهم تقريباً السوق ومعهم حقائب ملأى بالبضائع الرخيصة.

في ليلتنا الأخيرة في بنوم بيه، لم تكن هناك حفلة كوكتيل. لذا فقد شجّعنا على الحجز في أحد مطاعم الفندق، بما أن فندقنا قد تفاخر ببعض أفضل الطعام في كمبوديا. بشكلٍ طبيعي، نسيت وميكا أن نحجز، وانتهى بنا الأمر بتناول الطعام في أحد المطاعم الشبابية في الفندق. كان فارغاً تقريباً، فأنهينا وجبتنا في نصف ساعة.

رغم أن أملنا قد خاب في البداية، فقد انتهى بنا الأمر راضيين عن وجبتنا. فكما أرادت مشيئة القدر، حصل خطأ في كل شيءٍ في المطابخ تلك الليلة. فانتهى الأمر بكل من حجز أن اضطرّ للانتظار لساعاتٍ من أجل وجبته. إذ إن الأفران قد تعطلت، ولم يحضر الطهاة، وخرجت الوجبات بشكل خاطئ، فكان قانون الفوضى ساري المفعول تماماً. فاستغرقت المقبلات ساعة ونصف لتصل إلى الطاولة، وتبعها الطبق الرئيسي بعد ذلك بساعتين. ومع أن ذلك قد لا يزعج الناس في بعض الظروف، إلا أننا كنا على الطريق لثلاثة عشر يوماً. وقد كان الناس متعبين، وكان علينا النهوض باكراً لنستقل رحلتنا إلى جايبور في صباح اليوم التالي. في ليلةٍ كان كل واحد يتطلّع فيها للحصول على ثماني ساعات من النوم - كما فعلتُ وميكا - حصلت الأغلبية على أقل من خمس ساعات.

* * *

في غرفتنا، كنت ومكيا نشاهد برنامج صائد التماسيح مجدداً. فبالإضافة لبرنامج على محطة سي أن أن، كان ذلك البرنامج الوحيد الناطق باللغة الإنكليزية الذي كان باستطاعتنا العثور عليه. كلما كنا نشغّل التلفزيون - مهما كانت البلاد التي نكون فيها - يكون العرض دائماً صائد التماسيح. بوصولنا إلى كمبوديا، أصبح ذلك نكتة دائمة. فبحسب اعتقادنا، كان ذلك أكثر البرامج مشاهدةً في العالم.

كان ستيف إروين، المضيف الأسترالي الدائم الحماس، يقول: "أليست هذه الأفعى جميييييييييلة.

انظروا إلى الألوان. آه، إنها رائعة، أليس كذلك؟ هذه الجميلة الصغيرة خطرة، فعضة واحدة تستطيع أن تقتل عشرة رجال".

فعلق ميكا قائلاً: "هذا الرجل مجنون".

فقلت: "إنه دائماً مجنون، وأطفالي يحبّون مشاهدته".

ظلّ ميكا هادئاً لوقتٍ طويل فاعتقدت أنه قد بدأ يغفو. ومع ذلك، فعندما ألقيت عليه نظرةً خاطفة رأيت أنه كان يحدق في السقف.

فقلت: "ما الذي تفكر به؟"

مرّ وقت طويل قبل أن يجيب قائلاً: "ما رأيناه اليوم في وقتٍ مبكرٍ هذا الصباح، المتحف، وكيلينغ فيلدز".

"كان أمراً فظيعاً، أليس كذلك؟"

فأومأ برأسه قائلاً: "نعم". وعندما تحدّث مجدداً كان صوته منخفضاً. "ذلك وحسب جعلني أشعر بالحزن، الحزن على الناس هنا، والحزن على العالم، والحزن على كل شيء، والفراغ أيضاً. فقد كان كل ذلك لا هدف له، فأشياء كهذه يجب ألا تحدث". وتردد، ثم قال: "لقد ذكّرني ذلك بكيفية شعوري بعد موت والدتي".

فألقيت نظرةً خاطفة عليه دون أن أكون متفاجئاً كلياً بتعليقه، فكلما يكون أي واحدٍ منا حزيناً كانت محادثتنا دائماً تعود إلى الحديث عن موضوع عائلتنا.

سأل: "هل تدرك أن الجميع تقريباً في هذه الرحلة هم أكبر سناً مما كانت عليه عندما توفيت؟ لا أصدق أن ثلاث عشرة سنة قد مرّت. لا يبدو الأمر كذلك".

فوافقته قائلاً: "كلا، إنه لا يبدو كذلك".

"هل تدرك أنه خلال أقل من عشر سنوات في مثل سن والدتي عندما توفيت؟ ستكون ابنتي بيتون في الحادية عشرة في ذلك الوقت".

لم أقل شيئاً. وأخذ ميكا نفساً عميقاً قبل أن يتابع قائلاً:

"إنه أمر غريب، أعني، عندما أفكّر بأمي، وكأنّ الأمر أنها لم تتقدّم في السن. أعني، في ذهني. وعندما أفكر فيها أتصورها دائماً بالطريقة التي بدت عليها آخر مرة رأيتها. ولا يمكنني حتى أن أتخيّل كيف كانت لتبدو الآن..." وانخفض صوته. وعندما بدأ يتحدّث مجدداً كان صوته أكثر هدوءاً، فقال: "أتعلم ما الذي أندم عليه؟"

فنظرت إليه منتظراً.

"ضياع فرصة توديعها عليَّ. فقد استطعت وكاثي القيام بذلك. إذ عندما غادرت إلى كانكن، كنت متأخراً ولم أفكر حتى بالاتصال بها. في المرة التالية التي رأيتها فيها لم تعد تبدو مثل أمي، كنا نتحدّث عن التبرع بأعضائها. فكان الأمر وحسب... غير حقيقي. إن الأمر يحطم قلبي فكلما أفكّر أنها بعد أن ضحّت بالكثير من أجلنا لم تتح لها الفرصة أبداً لترى أو تضمّ أحفادها. إنها لم تكتشف أبداً أنك أصبحت مؤلفاً، ولم تلتقِ أبداً بكريستين أو الأطفال. لقد كانت أمي لتكون رائعة كجدة...".

انخفض صوته، وكانت نظرته غير مركّزة.

فقلت بهدوء: "وأنا أيضاً أفتقدها".

كانت الأشهر التي تلت جنازة والدتي خطواتٍ مترددة بحثاً عن نوعٍ ما من الحالة السوية. لم يكن أحد في العائلة يبدو أنه يعرف كيف تكون ردة فعله أو ماذا يفعل. حاولَت وميكا ودانا أن ندعم بعضنا البعض بالإضافة إلى والدي. إذ بدا أنه كلما بدأ أحد منا بالبكاء كان الآخرون يتماشون معه. هكذا، توصل كل واحدٍ منا إلى النتيجة المستقلة أنه لا أحد ينبغي أن يبكي بعدها. فلم نكن نفعل ذلك، ما لم نكن لوحدنا.

لقد رحلت أمنا. مع ذلك، فبشكلٍ غريب، كانت هناك أوقات تبدو وكأنها لم ترحل. فقد كان كل شيءٍ في البيت يحمل بصمة أمي، كموقع البهارات في الخزانة، وموضع الصور على الرفوف، ولون الجدران، وقميص نومها المثني على الكرسي في غرفة نومها. في كل مكان كنا ننظر، كان هناك شيء يذكّرنا بها. كانت هناك لحظات عندما أكون واقفاً في المطبخ، أشعر فجأة وكأن أمي تقف ورائي. في أوقاتٍ كتلك، كنت أصلي ألا أكون أتخيّل ذلك. كنت أبحث عن علامات - ربما حركة من زاوية عيني أو أغصان الأشجار تتمايل في النسيم - فكنت أتألم لأجل شيء يجعلني أعرف أن روحها ما زالت معنا. لكن لم يكن هناك أي شيء.

رغم ذلك، فإذا كان المنزل يذكّرنا باستمرارٍ بأمي، فقد بدا أيضاً أنه يجعلنا نلاحظ كم أصبح يشعرنا بالفراغ. إذ لم تكن هناك طاقة في المنزل ولا حيوية، ولم يعد صوت الضحك يتردّد بين الجدران. كنا أحياناً نتساءل فيما إذا كان ينبغي علينا إعادة ترتيب الأثاث أو أن نزيل العلامات الأكثر وضوحاً الدالة على حضور والدتي، كحقيبتها على سبيل المثال. كانت تضعها لسنواتٍ في السلة قرب الباب الأمامي. بعد أشهرٍ من وفاتها، لم يستجمع أحد الإرادة لوضعها في الخزانة أو حتى فتحها لرؤية ما تركته. فكنا نعلم ما كنا سنجده: صور للعائلة، ورسائل من أمها، وأحمر شفاهها، وأشياء شخصية. كانت تلك الأشياء شخصية جداً وكثيرة... بحيث إننا لم نستطع لمسها خوفاً من خيانة ذكراها نوعاً ما. لم نكن نريد نسيانها، فكانت تلك الأشياء، بطريقة ما، هي الوحيدة التي تركناها. فكما كان يبدو، كانت الحقيبة هي توسلنا الصامت لعودتها.

في تلك السنة، لم نحتفل بمناسبة 25 كانون الأول في المنزل، فكانت تلك المرة الأولى في حياتنا التي نقضي فيها العطلة مع أقارب آخرين. رغم أن الرفقة كانت مواسية، لم يستطع أحد منا أن يتخلّص من شعور الفراغ في قلبه. فقد رحلت أمي، ولن تكون مناسبة 25 كانون الأول في البيت مجدداً كما كانت من قبل.

استقرّيت وكات في السنة الأولى لزواجنا وكنا في نفس الوقت نبذل ما في وسعنا للعناية بأبي. فكنا نخصِّص يوم الخميس لأخذ والدي إلى السينما أو العشاء.

قرّر ميكا ودانا أن يستأجرا شقةً معاً. كانت على بعد بضعة أميالٍ فقط عن المنزل. اعتقدا مثلي ومثل كات أنها ستكون طريقة جيدة لمراقبته بعناية. فإذا كانت الوفاة قاسية علينا نحن الأولاد، فقد كانت أكثر قسوةً بكثيرٍ على والدي، ورغم أنه لا يمكنني أن أدّعي أنني أفهم علاقتهما، إلا أن والدي ووالدتي قد قضيا سبعاً وعشرين سنة معاً، وقد تبدل عالمه فجأةً وكلياً في ذلك الوقت بما أنها قد رحلت.

كان يبدو عليه أنه يعيش بالغريزة وحدها. فقد بدأ بعد الجنازة يرتدي اللون الأسود، والأسود فقط. في البداية، اعتقدنا أنها مجرد مرحلة. ولكن مع مرور الأشهر، بدأنا ندرك كم كان ضائعاً بدونها. فقد كان يعتمد على أمي كما كنا نفعل نحن. ولأنهما كانا قد تزوجا في سنٍ مبكر جداً، فلم تكن لدى والدي خبرة في البقاء وحيداً أو حتى كيف يكون إنساناً راشداً بدون وجودها إلى جانبه. لقد خسر والدي صديقته الحميمة، وحبيبته، والمؤتمنة على أسراره، وزوجته. لكن إن لم يكن ذلك قاسياً بما يكفي، فقد خسر أيضاً الحياة الوحيدة التي عرف كيف يعيشها. فكان عليه أن يتعلم كيف يطهو وكيف ينظف المنزل، وكان عليه القيام بتلك الأمور بمفرده. لقد خسر جزءاً جيداً من دخل العائلة،

وكانٍ عليه أن يتعلم كيف يضع ميزانية، وكان عليه أن يتعلم كيف يقيم علاقة مع أولاده الذين نشأوا غالباً على يد زوجته. لقد كنا نحب أبانا وكان يحبنا، ولكنّ الحقيقة كانت أنه كان يبدو عليه أنه يعرف القليل عنا كما كنا نعرف عنه. فكان كل منا بطريقته يقوم بما في وسعه لملء الفراغ المتروك في حياته. فأصبحنا ببطءٍ واحداً تلو الآخر بدائل لكل الأشياء التي كانتها أمي بالنسبة إليه.

فأصبح ميكا المؤتمن على أسراره، وكان هو الوحيد الذي كان والدي يتحدّث إليه فعلاً. إذ لطالما كان والدي يعجب بميكا بنفس الطريقة التي كنت أعجب فيها به. لم يزدد ذلك الشعور إلا قوة بعد وفاة والدتي. فكان ميكا على ما أعتقد يجسد الكثير من الأشياء التي لطالما أراد والدي أن يكونها، فقد كان وسيماً، وجذاباً، وواثقاً من نفسه ويتمتّع بشعبية. بطريقةٍ غريبة، أعتقد أنه بدأ يسعى إلى استحسان أخي. فكان بالكاد يقوم بأي أفعال بدون أن يأخذ رأي ميكا. كان يستمع إلى مغامرات ميكا الأخيرة، وبريق الفخر في عينيه. أصبحت كات صديقته، إذ كان مولعاً بزوجتي منذ التقيا للمرة الأولى، وكلما كنا نمر به كانا يقضيان الوقت معاً، فكانا يشربان الشراب الحلو ويطهوان معاً، وكانا يمزحان ويضحكان. في الأوقات المحزنة، كان والدي يتوجّه إلى كات عندما كان يحتاج كتفاً يبكي عليه. كانت كات تستجيب دائماً بقول أو فعل الشيء الذي يحتاج إليه بالضبط. ألقى أبي نفسه أيضاً في العناية بأختي. فكان يساعدها بدفع فواتيرها، واشترى لها سيارة، وكان يعتني بتأمينها الصحي، وفي نهاية المطاف، كان الاثنان يعتنيان بالجياد معاً. فكما كان يبدو، لم يكن أبي يفعل فقط الأمور التي كانت أمي لتفعلها كوالدة، ولكنه بالعناية بدانا كان يجد القوة ليستمر. أنا أيضاً، بدأت ألعب دوراً كانت أمي تلعبه في السابق، ولكنه كان الدور الذي لم أكن أتمناه لأحد. فقد كنت مع برنامجي الكثيف في المدرسة الثانوية والانتقال إلى الجامعة وبدء حياةٍ جديدة مع كاثي، قد أصبحت الأقل اعتماداً على والديّ، وقد كنت كذلك منذ عمر السادسة عشر. وربما أدرك والدي ذلك أيضاً، لأنه مع مرور الأسابيع والأشهر، أصبحت المتنفس لغضب والدي وألمه.

مع مرور الوقت، بدأ والدي يتصرّف وكأنه يحتقرني، فإذا سألته إن كان بحاجةٍ لمساعدة لإعداد ميزانيته كان يتّهمني بمحاولة سرقته، وإذا نظّفت المنزل اتّهمني بأنني أعتقد أنه ليس عاجزاً وحسب إنما قذر أيضاً، وإذا جعلت كلبتنا الصغيرة تنام في المنزل بينما أعمل - وهو شيء كنت أفعله وكات منذ أحضرناها - اتّهمني باستغلاله. عندما كنت وكات نزوره، كانت هناك أمسيات كثيرة كان يرفض فيها التحدُّث معي على الإطلاق. عوضاً عن ذلك، كان يمزح ويضحك مع زوجتي في المطبخ بينما أجلس وحيداً في غرفة المعيشة. كان ذلك الأمر الضخم لا يزداد إلا سوءاً بمرور الوقت.

كنت أعلم أنه لم يكن يكرهني، وأنه كان يتألم من الداخل ويكابد حتى أكثر مما كنا نفعل نحن الأولاد. كنت أعلم أنه كان على غضبه أن يذهب باتجاهٍ ما، وأنه في أعماقه كان يحبني رغم الكلمات التي كان يقولها والطريقة التي كان قد بدأ يعاملني بها. رغم ذلك، حتى إذا كنت أتفهم ما يجري، فقد كنت ألتمس العزاء بين ذراعي كاثي متسائلاً بصوتٍ مرتفع ما الذي فعلته لأستحق هذا العداء منه.

كنت وأخي نفعل ما في وسعنا لتستمر علاقتنا مع بعضنا البعض وحياتنا المستقلة. كان ميكا يتحرك نحو الأمام بثبات في مهنته العقارية. كان عملي الصغير - وقد كنت أصنع أربطةً تجبيرية للمعصم بشكلٍ رئيسي لمرض العصب الرسغي - يبدأ ببطء. إذ كنت كمعظم الشباب أعتقد أنني أعرف أكثر بكثير مما كنت أعرف فعلاً عن إدارة أحد المشاريع، وسرعان ما تراكمت عليَّ ديون بطاقة الائتمان والتي تجاوزت بشكلٍ كبيرٍ دخلي ودخل كات السنويين مجتمعين. رغم حقيقة أنني كنت أعمل ليلاً نهاراً لأشهر، لم يكن أمراً أكيداً إن كنت وكات سنفي بالتزاماتنا. تساءلنا إن كنا سنستطيع البقاء مكتفيين ذاتياً. لقد كان العام الأول من زواجنا عام الاختبارات لكل ناحية من نواحي حياتنا، فكنت وكات محظوظين أن الأمر قد جعلنا فقط نصبح أكثر قرباً من بعضنا البعض.

في اللحظات الأكثر صعوبة، عندما كنت أتساءل كيف سأتمكّن من تسديد الإيجار أو توفير الطعام للبيت، كنت أتوجه إلى ميكا. فكان يستضيفني لتناول البيتزا والشراب وكنا نتحدّث. في النهاية، قرّرنا

بيع المنزلين اللذين نقوم بتأجيرهما واللذين اشتريناهما في وقتٍ سابق. فكان الربح من كليهما كافياً لي ولكات للخروج من الدين، وبدأت تدريجياً أتخطّى المرحلة الحرجة في جعل شركتي الصغيرة مربحة. مع ذلك، كان ما يزال عليَّ العمل كنادل، وكان على زوجتي العمل أيضاً لنتمكّن من مجرد عيش الكفاف.

في أثناء ذلك، استمر ميكا بجعل الحياة تبدو سهلة. إذ كان يواعد ويستمتع في العطل الأسبوعية ويتفوّق في عمله. عندما كنت وكاثي نخرج في الأمسيات معه كنا نتساءل عن من سيحضر معه هذه المرة. كانت معظم النساء بالكاد يعرفنه، ورغم ذلك، كن يبدون متيماتٍ به كما كنت متيماً بكاثي. ورغم ذلك، فإذا كان يبلي حسناً من الخارج، فقد كان يكابد وراء ذلك المظهر، كان مرهقاً مع والدي. فقد كان والدي لا يزال يمرّ بوقتٍ عصيب، وكان ميكا قد تولّى القيادة في عائلتنا. ولأن والدي كان يتحدّث إليه أكثر مني أو دانا فقد بدا ميكا وحده يفهم عمق حزن والدي، ففي إحدى أمسيات صيف عام 1990، عندما كنت وميكا في الخارج معاً لم أستطع منع نفسي من ملاحظة أنه كان يبدو مشغول البال بشكلٍ خاص.

فسألت: "ما الذي يجري؟"

"إنني قلق بشأن والدنا".

رغم أنني كنت قلقاً أيضاً، فقد كنت أعلم أن أسبابي مختلفة عن أسبابه، فبالنسبة إليَّ كان والدي يتصرّف بصورة لاعقلانية، أما بالنسبة لميكا فكان يبدو عقلانياً تماماً، ولم يبدُ أي من ذلك طبيعياً.

وسألت: "لماذا؟"

"لأنه لم ينسَ والدتي. لقد مضت تسعة أشهر تقريباً، ولا يزال يبكي عندما يخلد للنوم كل ليلة، وهو يصبح أكثر انفعالاً أيضاً".

فلم أكن أعرف ماذا أقول.

"تعلم أنه ما يزال يرتدي اللون الأسود، ولكنّ الأمر أسوأ الآن. إذ تخلّص من كل ملابسه واستبدلها بحيث إن كل شيء يملكه الآن أصبح أسود اللون. لم يعد يغادر المنزل أبداً باستثناء الذهاب إلى العمل. أعلم أنه يفتقد أمنا، ولكننا جميعاً نفتقدها. كانت أمي لتريده أن يكون سعيداً حتى بدونها، وكانت لتريده أن يكون قوياً".

"ماذا تعتقد أنه ينبغي علينا فعله؟"

"لا أدري".

"هل تريدني وكاثي أن نحاول التحدُّث إليه".

رغم أنني كنت أعلم أنه ما كان ليصغي إلي، ولكنه كان يصبح أكثر اعتماداً على صحبة زوجتي.

"هذا لن يفيد في شيء، فقد حاولت ذلك. دعوته للقدوم إلى منزلي، إلا أنه لم يقبل بذلك. وهو لا يريد أن يذهب إلى أي مكان عندما أزوره. هل يأتي لرؤيتك وكات في شقتكما".

"كلا".

فهزّ ميكا رأسه، وقال: "لا ينبغي عليه أن ينغلق عن العالم. فذلك سيجعل الأمر أسوأ، وسيجعله فقط يشعر بالوحدة أكثر".

"هل تخبره بذلك".

"طوال الوقت".

"وماذا يقول؟"

"يقول إنه على ما يرام".

عندما اقتربت الذكرى السنوية لوفاة والدتي، بدأ والدي ببطء يخرج من القوقعة التي فرضها وبناها حول نفسه. ورغم أنه كان لا يزال يرتدي اللون الأسود، فقد طلبتُ وميكا ودانا منه الانضمام إلينا في تعلم الرقص الريفي. كانت الأمسيات في الخارج تبدو منعشة له. ببطءٍ، لكن بشكلٍ واثق، أصبح أكثر شبهاً بذاته القديمة. وحتى معي، لم يعد يبدو تقريباً بنفس القسوة.

نوعاً ما، كان يبدو أننا استطعنا الاستمرار في العام الأول بدون أمنا.

في وقتٍ لاحق في خريف ذلك العام، علمت وكاثي أنها كانت حاملاً. مثل جميع المتلهفين ليصبحوا آباءً، بدأنا نقوم بالاستعدادات للطفل، وبينما كنا ننتظر اللحظة التي كنا سنرى فيها طفلنا لأول مرة على جهاز الأمواج فوق الصوتية.

شرعت كاثي في حملها بهمّة. فكانت تراقب كل شيء تأكله وتتمرن وتتعلم أن تتعايش مع غثيانٍ الصباح قبل أن تذهب إلى العمل. بدأت بشرتها تتخذ ذلك التوهج المتورد للأم التي تتوقع مولوداً. اتصلنا بأصدقائنا وعائلتنا، وكان الجميع بمن فيهم أبي يشعرون بالإثارة لسماع الخبر. في الواقع، كان والدي أكثر سعادةً مما رأيناه منذ وقتٍ طويل جداً.

عندما كانت كاثي في الأسبوع الثاني عشر من حملها، قمنا بزيارة العيادة الطبية من أجل التصوير بالأمواج فوق الصوتية. في الغرفة، أمسكت بيد كاثي، بينما وضعت الموظفة الفنية الهلام على بطن زوجتي، ومررت الجهاز عليه.

قالت الموظفة الفنية بسرعة: "ها هو". فحدُّقت وكاثي في الشاشة بدهشة.

كانت الصورة بالغة الصغر بالطبع، وكانت لا تبدو أنها تشبه الطفل في شيء، ربما تشبه حبة فولٍ سوداني ولكن ليس طفلاً. رغم هذا، كانت تلك نظرتنا الأولى. فشدّت كاثي على يدي، وابتسمت.

استمرّت الممرضة بتحريك الجهاز محاولةً الحصول على صورة أفضل. خلال بضع دقائق، شاهدتُ وكاثي الموظفة الفنية تعبس.

فسألت كاثي: "ما الأمر؟"

فأجابت الموظفة الفنية: "لست واثقة بعد". وأجبرت نفسها على الابتسام، وقالت: "هلا عذرتماني للحظة؟" ونهضت وغادرت الغرفة.

لم نعرف ماذا كنا لنفهم من ذلك، فلم تكن لدينا فكرة إن كان ذلك طبيعياً أو غير متوقع. وبعد ذلك ببضع دقائق، دخل الطبيب.

فسألت كاثي: "هل هناك خطب ما؟"

فقال الطبيب: "دعيني ألقي نظرة". وللحظة، بينما بدأت الموظفة الفنية تحرّك الجهاز، راقبناهما يحدّقان في الشاشة. وأشارت الموظفة الفنية، وهمست شيئاً للطبيب، وهمس بدوره شيئاً إليها. لم يجب أي منهما عن أسئلتنا. وبمرور الوقت، نهضت الموظفة وغادرت الغرفة، وكان الطبيب يبدو جدياً.

سألت كاثي: "هناك خطب ما، أليس كذلك؟"

فقال: "إنني آسف، ولكن لا يمكننا العثور على نبض".

فانفجرت كاثي بالبكاء. في نهاية المطاف، قدتها خارج العيادة. لقد مات طفلنا كما ماتت أمي بدون سببٍ واضح على الإطلاق. بعد بضعة أيام، خضعت كاثي لعملية إجهاض. كل ما كان باستطاعتها فعله وهي على الكرسي المدولب بعد العملية هو أن تمسح دموعها، ولم يكن هناك شيء لأقوله لها لأخفف ألمها.

في وقتٍ لاحق، بكيت أيضاً بين ذراعي ميكا.

* * *

قضيت وكاثي الأشهر القليلة التالية ونحن قلقان بشأن إمكانية أن نصبح أبوين. فلم نكن نعلم كم سيستغرق الوقت لتصبح حاملاً من جديد، ولا كنا نعرف إن كانت تستطيع أن تحمل طفلاً حتى الأوان الطبيعي للمخاض. وقيل لنا إن حالات الإجهاض شائعة، وبدا أن الجميع يعرف واحدةً أجهضت، وحاولوا أن يعزونا بفكرة أن كل شيء سيكون على ما يرام مع مضي الوقت. كنا نعرف أنهم كانوا يقصدون خيراً، وكنا نعلم أن ما كانوا يقولونه صحيح. لكننا كنا أيضاً على إطلاع جيد على الجانب الآخر من الموضوع، الجانب الذي لا تنجح فيه الأمور. فبالنسبة لكات، كانت فكرةً ألا تصبح أماً أبداً غير محتملة. فحل علينا 25 كانون الأول مرة أخرى بشكل قاسٍ. وفي ذكرى ميلادي الخامس والعشرين، اتصلت أختي لتغني لي أغنية "ميلاد سعيد". وعندما سألتني عما كنت أريده، كان باستطاعتي التفكير بشيء واحد أقوله.

استجيب لتضرّعاتنا مجدداً في أواخر كانون الثاني من العام 1991، ولكننا أبقينا الخبر لأنفسنا هذه المرة. إذ لم نكن نريد أن نكرّر ما حدث سابقاً. ولكن في شهر نيسان، علمنا أن الطفل كان ينمو بصورة طبيعية، وأخيراً شاركنا الجميع بالخبر الجيد. كان بطن كاثي يكبر طوال الصيف، وكانت تقضي ساعاتٍ وهي تتصفّح كتب أسماء الأطفال، وتقرأ كتاب ماذا تتوقعين عندما تنتظرين مولوداً.

مع ذلك، كانت ضغوطات الحياة تبدو أنها تستمر بالظهور الواحد تلو الآخر بدون راحة. فرغم العمل في وظيفتين - أو ثلاث وظائف إذا أخذت بالحسبان وظيفة كات - كنا ما نزال نعاني مالياً وغير قادرين على التقدم. كان لدى كاثي تأمين صحي عن طريق صاحب عملها، وهو يغطي الأمومة. لكن في أوائل الصيف، وبينما كانت في الشهر الخامس سرحت من عملها. عندما بلغ وزن كليتنا الصغيرة عشرين رطلاً، طردنا من شقتنا، وكان علينا العثور على مكانٍ جديد للعيش فيه. وتعطلت سيارتنا الوحيدة وأصبحت غير صالحة للاستعمال مجدداً. كان عمر السيارة الوحيدة التي استطعنا تحمُّل دفع ثمنها كبديل عنها ثلاثة عشر عاماً، وقد سجلت ألف ميلٍ على عداد المسافات. قرّرت "مصلحة ضرائب الدخل المحلية" أن تدقق كلاً من ضرائبي الشخصية والتجارية المتعلقة بالأعوام الثلاثة السابقة. ورغم أن ذمتي كانت في نهاية المطاف ستبرَّأ كلياً، فقد كان ضغط العمل في وظيفتين فيما أجمع الوثائق الضرورية - إذ كانوا يريدون إيصالاتٍ - قد أضاف إلى متاعبي في صيفٍ صعبٍ أصلاً.

بطريقةٍ ما، استطعت أن أفوز ببعض الوقت لأؤلف كتاباً مع بلي ميلز وعنوانه ووكيني. ورغم أنه قد انتهى به الأمر بكونه أول كتاب أنشره في حياتي، فلم أكن موهوماً أن ذلك يتعلق بنوعية كتابتي. فعلى العكس من ذلك، كانت ميزته مستمدةً مما كان عليه بلي.

في شهر أيلول، هرعنا إلى المستشفى عندما بدأت آلام المخاض. كان مخاضاً سريعاً، فقد تمدّدت كات بسرعة، وكانت جاهزة تقريباً للوضع في الوقت الذي وصلنا فيه إلى المستشفى. كانت كات في مخاضٍ ظهري - فقد كان الطفل في الجهة الخاطئة - وكانت تعاني من ألم شديد. كان هناك تزاحم شديد بينما بدأ تحضير الغرفة، ولكن بعد وصول الطبيب بلحظات، بدأت دقاتٌ قلب الطفل تتباطأ فجأة.

عرفتَ من النظرات على وجهي الطبيب والممرضة أن الأمر كان خطيراً. كان هناك احتمال أن نفقد طفلاً آخر.

فجأةً، بدأ العالم كله يتضاءل. كان كل ما استطعت التفكير فيه هو كات والطفل الذي تحمله في داخلها. هناك فزع يأتي في لحظاتٍ كتلك، فزع يعتصر القلب بإحساس من العجز التام. وبالكاد أتذكر اندفاع النشاط المحموم عندما شرع الطبيب بالعمل، فوقفت جانباً أتضرّع كما لم أتضرّع من قبل أبداً.

كان الطبيب بارعاً. وبعد لحظةٍ، أصبحت أباً. لكنّ جلد الطفل كان رمادياً. ولوقتٍ طويل، لم يصدر أي صوتٍ على الإطلاق. علمنا لاحقاً أنه كان مصاباً بفقر الدم، وأنه سوف يعود إليه الدم عن طريق الحبل السري. ولكن في ذلك الوقت، كان مجرد ما أردته هو أن أسمع صرخة الحياة.

عندها، بعد وقتٍ كان يشبه الأزل طولاً، سمعتها.

في غضون دقائق قليلة - دقائق تبدو أطول بكثير عندما يحدث الأمر فعلاً - أكد لنا الطبيب أن ابننا سيكون على ما يرام. وللمرة الأولى، استرخيت بما يكفي لأدرك أننا أصبحنا أبوين فعلياً. وضعت كات الطفل عليها. أسمينا الطفل مايلز آندرو، وكان ميكا أول شخص اتصلت به.

صرخت في السماعة: "إنني أب، ولي ابن".

فهتف ميكا على الجهة الأخرى: "تهانينا أيها الأب. كيف حال الأم؟"

"إنها بحالٍ رائعة، ولحسن الحظ، الطفل كذلك أيضاً. لكن عليك أن تأتي إلى هنا. إذ يجب أن ترى هذا الشخص الصغير. إنه ظريف جداً".

فضحك مجدداً، وقال: "إنني في طريقي، يا أخي الصغير، إنني في طريقي".

فكان أول من وصل إلى المستشفى، وبعد أن ألقى نظرةً واحدة على مايلز، التفت إليَّ، وقال: "عجباً، إنه يشبهني تماماً".

فربتُّ على ظهره، وقلت: "عليك أن تكون محظوظاً هكذا فقط. وقد تكون وسيماً، ولكنك لا ترقى لمستوى هذا الشخص".

رغم حياة الأبوة الجديدة التي كنت فجأةً أعيشها، استمرّيت وأخي بقضاء الوقت معاً. فقد كان يساعدني لوقتٍ قصير بعملي التجبيري. ولكن بحلول نهاية العام، قرّرت أن أتخلى عنه في نهاية المطاف. فمع وجود طفلٍ جديد في البيت، كنت بحاجة لشيء أكثر استقراراً. فحصلت على وظيفة وكيل مستحضراتٍ صيدلانية في شركة مختبرات ليديرل لابز في أوائل عام 1992. كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أكسب فيها رسمياً أعلى من الحدِّ الأدنى للأجور، كنت في السادسة والعشرين من عمري.

لكن إذا كان الطفل - وحياتي المتحولة جوهرياً - كافياً لمساعدتي على الابتعاد عن الإسهاب في الحديث عن أمي، فقد استمرّ أبي يمرّ بفتراتٍ شديدة من المسرات والأحزان. إذ استبدل مزاجه الجيد الذي كان طوال الصيف بالكآبة، ثم استبدل مجدداً بالتفاؤل وقد وصل بنا الأمر إلى درجة أننا لم نكن نعرف ماذا نتوقع عندما نذهب لرؤيته. كنت وميكا نتساءل بصوتٍ مرتفعٍ إن كان مصاباً بالكآبة.

بدت أختي أيضاً تعاني من وقتٍ عصيب وهي تجهد نفسها لتجد نفسها كما يفعل الكثير من الراشدين الشبان. وبما أنها لم تكن طالبة عظيمة، فقد تركت الكلية لتعمل في وظيفة بدوام كامل، ثم وصل بها الأمر إلى الاستقالة من عملها بعد ذلك ببضعة أسابيع. هناك تنقلت من وظيفة إلى أخرى، فعملت كنادلة كوكتيل ومدربة آيروبكس وموظفة استقبال في صالون لتسمير البشرة. وقد حصلت وميكا على شقتين منفصلتين مجدداً. ساعدها والدي بإيجار شقتها. كانت تتغيّر جسدياً أيضاً. إذ

بحلول أوائل العشرينيات من عمرها، أصبحت على قدر من الجمال. فأصبحت تتمتّع بشعبية كبيرة لدى الجنس الآخر فجأة. ولكنها مثل ميكا كان يبدو عليها أنها تنتقل بسرعة من علاقة إلى أخرى

سألتُ ميكا في إحدى الليالي: "ما خطبكما أنتما الاثنان؟"

"ماذا تعني؟"

"أنت ودانا، ألا يمكن لأيٍّ منكما أن يواعد أحداً لأكثر من شهر؟"

"لقد واعدت جولي وسيندي لسنوات".

"في نصف الوقت الذي كنت تقول فيه إنك كنت تواعدهما كنتم في الواقع قد انفصلتم، وكنت تواعد فتيات أخريات. ثم أنهيت الأمر مع كلتيهما".

فابتسم قائلاً: "لا يريد أي إنسان أن يتزوج في سن الثالثة والعشرين، يا نك".

"لم أخطط للزواج باكراً إلى هذا الحدّ، فالأمر فقط أنني التقيت بكاثي".

"لم يكن عليك أن تتزوجها على الفور".

"بلى، كان عليَّ ذلك. هل تعرف ما قالته لي عندما قرّرت الانتقال إلى كاليفورنيا؟ عندما كنت آخذها من المطار؟"

فهزّ رأسه.

"عندما التقيت بها في المطار، بدأت أخبرها عن كل الأشياء العذبة فعلاً؛ تعرف، كم أحبها، وكم أنا سعيد بانتقالها إلى هنا، وكم أنني أقدر شجاعتها. على أية حال، تركتني أكمل قبل أن تبتسم أخيراً، وتقول:

"أنا أيضاً أحبك، يا نك. وإنني سعيدة لأنني أتيت. لكن دعنا نوضح أمراً واحداً. بقدر ما أحبك فإنني لن أتخلى عن عائلتي من أجل علاقة قد تكون مؤقتة". فسألتها ما الذي كانت تعنيه، فربتت على صدري، وقالت: "أمامك ستة أشهر لتطلب يدي أو سأعود إلى البيت".

فاتسعت عينا ميكا، وقال: "أهي قالت ذلك؟"

"نعم".

فضحك قائلاً: "أحب تلك الفتاة. فهي لا تقبل كلاماً فارغاً من أحد، أليس كذلك؟"

"كلا".

"لقد فعلت الشيء الصواب، يا نك. فلم يكن من الممكن أن تتزوج امرأةً أفضل".

"أعلم ذلك، ولكن دعنا نعود لحديثنا السابق؛ ما مشكلتك؟"

فقال: "الأمر بسيط، يا نك. فأنا لم ألتقِ بفتاةٍ مثل كاثي بعد. لكن عندما يحدث ذلك، سأتزوجها وأستقر".

بحلول العام 1992 بعد ثلاث سنوات من وفاة والدتي، وجد كل واحد منا بطريقةٍ ما وسيلةً للتقدم إلى الأمام. فقد كانت لديَّ عائلة ومهنة جديدة، وكان لدانا صديق جديد، وقد عادت إلى الكلية، واستمر ميكا يواعد ويستمتع بعطلة أسبوعية ممتعة واحدة تلو الأخرى. رغم أن والدي كان لا يزال يرتدي اللون الأسود، فقد أصبح مزيج المسرات والأحزان في حياته أقل تكراراً، حتى أنه بدأ يفكر بالمواعدة مجدداً. فكانت حياتنا العائلية، بقدر ما كان باستطاعتنا التوقع، قد بدأت تستعيد بعض

المظهر الخارجي للحالة السوية.

في شهر تشرين الأول، استنتجت وكاثي في نهاية المطاف أنه من الأفضل لنا أن ننتقل بعيداً. إذ رغم أننا كنا نحب كاليفورنيا، فقد كانت الحقائق الفعلية تحول بيننا وبين أن نكون قادرين علي صنع نوعية الحياة العائلية التي كنا نريدها لابننا. فقد كان راتبي، رغم كونه مجترماً، غير كافٍ ليمكننا من أن نعيش الحياة التي كانت كاثي تريدها لمايلز. لم نستطع أيضاً، نتيجةً لنفقات السكن المتصاعدة بسرعة، أن نتنبأ بأي تغييرٍ في المستقبل.

ما كنت وكات نريده، كما أعتقد، هو فرصة أن نعيش الحلم الأميركي. فقد كنا نحلم بالحصول على منزل نستطيع أن ندعوه ملكاً لنا، وأن يكون ذا حديقةٍ معقولة الحجم للأطفال ومشواةٍ لشواء اللحم في الحديقة الخلفية. لقد كنا نريد الأساسيات وحسب، ولكنّ الأساسيات كانت بعيدة المنال. بعد سلسلة من النقاشات الطويلة مع كات، تحدّثت أخيراً مع رئيسي في العمل بشأن طلب نقلٍ إلى منطقةٍ في الجنوب الشرقي. فلم يشعر رئيسي بالإثارة حيال طلبي، فقد كنت قد عملت لدى الشركة لثمانية أشهر فقط، وكنت قد أتممت تدريبي كله منذ عهدٍ قريب فقط. كنت أبلي حسناً في منطقتي. ولم يكن يريد أن يخوض عملية توظيف أحدٍ جديد بما أنه تكون هُناك دائماً مخاطرة بألاّ ينجح الموظف الجديد. فسوف تعاني المنطقة بالطبع بينما يتمّ تدريبه.

في تلك الليلة، اتصلت بميكا.

فقلت: "هل تريد وظيفةً في بيع مستحضراتٍ صيدلانية، يا ميكا؟"

كان عرضي منطقياً تماماً بالنسبة إليَّ. فقد كنا نعدو معاً، ونخدم الموائد معاً، ونملك المنازل معاً، وقد كان جزءاً من الشركة الصغيرة التي بدأتها أيضاً. حتى أننا كنا نبدو نوعاً ما متشابهين.

كان ميكا متفاجئاً للحظة، فرغم أنه كان يبلي حسناً في العقارات، فقد كان عملاً يتعلق بالعمولة بشكل صارم، ومسيطراً عليه من دور السمسرة الكبيرة. ولأنه كان من شركةٍ صغيرة، فقد كان العثور على قوائم جديدة يتطلب بذل الكثير من الجهد. لقد أصبح متعباً من الطريقة التي تتأخر فيها الشركة في دفع ما تدين به إليه.

فسأل أخيراً: "ما الذي تعنيه؟"

"إذا وافق المدير على نقلي، سأقدمك له، وستجري مقابلة معه، وأراهن أنه سيوظفك".

"أتعتقد ذلك؟"

"بل أعرف ذلك؟"

ففكر بالأمر طوال الليل، واتصل بي في صباح اليوم التالي.

وقال: "أعتقد أنني أريد أن أكون وكيلاً للمستحضرات الصيدلانية، يا نك".

مما يدعو للدهشة، بعد أن تلقيت منطقةً جديدة متمركزةً في نيو بيرن في ولاية كارولاينا الشمالية، تمّ توظيف أخي أيضاً. فتولّى منطقتي القديمة في سكرامنتو، وسلّمته مفاتيح سيارة الشركة التي تخصّصها للوظيفة.

في هذه الأثناء، بدأت وكاثي عملية الاستعداد لحياتنا الجديدة في الطرف الآخر من البلاد.

في أوائل شهر تشرين الثاني، بعد أقل من أسبوع على قبول ميكا للعمل، كنت في البيت أبدأ العملية البطيئة لحزم أغراضنا عندما تلقيت مكالمة مهتاجة من والدي.

قال والدي فجأةً: "عليك الذهاب إلى المستشفى حالاً". كان مقطوع النفس ومشتتاً، وكأن ذلك

كان تكراراً للمكالمة المضطربة التي أجراها قبل ثلاث سنوات. "إنها في مستشفى ميثوديست. هل تعرف أين هو؟ لقد أحضرها بوب لتوّه منذ بضع دقائق".

كان بوب، كما كنت أعلم، صديق دانا، ولكنّ رسالة والدي المشوشة لم تكن مفهومة.

"مَن؟ هل تتكلّم عن دانا؟ هل هي على ما يرام؟"

"دانا... إنها في المستشفى...".

فكرّرت قائلاً: "هل هي على ما يرام؟"

"لا أعرف... عليَّ الذهاب إلى هناك...".

بدأ رأسي يدور فجأة وأنا أشعر بأن شيئاً ما كان يتكرّر.

"هل تعرف ما حدث؟ هل تعرضت لحادث؟"

"لا أعرف... لا أعتقد ذلك... فقد قال بوب إنها تعرضت لنوبة من نوع ما... لا أعرف أي شيءٍ آخر. إن ميكا في طريقه... وأنا سأتوجه إلى هناك الآن".

في المستشفى، أخبرنا بوب بما حدث. كان بوب يعيش في مزرعةٍ في إلك غروف، ويعمل كسائق شاحنة محلي، ويقوم بتسليم العلف من أجل الخيول والماشية. كان أطول وأضخم مني ومن ميكا، ويرتدي جزمة رعاة البقر. كان قد اشترك في مسابقة الروديو للركوب على جوادٍ غير مسرجٍ. ولم أرَه يبدو خائفاً كما كان في تلك اللحظة.

قال: "استيقظت، ولم تكن تستطيع الكلام بصورة صحيحة، فقد كانت كلماتها كلها مشوشة، ولم تكن مفهومة أبداً. لذا وضعتها في السيارة وتوجهنا نحو المستشفى. في الطريق، انقلبت عيناها إلى الخلف وبدأت تتشنّج. كانت لا تزال تعاني من النوبة عندما وصلنا إلى هناك، فأخذوها إلى الخلف هناك ولم أرَها منذ ذلك الحين".

رغم أنه قد كان مستشفى مختلفاً إلا أنه كان بشكلٍ مخيفٍ مذكِّرا بالمستشفى حيث توفيت والدتي. هكذا كانت مشاعرنا ونحن نذرع الممر الصغير بانتظار سماع ما كان يجري. كذلك كانت الغرفة حيث رأينا أختي في نهاية المطاف.

كانت دانا متعبةً عندما رأيناها، وكانت قد أعطيت أدوية من أجل النوبة. وكانت عيناها مسدلتين، وكانت خائفة مثلنا، ولم تكن تدري ما قد حدث أكثر مما كنا نعرف. ولكن باستثناء الإرهاق، كانت تبدو بخير. كان بإمكانها النقر بأصابعها على الإبهام، وبإمكانها تذكر كل شيء من الليلة السابقة. تذكّرت أنها أدركت أنه كان هناك خطب ما عندما استيقظت باكراً صباح ذلك اليوم.

قالت بضعفٍ نوعاً ما: "أتذكر أنني حاولت أن أتكلّم، وأستطيع حتى أن أتذكّر سماع الكلمات وهي تخرج. ولكنها كانت الكلمات الخاطئة. لذا حاولت أن أعيدها، وحصل الأمر نفسه مجدداً. الرائحة، فقد كنت أشم رائحة كريهة فعلاً باستمرار. وذلك حدث عندما كان بوب يضعني في السيارة. ولا أتذكر أي شيءٍ بعدها رغم ذلك".

في وقتٍ لاحق، قال لنا الطبيب إنها تعرضت لنوبة صرع، ورغم أننا قد ألححنا عليه، فلم يخمن السبب حتى تظهر نتائج الفحوص الإضافية. اقترح أنه كان على الأرجح من الأفضل لها أن تستريح لبعض الوقت.

كنت آخر من نهض للرحيل، إذ حالما كان الآخرون قد غادروا الغرفة طلبت مني دانا البقاء.

قالت: "أخبرني الحقيقة، يا نك. أريد أن أعرف ماذا يجري. لماذا تعرّضت لنوبة؟"

فقلت: "هناك الكثير من الأسباب الممكنة، ولن يكون الأمر مقلقاً فوق الحدّ".

"مثل ماذا؟"

دقّقت في وجهي، وهي تثق بي، راغبةً أن تعرف. فقد كانت أختي تعرف أنني سأخبرها الحقيقة دائماً.

"أي شيء فعلاً، حساسية مفاجئة أو توتر. أو ربما تكونين مصابةً بالصرع، ولكن النوبات لم تنبّه حتى الآن، أو ورم دماغي، وربما تناولت شيئاً سيئاً، أو تجفاف، أو شيء جعل جسمك في حالة اضطراب لفترة من الوقت. الكثير من الناس يتعرضون للنوبات، فالنوبات أمر شائع تماماً بالفعل".

فنظرت إليَّ وهي تركز على السبب الذي كنت آمل أن تتغاضى عنه.

وسألت بهدوء: "ورم دماغي؟"

فهززت كتفي، وقلت: "يمكنه أن يسبب نوبات، ولكن صدقيني، لا أعرف ولكن يمكنني القول إنه الاحتمال الأقل إمكانيةً من كل شيء ذكرته".

فألقت نظرة خاطفة باتجاه حضنها، وقالت: "لا أريد ورماً دماغياً".

فطمأنتها آملاً إخفاء مخاوفي: "لا تقلقي، فكما قلت، ليس هذا هو السبب المرجّح".

على مدى الأسابيع القليلة التالية، خضعت دانا لعدد من الفحوصات، ولم يعثر الأطباء على سبب المشكلة التي تعاني منها. كانت فحوصات التصوير الطبقي المحوري غير حاسمة. ولكن بما أنها لم تتعرّض لنوبات أخرى، فقد بدا لنا الأمر وكأن الأسوأ قد مرّ. إلاّ أن عدم العثور على السبب كان ثقيل الوطأة علينا فلم يكن لدينا فكرة عن المسبب الأصلي للنوبة.

حان أيضاً الوقت الذي كان يجب عليَّ أن أنتقل فيه إلى كارولاينا الشمالية.

تحدّثت وكات عن الأمر مراتٍ عديدةٍ منذ ذهاب دانا إلى المستشفى، واقترحت أننا قد نفكر بالبقاء، رغم أنه سيكون عليَّ العثور على وظيفة أخرى. قالت إن كانت دانا تحتاجنا، فيمكننا أن نؤجِّل أحلامنا لفترة، على الأقل، حتى نعرف ما يجري.

فكان ذلك أحد خيارات الحياة حيث لا يكون هناك خيار مثالي.

فقلت أخيراً: "دعيني أتكلّم مع ميكا، دعيني أعرف ماذا يظنّ".

وعندما شرحت له تلك الليلة الشعور بالذنب الذي شعرت به حيال الانتقال، وضع يده على كتفي.

قال ميكا: "ليس هناك شيء يمكنك فعله لدانا. إذ إننا لا نعرف حتى ما المشكلة حتى الآن. ولكن يجب عليك أن تفكر بعائلتك، فأنت لديك طفل الآن. وعليك أن تقوم بما تعتقد أنه الأفضل له".

فلم أستطع أن أدع عينيّ تلتقي بعينيه.

"لا أعرف...".

"أنا سأراقب حالة دانا. إذ إنني ما زلت هنا وكذلك والدي، وعلى كل حال، أنت على بعد رحلةٍ بالطائرة فحسب إن احتجنا إليك".

"بالرغم مما قلت، إنني لا أجد قرار سفري مصيباً".

فقال: "لا أريدك أن تغادر". ثم أضاف مبتسماً: "ولكن تذكر، يا نك؛ ما تريده وما تحظى به هما عادة أمران مختلفان تماماً".

قبل 25 كانون الأول من العام 1992 ببضعة أيام، استقلت كاثي الطائرة مع الطفل إلى كارولاينا الشمالية لتستقل سيارة الفان التي كانت ستتحرّك، أما أنا فبقيت لأرشد ميكا على المنطقة التي سيعمل فيها ولأقدّمه للأطباء. ولأن شقتنا قد أفرغت، فقد قضيت الليلة في غرفتي القديمة في منزل والدي في الليلة التي سبقت مغادرتي.

جاء ميكا لمساعدتي في حزم أغراضي المتبقية في السيارة، فقد كنت سأقودها عبر البلاد. ولاحظت أنه كان يرتدي أحد سراويلي القصيرة، فلأننا كنا من المقاس نفسه كنا نستعير ملابس بعضنا البعض لسنوات.

كان ميكا قد عمل لبضعة صيفيات في تحميل الشاحنات بشركة طرق النقل المتحدة، وكان يعرف كيفية تحميل الأغراض لمنعها من التلف. فكانت السيارة باستثناء مقعد السائق مليئةً بالكامل. كنا واقفين في الداخل بالضبط عندما حان الوقت لنودع بعضنا. كنت قد سبق وودعت دانا ووالدي. لكنّ وقت الذهاب كان قد حان، وكنت وميكا نعرف ذلك.

كانت في المنزل آلاف الذكريات. ففي ذهني، كنت أستطيع سماع صوت ضحك والدتي من المطبخ، ورؤية أخي وأختي عند الطاولة. للمرة الثانية في حياتي، كنت أغادر أسرتي، ولكن هذه المرة كانت مختلفة. ففي المرة السابقة كنت مراهقاً، والآن لديَّ عائلة مسؤولة مني، كنت أعرف أنني لن أعود لأعيش هنا مجدداً.

فقاطعت قائلاً: "يبدو الأمر مثل المرة التي حمّلنا فيها سيارة الفولكس فاجن للانتقال إلى هنا، أليس كذلك؟"

"إنها مليئة جداً. ولكنها على الأقل مستوية هذه المرة. كم من الوقت ستستغرق لتصل إلى هناك؟"

"أربعة أيام أو نحو ذلك".

"قد بأمان".

"سأفعل ذلك".

عانقنا بعضنا البعض. وقلت: "سأفتقدك".

"وأنا أيضاً سأفتقدك".

"أحبك، يا ميكا".

ضمّني بقوة إليه، وقال: "أنا أيضاً أحبك، يا أخي الصغير".

عندما افترقنا، كان باستطاعتي الشعور بالدموع تنساب، ولكنني حاولت منعها. في السنوات الثلاث الأخيرة أصبحنا نعتمد على بعضنا البعض كثيراً. ولكنني حاولت أن أقلّل من أهمية ما كان يحدث. فقلت في نفسي إننا ننتقل وحسب، وليس الأمر أننا لن نرى بعضنا البعض مجدداً. إذ إنني سآتي لزيارته، وسيأتي لزيارتي، وسوف نتحدّث في الهاتف.

قلت بشكلٍ عرضي: "إنك ترتدي سروالي القصير".

فقال بدون تفكير: "سأعطيك إياه غداً". وأضاف بسرعة: "كلا، لن أفعل ذلك. فستكون قد رحلت غداً، ولا أستطيع أن أعطيك إياه".

عند ذلك بدأ ميكا يبكي، وانحنى نحوي مجدداً.

فهمست وأنا أبدأ بالبكاء أيضاَ: "الأمر على ما يرام، يا ميكا، سيكون الأمر على ما يرام".

بعد دقائق قليلة، من خلال دموعي التي تغشي البصر، رأيت صورته في مرآة السيارة الأمامية وهي تصغر. كان يقف على المرج مجبراً نفسه على الابتسام وملوحاً ببطءٍ مودعاً.

الفصل الرابع عشر

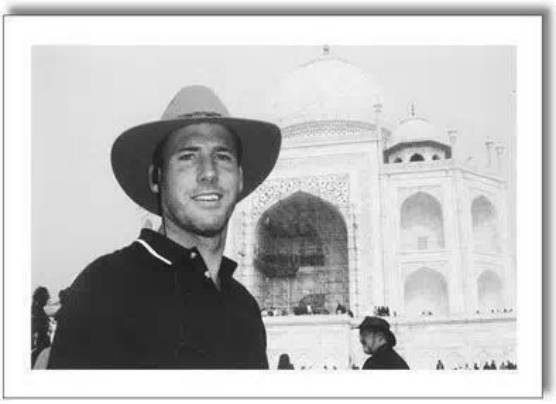

مدينتا جايبور وآغرا في الهند
7 - 8 شباط

هبطنا في جايبور، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها مليونين ونصف مليون نسمة، تقع في شمال الهند، وهي عاصمة ولاية راجاستان. لشهرتها بالحصون والقصور والثقافة المتنوعة، تدعى جايبور غالباً باسم "المدينة الزهرية"، وهي المركز التجاري لمعظم المناطق الريفية لراجاستان.

رغم أننا لم نكن واثقين من توقعاتنا حول الهند، فقد عرفنا أن الهند كانت بلداً لا تشبه غيرها من البلاد. بعد أن قمنا بإبراز جوازي سفرنا في أماكن مختلفة، ركبنا الحافلة التي كانت ستأخذنا عبر مدينة جايبور إلى حصن الكهرمان الذي كان سابقاً موطن المهراجا.

كان دليلنا يتحدّث لغةً إنكليزية صحيحة بلكنةٍ هندية. بينما كنا نتوجه عبر مدينة جايبور، أعلمنا أن جايبور تعتبر إحدى أجمل مدن الهند، وكان يبدو مصدّقاً لذلك أيضاً. إذ إنه خلال الأربعين دقيقة التي استغرقها وصولنا إلى وجهتنا، كان يشير إلى معالم متنوعة، ويشرح ما هي. كانت كلماته المفضلة، على حدّ علمنا، هي: ، و ، و . فكان كل وصفٍ يحتوي أو ينتهي بتنويعٍ للتالي:

"جايبور، المدينة الجميلة. جايبور، المدينة الزهرية. انظروا، هل يمكنكم رؤية كم هي جميلة؟ الطبيعة جميلة. والمباني في المدينة القديمة مطلية باللون الزهري. جايبور هي المدينة الزهرية. جايبور هي المدينة الجميلة".

في غضون ذلك، كنت وميكا نحدق من النوافذ فاغرين فمينا.

كان الناس موجودين في كل مكان. فكانت الأرصفة والشوارع محتشدةً، وقد شاركت حافلتنا الشوارع مع المشاة والدراجات البخارية والدراجات الهوائية والجمال والفيلة والحمير والعربات التي تجرّها الخيول، وكانت كلها تتحرك بسرعاتٍ مختلفة، وتسير بشكلٍ متعرج في حركة المرور. كانت الأبقار - وهي مقدسة في الثقافة الهندوسية - تتجول بحرية في أنحاء المدينة، وهي تستكشف بأنوفها أكواماً من القمامة مع الكلاب والماعز.

لفتنا الفقر بقوة. فقد كانت مواقع الخيام الممزقة والبيوت المبنية بعشوائية باستخدام الألواح الخشبية البالية أو أية مادة يمكن إيجادها، تأوي عشرات الآلاف من الأشخاص. كانت تحاذي الشارع

العام الرئيسي وكل مفارق الطرق التي مررنا بها. كان الناس الذين يرتدون أسمالاً في كل مكان، وكان العشرات، إن لم نقل المئات، ينامون في مجاري المياه. كان الناس يتبولون ويتبرزون في شكلٍ واضح للعيان، ولكن لم يكن يبدو حتى أن أحداً غيرنا يلاحظ. كانت رائحة وقود الديزل غامرة.

في غضون ذلك، استمرّ دليلنا يقول:

"انظروا إلى المنازل الفخمة خلف الجدران بالضبط. هل يمكنكم رؤية كم هي جميلة؟ في المدينة القديمة، كل المباني زهرية اللون. إذ إن جايبور هي المدينة الزهرية. جايبور هي المدينة الجميلة".

انحنى ميكا نحوي، وقال: "أين هي المنازل الفخمة؟"

"أعتقد أنه قال إنها خلف الجدران. أترى تلك الأسطح؟"

"تقصد خلف الأحياء القذرة؟"

"نعم".

"هذه مدينة جميلة؟ لا بدّ أنه فقد عقله".

عند تلك اللحظة، انحنى إلى الأمام أحد الأعضاء الآخرين في الرحلة، وكان يجلس خلفنا.

قال: "في الواقع، جايبور مدينة ثرية، إذا قورنت ببعض المدن الأخرى في الهند. إذ لا يمكنكم حتى أن تبدأوا بتخيُّل كيف تبدو كلكوتا أو بومباي".

فسأل ميكا: "أهما أسوأ من هذه؟"

"بكثير. صدق أو لا تصدق. جايبور فعلاً المدينة الجميلة".

بعد ذلك، كان كل ما استطعنا فعله هو التحديق من النوافذ، ونحن نتساءل كيف بحق السماء كان باستطاعة الناس العيش هكذا.

كان حصن الكهرمان، وهو يقع على بعد ستة أميال من المدينة، مبنياً على قمة تلة، ومحاطاً بالقمم والوديان التي يسهل الدفاع عنها مما جعله مثالياً لحماية المهراجا.

عند قاعدة الحصن، انقسمنا إلى مجموعاتٍ من أربعة أشخاص، وركبنا الفيلة صعوداً في الطريق الطويل المتعرج الذي كان يؤدي إلى حديقةٍ كبيرة كانت تستخدم كمدخلٍ إلى الحصن نفسه.

استغرق الأمر بعض الوقت لتصل كل المجموعات إلى البوابات، وكنا بحاجة لأكثر من عشرين فيلاً، وكانت تسير ببطء. علمت وميكا بسرعة أن الباعة الجوالين في الهند كانوا حتى أكثر عدوانية من أولئك في البيرو. إذ كانوا يحتشدون حولنا في مجموعاتٍ من أربعة إلى ستة أشخاص، وكلهم يحملون أشياءً صغيرة، ويعرضون أسعاراً أقل من بعضهم البعض. لم يكن يهم إن قلنا لا أو مشينا بعيداً، فقد كانوا ببساطةٍ يتبعوننا، وكل واحد منهم يصرخ تقريباً للفت انتباهنا. إذا رفضنا للمرة الثانية، كانوا يقتربون أكثر ويتحدّثون حتى بصوتٍ أعلى. تجمّع أول الواصلين من الرحلة إلى الحصن في دائرةٍ دفاعية وظهورهم إلى الحشود، وهم يحاولون بجهدٍ تجاهل الصرخات، فاستمرّ الباعة الجوالون مواظبين على ذلك لمدة تفوق الثلاثين دقيقة. في النهاية، لحقوا بمجموعتنا نحو الباب مباشرة.

تجوّلنا في حصن الكهرمان طوال الساعة التالية، ونحن مندهشون من المزيج بين فن العمارة الهندوسية والإسلامية. فقد كانت هناك ساحات فسيحة جميلة ولوحات زيتية عالية الجودة، ولوحات جصية، وشقق مستقلة لمحظيات المهراجا العشر. التقطنا الصور أمام حديقةٍ كبيرة كانت تستخدم نظاماً بارعاً في الريّ لمساعدة الأزهار على التفتح طوال العام. في نهاية المطاف، توجهنا إلى

المستويات الأعلى حيث تمكنا من تقدير موقع الحصن من موقعٍ دفاعي.

مع ذلك، كانت قاعة المرايا هي الأكثر تأثيراً. إذ كانت تلك أول كشفٍ لنا لفن الرخام المعقد الذي اشتهر به الحصن. كانت الحرفية عن قرب من جودةٍ أعلى من أي شيء رأيناه. كانت قاعة المرايا، التي بنيت على مدى عشر سنوات باستخدام ألفي عامل، تحتوي على جدرانٍ من الرخام مرصعةٍ بعشرات الآلاف من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة، بالإضافة إلى آلاف المرايا الصغيرة. أخبرنا أن المهراجا كان يسلى في المساء بإشعال الشموع أمام القاعة حيث تعكس الحجارة والمرايا الضوء اللطيف. رغم أن المنحوتات النافرة في أنغكر كانت مفصلة، فقد فهمت حتى أن العمل معٍ الرخام أصعب بكثير. فقد كانت كل واحدةٍ من عشرات الآلاف من الجواهر المرصعة والمرايا مناسبة بشكل مثالي.

همس ميكا: "إنه لا يصدق. لكنني أعتقد أنه يفوق الحدّ تقريباً، فهو مبهرج بعض الشيء بالنسبة لذوقي".

"حسناً، هذا على ما يرام. ولا أعتقد أنه يمكنك العثور على أحد يعرف كيف يفعل مثل هذا بعد الآن. إلا إذا انتقلت إلى الهند بالطبع".

"لا أعتقد أن هذا سيحدث".

* * *

بعد مغادرة الحصن، قدنا الحافلات عبر حيّ قذر تلو الآخر، وعبرنا من خلال إحدى البوابات - وبطريقة فقط يمكن للهند أن تفاجئنا بها - وجدنا أنفسنا في الفردوس.

كان فندقنا في السابق قصراً يملكه المهراجا. كانت الغرف معدَّة على طريقة الكوخ، وكانت الأراضي خاليةً من العيوب، فقد كانت وافرة الأشجار والنوافير والممرات المتعرجة والأزهار. كان هناك أيضاً منتجع صحي كامل، وملاعب تنسٍ، ومركز للياقة البدنية، وبركة سباحة. كان الموظفون محترفين وفعالين في آنٍ معاً، فإذا ألقينا نظرةً خاطفة في اتجاههم، كانوا يهرعون باتجاهنا ليروا إن كان هناك أي شيءٍ يستطيعون فعله. تمّت مرافقة كل عضو من الرحلة إلى غرفته من قبل أفراد لم يشرحوا فقط سمات الغرفة بتفصيلٍ استثنائي، ولكن عرضوا أخذ الغسيل وتلميع الأحذية أيضاً، مع الوعد بأنها ستعاد في غضون ساعتين فقط. فكان ذلك أكثر فندق مترفٍ أقمنا فيه في رحلتنا. بالرغم من ذلك، مهما بدا جميلاً فلم أستطع وميكا أن نتخلص من حقيقة ما نعرف أنه موجود خارج الباب تماماً.

في المساء، حضرنا حفلة كوكتيل أخرى. ولففنا رؤوسنا بالعمائم من أجل زيارتنا لقصر المدينة. هناك تمت تحيتنا بأسلوبٍ ملكي نموذجي: فوقفت فرقة الحرس بوضع الاستعداد على طول الطريق. كانت هناك جمال وأحصنة بيضاء وفيلة، كلها زينت من أجل وصولنا. تناولنا العشاء، وتمّت استضافتنا إلى أحد العروض مع مسلين هنود تقليديين، ولكنني وميكا كنا متعبين من النهار، ولم نكن نتطلع لشيء أكثر من العودة إلى غرفتنا والتمدّد على الفراش.

في الصباح، كان أمامنا خياران: فقد كان باستطاعتنا زيارة المتحف ومناطق تسوق متنوعة أو مجرد البقاء في الفندق.

بقيت وميكا في الفندق. فلم تكن لدى أيٍّ منا رغبة في مغادرة ملاذ مجمع المباني الذي كنا فيه للمرة الأولى منذ أسبوعين، لم نقم بأي شيء على الإطلاق. في فترة العصر، كان ميكا يرتدي نظارة شمسية وملابس استحمام مسترخياً في كرسي قرب البركة.

قال ميكا: "الآن، هذا بالضبط ما كنت بحاجة إليه".

قلت: "أعلم ما تعنيه. ورغم ذلك أشعر ببعض الذنب، فقد تكون هذه فرصتي الأخيرة لرؤية الهند، ونحن جالسان قرب البركة في الفندق".

"هل كنت تريد فعلاً الذهاب إلى متحفٍ آخر وإلى التسوق؟"

"كلا، ولكنني أقول وحسب إن الأمر يشعرني بالذنب".

"إنك دائماً تشعر بالذنب، تلك هي مشكلتك".

"كنت أظنّ أن مشكلتي كانت أنه ليس لديَّ ما يكفي من الأصدقاء".

"وتلك أيضاً".

ففتحت ذراعي على مداهما في امتنانٍ ساخر.

"لهذا السبب أحبك، يا ميكا. فأنت دائماً راغب في تقديم النقد البناء".

"تسرّني مساعدتك. وبالإضافة إلى ذلك، على أحدهم أن يستلم القيادة بعد وفاة أمي".

"كانت لا تستبدل".

فتأمل ميكا قائلاً: "أتعرف ماذا كانت؟ كانت مثل مركز العجلة في عائلتنا، وكنا جميعاً أشعة العجلة. حالما رحلت لم نعد نملك مركزنا بعد ذلك. أعتقد أنه لذلك السبب كانت الخسارة ضربةً قاسية. إذ لم ترحل أمي وحسب، ولكن كان علينا أن نصبح نوعاً جديداً من العائلات. أعتقد أنه لذلك السبب بدأت وإياك ودانا نقترب من بعضنا البعض مجدداً".

"ماذا عن والدي؟"

فقال: "لا أدري، لقد كانت خسارة أمي جزءاً من الموضوع، ولكنني لا زلت أعتقد أن والدي كان مصاباً بالكآبة. فعندما كانت أمي موجودة، أعتقد أنها كانت قادرة على الحفاظ على تقلبات مزاجه ضمن السيطرة. لكن بعد أن رحلت؛ حسناً، لم يكن لدى والدي مركز أيضاً".

"هل تعتقد أنه كان والداً جيداً؟ أعني، عندما كنا نكبر؟"

"في بعض النواحي. ولم يكن جيداً كثيراً في نواحٍ أخرى. لكن تعلم أنه في النهاية عليك أن تسلّم بكونهما والدين جيدين بسبب مجرد الطريقة التي أصبح عليها أولادهما. إذ إننا متزوجان زواجاً سعيداً، وناجحان، وأخلاقيان، وقد بقينا قريبين كأخوين. فإذا استطاع أطفالك قول الشيء نفسه لاحقاً في الحياة، ألن تعتقد أنك قمت بعملٍ عظيم كوالد؟"

فسلّمت قائلاً: "بدون شك".

في الصباح، استقلينا الطائرة إلى آغرا حيث كنا سنزور تاج محل.

كانت آغرا تتسم بنفس المناظر التي رأيناها خارج نوافذ حافلتنا في جايبور مع اختلافين

رئيسيين: فقد كان هناك تلوث أكثر بكثير في الجو، وطرق غير معبدةٍ أكثر بكثير.

بسبب التلوث، كان علينا أن نغيِّر الحافلة. إذ كان علينا للوصول إلى تاج محل، ركوب الميلين الأخيرين في الحافلات الكهربائية. وانتهى بنا الأمر بالوقوف على بعد ربع ميل من البوابات.

كان من المستحيل رؤية تاج محل، من حيث أوقفنا الحافلات. إذ إن ما لا يدركه معظم الناس هو أن تاج محل في الواقع جزء من مجمع ضخم. ومجدداً، انتظرنا في صفٍ طويل - وهذا ليتم تفقد حقائبنا بحثاً عن المتفجرات والأسلحة - وأخيراً، دخلنا المجمع. وحتى عندها لم نستطع رؤية المعلم.

عوضاً عن ذلك، وقفنا في صفٍ على طول أحد الأرصفة ونحن على كلٍّ من جانبي ما كان في الأساس شققاً لضيوف شاه جاهان. وكان هناك في الأمام وإلى اليمين بناء قرميدي كبير كان يخدم كبوابةٍ ضخمة مزخرفة. كان علينا مجدداً الانتظار في الصف ليتم تفقدنا قبل العبور.

مع ذلك، فعلى الجانب الآخر تمكنا من إلقاء النظرة الخاطفة الأولى على ما يعتبر المعلم الأجمل للحب الذي بني على الإطلاق.

تم البدء ببناء تاج محل في العام 1631 على يد شاه جاهان وهو إمبراطور مغولي، وذلك إحياءً لذكرى زوجته الثانية ممتاز محل التي توفيت بعد ولادة طفلهما الرابع عشر. لذا فهو، بمعنىً آخر، قبر. كان الضريح الذي بني لتكريم ممتاز محل داخل تاج محل مرصعاً بالجواهر، وهو موجود بجانب ضريح زوجها. تاج محل هو أحد أكثر الأبنية التي بنيت على الإطلاق تناظراً. إذ إن قبر ممتاز موجود مباشرة في مركز القبة، وتبتعد أبراج الزوايا الأربعة بنفس المسافة تماماً عن القبة، وهي تماماً بنفس الارتفاع.

تطلّب بناء تاج محل عشرين ألف عامل وألف فيل، واستغرق اثنين وعشرين عاماً. تم إحضار المواد من كافة أنحاء الهند وآسيا الوسطى. يعتبر تاج محل رمزاً للحب الأبدي. غير أن شاه جاهان قد قضى وقتاً قصيراً هناك، إذ بعد انتهاء بنائه بوقت قصير، قام ابن شاه جاهان وممتاز محل بخلع الإمبراطور وسجنه في حصن غريت ريد العظيم على بعد بضعة أميال. ورغم أنه كان باستطاعة شاه جاهان رؤية تاج محل من زنزانة سجنه، لم يكن مسموحاً له أن تطأ قدمه تاج محل مجدداً.

من حيث كنا نقف، لم يكن يبدو حقيقياً. فكان الرخام، وهو موضوع قبالة سماء ضبابية ملوثة، يلمع بتألق. وكانت الصورة منعكسة على البرك الطويلة المستطيلة الشكل أمامه. كان معظم الناس لدى رؤية صور تاج محل (والذي يعني اسمه "قصر التاج") يعتقدون أنه مبني من رخام أبيض غير مزين. ولكن عن قربٍ فقط، تصبح تفاصيل كل كتلةٍ رخامية تبدو واضحة. إذ مثل قاعة المَرايا - ولكن فقط على مقياسٍ أكبر وأضخم - كان تاج محل مزيناً بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة، وهي مرصعة على أشكال الزهور والكروم. بعد التقاط الصور، تمشّينا نحو المعلم نفسه، وقمنا بدراسة واجهته المزخرفة.

عرض ميكا ببلاغة قائلاً: "الآن، هذا الكثير من الرخام".

قضينا وقتاً يزيد عن الساعة بقليل في تاج محل، وقد وفّت بالغرض مما أدهشنا. كان تاج محل رغم كل شيء قبراً، ولم يكن هناك الكثير في الداخل أكثر من الغرفة الصغيرة حيث دفنت ممتاز ودفن شاه جاهان في نهاية المطاف. وكان الاهتمام مركّزا أكثر على تفاصيل الكتل الرخامية التي استخدمت في البناء. وهو مدهش . ورغم ذلك، فلأن تاج محل قد تمّ بناؤه بدقة رياضية، كانت الناحية الفنية تبدو بشكلٍ لافت للنظر غير مثيرة. فإذا وجدت تصميماً على أحد الجوانب يكون التصميم نفسه مكرَّرا بشكلٍ تلقائي على الجانب المقابل. ورغم أنه كان أعجوبة في البناء، فقد كان تكرارياً بشكلٍ غريب.

كنت وميكا مسحورين بحقيقة أن الابن سجن الأب، ولم يدعه يطأ تاج محل، وهو قبر أمه، خلال السنوات الأخيرة من حياة شاه جاهان.

قال ميكا بإيماءةٍ متعمدة: "أترى، هذا ما كنت أتحدّث عنه بالضبط. مما لا شك فيه أن والدي كان أفضل بكثير من شاه جاهان العجوز، فقد كان ولده يكرهه".

فأومأت برأسي موافقاً. ولكنني رغم ذلك، فيما كنت أحدق في النصب الفخم لممتاز، وجدت نفسي لا أفكّر بأبي بل بأختي.

في شهر كانون الثاني من العام 1993، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع من انتقالي إلى كارولاينا الشمالية، عدت إلى كاليفورنيا.

ذهبت أختي، بعد رأس السنة مباشرة، لرؤية طبيب جديد، وقد طلب صورةً جديدة بالرنين المغناطيسي من مستشفى مختلف. كانت آلات الفحص بالرنين المغناطيسي في ذلك الوقت تخضع لتغيير تقني سريع، وكانت الآلات الجديدة قادرةً على تقديم صورٍ لم تكن الآلات السابقة تستطيع أن تقدمها. كانت صورة دانا قد أخذت على آلة عتيقة الطراز، وتستطيع صورة جديدة أن تزود بالأجوبة.

تمددت على السرير، ووضعت سدادات الأذنين، وأدخلت في الآلة. كانت الآلة تصدر ضجة قعقعة عالية - مثل صوت أحدٍ ما يضرب مقلاةً بملعقة - وفي غضون بضع ساعات، كانت نتائج التصوير جاهزة. كانت الصورة واضحة وضوح الشمس وهذا ما لم نكن نتمنّاه. إذ علمنا أن دانا كانت مصابة بورم دماغي.

فعُيِّن لها موعد لتخضع لجراحةٍ فورية في مستشفى يو سي في سان فرانسيسكو، فاستقليت الطائرة لأنضم لأبي وميكا. في الفندق في الليلة السابقة، حاولت وميكا أن نحافظ على التفاؤل، ولكنّ والدي كان متوتراً بشدةٍ خلال المساء. لم أستطع وميكا حتى أصبحنا وحدنا أن نشعر بالراحة بما يكفي لنتحدّث عن مخاوفنا وقلقنا.

لقد كانت أختنا تعاني من ورمٍ دماغي. كأنّ خسارة والدتنا لم تكن قاسيةً بما يكفي، فكان علينا في ذلك الوقت أن نواجه هذا الأمر.

حُدِّد موعد الجراحة في الصباح الباكر، فأحضرنا دانا إلى المستشفى قبل الساعة السابعة بقليل. ومع ذلك، فبسبب برنامج المواعيد الضيق لم تبدأ الجراحة حتى الظهر تقريباً، مما جعل اليوم أحد أطول الأيام في حياتنا. لم يحدث حتى الساعة السابعة مساءً أن جاء الطبيب ليتحدّث معنا.

فأخبرنا أن العملية قد تمت بنجاح، وأنهم قد استأصلوا قدر ما استطاعوا من الورم. إذ لم يكن من الممكن استئصاله كله. فقد كانت أجزاء من الورم قد انتشرت إلى مناطق عميقة في دماغها، كانت أجزاء أخرى مجدولةً مع مناطق من الدماغ تؤدي وظائف حيوية. فأعلمنا الطبيب أن استئصال كل ذرةٍ من الورم كان سيترك دانا في الحالة الإنباتية.

استغرق الطبيب وقتاً طويلاً ليشرح لنا حالة دانا بطريقةٍ استطعنا فهمها في نهاية المطاف. فقد كنا نريد تفاصيل محددة - كم بقي من الورم وأين موقعه وماذا يعني الأمر على المدى الطويل - ولكننا توصلنا إلى معرفة أن جراحة الدماغ تتعلق بالاجتهاد أكثر منها بالقواعد.

قال الطبيب: "عندما تشفى ستبدأ علاجاً مضاداً للنوبات، وستبدأ الأشعة. نرجو أنّ هذا سيقتل أياً مما تبقى من الورم، والأجزاء التي لم نتمكن من الوصول إليها".

"وماذا إذا لم تنجح الأشعة؟ ماذا عندها؟ هل نقوم بالجراحة مجدداً؟"

فهزّ الطبيب رأسه، وقال: "دعونا نأمل وحسب أن الأشعة ستنجح بالفعل. إذ إنني كما قلت لم

أستطع الوصول إلى أجزاءٍ من الورم بدون أن أجعل حالتها أسوأ بكثير”.

“ما هي فرصها؟ هل ستنجو؟”

“هذا يعتمد على نمط الورم. فنحن نقوم بدراسة خزعةٍ منه تحت المجهر الآن. وبعض الأورام هي أكثر سرعة بالتأثر بالأشعة من الأخرى، وبعضها ينمو بسرعة، وبعضها لا يفعل. فلن نكون واثقين حتى تظهر النتائج. لكن إذ كان الورم سريع التأثر فستتمكن الأشعة من القضاء عليه”.

“إذاً هناك احتمال بأنها ستعيش حياةً طبيعية؟”

فراوغ الطبيب قائلاً: “على الأرجح”.

فانتظرنا ونحن نتساءل عما كان يعنيه، واستمرّ الطبيب بالقول: “إن الأدوية المضادة للنوبات تتعارض استطبابياً مع الحمل بسبب العيوب الولادية المحتملة”.

توقف الطبيب، ونظرت وميكا نظرةً خاطفة إلى بعضنا البعض، ونحن نعرف أصلاً ما كان قادماً.

فأضاف الطبيب: “على الأرجح، أنها لن تنجب الأطفال أبداً”.

فلم يقل أحد منا شيئاً لوقتٍ طويل.

فسألت أخيراً: “متى يمكننا رؤيتها؟”

“غداً، فهي نائمة. ومن الأفضل لها على الأرجح أن تستريح لبعض الوقت”.

في تلك الليلة، نمت وميكا في نفس غرفة الفندق. أو بالأحرى، حاولنا النوم. لمعظم الوقت، كان كل ما استطعت القيام به هو التحديق في السقف وأنا أفكر بمحادثةٍ كنت قد أجريتها مع دانا في يوم ميلادنا منذ وقت طويل. إذ كانت أختي قد قالت: “ ”.

“ ”

“ . ”

كادت الذكرى تفطر قلبي.

كان رأس أختي ملفوفاً بالضمادات بشكلٍ مفرط عندما رأيناها. كانت معظم الوقت نائمة، وعندما استيقظت كانت متعبة، كانت نظرتها مشوشةً وحركاتها خاملة.

فتلعثمت، وكان صوتها هامساً: “هل... نجح... الأمر؟”

فقال ميكا: “نجح بشكلٍ عظيم، يا عزيزتي”.

“أوه... جيد...”.

وقلت: “أحبك، يا عزيزتي”.

“أحبكما”. ثم نامت مجدداً.

بعد أسبوع، حصلنا على نتائج دراسة الخزعة، فكان لدى أختي أساساً ثلاثة أنماطٍ من الخلايا السرطانية في دماغها. كلها أورام سريعة النمو وتنتشر بطريقةٍ تشبه العنكبوت، كانت سريعة التأثر جزئياً بالأشعة والعلاج الكيماوي. وعندما علمنا ما كان باستطاعتنا فعله، كانت حقيقة واحدة تتعلّق بالأورام بارزةً في أذهاننا.

رغم أنها كلها قد تكون مميتة، كان أحد الأورام التي تعاني منها يتّصف بهذه الصفة، وبعد خمس

سنوات، كان معدل النجاة لمن يعانون منه أقل من اثنين بالمائة.

كانت أختي قد بلغت السادسة والعشرين من العمر لتوها.

عدت إلى كارولاينا الشمالية بعد ثلاثة أيام في صباح اليوم الذي كانت أختي ستخرج فيه من المستشفى. وبالإضافة لمعرفة أنها تحتاج إلى الأشعة، فقد أخضعت أختي للأدوية المضادة للنوبات. بدأت، وهي معصوبة الرأس، عملية الشفاء البطيئة. تركني الشعور بالذنب لعدم وجودي معها أتألم لأسابيع، فشغلت نفسي بالعمل.

مع ذلك، فقد استمرت الحياة جالبةً معها مصادر إضافية للتوتر. فقد بدأ رئيسي الجديد مباشرة يمارس الضغط عليَّ لأؤدي عملي. اشتريت وكات منزلنا الأول. إذ إننا وفي غضون ثلاثة أشهر، كنا قد انتقلنا، وغيّرنا الوظائف، واشترينا منزلاً، وبدأنا عملية تجديد المنزل، ونحن قلقان بشكلٍ مستمر بشأن أختي.

لم يكن ذلك كل شيء، إذ كان تشخيص مرض أختي يكاد يكون عبئاً كبيراً فوق الحدّ ليتحمله والدي. وبدا نقلي إلى كارولاينا الشمالية يغذي وحسب الغضب والذنب اللذين كان يشعر بهما في داخله. مجدداً، كنت متنفس غضبه وشعوره بالعجز، فعندما أخبرته بشأن المنزل الجديد، على سبيل المثال، أجاب عن طريق إعلامي بإيجاز أنه من الأفضل لي ألا أتوقع أية مساعدةٍ بالدفعة الأولى، وعندما كان يتصل بنا، كان يتحدّث فقطً مع زوجتي، فكنت عادةً أقف منتظراً فرصتي للتحدّث فقط لأسمع كاثي تقول: "حسناً، نك هنا. هل تريد أن تسلّم عليه؟" ويكون هناك توقف طويل قبل أن تستمر كات قائلةً: "آه، حسناً. إذاً، إلى اللقاء، يا أبي، أحبك". بعد ذلك، وبهدوءٍ شديد، كانت تغلق السماعة.

كنت أسأل: "ألم يكن يريد التحدُّث معي؟"

فكانت تهمس وهي تأخذني بين ذراعيها: "لستَ السبب. إنه خائف وحسب".

استمرّ والدي مع دانا في موقفٍ شجاع. فكان يحضرها إلى مواعيدها. في شهر نيسان عندما بدأت الأشعة، انتقلت عائدة إلى المنزل. جعلتها الأشعة تشعر بالغثيان، وتسبّبت في فقدانها مقداراً كبيراً من الشعر من جانب رأسها. كانت تبدو متفائلةً كلما كنت أتصل بها. إذ كانت أختي، التي لطالما كانت متفائلةً في الصميم، تعلم أنها ستكون على ما يرام.

قالت لي في إحدى المرات: "لقد كنت أصلّي، وأعتقد أن الأمر ينجح، وكأنني أشعر بالأورام تموت، وأحب أن أتخيّلها تصرخ من الألم وهي تموت".

"إنني واثق أنها كذلك، فأنت شابة وقوية".

"هلا صلَّيت من أجلي أيضاً؟"

"ليس عليك أن تطلبي، يا دانا. فقد كنت أصلّي من أجلك كل يوم".

فقالت: "شكراً لك".

"كيف يصمد والدنا؟"

"لقد كان عظيماً، لا يمكنك أن تصدِّق كم هو معين، فهو يطهو لي الحساء، وحتى أنه اشترى لي تلفازاً مع جهاز تحكم عن بعد حتى لا أضطر إلى النهوض لتغيير القنوات".

"جيد، يسرّني هذا".

"حسناً، وكيف أنت؟ هل هناك شيء مثير يحدث؟"

فتردّدت، إذ كان هناك ما هو أكثر، ولكنني جزئياً لم أكن أريد الإجابة. فكيف يمكنني أنٍ أقول لها؟ وفي نفس الوقت، كنت أعلم أن أختي ستكتشف، إذ إن آخرين من العائلة يعلمون أصلاً بمن فيهم ميكا.

فقلت أخيراً: "حسناً، لقد اكتشفنا للتو أن كات حامل مجدداً، وسيولد الطفل في شهر أيلول".

فكانت أختي صامتةً لوقتٍ طويل.

قالت أخيراً: "ذلك رائع". وانخفض صوتها، "إنني مسرورةً من أجلكما".

سألني ميكا بعد ذلك ببضع دقائق: "هل أخبرتها؟" وكنت قد اتصلت به مباشرة بعد أن أغلقت الخط مع دانا.

"نعم، أخبرتها".

"كيف تقبّلت الأمر؟"

"كما توقُّعت تقريباً".

"إن الأمر فظيع، أليس كذلك؟ أعني أنها كانت لتكون أماً عظيمة. كما كانت أمي بالضبط".

فلم أقل شيئاً، إذ لم يكن هناك فعلاً شيء ليقال.

أضاف ميكا أخيراً: "لقد كنت أفكر بك. وبالطريقة التي كانت الأمور تحدث بها مؤخراً".

"ماذا تعني؟"

"إنني أتحدّث عن الارتفاعات والانخفاضات. ففي البداية، تتزوج وتكون في ارتفاع لا يصدق. وبعد ذلك بستة أسابيع، تتوفى والدتي، ومن المستحيل أن تنخفض أكثر. وتحمل كات للمرّة الأولى ثم تجهض. وتقرّر وكات الانتقال، وتشعران بالإثارة حيال البدء بحياةٍ جديدة. وبعد ذلك بشهرٍ، تتعرض دانا لنوبةٍ، فنكتشف أنها مصابة بورم دماغي. ثم تعلم أن كاثي حامل مجدداً. وفي نفس الوقت، نكتشف أن دانا لا تستطيع إنجاب الأولاد، ومن المحتمل ألا تعيش أكثر من خمس سنوات. فالأمر كأنّك تعيش على لعبة الأفعوانية، فهي تسرع إلى الأعلى والأسفل دون أن تصل إلى منطقة مستوية. إذ بالنسبة لك، كان إما أعلى الارتفاعات أو أدنى الانخفاضات".

فعرضت بهدوء قائلاً: "أستطيع قول الشيء نفسه عنك وعن أبي أيضاً".

فقال: "أعلم ذلك، وكأن الأمر يسلب السعادة من تلك الارتفاعات، أليس كذلك؟"

انتهت المعالجة الإشعاعية في منتصف الصيف، وقد أتت فحوصات التصوير الطبقي المحوري جيدةً بشكلٍ ملحوظ. كان الأطباء متفائلين. وبدأ شعر أختي يعاود النمو ببطء. وللمرة الأولى منذ النوبة، انخفض قلقنا بشأنها.

مع تحسّن أختي تغير سلوك أبي نحوي إلى الأفضل أيضاً. فقد بدأ يتحدّث إليَّ في الهاتف مجدداً. كان متردِّدا في البداية. تقارب متردد. ومع ذلك، فقد كان لا يزال يتحدّث إلى كات لمدةٍ طويلة. علمنا أنه قد بدأ فعلياً يواعد مجدداً.

فقد التقى امرأة، وقد أعجبته كثيراً كما قال.

كانت دانا أيضاً تنسجم بشكلٍ أفضل مع بوب، فقد كانت علاقتهما مضطربةً بعد العملية الجراحية.

كان ميكا كالعادة يستمر بالتحرك بنشاطٍ، ويهرب في عطلٍ أسبوعية طويلة متجنباً كل العلاقات

الجدية.

في شهر أيلول من العام 1993، ولد راين، رغم أنني لم أكن موجوداً في المستشفى لأحضر ولادته. وعوضاً عن ذلك، كنت خارج المدينة في عمل - اجتماع لم أستطع تفويته - وقد انفجر ماء الولادة عند كاثي بينما كان الاجتماع ينتهي للتو. ولم أصل لرؤية ابني حتى اليوم التالي.

في شهر تشرين الثاني، تمّ لم شمل عائلتنا في تكساس من أجل مناسبة الشكر مع شقيق أبي الأصغر مونتي. لفتتني حقيقة أن والدي قد بدا سعيداً بشكلٍ حقيقي. فقد وقع في الغرام كما قال، وكنا ثلاثتنا جميعاً سعداء من أجله لأنه وجد أخيراً أحداً يستمتع برفقته. على أية حال، بدا هذا الخبر عن والدنا فجأة أقل أهمية مما علمناه أيضاً في تلك الرحلة.

فقد أخبرتنا دانا أنها وبوب قد انفصلا مجدداً، فلم يكن هذا غير متوقعٍ كلياً. إذ كان توتر مرضها الأخير ليكون كافياً ليضع أية علاقةٍ على المحك.

أتذكّر أنني قلت: "آه، هذا سيئ جداً، إذ إن بوب يعجبني".

فقالت: "وهناك المزيد رغم ذلك".

"وما هو ذلك؟"

فابتسمت وهي تهز كتفيها بشكلٍ ضعيف، وقالت: "إنني حامل".

لم أعرف ما أقول.

"لا تقلق، فقد توقفت عن تناول الأدوية المضادة للنوبات".

كان هناك حتى المزيد. ففي عائلتنا، كما بدأت أدرك ببطء، لطالما كان هناك المزيد. إذ لم تكن أختي تخاطر بصحتها بشكلٍ خطير - وهو قلق سيزعجنا طوال الأشهر السبعة التالية - ولكنها كانت في طريقها لتصبح أماً عازبة، وسرعان ما اكتشفنا أنها كانت حاملاً بتوأمين.

بعدها - مما زاد قلقنا - بعد 25 كانون الأول مباشرة، أعلم والدي أختي فجأةً بأنه عليها الانتقال من المنزل، رغم حقيقة أنه لم يكن لديها مكان آخر لتذهب إليه.

رغم أنني لم أخبر أحداً، بدأت أتساءل في نفسي عن مدى صحة أن أبي لم يكن مصاباً بالكآبة فقط إنما كان يعاني من مرض عقلي أيضاً.

* * *

في شهر كانون الأول، علم والدي أن المرأة التي كان يواعدها - وهي المرأة الأولى التي واعدها منذ وفاة والدتي - لم تكن مطلقة فعلاً. بل كانت منفصلة عن زوجها فقط، وكانت تستغل والدي من أجل القليل من المال الذي كان يملكه. عند نهاية العلاقة، كان والدي غارقاً في الدين. عندما لم يعد قادراً على دفع ثمن أي شيء آخر، قطعت المرأة اتصالها به كلياً، ولا أعلم إن كان والدي قد استمر بالاتصال بالمرأة فأصبحت أخيراً سئمة من إلحاحه أو أن الأمر كان مصادفة، ولكن زوجها علم في نهاية المطاف بشأن العلاقة. كان الزوج ضابط شرطة ضخم الجثة، وقد هدّد والدي في مدخل منزل والدي. فكان والدي مرعوباً من المواجهة وحتى خائفاً على حياته.

لقد كان تطور الأحداث هذا هو ما حطمه عاطفياً على ما أعتقد.

منذ تلك المرحلة، باشر والدي انحداراً لولبياً نحو الأسفل، ولم يكن يزداد إلا سوءاً مع الوقت. كان مزاجه وأسلوبه حادّين، ولم يصبح غاضباً فقط ولكن مصاباً بجنون الارتياب أيضاً. إذ لأنه لم يكن يستطيع الذهاب إلى الشرطة - فما هو الشيء الجيد الذي كان من الممكن أن يفعلوه؟ - قام

بشراء مسدساتٍ وذخيرةٍ حربية عوضاً عن ذلك. وطلب من أختي أن تنتقل من المنزل. وعندها، اشترى كلباً يدعى فلايم.

كان فلايم، وهو كلب رعي ألماني، قد درّب من أجل العمل في الشرطة. لكن بسبب طبيعته المتقلبة، لم يكن من الممكن استخدامه. رغم أن فلايم كان متعلقاً بوالدي، فقد كان يجعل الآخرين جميعاً متوترين. إذ كان الكلب يهدر ويعض بشكلٍ عشوائي، ولم يكن من الممكن الوثوق به. كانت شخصيته السريعة الغضب، مجتمعةً مع عدم استقرار والدي، تكوّن مزيجاً خطراً.

خلال الأشهر الأولى من العام 1994، كنت أتحدّث وأخي على الهاتف بلا انقطاع بخصوص أختنا ووالدنا متسائلين إن كان هناك أي شيءٍ يمكننا فعله.

سألت: "هل ينبغي عليَّ أن أدعو دانا لتسكن معنا؟"

فأجاب: "كلا، لا تستطيع ذلك، فأطباؤها هنا".

"ماذا عن والدنا؟"

"إنه قاسٍ بحيث إنها لا تستطيع العيش معه بعد الآن، وللصراحة، لا أريدها فعلاً أن تعيش هناك أيضاً، فهو يصبح غريباً هذه الأيام، ومع فلايم... كلا، لا تستطيع دانا أن تعيش هناك، وخاصة إذا أنجبت أطفالاً".

"هل يمكنها أن تقيم معك؟"

"طلبت منها، ولكنها قالت إنها لا تريد ذلك. فهي تقول إنها تستطيع أن تتولّى الأمر بنفسها، إذ إن صديقتها أولغا لديها غرفة صغيرة تستطيع دانا أن تستأجرها".

كانت أولغا تعيش في منزل المزرعة القديم حيث كنا نأوي خيولنا، وكانت تعرف دانا منذ سنوات.

"كيف ستتولّى أمر نفسها؟ فليس لديها عمل ولا زوج ولا مال وتعاني من ورمٍ دماغي...".

"أعلم هذا، وأحاول أن أقول لها ذلك".

"وماذا تقول؟"

"تقول إنها ستنجح. فهي ليست قلقةً على الإطلاق. وهي تشعر بالإثارة حيال إنجاب الأطفال".

"كيف يمكنها ألا تقلق؟ ماذا إذا تعرضت لنوبةٍ ولم يكن هناك أحد بالقرب منها لمساعدتها؟"

"لديها إيمان أن كل شيءٍ سينجح".

فتردّدت، ثم قلت: "هل تعتقد أن ذلك كافٍ".

فأجاب: "لا أعرف".

لحسن الحظ، نجحت أختي خلال فترة حملها بدون أية أحداثٍ هامة. في شهر أيار من العام 1، وضعت توأمين ذكرين متمتعين بالصحة الجيدة، وأطلقت عليهما اسمي كودي وكول. خلال أسبوع من ولادتها، عادت لتخضع للأدوية المضادة للنوبات. بدأت تعتني بالطفلين في الغرفة الضيقة التيً كانت تسمّيها بيتاً. كنت وميكا نرسل لها المال، فكان بطريقةٍ ما يكفيها للعيش. نامت دانا والتوأمان لمدة شهرين على فراشٍ يمكن طيّه على أرضية من الخشب. مع ذلك، وبحلول نهاية الصيف، تصالحت أختي مع بوب، وقرّرت أن تنتقل للعيش معه حتى يستطيع الصبيان العيش مع والدهما، ومما فاجأنا، أنها لم تكن قد أخبرته أنها حامل إلا قبل ولادة التوأمين بفترة وجيزة.

في غضون ذلك الوقت، كان والدي مكرساً معظم وقته للعمل مع الكلب. ورغم صحة أختي الجيدة ظاهرياً، لم يزدد غضبه إلا سوءاً. ففي فترة الستة أشهر تلك، بدأ يجعل نفسه غريباً عن بقية عائلته البعيدة. كان يرفض تلقّي المكالمات من والدته أو والده أو إخوته. وإذا أرسلوا له رسالةً أعادها غير مفتوحة. ولم يكن يتحدّث معي أو مع دانا أو ميكا حول أسبابه في استبعادهم من حياته. إذا سألناه عما يجري، كان يغضب منا - إلى حدّ الهجوم النووي مباشرة - كان يقول لنا من خلال أسنان تصرّ "إن الأمر ليس من شأننا اللعين". مهما كان السبب، كان يبدأ بلوم عائلته على كل المشاكل التي صادفها في حياته. مع ذلك، ففي غضون ذلك الوقت كنت أمرّ بالكثير من المسرّات والأحزان بحيث إنني كنت أعتقد أن والدي سيتخطى ذلك أيضاً.

اكتشفت في نهاية المطاف، أن والدي كان قد بدأ يعرض نفسه على طبيبٍ نفسي في ذلك الوقت، الأمر الذي اعتقدت وأخي أنه سيساعده. لكن والدي، مما استطعت إدراكه وحدي، كان يحافظ على حياةٍ تشبه حياة "الدكتور جيكل ومستر هايد" لسنوات. إذ كان يستطيع خداع الناس - وبالفعل، لم يكن أحد في العمل يذكر على الإطلاق أن أي شيء كان يبدو خاطئاً - وأعتقد أنه كان قادراً على خداع الطبيب النفسي أيضاً. فعوضاً عن وصف مضادات الاكتئاب لوالدي مما أعتقد أنه كان لينفعه، وصف له الطبيب عوضاً عن ذلك حبوب الفاليوم مما جعل الأمور أسوأ وحسب.

مع عودة دانا وبوب إلى بعضهما، وكون التوأمين بصحة جيدة، ووالدي الذي كان يجعل اتصاله بنا محدوداً - دون أن يقطعه رغم ذلك - كان ميكا مركزاً على عمله ومتفوقاً في وظيفته ومستمراً بالمواعدة.

أما بالنسبة إلي، وأنا على بعد ثلاثة آلاف ميلٍ عن بقية عائلتي، استمرت الحياة كالمعتاد باستثناء صغيرٍ واحد. إذ بعد أن احتفلت وكات مباشرةً بعيد زواجنا الخامس، بدأت الكتابة مجدداً مستلهماً أفكاري من جديّ زوجتي.

خلال عامي 1993 و1994، كنت وأخي نرى بعضنا البعض كثيراً رغم المسافة التي تفصلنا. إذ كانت شركة المستحضرات الصيدلانية التي كنا نعمل فيها تعقد اجتماعات مبيعاتٍ قومية لتعزز إصدارات منتجاتها الجديدة. بالإضافة لذلك، كانت جلسات التدريب تتمّ إدارتها خارج المكاتب المحلية في نيوجرسي، فكنت وميكا لا محالة ينتهي بنا الأمر في نفس الجلسات. كان أيضاً يزورني في كارولاينا الشمالية، وكنت أنجح في الذهاب إلى كاليفورنيا مرة في العام على الأقل. كالمعتاد، كنا نتحدّث عن دانا ووالدي. ولأن أخي كان القناة الوحيدة التي كنت من خلالها أتابع المجريات في العائلة، فقد كنت بحاجةٍ للتحدُّث معه. ولأنني كنت الوحيد الذي كان يمكنه التحدُّث بحرية معه، كان هو بحاجةٍ للتحدُّث معي أيضاً.

في أواخر العام 1994، كنا في مؤتمر مبيعاتٍ قومي، وكنا نسترخي بعد يومٍ من الاجتماعات، عندما أثيرت نفس المواضيع.

سألت: "كيف حال والدي؟"

"مَن يدري. ولكنني أعتقد أنه التقى بامرأةٍ جديدة وأنه يواعد مجدداً".

"هل يذهب لرؤية التوأمين".

"كلا".

"هل سألته عن السبب؟"

"إنه يفضل قضاء العطلة الأسبوعية مع كلبه".

"إنه لم يقل ذلك".

"ليس بكلماتٍ كثيرة، ولكن هذه هي الطريقة التي يتصرّف بها. وكأن الأمر أن الكلب وتلك المرأة الجديدة هما الأمران الوحيدان اللذان أصبح يهتمّ بهما".

"ألم يذكر أية كلمة عن سبب أنه لا يريد التحدُّث مع عائلته؟"

"كلا".

"ولكنه يواعد".

"نعم، هل تصدق ذلك؟ أعتقد أنه يتحسّن. لكن عندما تنظر إلى الصورة بأكملها..." وتابع بدون تفكير قائلاً: "آمل أن يتخطى هذا الأمر، ولكنني هذه المرة لست واثقاً إلى هذا الحدّ. إذ إنه يبدو غاضباً طوال الوقت".

"كيف حال دانا؟"

"إن الطفلين يبقيانها منشغلة. كان تصويرها الطبقي المحوري الأخير جيداً، وليست هناك دلالة على وجود الورم. ولكن يا صاح، عليك أن ترى هذين الصبيين، فهما ظريفان جداً. هذا يجعلني تقريباً أرغب بإنجاب الأطفال".

"تقريباً؟"

فقال بسرعة: "ليس الآن، أعني في غضون بضع سنوات".

فضحكت.

سأل ميكا: "ماذا تظن بخصوص كل الشائعات عن شراء الحصص والدمج التي كنا نسمعها مؤخراً؟"

فقد كنا قد سمعنا أن أميركان سيناميد - وهي الشركة الأم لشركة ليديريل لابز - يفترض أنها قد تُباع. هكذا فإن كل من حضروا الاجتماع كانوا قلقين بشأن احتمال خسارة وظائفهم.

"مَن يدري، فكل ما هو مقدَّر سيحدث. وبعد كل شيءٍ مررنا به، إنني واثق أننا سنقف على أقدامنا".

بعد أقل من أسبوعين من الاجتماع، وبينما كان عام 1994 على وشك الانتهاء، علمنا أن الشركة سيتم شراؤها من قبل شركة أميركان هوم برودكتس. في شهر كانون الثاني، بدأت الشركة عملية إعادة البناء البطيئة. وللحفاظ على وظيفتي، كان عليَّ الانتقال إلى غرينفل في ولاية كارولاينا الجنوبية. وقد عرضت على ميكا وظيفة في جنوب لوس أنجلوس بالضبط، وفيما قبلت بالانتقال مرغماً، قرّر أخي التخلي عن وظيفته.

قال لي: "لا أستطيع المغادرة. فهذا هو موطني. وبالإضافة لذلك، لا أستطيع ترك دانا ووالدي".

"ماذا ستفعل؟"

"على الأرجح سأعود إلى العقارات وأرى ماذا يحدث. كيف تجري الأمور مع روايتك؟"

"إنها على وشك الانتهاء. أعني، قبل مراجعتها".

"وهل ستحاول نشر هذه الرواية؟"

"أعتقد ذلك".

"هل هي أفضل من الروايتين اللتين كتبتهما أولاً؟"

"أعتقد ذلك".

"هيه، ربما ستخرج من عمل المستحضرات الصيدلانية قريباً، أيضاً".

فتنهدت قائلاً: "ربما، سنرى كيف ستجري الأمور. فقد تخلّيت عن محاولة توقع المستقبل".

الفصل الخامس عشر

مدينة لاليبيلا في إثيوبيا
9 - 10 شباط

بدأنا الصباح في جايبور، واستقلينا الطائرة إلى آغرا لرؤية تاج محل. وفي وقتٍ لاحق، عصر ذلك اليوم، استقلينا الطائرة مرة أخرى لرحلتنا إلى أديس أبابا في إثيوبيا. فوصلنا في وقتٍ متأخر، وهبطنا بعد حلول الظلام.

حتى في الظلام، فاجأتنا أديس أبابا. إذ كانت انطباعاتنا عن إثيوبيا قائمةً إلى حدٍّ كبير على ما كنا قد شاهدناه في التلفزيون أو قرأنا عنه في الصحف. أعتقد أنني تخيّلت مدينة شبيهة ببنوم بيه أو حتى جايبور. لكن أديس كانت أشبه بكثيرٍ بليما وقد استوقفنا جوّها العالمي، وكانت هناك أحزمة خضراء طويلة مشذبة جيداً تحاذي الطريق العام الرئيسي، كانت الشوارع نظيفة ومضاءة جيداً ومستخدمة للسيارات وحسب. وللمرة الأولى منذ أسابيع، رأينا عناصر من الثقافة الأميركية، مثل لوحاتٍ إعلانية تروّج لكوكا كولا وسراويل الجينز من ماركة غاب.

كان دليلنا يتحدّث لغةً إنكليزية ممتازة. وعندما سألناه عن المدينة أومأ برأسه، وقال:

"نعم، أديس مدينة حديثة، ولكنها بشكلٍ طبيعي ليست نظيفةً إلى هذا الحدّ".

"ماذا تعني؟"

"في الأسبوع الماضي، عقد اجتماع كبير للدول الأفريقية. لذا كانت الحكومة تنظف المدينة لأسابيع خلت لتعطي انطباعاً جيداً".

ورغم ذلك، فهناك فقط الكثير من التنظيف يمكن للمرءِ القيام به. كانت أديس أبابا - من الخارج على أية حال، تبدو بشكلٍ مدهش مما يدعو للصدمة - ثريةً مقارنة بالمدن التي زرناها مؤخراً.

في الصباح، ركبنا عائدين إلى المطار. واستقلينا طائرتين عاديتين من أجل رحلتنا إلى لاليبيلا.

لاليبيلا هي الموطن الروحي للكنيسة الأرثوذكسية الحبشية أو (الإثيوبية)، ولكنها تشتهر أكثر بكنائس الكهف "المنوليثي" المنحوتة في القرن الثالث عشر. كان الملك لاليبيلا قد أمر ببنائها مستخدماً أربعة آلاف من العبيد، فتمّ نحت إحدى عشرة كنيسةً في الصخر. وما يجعل الكنائس فريدة من نوعها هو أنها ليست موضوعةً فوق الأرض، وعوضاً عن ذلك، فقد تمّ نحتها داخل الأرض

بحيث إن خطوط سطح الكنائس هي على مستوى الأرض.

كان المطار حيث هبطنا يقع في وسط المجهول، وكان محاطاً بقمم الهضاب الإثيوبية. إلى جانب المطار، لم تكن هناك أية مبانٍ أخرى على الإطلاق. وكانت الأرض تذكرنا بنيفادا الجنوبية قربٍ سلسلة جبال (سييرا). كانت أشجار قليلة تنمو في التربة الصخرية، وكانت شجيرات منخفضة ممتدة على طول الوادي إلى آخر ما تستطيع العين أن ترى.

علمنا أن لاليبيلا كانت على بعد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً، ويبلغ ارتفاعها ألفي قدم عن سطح البحر. كان الطريق المتعرج المكسو بالإسفلت مشقوقاً عبر الوادي وعلى طول القمم، وخلال الساعة التي استغرقناها للوصول إلى وجهتنا، لم نرَ أية سيارة أبداً.

مع ذلك، فقد رأينا صبياً صغيراً يبلغ حوالى عشر سنوات من العمر على بعد ثمانية أميال عن لاليبيلا. كان يمشي وهو يحمل حقيبة من الخيش ممتلئة بشكل هائل بفحمٍ كان ينوي إيصاله إلى المدينة. كانت الحقيبة، وهي أطول وأعرض من الطفل في آن معاً، مربوطةً إلى ظهره، وكانت تبدو أثقل من الطفل نفسه بعدة مرات. عندما شاهد حافلتنا مارةً، ابتسم ولوح محيياً قبل أن يتابع سيره البطيء نحو المدينة.

كان معظم لاليبيلا يقع خارج الطريق العام الرئيسي على طول طرقٍ وعرة مفروشة بالحصى. كانت بيوتها المبنية من اللبن ذات سقوف مصنوعة من القش وتُظهرُ نوافذ زجاجية قليلة. لكن لاليبيلا كانت تفتخر بأماكن عديدة لتناول الطعام، وأماكن عمل صغيرة تملكها عائلات، ودكاكين تذكارات. كان كل واحدٍ رأيناه تقريباً يرتدي ملابس غربية. وكان عدد من الطاولات التي تحاذي الطرق يعرض قمصاناً متنوعة معظمها مزين بالشعارات الأميركية. كانت لاليبيلا كلياً فخاً سياحياً إثيوبياً.

توقفت حافلاتنا قرب الكنائس المنحوتة في الصخر. حالما نزلنا من الحافلة، حوصرنا من قبل المراهقين. وخلافاً للأماكن الأخرى التي زرناها، لم يكن معهم أشياء صغيرة للبيع. وعوضاً عن ذلك، كانوا يطلبون المال. فكان كل طفلٍ يأتي إلينا ليخبرنا أنه يحتاج المال إما ليلتحق بالمدرسة أو ليشتري الكتب التي يحتاجها للمدرسة التي يرتادها حالياً.

في النهاية، أجبرهم الحراس الإثيوبيون على التراجع بعدما هدّدوهم بالعصي.

كانت لاليبيلا هي إحدى أقل المواقع التي زرناها شهرة، وكان القليل منا يعرف ما يتوقع. ولم يخب أملنا. فكان المقدار الضخم من العمل الذي كان البناء بحاجةٍ إليه - وهو حرفياً الحفر عبر الصخر يدوياً - واضحاً حالما حدّقنا في الكنيسة الأولى التي زرناها. إذ كانت أكبر بكثيرٍ مما تخيّلنا. وبطول ستين قدماً وعرض أربعين قدماً على الأقل، كانت محاطةً بسقالاتٍ حديثة تدعم سقفاً على القمة.

أعلمنا الدليل بقوله: "إن السقف مبني لمنع التسربات ولحماية الكنيسة من التعفن".

قضينا الساعات القليلة التالية ونحن نتجول من كنيسةٍ إلى أخرى. كانت الكنائس مظلمةً من الداخل. وكان القليل منها يحتوي على نوافذ. ورغم أنّ أضواء النيون كانت معلقةً في الداخل، إلا أنها كانت بالكاد تخترق الظلام. كانت الأرضيات زلقة، فقد صقلتها ثمانمائة سنة من الاستخدام حتى أصبحت مصقولة كالجليد، ولأن الكنائس ما تزال مستخدمةً اليوم فقد وضعت البسط في أنحاء المكان. ولسوء الحظ، لم تكن تغطي الأرضية بكاملها فكنا نتحرك ببطءٍ كالعميان في محيط غريب، وذلك لنحمي أنفسنا من الوقوع.

إجمالاً، قضينا ثلاث ساعات في لاليبيلا. وقرب نهاية زيارتنا، تجولت وميكا لالتقاط الصور. ولأن

الكنائس كانت مختلفة إلى هذا الحدّ عن كل شيء شاهدناه حتى ذلك الوقت - فهي منحوتة الصخر أكثر منها مبنية الصخر - فقد حاولنا إيجاد النقاط الأفضل التي استطاعت لفت انتباهنا بكونها فريدة من نوعها.

تركت زيارتنا إلى الكنائس ميكا صامتاً بشكلٍ غريب. وبينما كنت ألتقط صوراً سريعة في الأنحاء، ذهب ليجلس على أحد الأفاريز التي تشرف على الموقع. فمشيت إلى هناك لأنضم إليه.

سأل ميكا أخيراً: "إذاً، ما رأيك بهذا المكان؟"

"إنه يستحق المشاهدة، إن كان هذا ما تعنيه".

"إنها ليست تماماً كالكنائس التي لدينا في الديار، أليس كذلك؟"

"لا أعتقد أن الأطفال سيعجبون بكونهم مضطرين للوقوف طوال الوقت أثناء القدّاس".

فابتسم قائلاً: "هل أنت مسرور لأنك لا تزال تذهب إلى القداس؟"

"مقابل ماذا؟"

"مقابل الذهاب إلى كنيسةٍ مسيحية أخرى؟"

ففكّرت بالأمر، وقلت: "نعم، إنني مسرور. ولكن كات كاثوليكية أيضاً، لذا فلم نفكر أبداً بالتغيير".

"تعجبني الكنيسة التي أذهب إليها الآن، أو التي اعتدت الذهاب إليها، على أية حال".

"لماذا؟"

"لا أدري، أعتقد أنني أشعر بالملل وحسب يبدو القدّاس دائماً نفسه. ولا أستطيع ربط المواعظ بحياتي".

"هل تعتقد أنك ستشعر بهذا الشعور مجدداً؟"

"لا أدري".

فوضعت ذراعي حول كتفه، وقلت: "هذا يحدث لي أيضاً".

"وماذا تفعل؟"

فهززت كتفي، وعرضت قائلاً: "أعمل".

فضحك قائلاً: "نعم، فتوازنك مضطرب كلياً".

فقلت: "وأنت أيضاً. العمل والروحانية والعائلة والصداقات والصحة؛ لا يمكنك تجاهل هذه الأشياء أو أن الأمر سيصل بك إلى النهاية".

"هل تقول إنني سيئ بقدرك؟"

فقلت: "بالطبع، فنحن أخوان. وردّة فعلنا تجاه التوتر مختلفة، ولكن بصراحةٍ، أعتقد أن أوضاعنا متشابهة أكثر مما تدرك. إذ إننا مررنا بنفس الأشياء، أليس كذلك؟"

بحلول أوائل العام 1995، بدا وكأن مرض أختي أخذ بالانحسار بعد عامين من العلاج وكانت قد أصبحت أماً. واستمرّت نتائج تصويرها الطبقي المحوري تأتي جيدة. ومع مرور كل شهر، كان قلقنا يصبح أقل. إلا أننا نحن الأخوة جميعاً كنا نصبح أكثر فأكثر قلقاً بشأن والدنا.

فقد كان سلوكه خارج العمل يزداد سوءاً. إذ رغم كونه غارقاً في الدين، بدأ ينفق النقود بجنون. فجدد المنزل، واشترى سيارة جيب جديدة، وكلما كان يتحدّث على الهاتف معنا كان اهتمامه الوحيد يبدو هو التحدّث عن كلبه فلايم. بالرغم من أنه كانت لديه صديقة جديدة فقد كان يبدو أن عالمه يدور حول الكلب.

استمرّ انعزال والدي عن عائلته، فقد كنت غالباً أتلقى اتصالاتٍ من بعض الأقارب وهم يتساءلون عما يجري. ورغم ذلك، لم يكن لديَّ شيء أقوله باستثناء أنني لم أكن أفهم ما كان يجري أكثر منهم. كان بعيداً ومتوتراً كلما كنت أتصل به. أصبحت محادثاته مع كات قصيرة، أما دانا فكانت مشغولةً مع التوأمين وتعيش في الجانب البعيد من البلدة مما جعل الاتصال بينهما قليلاً.

حتى أن ميكا كان يعاني من مشكلةٍ في فهم ما كان يجري. فعندما كان يلح على والدي، كان يقسم أنه سعيد، وأن العمل كان على ما يرام، وأنه يحبّ العطل الأسبوعية مع الكلب ومع صديقته. إلا أنه وبعد مرور عشرين دقيقة عن سؤال ميكا وانتقالهما إلى مناقشة أمور أخرى كان والدي ينطلق فجأة نحو ديفكون 5، ويلتفت نحو ميكا وهو يتحدّث بغضب:

"ليس لك شأن بحياتي على أية حال، لذا لِمَ لا ترحل من هنا!"

غريب. مؤلم. مقلق.

رغم ذلك، فقد كنت وكات بعيدين جداً عن الموقف، بحيث إننا لم نكن نعرف القصة الكاملة حتى مرّت سنوات. مجدداً اضطررنا للانتقالٍ من محل إقامتنا بينما كنا نربّي صبيين صغيرين. فطوال الشهرين التاليين، كان على كات البقاء في نيوبيرن لمحاولة بيع المنزل، فيما كنت أعيش بصورة مؤقتة في شقة صغيرة في غرينفل. كنت خلال النهار أعمل على تأسيس منطقة جديدة. أما في المساء، فكنت أقود السيارة في الأنحاء بحثاً عن منزلٍ نستطيع شراءه. في العطل الأسبوعية، كنت إما أتوجّه عائداً إلى البيت في نيوبيرن، أو كانت كات تأتي إلى غرينفل لتعاين البيوت التي وجدتها.

بحلول نهاية شهر أيار، انتقلنا أخيراً إلى بيتنا الجديد في غرينفل. قضينا الأسابيع القليلة الأولى ونحن نتعرّف على جيراننا، ونتعرّف على تخطيط البلدة، ونُنشئ صداقاتٍ جديدة. كان مايلز دائماً ودوداً، وكان يقابل الكثير من الأطفال، وغالباً ما كان يلعب معهم. أما راين، الذي لم يكن قد بلغ الثانية من العمر بعد، فلم يكن قد تعلّم الكلام بعد، وكان يبدو أكثر استبطاناً. كان يبدي القليل من الفضول الذي كان لدى مايلز عندما كان في مثل سنه، كان غالباً يبدو وكأن ذهنه في مكانٍ آخر. كان يصرخ رعباً كلما كنا نضعه في السيارة، ونادراً ما كان يستجيب عندما كنا نحاول لفت انتباهه. عندما ناقشنا الأمر مع طبيب الأطفال، قال لنا ألا نقلق، وطمأننا أن راين سيتخطّى ذلك بمرور الوقت.

قال: "إنه لم يبلغ الثانية بعد. امنحاه بعض الوقت وحسب".

في شهر تموز، بدأت عملية اجتذاب الوكلاء الأدبيين. فأرسلت خمساً وعشرين رسالة، وكانت الوكيلة الأولى التي ردّت وهي تيريزا بارك راغبةً بالعمل معي على الرواية. أما الوكلاء الأربعة والعشرين الآخرين فتخطّوا المشروع، وبحلول تشرين الأول من العام 1995، كانت الرواية جاهزة.

باستثناء القلق بشأن والدي والانتقال، كان العام هادئاً حتى ذلك الوقت. فقد خضعت أختي لتصوير طبقي محوري سلبي آخر - إذ كان يتم فحصها كل ثلاثة أشهر - وكان أخي يبلي حسناً في مجال العقارات. كان والدي، وإن كان يكابد في حياته الشخصية، يؤدي عمله بشكلٍ سلس على ما يبدو في حياته المهنية. لوقتٍ قصير، بدت الأمور طبيعية تقريباً. وبالنظر إلى الماضي، أدرك الآن أنّ الأمر كان مجرد هدوء ما قبل العاصفة.

كان لديَّ ولدى وكيلتي آمال كبيرة حيال الكيفية التي سيتم فيها تلقي الرواية. كانت الآمال شيئاً

والواقع شيئاً آخر. ففي أعماقي، كنت أعرف أنني سأكون مسروراً إذا تمكنت من تأمين مالٍ مدفوع سلفاً كافٍ لتسديد فواتير بطاقة الائتمان، أو ربما لشراء سيارة لائقة لزوجتي. فكان أي شيء يمكنه أن يساعد، فقد كنت أعيش أسلوب حياة الطبقة الوسطى النموذجي مع نفس القلق بشأن الميزانية ككل شخص آخر في الجوار. كان الرهن على المنزل بقيمة 125.000 دولار.

كانت الرواية، وعنوانها دفتر الملاحظات، قد تمّ إرسالها إلى الناشرين في يومي الخميس والجمعة. في يوم الاثنين، أصغيت لرسالةٍ تركتها لي وكيلتي على بريدي الصوتي في العمل، وكانت تطلب مني الاتصال. كان ذلك قبل الظهر بقليل، وكنت أستعد لمأدبة غداء صغيرة في إحدى عيادات الأطباء، وكنت قد أحضرت الطعام كله، وأعددت كل شيء. كنت بانتظار الأطباء لينتهوا من مرضاهم الصباحيين لكي أتمكّن من إخبارهم عن فعالية مضادات الجراثيم ومضادات ارتفاع ضغط الدم التي تصنعها شركة ليديريل.

طلبت رقم وكيلتي مستخدماً هاتف العيادة فدخلت في الموضوع مباشرة.

قالت: "لديك عرض من دار النشر وارنر بوكس". وكانت تبدو منقطعة النفس بعض الشيء على الهاتف.

"وماذا؟"

فقالت: "ترغب وارنر بوكس بأن تعرض عليك مليون دولار مقابل الكتاب".

فطرفت بعيني بدهشة، وأنا أضغط الهاتف بقوة على أذني. طلبت منها أن تعيد ما قالته معتقداً أنني قد سمعتها بشكلٍ خاطئ، ففعلت. كان كل ما استطعت فعله هو الجلوس على الكرسي دون الوقوع على الأرض مغمياً عليَّ.

بضربةٍ واحدة، وقبل أقل من شهرين من ذكرى ميلادي الثلاثين، أدركت أنني أصبحت لتوِّي مليونيراً.

كيف يُفترض بي أن تكون ردة فعلي في موقف كهذا؟ إذ لم تكن لديَّ ولا لدى كاثي فكرة. مع ذلك، يمكنني القول إنه حتى مع أنني جعلت وكيلتي تعيد الرقم ليس مرتين ولكن مرات، كنت ما أزال أعتقد أنني بطريقةٍ ما مخطئ في ما سمعته. بعد دقائق قليلة، على أية حال، تحدّثت ووكيلتي مجدداً، وأعلمتني أن الصفقة قد تمّ الاتفاق عليها.

اتصلت بكات على الفور، ولكنها لم تكن موجودة، كما أن ميكا لم يكن موجوداً عندما حاولت الاتصال به - فقد صدف أنه كان خارج البلدة - كما أنني لم أتمكّن من إيجاد دانا أو أبي. لم يكن أحد منهم في البيت. ومع كون خبر البيع ما يزال يفور في داخلي، بدأ الأطباء أخيراً بالوصول إلى المأدبة. ورغم الخبر المزلزل الذي تلقيته، أجبرت نفسي بطريقة ما على التحدُّث إليهم عن المستحضرات الصيدلانية.

في وقتٍ لاحق، عندما اتصلت بكات، كانت مذهولة. في لحظات الإثارة، تبدو لكنة نيوهمبشير لدى زوجتي ملفوظةً بوضوح.

فصاحت مدهوشةً: "كلا، كلا".

فصحت مجيباً: "نعم".

حتى والدي، عندما قلت له الخبر، بدا أنه يشعر بالإثارة حقيقةً من أجلي. وبعد التحدُّث معه، قضيت معظم الأمسية وأنا على الهاتف أتحدّث مع عدة أقارب. كان ميكا تقريباً آخر شخصٍ تحدّثت إليه ذلك اليوم، فصمت لوقتٍ طويل بعد أن قلت له الخبر أخيراً.

قال أخيراَ: "إنك تمزح".

"إنه غير حقيقي، أليس كذلك؟"

"مليون دولار؟ مقابل كتابٍ ألفته؟"

"أيمكنك تصديق ذلك؟"

"ليس الآن، في هذه اللحظة. ولكن امنحني ثانية". وتنفَّس عبر الهاتف.

تمتم قبل أن يتوقّف مجدداً: "هذا... لا يصدق!"

رغم كوننا مقربين كما كنا، لم نكن منيعين ضد التنافس الأخوي. منذ تخرّجنا، كان ميكا دائماً أكثر نجاحاً في مهنه المتنوعة مما كنت أنا. لطالما كان الأمر منطقياً بالنسبة لكلينا، فقد كان هو الأخ الأكبر - وباستثناء المدرسة ومضمارِ السباق - كان أكثر نجاحاً في كل شيء. لقد كان سعيداً من أجلي، ولكنني كنت أعلم أنه كان جزئياً يتمنى أن يتعلق الخبر به هو.

رغم ذلك، كان ميكا قادراً على وضع هذا كله جانباً، فكانت كلماته التالية تعني لي أكثر من أي شيءٍ قاله لي أي أحد آخر.

"إنني فخور بك، يا أخي الصغير. لقد أبليت حسناً".

"شكراً، يا ميكا".

"والآن، بقي شيء واحد وحسب".

"ما هو؟"

"عليك أن تساعدني لأكتشف كيف أجني مليوني. فأنت جنيت مليونك، لذا أعتقد أنه عليَّ الآن أن أفعل ذلك أيضاً".

رغم أن مبلغ المال كان يبدو صاعقاً، فقد قرّرت أن أحتفظ بوظيفتي كوكيلٍ للمستحضرات الصيدلانية. إذ لم أكن أعرف كم كان الكتاب سينجح حالما يتمّ إصداره، ولم أكن أعرف ما إذا كنت سأستطيع تأليف كتابٍ ثانٍ. كنت وكات ننظر إلى كسبنا غير المتوقّع بنفس الطريقة التي كنا سننظر بها لو ربحنا اليانصيب. عدا عن شراء سيارةٍ من طرازٍ "فورد إكسبلورر" مستعملة، وتسديد ديون بطاقة ائتماننا، وخاتم زفاف جديد لكات، لم ننفق شيئاً مما كسبنا بغير توقّع. فلقد تركتنا سنوات الفقر حذرين إلى أقصى حدّ. فقرّرنا أن المال سيذهب في ثلاثة اتجاهات: رهننا، واعتمادات مالية من أجل دراسة الأطفال الجامعية، والتقاعد.

مع ذلك، كانت أشهر تشرين الثاني وكانون الأول مثيرة، وكان هناك الكثير من الأمور الجديدة - نوادي كتاب، وبيع الحقوق لدولٍ أجنبية ولشركة نيو لاين للإنتاج السينمائي، وحتى عملية التحرير - فكان هناك كل يوم شيء جديد ومثير لأشاركه مع كات.

بالرغم من ذلك، فباستثناء تلك المحادثات، كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي. فحلّت ذكرى الشكر وانقضت، وحلّت ذكرى ميلادي وانقضت. وأتى تصوير دانا الطبقي المحوري جيداً - مما شكّل ثلاث سنوات - واتصلت بي يوم ذكرى ميلادنا لتغني لي. وعلمنا أن والدي كان لا يزال يرى صديقته، ويبدو أنه ينسجم جيداً معها.

في شهر كانون الثاني من العام 1996، كان مايلز قد بلغ الرابعة ونصف، وكان راين أصغر بعامين، عندما أحضرنا مايلز إلى الطبيب لإعداده لعملية استئصال اللوزتين التي كان يفترض به أن يخضع لها في اليوم التالي. وفيما كان الطبيب يتحدّث إلى مايلز، كان راين يقف بهدوءٍ بيني وبين

زوجتي. ولم تستغرق الاستشارة وقتاً طويلاً. وعندما التفت الطبيب ليغري راين بالمحادثة، لم يقل راين شيئاً.

لم يفاجئني هذا ولا فاجأ كات. إذ إنّ راين لم يتعلّم الكلام بعد كما شرحنا للطبيب، فقام بمجرد الإيماء برأسه. ومع ذلك، فقبل أن نوشك على المغادرة مباشرة سألنا الطبيب إن كان بإمكانه التحدُّث مع راين وحده لبضع دقائق.

فقلنا: "بالطبع". ولم نفكر بشيءٍ في الأمر. واعتبرنا أن الطبيب كان سيعطيه مصاصةً أو يريه بعض الأدوات الموجودة في العيادة.

مع ذلك، فبشكلٍ غريب بقي باب الطبيب مغلقاً لحوالى عشر دقائق. عندما أخرج راين أخيراً من عيادته، لم نستطع منع أنفسنا من ملاحظة التعبير القلق على وجهه.

فسألت: "ماذا حدث". كنت أعرف الطبيب جيداً. إذ كنت أزور عيادته لعدة أشهر كوكيلٍ للمستحضرات الصيدلانية، وكنت أعتبره صديقاً جيداً.

"لقد قضيت وحسب بعض الوقت مع راين، وأنا أدرس بعض الأمور...".

توقّف وهو يأخذ نفساً عميقاً، وألقى نظرةً خاطفة على راين ثم نظر إلينا مجدداً.

قال ببطء: "أعتقد أن راين قد يكون مصاباً بالتوحد".

.

كان كل ما استطعت وكات فعله هو التحديق به. فانقلبت معدتي، وفجأةً كان بالكاد باستطاعتي التنفس، شحبت وجنتا كات، وشعرنا بالغرفة تنطبق علينا. كان راين واقفاً إلى جانبنا ونظرته عليها غشاوة ومشوشة. فقد كنا نعرف أنه لم يكن يستطيع الكلام - حتى أننا كنا قلقين بما يكفي للتحدُّث إلى طبيب الأطفال، ولكننا كنا قد أقنعنا أنفسنا أنه ليس هناك شيء خطير - فقد أخبرنا أنه

.

لكن هذا؟

لقد كانت هذه، ما زلت أعتقد، الكلمات الأكثر رعباً التي يمكن لوالد أن يسمعها. إذ كنا نعرف بشأن التوحد. مَن لم يشاهد فيلم رجل المطر؟ أو لم يقرأ عن التوحد في المجلات أو لم يشاهد برامج عنه في التلفزيون؟ فحدّقت في راين. هل كان ذلك ابننا؟ ؟ ؟

فكّرت مباشرة: كلا، الطبيب مخطئ. راين ليس مصاباً بالتوحد. فهو لا يمكن أن يكون كذلك؟ لقد كان بخير، ولن أصدق هذا، لا أستطيع تصديق هذا. ولكن...

كنت، في أعماقي، أعرف أنه كان هناك خطب ما به. فقد كنت وكات نعلم أنه لم يكن على ما يرام لأشهر. ولكننا لم نتخيّل أبداً أن الأمر يمكن أن يكون خطيراً. لا يمكن أن يكون هذا. أرجوك يا إلهي ليس هذا.

وتلعثمت وأنا أقول: "ماذا تعني؟"

"إنه اضطراب...".

"أعلم ما هو. ولكن لماذا؟ ... كيف؟ ...".

شرح الطبيب بصبرٍ ما قد رآه في العيادة: الافتقار إلى الاتصال البصري، والافتقار إلى القدرة على الفهم، وعدم القدرة على الكلام، والتركيز المكثّف على الأشياء الملونة، والافتقار إلى المهارات

الحركية.

كنا في حالة دوارٍ بينما كان يتابع، إذ كنا أصلاً نعرف تلك الأشياء، فقد كنا نعرف ابننا. ولكننا لم نكن نعرف ما كانت تعني.

"هل سيكون على ما يرام؟"

"لا أدري".

"ما الذي ينبغي علينا فعله؟"

"إنه بحاجةٍ لإجراء اختبار. هناك مركز تنمية في الجوار، ويمكنهم أن يجيبوا عن أسئلتكم بشكلٍ أفضل مني".

في البيت، وجدت وكات أنفسنا نحدّق براين وهو جالس بهدوءٍ في غرفة المعيشة، ونحن نشعر بموجةٍ عاطفية عارمة.

إنكار. ذنب. غضب. خوف. عجز.

قضينا بقية فترة العصر ونحن نبحث عن أسبابٍ لنصدق ما قاله الطبيب وعن أسبابٍ لنشك فيه. تحدّثنا عن راين وعما كنا قد لاحظناه خلال السنوات. كنا نتحرّك جيئةً وذهاباً لساعات، ونحن نتحدّث ونقلق ونبكي ونجلس بجانب راين، محاولين أن نقنع أنفسنا أنه ليس هناك خطب به على الإطلاق. ولكن بطريقةٍ ما، كنا نعرف أنه كان هناك خطب به. فكنا نأمل ونصلّي ونتوسّل.

في تلك الليلة عندما اتصلت بميكا، كنت بالكاد أستطيع إخباره بما حدث. كانت يداي ترتجفان وأنا أمسك بالسماعة، وكانت حنجرتي ضيقة، ولم أستطع إخراج الكلمات دون أن أنهار.

فقال ميكا: "يا إلهي، هل أنت واثق؟"

فقلت: "كلا، لسنا واثقين من شيء. إذ يجب علينا إخضاعه للفحوصات".

"ماذا تريد مني أن أفعل؟"

فبدأت أبكي.

"يا ميكا... أنا...".

"هل تريدني أن آتي إليك؟ وأن أساعدكم في هذا الأمر؟ هل تريدني أن أعرف من ينبغي أن تتحدّثا معه؟ سأفعل أي شيء تحتاجانه؟"

فقلت: "كلا، الأمر على ما يرام. فنحن لا نعرف أي شيء بعد".

"أشعر أنه يجب عليَّ أن أفعل شيئاً ما".

"صلِّ لأجل راين وحسب، اتفقنا؟ هل يمكنك أن تفعل ذلك من أجله؟"

فقال: "سأصلِّي من أجلكم جميعاً. سأبدأ الصلاة حالاً".

إن الأمر الوحيد الذي أتذكره عن الشهرين التاليين هو أن الشعور بالقلق على ابننا كان مزعجاً أحياناً وساحقاً أحياناً أخرى. في بعض الأوقات، كان ذلك الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي التفكير به، وفي أوقاتٍ أخرى عندما أكون أفعل شيئاً آخر، أشعر فجأةً بشعور غريب بأن هناك... ما، فكنت أستغرق لحظة قبل أن أدرك أنني كنت أفكر لاشعورياً بابني.

كان الرعب يخترق بيتنا، ويتسرّب إلى أركان وزوايا حياتنا.

طوال الأسابيع والأشهر التالية، كانت كات تتردّد مع راين جيئة وذهاباً إلى أطباءٍ متنوعين بحثاً عن الأجوبة. كانت هناك قوائم انتظار طويلة - فاستغرق الأمر ستة أسابيع حتى استكمل تقييمه الأولي - وأتذكّر جلوسي في العيادة وأنا أنتظر الكلمات التي لم أكن أريد سماعها.

"رغم أن عمره ثلاثون شهراً، فهو حالياً يتمتّع بالمهارات التنموية لطفل يبلغ من العمر أربعة عشر شهراً. وهناك مشاكل أخرى أيضاً، كالافتقار إلى الاتصال البصري، على سبيل المثال".

"ما الذي تحاول قوله؟"

"أعتقد أن هناك احتمال كبير بأنه مصاب بالتوحد".

"هل سيكون على ما يرام".

"لا أدري".

"هل هناك شيء يمكننا فعله؟"

"لا أدري".

"ما الذي يمكننا فعله في البيت؟"

"لا أدري".

لم تكن هناك أجوبة أبداً. ولكن دائماً عند كل تقييم كانوا ينصحون بفحص آخر. وكان الأمر مجدداً يستغرق ستة أسابيع أخرى، ومجدداً، كان ذلك كل ما استطعنا التفكير به حتّى جاء اليوم أخيراً.

عند التقييم الثاني في أواخر شهر نيسان - بعد ثلاثة أشهر طويلة من القلق - جلسنا أمام طبيبٍ آخر تمعن في ملف راين قبل أن ينظر إلينا.

قال: "إنني آسف، ولكنني أعتقد أننا قد نكون مخطئين، فنحن لا نعتقد أن راين مصاب بالتوحد رغم أنه قد تكون لديه ميول توحدية".

"ماذا يعني هذا؟"

"نعتقد أنه ربما يعاني من اضطراب نمو شامل".

"هل سيكون على ما يرام، إذاً؟"

"لا أدري".

"هل هناك أي شيءٍ يمكننا فعله؟"

"لا أدري. ومع ذلك، ففي الوقت الحاضر أقترح الخضوع لفحصٍ آخر. وهو فحص سمع متخصص. إذ إننا نريد أن نتأكد من أنه يسمع الأصوات بشكلٍ صحيح".

مرّ شهر آخر وجولة أخرى من القلق، وفحص آخر، ولقاء آخر مع الطبيب.

"إنني آسف، ولكنني أعتقد أننا قد نكون مخطئين. فنحن لا نعتقد أن راين يعاني من اضطراب نمو شامل".

"ما خطبه؟"

فقال الطبيب: "إن راين أصم بشكلٍ مستعصٍ".

فنظرنا إلى الطبيب، وقلنا: "إذاً كيف يلتفت عندما يعمل مكيف الهواء؟"

فسأل الطبيب: "آه، أيفعل ذلك؟ حسناً، إذاً لنخضعه لفحصٍ آخر".

فحوصات، ذلك هو كل ما كانوا ينصحون به دائماً.

فخضع لفحص سمع آخر، وهو فحص للأذن الداخلية. وبعد شهرٍ، تكلّمنا مع الطبيب مجدداً.

قال: "إنكم على حق، راين يمكنه السمع".

"ما خطبه إذاً؟"

"مشكلة ابنكم هي أنه يعاني من اضطراب نقص الانتباه الشديد".

فقلت: "إنه ليس كذلك، فهو ذكي ويتذكّر كل شيء".

دون أن يعرفوا شيئاً آخر ليفعلوه نصحوا بفحصٍ آخر بعد.

بعد ذلك، عند اللقاء التالي، عادوا مجدداً إلى التوحد رغم أنهم صنّفوه على أنه معتدل. وعند اللقاء التالي، تحوّلوا إلى تشخيص اضطراب النمو الشامل.

بمعنىً آخر، لا أحد كان يعرف ما كان خطب ابننا. ولا أحد كان يمكنه أن يخبرنا ما نفعله. ولا أحد كان يمكنه أن يخبرنا فيما إذا كان سيكون على ما يرام. ولا أحد كان يمكنه أن يخبرنا .

كانت زوجتي تعيش الصراع اليومي بحدِّة أكثر مما كنت أفعل. إذ كانت تأخذ راين من تقييم إلى آخر، بينما كنت أعمل أثناء النهار. في المساء، كانت تتولّى أمر الطفلين بينما كنت أكتب. مع ذلك، ففي وقت الفراغ القليل الذي كان لديَّ، بدأت أقرأ عن اضطرابات الأطفال النموية. فقرأت كتاباً بكامله ثم آخر وبعده آخر. وفي غضون شهرين، كنت قد قرأت أربعين كتاباً - فغطيت المجموعة الكاملة للاضطرابات المحتملة - وبضع مئاتٍ من التقارير السريرية التي تلخّص علاجاتٍ متنوعة. فكانت تلك طريقتي في محاولة التغلب على المجهول وتولي أمره، ولأجد طريقة لأفهم ابني نوعاً ما. فكنت أبحث عن شيءٍ ما، أي شيء، يمكنه أن يؤدّي لإجابات.

بحلول نهاية شهر آب، كان راين يقترب من ذكرى ميلاده الثالثة. وكان تقييمه الأخير يظهر القليل من التحسّن، هذا إن وجد. إذ إنه في ذلك الوقت، بدلاً من مهارات طفلٍ عمره أربعة عشر شهراً، كانت لديه مهارات طفلٍ عمره خمسة عشر شهراً.

بمعنىً آخر، بعد ثمانية أشهر من الركض من طبيب إلى طبيب، وبعد عشرات الفحوصات والتقييمات، كان راين متأخراً حتى أكثر عن أقرانه مما كان عليه عندما اكتشفنا في بادئ الأمر أنه يعاني من مشكلة، فهو لا يزال لا يتكلّم.

رغم أن قلقي كان يطوّقني بالكامل، استمرّيت ببيع المستحضرات الصيدلانية في النهار. وبحلول بداية الصيف، كنت قد بدأت العمل في رواية ثانية. فكنت بالعمل في الأمسيات والاستلهام من والدي وصراعه مع الحزن؛ قد بدأت رواية رسالة في زجاجة. كان العمل هروباً من نوع ما، فقد كان الوقت الذي كنت أكتب فيه هو فقط ما يجعل من الممكن أن أمتنع عن التفكير براين.

بقيت وميكا على اتصالٍ متكرِّر خلال تلك الأشهر القليلة الأولى من العام 1996. كان هو من أتكلّم معه عن مخاوفي، وكان دائماً يصغي إليَّ. في نفس الوقت، كان ميكا يتقدّم في حياته الخاصة، وفي شهر نيسان من العام 1996، اتصل بي ليخبرني أنه قرّر التخلي عن مهنته في العقارات.

وتابع على الهاتف قائلاً: "أفكّر بشراء مشروعٍ عوضاً عن ذلك".

"من أي نوع؟"

"مشروع صناعي مثل: خزائن المرائب، ومنظمات الخزائن ونَظم المكاتب المنزلية".

"وما الذي تعرفه عن ذلك؟"

"لا شيء، ولكن المالك قال إنه سيدربني".

"أحسنت".

"هناك شيء واحد وحسب".

"وما هو ذلك؟"

"هل يمكنني أن أقترض بعض المال؟ سأكون قادراً على السداد في غضون أشهر قليلة".

وبعد أن أخبرني بالمبلغ، تردّدت لفترة وجيزة فقط، ثم قلت: "طبعاً".

"شكراً". وبعدها قال بصوتٍ أهدأ: "كيف حال راين؟"

كان ميكا الوحيد بين عائلتي الذي لم يكن لينسى أبداً أن يسأل.

مع ذلك، فقد كانت هناك بقعتان مضيئتان في النصف الأول من العام 1996، فقد تخطّت أختي تصويرها الطبقي المحوري بنجاح كبير، وكانت تبدو معافاةً بشكلٍ ممتاز. وعدا عن كونها متعبة - وهذا أمر يمكن لصبيين توأمين فيَ عمر الثانية أن يفعلاه لك - كانت مبتهجة، ونادراً ما كانت تتحدّث عن صحتها.

أخيراً، بدأ والدي أيضاً في العثور على طريقه مجدداً. إذ بينما كان العام 1996 ينقضي، كان يتحدّث أقل عن فلايم، وبدأ يتحدّث أكثر عن المرأة التي كان يواعدها. كان يتحدّث عن العمل أيضاً - فقد كان العمل من نواحي حياته التي استمرّ يؤدي وظائفه فيها بشكلٍ طبيعي - بحلول فصل الصيف، بدأ حتى يصغي إلى طلباتي بحيث إنه بدأ يتحدّث مع عائلته مجدداً.

قلت: "إنهم يفتقدونك، وهم قلقون بشأنك".

فاعترف قائلاً: "أعلم ذلك، وسوف أتحدّث إليهم مجدداً. يجب عليَّ وحسب أن أكون مستعداً أولاً".

أعتقد أن تردُّد والدي ليست له علاقة بغضبٍ مستمرٍ بقدر ما كانت له علاقة بالخوف من كيفية استجابتهم لمحاولته للمصالحة. في النهاية، طرح جانباً أية مخاوف كانت لديه واتصل بأخيه. في وقت لاحق، سمعت من عمي مونتي أن والدي قد تولى كل الحديث، وأنه قد تحدّث على نحو متفكّك بعض الشيء. لكن بعد المكالمة، انهار عمي، فقد كان يحب والدي ويفتقده. كان صوت والدي - حتى لو كان خطاباً أكثر مما كان محادثة - شيئاً كان يتوق لسماعه. كانت تلك خطوةً كان والدي بحاجةٍ لاتخاذها ليس فقط من أجل أخيه بل من أجله هو. وبينما انقضى الصيف ببطء، بدأا يتحدّثان أكثر فأكثر.

بعد أن علمت ما كان قد فعله، أخبرت والدي أنني كنت فخوراً به. لمرةٍ واحدةٍ، بدا والدي متأثراً بكلماتي، وهمست قائلاً: "أحبك، يا والدي".

"وأنا أيضاً أحبك".

بعد بضعة أسابيع، اتصل والدي ليخبرني أمراً آخر.

فقد قال: "إنني سأتزوج".

قال ميكا على الهاتف: "ستعجبك، يا نك".

كنت قد اتصلت به لأسأله عن المرأة التي كان والدي ينوي الزواج بها. إذ رغم أنني لم ألتقِ بها على الإطلاق إلا أن أخي قد فعل ذلك، وتابع قائلاً: "وستكون جيدة لوالدي".

"يبدو أكثر سعادة".

فقال ميكا: "أعتقد أنه كذلك. حتى أنه ذهب لرؤية دانا والتوأمين في عطلة الأسبوع الفائت".

فقلت: "هذا جيد". وتوقّفت، ثم قلت: "لقد مرت سبع سنين طويلة منذ وفاة والدتي".

"نعم، هذا صحيح. يا للمسكين؛ لقد كنت قد بدأت أتساءل إن كان سيكون قطّ على ما يرام. هل سمعت أنه اتصل بالعم مونتي".

قلت: "نعم، ويسرّني ذلك. إذ إنه يحتاج لعائلته، إذ لطالما احتاجها. كيف حال عملك؟"

"إنه صعب، فقد كنت أعمل ليلاً نهاراً. ولكنه يدرّ ربحاً، والمبيعات تتزايد كل شهر".

"تهانينا".

توقف، ثم قال: "وهناك شيء آخر، أيضاً".

"وما هو ذلك؟"

فقال: "أعتقد أنني التقيت أخيراً بامرأة مثل كاثي، ولكنّ اسمها كريستين".

"حقاً؟ هذا رائع".

"سوف تحبها، يا نك".

"يبدو الأمر جدًّيا نوعاً ما".

"إنه جدي".

"نعم، ولكن هل هو جدّي يتعلّق بالزواج، أم جدّي يتعلّق بميكا؟"

فتظاهر بالضحك. ورفعت حاجبيّ دهشةً. فإذا كان غير راغبٍ بالمزاح بشأن هذا الأمر أدركت أنني أصلاً لديَّ الجواب.

فقلت: "حسناً، أحسنت. إنني أنتظر بشوقٍ لمقابلتها".

بعد أن أخبرني والدي بيومين بأنه خطب، وقبل شهرٍ من نشر رواية دفتر الملاحظات، قدم فريق برنامج (48 ساعة) التابع لتلفزيون سي بي إس (CBS) إلى منزلنا.

كان أحد المنتجين، ويدعى آندرو كوهين، قد قرأ نسخةً أولى من الكتاب في أوائل الصيف، وقرّر أن يعرض جزءاً من البرنامج وعنوانه "صناعة الرواية العالمية"، فكانوا بالإضافة إلى تصويري، يصورون أيضاً في وارنر بوكس طوال الصيف وهم يجلسون في اجتماعات التسويق، ويجرون مقابلاتٍ مع لاري كريشبوم - وهو كبير المدراء التنفيذيين لوارنر بوكس - والرئيس مورين إيغين، ومحرري جيمي راب، بالإضافة لتصوير مجموعة كتابٍ مؤلفةٍ من غرباء سيقومون بمناقشة الرواية.

جاءوا إلى المنزل في أحد أيام الخميس. وفي يوم السبت الذي تلاه، كان يفترض بي أن أستقلّ الطائرة إلى لوس أنجلوس لحضور عشاء جمعية كاليفورنيا الجنوبية لبائعي الكتب، والذي سيكون أول حدثٍ مشجِّع لمهنتي. فكنت، كما يمكن للقارئ أن يتخيّل، في حالة توترٍ شديد.

كان المنتج والطاقم قد وصلوا في الصباح الباكر، ولاحقوني طوال اليوم. وقام الطاقم بتصويري في كلٍ من البيت والعمل، وقامت مقدّمة البرنامج إيرين موريارتي بإجراء مقابلةٍ معي طوال اليوم حول عملية الكتابة وتوقّعاتي إن كان الكتاب سينجح أم لا. وبالرغم من أن إيرين وآندرو قد غادرا في الصباح الباكر ليلحقا بطائرتهما عائدين إلى نيويورك، فقد بقي طاقم التصوير في المنزل للتصوير لبعض الوقت وأنا أعمل على روايتي الجديدة. وبحلول الساعة التاسعة مساءً تقريباً، فيما كنت أحدّق بالشاشة وأطبع من أجل التصوير، جاءت زوجتي إلى المكتب والهاتف في يدها.

وقالت: "إنه ميكا".

"هل يمكنك أن تخبريه أنني سأعاود الاتصال به بعد حوالى نصف ساعة؟"

فقالت: "إنه بحاجةٍ للتحدُّث معك الآن، فالأمر هام".

"ما الأمر؟"

"لا أدري، ولكنه يبدو منزعجاً".

فأخذت الهاتف، وشعرت بالكاميرات تدور نحوي.

"مرحباً، يا ميكا. ما الأمر؟"

فقال: "إنه والدنا". وكان يتحدّث بصوتٍ منخفضٍ غير مركّز.

"ماذا حدث؟"

"لقد تلقّيت اتصالاً من قسم الشرطة قرب رينو، لقد تعرّض لحادث سيارة. وقد اتصلت لتوِّي بالمستشفى التي نُقل إليها".

سمعته يأخذ نفساً عميقاً، وكنت أعرف بما يكفي لكي لا أقول شيئاً. كان بإمكاني سماع كاميرات برنامج (48 ساعة) تنزّ خلفي.

قال ميكا بهدوء: "لقد توفّي، يا نكي".

فسألت، وأنا أصلاً أعرف الإجابة: "من؟"

فقال: "والدنا، والدنا توفّي قبل ساعة".

فشُلَّت حركتي، وامتلأت عيناي بالدموع في نفس اللحظة التي بدأ فيها ميكا بالبكاء.

استمرّ ميكا بالقول: "سأقود ودانا السيارة لرؤيته الآن. فقد اتصلت بها لتوِّي وسوف آخذها من الطريق. أعلم أنه قد رحل، ولكن يجب علينا الذهاب لرؤيته".

"آه... يا ميكا".

فقال: "أعلم هذا. يجب عليَّ الذهاب...".

فأغلقت السماعة. وطوال المحادثة لم ترفع كات عينيها عني.

سألت: "ما الأمر؟"

فأخبرتها. انفجرت زوجتي بالبكاء، وفتحت ذراعيها لي. أخيراً، أُطفئت الكاميرات خلفنا. كان كل شيء كما أدركت قد صوّر على الفيلم، ولكنّ المصورين كانوا من الحساسية بمكان ليحزموا أغراضهم ويغادروا بهدوء.

بقيت مستيقظاَ معظم الليلة وأنا أتحدّث وأبكي مع كات. اتصل بي أخي في وقتٍ ما في منتصف الليل، وقال إنه ودانا قد وصلا إلى المستشفى وشاهدا جثمان والدي.

أخبرني ميكا وهو في حالة صدمةٍ واضحة: "لا أصدق أنه رحل. فقد تحدّثت معه لتوِّي الليلة الماضية، أتعرف لن أتحدّث معه مجدداً".

"كيف حال دانا؟"

"في حالة يُرثى لها. فهي لم تتوقّف عن البكاء منذ وصلنا إلى هنا، ولكننا سنغادر بعد بضع دقائق. أعني... لا أعرف ماذا أفعل أيضاً".

"أتمنّى لو كنت معكما الآن حالاً".

"وأنا أيضاً". ثم توقّف، وقال: "متى ستأتي؟"

فقلت: "لا أدري، حالما أستطيع. إذ يفترض بي أن أستقل الطائرة إلى كاليفورنيا لحضور عشاء بائعي الكتب نهاية هذا الأسبوع، ولكنني سألغيه... يا إلهي، ما زلت لا أصدق هذا".

"إن الأمر ليس حقيقياً، أليس كذلك؟"

وعندها، بدأ كلانا بالبكاء مجدداً.

في الصباح، اتصل ميكا مجدداً، وحالما تحدّثنا عن والدنا أصبح هادئاً.

قال أخيراً: "لقد كنت أفكر بجولة كتابك، يا نك".

"وأنا أيضاً".

"ما زلت ستقوم بها، صحيح؟"

فقلت: "أشك بذلك، كيف يمكنني الذهاب؟"

فقال، وقد أصبح جدِّيا: "عليك أن تقوم بذلك".

"يبدو الأمر خاطئاً...".

فقال مقاطعاً إياي: "لقد كان والدنا فخوراً لأنك ألّفت الكتاب. كان ليكون أول من يصرّ أنه عليك الذهاب. إذ إنه يعلم كم الجولة مهمّة. فهذا كتابك الأول. وقد تكون تلك الفرصة الوحيدة لك".

"لكن... لا أعرف إن كنت أستطيع ذلك".

"إنك تستطيع، يا نك، وستفعل. أعلم أنك كنت تحب والدنا، وهو يعلم أنك كنت تحبه، وكان يحبك أيضاً. ولكن لديك عائلتك لتفكر بها أيضاً. كانت والدتي ووالدي ليريدا منك الذهاب".

بعد أن أغلقت الهاتف، فكّرت بما قاله. وكنت أعتقد أنه كان مصيباً ومخطئاً في آن معاً. إذ كنت أفهم وجهة نظره. ولكن في نفس الوقت، كان الأمر يشعرني بأنه... قاسٍ. فكان الأمر يشبه الاختيار بين أحلامي بالمستقبل، واحترامي لوالدي. فإذا بقيت في البيت، هل سأحصل على فرصة أخرى على الإطلاق؟ وهل كان ذلك ليهم؟

ولكن إذا قرّرت الذهاب، ماذا إذاً؟ وإذا سألني أحدهم إن كنت أستمتع بالجولة، أو إذا كنت أشعر بالإثارة حيال ما يحدث معي، ماذا كان بحق السماء يفترض بي أن أقول؟

لم تكن هناك إجابة سهلة عن ذلك السؤال.

تحدّثت عن الأمر مع كات ومع دانا ومع ميكا مجدداً ومع أقاربي. تحدّثت مع وكيلتي ومع وكيل الدعاية الخاص بي ومع محرري؛ وكلهم قالوا إنه باستطاعتي إلغاء الرحلة إذا شعرت بأنني بحاجة لذلك. في النهاية، قرّرت بلا رغبةٍ أن أذهب. ومع ذلك، كان الذنب الذي كنت أشعر به في أعماقي هائلاً. إذ لم أستطع أن أتخلّص من الشعور بأن ذلك كان قلة احترامٍ لذكرى والدي.

اتصل بي المنتج آندرو كوهين بعد ذلك بوقتٍ قصير. فقدم تعازيه الحارة، وهو يشعر بالصدمة. طلبت منه عدم إذاعة الشريط المتعلق بوفاة والدي. كنا نعلم أن البرنامج كان ليكسب تقديراتٍ أعلى إذا تم بثه - وكانت حالة التلفزيون تؤيد ذلك - ولكنّ آندرو لم يتردد بقوله إنه سيدفن الشريط. رغم حزني على فقدان والدي، تذكرت مجدداً طيبة الناس.

سافرت بالطائرة إلى كاليفورنيا وأنا أشعر بالاشمئزاز، ونجحت بطريقة ما بالوصول إلى العشاء. لا أتذكر شيئاً عن العشاء سوى الشعور بخروج الروح من الجسد، وكأنني كنت أشاهد ما كان يحدث بعيني شخص آخر. سأل الناس عن الكتاب الجديد فأجبت بصورة آلية، وقلت كل الأمور التي يفترض بي قولها. لكن فيما كنت أتكلم، كان كل ما استطعت التفكير به هو والدي، وكم كان ذلك يشعرني بالخطأ، وكم كنت أتوق لرؤية إخوتي.

بعد العشاء، قضيت الأسبوع التالي في سكرامنتو مع أخي وأختي. فمكثت وميكا في البيت الذي لم يبدُ فجأةً سوى قشرة فارغة. في نفس الوقت، لم يبدُ أن شيئاً قد تغيّر على الإطلاق. إذ كان هناك كوب قهوة على طاولة المطبخ، وحليب طازج في الثلاجة. استمر البريد بالوصول، فكانت هناك كومة منه على الطاولة كان ميكا قد أحضرها في وقت سابق، وكان العشب قد جُزَّ لتوه. فكان من السهل التخيُّل أن والدي سيقود سيارته قادماً في أية لحظة، أو حتى أن والدتي كانت تطهو في المطبخ. كانت ذكرى كل منهما حية. فيما كنت أتنقّل وميكا من غرفة إلى أخرى لم نستطع التفكير بأي شيء نقوله.

لقد كنت مرهقاً، أمي وأختي وأبي وابني. كثير من القلق في وقتٍ قصير جداً. كان يبدو على ميكا التعبير المنهك نفسه.

قمنا بالتحضيرات للجنازة، وبدأ الأقارب بالوصول بالطائرة. وكان الجميع في حالة صدمة، ولم يستطع العم مونتي التوقف عن البكاء، ولا استطعنا نحن ذلك.

دُفن والدي إلى جانب والدتي، وجاء نفس الأشخاص الذين تجمعوا قبل سبع سنوات في جنازة والدتي. تكلّم عمي جاك عند قبر والدي، وأبّنه ألطف تأبين سمعته في حياتي. كان انعزال والدي قد جرح معظم أقاربنا، ولكنهم كانوا يحبونه رغم ذلك. بجانب القبر، كنت وكات ممسكين بأيدي بعضنا البعض، كما فعل بوب ودانا وميكا وكريستين.

كان هذا ما فكرت فيه عندما كنت في الجنازة:

كان والدي رجلاً صالحاً ورجلاً لطيفاً. ولكنّ وفاة والدتي جرحته، وجرحه مرض أختي مجدداً، فقضى السنوات السبع الأخيرة من حياته وهو يكابد الحزن في عالم لم يعد يدركه. نعم، لقد كان غاضباً في بعض الأوقات، حتى أنه كان قاسياً، لكنه كان والدي، وقد ساعد على تنشئتنا، ولم أكن أحترمه لذلك وحسب ولكنني كنت أحبه لما فعله. كان يعزّز فينا الاستقلالية، وكان يرينا قيمة التعلم، وكان يعلمنا أن نكون فضوليين بشأن العالم. حتى أهم من ذلك، فقد ساعدنا نحن الثلاثة على أن نصبح مقربين كأخوة، والتي أعتبرها أعظم منحة على الإطلاق. لم أكن لأطلب شيئاً آخر في والد. ومَن يستطيع ذلك حقاً؟

في وقتٍ لاحق، كنت وميكا ودانا واقفين وحدنا أمام القبر وأذرعنا تحيط ببعضنا البعض، ونحن نقول وداعاً للمرة الأخيرة. وكنا نفتقده أصلاً. ومع غياب الشمس، كنا واقفين في نفس الوقت

بالضبط كما يكون دائماً الأخوة الأيتام.

بعد الجنازة، بقيت وكات في كاليفورنيا لبضعة أيام. كان مايلز كبيراً بما يكفي ليفهم ما حدث، أما راين فقد كان ما يزال يبدو بأنه لا يفهم أي شيءٍ على الإطلاق.

طوال السنة، بدأت وكات نتّحد معاً عندما كان الأمر يتعلق بحالة راين. فقد كنت وإياها فقط، كما كنا نعتقد، نفهم كلياً كم كانت السنة تحدًّيا. في تلك السنوات الأولى من الصراع، قمنا بتقسيم الناس إلى مجموعتين: جيّدون وسيّئون؛ أولئك الذين كانوا لطفاء مع راين، وأولئك الذين كانوا يتجاهلونه.

لم نكن موهومين بأنه كان كغيره من الأطفال. إذ لم يكن يضحك كثيراً، ولم يكن ينظر إلى الناس عندما يتكلّمون، ولا كان يفهم ما يقولونه له. ورغم ذلك، لم نكن نريد أي شيءٍ أكثر من أن يتم تقبل راين كما هو.

كان طفلاً عذباً ولطيفاً، وبالصبر والجهد، كان من الممكن للعب مع راين أن يكون ممتعاً. ولكن لا أحد، باستثنائي وكات، حاول على الإطلاق. إذ على عكس مايلز، لم يكن لدى راين أصدقاء. على عكس مايلز، لم يرغب أحد من أطفال الجيران باللعب معه على الإطلاق، وعلى عكس مايلز، لم تتمّ دعوة راين إلى الحفلات، وعلى عكس مايلز، لم يحاول أحد على الإطلاق التحدّث معه. من المؤسف أن الراشدين لم يكونوا مختلفين. إذ غالباً ما كانوا يتجاهلونه. أو أسوأ من ذلك، كانوا يأخذون عدم ردة فعله بشكلٍ شخصي. كان الجيران يقولون لنا: "إنّه لا يحبّنا". وحتى الأقارب كان يبدو عليهم أنهم يتجاهلونه خلال الأسبوع - مما يضيف المزيد من التوتر إلى أسبوعٍ متوتر أصلاً - كان عليَّ وعلى كات أن نعضّ لساننا لنمنع أنفسنا من أن نصرخ قائلين: "عليكم أن تحاولوا".

ما كنا نعنيه فعلاً كان: من فضلكم ليحاول أحد ما، أيًّا يكن. إننا نحبه كثيراً وليست لديكم فكرة كم نحن خائفان عليه.

احتفظنا بهذا لأنفسنا فيما كنا نقسم العالم إلى مجموعات. فكنا نتولّى مشاكل راين وحدنا واستمرّينا بفعل ذلك. لم نكن نريد الناس أن يشفقوا على راين أو علينا، ولكننا أردناهم أن يحبوا راين كما كنا نحبه حتى لو كان هناك خطب ما به.

بعد يومين من الجنازة، ذهبت وكات لإحضار مواد البقالة، وكان ميكا قد عرض البقاء مع مايلز وراين. وعندما غادرنا، كان ميكا يعمل بصعوبةٍ في الأعمال المكتبية في مكتب والدي. ومع ذلك، فعندما عدنا إلى البيت لم يكن ميكا جالساً عند المكتب.

وعوضاً عن ذلك، كان ميكا يتصارع بلطفٍ مع راين في غرفة المعيشة. وأكثر من ذلك، كان راين يضحك.

يضحك.

كان الصوت لا يصدق، ولو أنه كان في الجنّة بحدِّ ذاتها لما كان أقل سعادة، وكان كل ما استطعت وكات فعله هو التحديق.

قال ميكا: "آه، مرحباً يا شباب". وكأن شيئاً غير اعتيادي لم يكن يحدث. "إننا نستمتع بوقتنا وحسب".

لم يكن ميكا بحاجة لمن يخبره كيف كنت وكات نشعر، إذ إنه كان يعرف مسبقاً.

استمرّت جولة كتابي لحوالى ثلاثة أشهر، كانت كات وحدها مع الطفلين، وهي مستمرة في حمل راين من طبيبٍ إلى آخر. كانت السنة المتوترة إلى حدٍّ لا يصدق قد دقّت ناقوسها على زواجنا.

لم تكن حادثة مفردة هي ما سبّبت التوتر بيني وبين كات. إذ كان الأمر إلى حدٍّ كبير يتعلق بحقيقة

أن زواجنا كان يندفع من أزمةٍ إلى التالية تقريباً منذ مشينا في رواق دار العبادة. فلم يكن زواجنا عبارة عن حالةٍ دائمة من النعيم بقدر ما كان محاولة الثبات في نسخةٍ محرَّفة من مخيم البقاء على قيد الحياة. كان على المشاعر أن تتدفق إلى مكان ما. وبالنسبة إليَّ، كانت تتدفق نحو كات، وبالنسبة لكات، كانت تتدفّق نحوي. فكان زواجنا أصلاً يعاني من تهديدٍ مروّع، فأصبحت مشاكل راين هي نقطة الانفجار.

رغم أنني كنت قلقاً بشكلٍ هائل عليه، فقد كان قلقي لا يقارن بقلق زوجتي. أعتقد أن ذلك أمر يتعلّق بالأمومة، فهي تقريباً استجابة غريزية، فقد كانت هي مَن حملت راين وأرضعته وهو طفل. وفيما كنت أعمل خارج البيت، كانت هي مَن يرعاه في كل دقيقة من كل يوم.

مع اقتراب موسم الأعياد، كان يبدو علينا أننا غير قادرين على الاستمتاع برفقة بعضنا البعض كما اعتدنا أن نفعل. كنا أيضاً نتشاجر أكثر، وكنت أعلم أن زوجتي لم تكن تستحق استراحة فقط بل كانت للاستراحة - فقد كانت في مهمةٍ كاملةٍ مدتها ثلاثة أشهر بينما كنت في جولة - فكانت هديتي لها بمناسبة الأعياد رحلة إلى جزيرة هاواي. وبينما قضت أسبوعاً مع إحدى الصديقات، بقيتُ في البيت مع الولدين.

رغم أن الأمر قد يستوقف بعض الناس بكونه غريباً - فإذا كنا نعاني من مشاكل، لم لم أعرض الذهاب معها؟ - فالجواب بسيط. كان على أحدنا البقاء في البيت للعناية براين. لم تكن هناك عائلة قريبة لتساعدنا، ولا جيران راغبون بالمساعدة، في الواقع، لم نكن لنثق بأحد ليبقى معه أسبوعاً. وإذا كان على زوجتي أن تستغل الرحلة لتسترخي، كان عليَّ البقاء في البيت، ففعلتُ ذلك.

رغم ذلك، بينما كانت في الرحلة خضنا جدالاً على الهاتف. فكنا نتبادل الكلمات المحمومة بيننا - فلم يكن أحد منا يعامل الآخر بشكل جيد - وكنا نصرخ بالاتهامات، وأخيراً، صرخت كات وأسكتتني.

أخيراً، استرسلت في الكلام قائلة: "اسمع، أعلم أن عامك كان قاسياً. ولكن هل تريد أن تعرف كيف كان عامي؟" وتوقفت لتلتقط أنفاسها المتعبة، وقالت: "إنني أستيقظ كل صباح وأفكر براين، وأنظر إلى طفلي الجميل، الطفل الذي أحبه أكثر من الحياة نفسها. أتساءل في نفسي فيما إذا كان سيحظى بصديق في حياته، وأتساءل إن كان في حياته سيتكلّم أو سيذهب إلى المدرسة أو سيلعب كبقية الأطفال. أتساءل إن كان سيحصل على مواعدةٍ في حياته أو سيقود سيارة أو سيذهب إلى حفلة راقصة. أتساءل إن كان سيتزوج في حياته. أنا أقضي طيلة النهار وأنا أقود السيارة من طبيب إلى آخر، ولا أحد يخبرني ما الخطب، ولا أحد يخبرني ماذا أفعل. سيبلغ الرابعة بعد وقتٍ قصير، ولا أعرف حتى إن كان يحبني. فأفكر بهذا عندما أستيقظ، وأفكر بهذا طوال النهار، وهو آخر شيء أفكر فيه قبل أن أخلد للنوم. أستيقظ باكية في منتصف الليل بسبب هذا". وبدأ صوتها ينهار. "هذا ما كان عليه عامي".

عندما انتهت زوجتي لم أكن أعرف ماذا أقول. نعم، لقد كنت قلقاً على ابننا. ولكن - ويؤلمني أن أعترف بهذا - لم يكن قلقي مثل قلقها. إذ كنت قد جزّأت قلقي - بين راين ووالدي ودانا وكتابي - بينما كانت زوجتي قد وجهته نحو ابننا. فقد كان قد أصبح عالمها بأكمله.

كانت تلك المرة الأولى التي أدرك فيها عمق اليأس الذي كانت زوجتي تعانيه، وشعرت بالاشمئزاز من الجدال الذي بدأته.

قلت بهدوء: "إنني آسف. إذ لم أكن أعرف أن الأمر هكذا بالنسبة لك".

فقامت زوجتي بمجرد الاستنشاق على الجهة الأخرى من الهاتف.

فهمست: "يا عزيزتي؟"

"نعم؟"

"لقد عاهدتك مرةً أن أحبك إلى الأبد. والآن حان الوقت لأعاهدك بأمرٍ آخر. أعد - وأقسم بقلبي وروحي - أنني سأعمل ما بوسعي لشفاء ابننا".

في اليوم التالي، بينما بقي مايلز في بيت أحد الجيران لقضاء اليوم، ذهبت إلى متجر وول مارتس واشتريت طاولة صغيرة وكرسي. اشتريت هذا الطقم بالتحديد لسبب بسيط هو أن المقعد له حزام بحيث يمكنني أن أحزم ابني بداخله. ثم قمت، مستخدماً كل الأدب الذي قرأته في السنة الماضية، بتثبيت راين في الكرسي، وفتحت كتاباً مصوراً، وأشرت إلى صورة تفاحة بينما كنت أحمل قطعةً صغيرة من الحلوى كمكافأة. وقلت الكلمة بصوتٍ عالٍ: آبل (تفاحة). ثم قلتها مراراً وتكراراً.

آبل، آبل، آبل، آبل. وكرّرت الكلمة محاولاً جعل ابني يتكلّم. ولا أدري إن كانت رغبتي لأي شيءٍ أعظم من رغبتي تلك على الإطلاق. فركّزت تفكيري وكثفته، فكان عالمي كله متمركزاً على ابني وقدرته على قول هذه الكلمة الواحدة.

في غضون دقائق، بدأ راين يشعر بالملل. ثم بدأ يهتاج ويتململ، وبعد دقائق قليلة أكثر، كان قد بدأ يبكي محاولاً الخروج من الكرسي، وبعد ذلك، بدأ يصبح غاضباً، غاضباً بشدة. كان يصرخ ويكوّر قبضتيه. حاول أن يسحب نفسه من الكرسي، وحاول أن ينشب أظافره في جلد ذراعيه. فكان يهدر ويبكي وكأن مسًّا قد أصابه.

أخذتُ يديه وثبّتهما على الطاولة كي لا يستطيع إيذاء نفسه، وقلت: آبل، آبل، آبل. ومرةً بعد مرة، كان يصرخ ويصرخ ويصرخ. كنت أقولها مرةً بعد مرة، وكان يصرخ ويصرخ.

بعد ساعتين، استطاع أن يقول: .

بعد أربع ساعات استطاع أن يقول: .

بعد ست ساعات، من الصرخات الغاضبة المحبطة التي تفطر القلب من جانب راين، قال ابني بصوتٍ هامسٍ ضعيف: .

آبل.

كان كل ما استطعت فعله لوقت طويل هو التحديق به. فقد كان الأمر طويلاً جداً ومرهقاً جداً بحيث إنني لم أصدق أنه قد فعلها في النهاية، اعتقدت أنني سمعته بشكل خاطئ. ردّدت الكلمة مجدداً، وكرّرها راين. عندما فعل، قفزت من المقعد وبدأت أرقص في أنحاء الغرفة وأهتف مرحاً. اتجهت نحو راين وعانقته. ورغم أنه لم يستجب لعاطفتي، فقد قال الكلمة مجدداً.

في ذلك الحين، بدأت أبكي.

مجرّد سماع صوته. ، لا صراخ ولا نخر ولا صياح؛ كان يحبس الأنفاس. لقد كان صوته ملائكياً، عذباً كالموسيقى. لكن أكثر من ذلك، فجأة أن راين يمكنه . بعدها، فهمت أن هذا كان أعظم مخاوفي على الإطلاق. إذ قضيت وكات أكثر من سنة ونحن نتساءل ماذا نفعل من أجل راين. فيما إذا كان سيكون على ما يرام. وبقول تلك الكلمة الواحدة البسيطة، عرفت فجأة أن هناك إمكانية، وبأنه يمكنه أن يكون على ما يرام.

لقد منحتني تلك الكلمة الأمل. إذ إنني، حتى تلك اللحظة، لم أكن مدركاً أنني فقدت كل جزء منه.

لم أكن واهماً أن العمل مع راين سيكون سهلاً أو أنه سيتحسن فوراً. فقد كنت أعلم أن الطريق سيكون طويلاً ومحبطاً، ولكنه كان ابني.

ابني الذي يمكنه .

علمت في ذلك الوقت أنني سأمشي كل خطوةٍ من الطريق معه مهما استغرقت وقتاً طويلاً. همست وأنا آخذ وجهه الصغير بين يدي، رغم أنني كنت أعلم أنه لن يفهم: "أنت وأنا سنعمل على هذا الأمر، اتفقنا؟ إنني لن أتوقف لذا لن تفعل أنت ذلك، وسوف تكون على ما يرام تماماً".

في اليوم التالي، عملت مع راين لمدة ست ساعات أخرى. وفي تلك الليلة، اتصلت بزوجتي في هاواي، واعتذرت مجدداً على الجدال الذي خضناه. ثم وضعت مايلز على الهاتف ليتمكّن من التحدُّث مع أمه. وعندما أخذت الهاتف مجدداً قلت بلا مبالاة:

"بالمناسبة، راين لديه شيء يقوله لك".

ووضعت السماعة عند رأس راين، ورفعت قطعةً صغيرة من الحلوى، ولفظت الكلمات التي أردته أن يقولها، وهي الكلمات التي عملنا عليها طوال اليوم. ومن خلال السماعة قال:

" آي وف يو".

أحبك. تلك كانت الكلمات الأولى التي سمعته كات يقولها.

في تلك الليلة، اتخذت قراري بالاستقالة من عملي في بيع المستحضرات الصيدلانية، ولكنني كنت أفهم كلياً أنني سأستمر بالعمل في عملٍ ثانٍ. بالإضافة لكتابة رواياتي، قضيتُ السنوات الثلاث التالية وأنا أعمل مع راين لمدة ثلاث ساعاتٍ في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع. في النهاية، علّمته الكلام، كلمةً واحدةً بطيئة مجهدة في كل مرة.

لم يكن الأمر سهلاً، إذ إن راين لم يتحسّن فجأة. فكانت عمليةً محبطةً بشكلٍ فظيع. لم يكن الأمر عبارة عن خطوتين إلى الأمام وواحدة إلى الوراء. بل كانت أشبه بنصف خطوةٍ إلى الأمام ثم نعود إلى البداية تقريباً، ثم نتجوّل في طرقٍ جانبية لبعض الوقت، ثم نعود أبعد مما كنا قد بدأنا في المقام الأول، ثم أخيراً، تحسن ضئيل. بعد أشهر من البداية، كان راين قد بدأ يردِّد الكلمات كالببغاء، وكان باستطاعته تقريباً أن يقول أي شيء. لكن لم تكن لديه فكرة ما كانت الكلمات أو لأيّ شيء تستخدم. إذ إنها، بالنسبة إليه، كانت مجرّد أصواتٍ ليحصل على قطعة حلوى. تطلَّب الأمر شهوراً وشهوراً من الجهد لجعله أخيراً يفهم أن كلمة" " كانت تعني شيئاً.

كانت هناك قضايا سلوكية أيضاً، كالافتقار للاتصال البصري، والمهارات الحركية الضئيلة، والرهاب من الطعام والتدرب على "نونية" الأطفال. عملت وكات معه على كل تلك النواحي أيضاً. فقد كان، على سبيل المثال، مرعوباً من فكرة الذهاب إلى الحمام. ولكي أتمكّن أخيراً من تدريب راين على "نونية" الأطفال، كان عليَّ خلع ملابسه وجعله يشرب كأساً بعد كأس من العصير، والجلوس حرفياً معه في الحمام وأنا ألاطفه حتى يقضي حاجته رغم مخاوفه، وذلك لمدة ثماني ساعات متواصلة.

رغم أن العمل المتواصل مع راين كان يستمر لثلاث ساعات يومياً، لم أكن أريد أن تكون تجربته معي بأكملها تجربة مكابدة وتحدّي. هكذا لم يكن وقتي معه مقتصراً على التعليم والتعلم، فكنت أحاول أن أقضي ساعةً على الأقل معه في اليوم ونحن نفعل فقط الأشياء التي كان يريد فعلها. فكنا نلعب بلعبة تسلق القضبان الحديدية، ونقوم بنزهاتٍ على الأقدام، ونلون؛ أو نقوم بأي شيء يجعله سعيداً.

لكنني في نفس الوقت، لم أنسَ أبداً أن لديَّ ابناً آخر. إذ إنني أتذكّر أنني عندما كنت طفلاً، كنت أعتقد أن الانتباه يوازي الحب. لم أكن أريد لمايلز أن يكبر وهو يشعر بأنه محروم كما كنت أشعر، فكنت أقضي ساعاتٍ مع مايلز أيضاً، وأقوم بالأشياء التي يحب القيام بها. فكنا نركب الدراجات ونلعب لعبة التقاط الكرة، وقمت بتدريب فريقه لكرة القدم، ودرست وإياه في نهاية المطاف رياضة

التايكواندو معاً.

لقد أصبح ولداي حقيقةً مهنتي الأخرى.

في شهر أيار من العام 1997، انتقلنا مجدداً إلى نيوبيرن، حيث بدأنا بإعداد الديكور للمنزل الذي نعيش فيه الآن، كان إعداد الديكور مشروع بناءٍ كبير، من النوع الذي يستغرق شهوراً. ولكن بحلول ذلك الوقت، كان الانتقال - مع كل الضغوطات المرافقة - يبدو بسيطاً تقريباً.

استمرّيت وكات بالعمل مع راين. في شهر آب أنهيت روايتي الثانية رسالة في زجاجة. اتصلت أختي في وقتٍ لاحق ذلك الشهر لتخبرني أنها وبوب سيتزوجان. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، أعلن ميكا وكريستين خطوبتهما أيضاً. كانا سيتزوّجان في الصيف التالي. كان عمل ميكا مستمراً بالنمو، حتى أنه قد بدأ عملاً ثانياً، وهو مشروع لتصنيع مراكز الترفيه.

رغم أن دانا قد بدأت تعاني من الصداع مجدداً - إذ كانت عرضةً للشقيقة قبل تشخيص مرضها بوقتٍ طويل - فقد استمرّت فحوصات التصوير الطبقي المحوري تأتي سلبية. مضت خمس سنوات تقريباً منذ خضعت للعملية الجراحية. في تلك المرحلة، كانت لتكون تلقائياً في مرحلة تهدئة المرض. تزوّجت أختي في حفلٍ جميل في هاواي. وللحظةٍ واحدةٍ فقط، بدا كل شيء صحيحاً في عالم أختي، إذ إنها حصلت على الحياة التي لطالما حلمت بها، فقد تزوّجت وأنجبت أطفالاً، وحتى أنها كانت تملك خيولاً كانت تحتفظ بها في المزرعة.

عندها، بينما كانت في شهر عسلها، عانت دانا فجأةً من نوبة أخرى. وعندما عادت، أظهرت فحوصات التصوير الطبقي المحوري شيئاً لم تظهره منذ سنوات.

لقد كان ورم دماغ أختي ينتشر مجدداً.

الفصل السادس عشر

مدينة فاليتا في مالطا
11 - 12 شباط

في الأيام الأربعة السابقة - منذ الصباح الذي سبق زيارتنا لآغرا - قضينا ما مجموعه خمس ساعات، ونحن نزور تاج محل ولاليبيلا. كانت رحلتنا قد استغرقت عشر ساعات من الطيران تقريباً وهو ضعف الوقت الذي قضيناه في زيارة الأمكنة.

كان تباطؤ سرعتنا ذلك - وطول المسافة التي قطعناها حتى تلك المرحلة - ما تركني وميكا نشعر بالكسل بحلول الوقت الذي هبطنا فيه. لكنّ مالطا بنكهتها وجوّها الأوروبيين، نشطتنا على الفور تقريباً.

كانت الجزيرة رائعة الجمال بجروفها الصخرية البيضاء المغمورة في البحر الأبيض المتوسط الأزرق اللون. كانت السماء صافية وواضحة وشتوية مشرقة - كانت تلك محطتنا الأولى حيث كانت درجة الحرارة مائلة للبرودة - بعد ارتداء ستراتنا، ركبنا الحافلات، واتجهنا نحو المواقع المتنوعة.

بسبب حجم مجموعتنا، قسّمنا إلى ثلاثة أقسام. كانت مجموعتنا ستتوجّه أولاً إلى الهيبوجيوم، وهو مجمّع معابد تحت الأرض اكتُشف في العام 1902، والذي اكتشف أنه يحتوي على بقايا جثث ستة أو سبعة آلاف شخص. كان المجمّع عبارة عن متاهة تتألف من غرف مبنية على ثلاثة مستويات، وتهبط إلى عمق حوالى أربعين قدماً. وبما أن تاريخها يعود إلى 3600 قبل الميلاد، فهي بذلك أقدم من كل من الأهرامات وضريح ستونهينج. فهي في الواقع، أقدم بناءٍ معروفٍ من أي نوع في العالم. وقد تم نحتها في الحجر الكلسي باستخدام أبسط الأدوات، كالعظم وأحجار الصوان والصخور صلبة.

كانت، مجتمعةً مع الآثار في الأجزاء الأخرى من مالطا التي كنا سنزورها - وهي معبد تاركسين؛ وهو أقدم تمثال مستقلٍ معروف، والمعابد من حجر المغليث فوق الأرض؛ وهي أقدم أبنيةٍ حجرية مستقلة مكتشفة على الإطلاق - تمثل أوائل الحضارات المتقدمة في العالم. رغم ذلك، لا أحد يعرف من كان هؤلاء الناس القدامى، ومن أين أتوا، وماذا حدث لهم، وأين ذهبوا. إذ يبدو أن الحضارة قد اختفت بشكلٍ غامضٍ كما أتت.

رغم التاريخ الساحر للسكان المفقودين، كانت مالطا نفسها هي ما بدا ميكا مهتماً به أكثر. فبينما كنا نستقلّ الحافلات في الطرق المرصوفة، التي كان الجميع فيها يطيعون قوانين المرور (وفي ذلك الوقت، كان ذلك يبدو غريباً بكل معنى الكلمة)، استطعت رؤية ميكا يبتسم.

سأل: "هل تعرف بماذا يذكّرني هذا؟"

"بماذا؟"

فقال: "برحلتي إلى إيطاليا بعد تخرّجي من الجامعة مباشرة، عندما ذهبت وترايسي لركوب الدراجة في الأنحاء. وكانت تبدو مثل هذه بالضبط. حسناً، أجزاء منها، على أية حال. لقد كانت تلك الرحلة وقتاً رائعاً".

تظاهرت بالمفاجأة قائلاً: "حقاً، الاستكشاف ولقاء أناسٍ جدد والاستمتاع؟ لا يبدو ذلك من نوع الأشياء التي تخصّك".

ابتسم، وكان يفكّر عائداً بذاكرته بدون شكٍ إلى أيام عصابة المهمة، وقال: "هل أخبرتك على الإطلاق بما حدث عندما وصلنا أول الأمر إلى أوروبا؟"

فهززت رأسي.

"حسناً، استقليت وترايسي الطائرة إلى مدريد، ولكن لأنّ كل واحدٍ منا كانت لديه أميال مجانية على خطوطٍ جوية مختلفة، لم نكن في نفس الرحلة الجوية. كان يفترض بنا الهبوط في نفس الوقت. لكن عندما ذهبت إلى البوابة التي يفترض بي أن ألقاه عندها لم يكن على متن الطائرة. كان الأمر أن ترايسي كان معه كل شيء في حقيبته - الدليل والارشادات والخرائط وحتى الأدوات التي كنت بحاجةٍ لها لتركيب دراجتي الجبلية. كنت في بلدٍ أجنبية، ولا أحد يتكلّم الإنكليزية، ولم أستطع قراءة أيٍّ من اللافتات، ولم أستطع حتى أن أعرف من أسأل لأكتشف لماذا لم يصل ترايسي. لم أكن أعرف حتى أين كانت المدينة بالنسبة للمطار".

"ماذا فعلت؟"

"وجدت أخيراً شخصاً يتكلّم الإنكليزية، فساعدني. اكتشفت أن ترايسي قد تأخر وفوّت رحلته، وأنه كان سيصل في اليوم التالي. لكنني كنت لا أزال بلا مكانٍ أذهب إليه. حتى أنني لم أكن أملك بطاقة ائتمان في ذلك الوقت. أخيراً، وجدت بعض الميكانيكيين الذين ساعدوني على تركيب الدراجة. وبعد أن أرشدوني إلى اتجاه المدينة، بدأت توًّا بتحريك الدراجة. فاستغرقني الأمر ساعة لأصل إلى وسط المدينة، وكنت ما أزال لا أعرف إلى أين سأذهب وأين كنت سأنام. أخيراً، وجدت مقهى هارد روك، وكنت معتقداً أنني سأستطيع على الأقل أن أجد شيئاً بالإنكليزية. فذهبت لتناول شيءٍ من الطعام، وبعد ذلك أصبحت الأمور أسهل بقليل".

"لماذا؟"

فهزّ كتفه قائلاً: "سألت نادلتي إن كانت تريد الخروج تلك الليلة. وهكذا، خرجت في موعد".

* * *

بعد وقتٍ قليل، عاود ميكا الالتفات إليَّ. كان مشغولاً بالتصوير بكاميرا الفيديو. في النهاية، كان ميكا قد صوّر ست ساعات بكاميرا الفيديو لن ينتهي به الأمر بمشاهدتها أبداً. ومع ذلك، كنت لتظن في الرحلة أنه كان يصور فيلماً وثائقياً.

"هيه، يا نك. هل سمعت في حياتك عن الهيبوجيوم؟"

فأومأت برأسي، وقلت: "لقد قرأت عنه".

"ألا يفترض به أن يكون مجرد ضريح؟"

"في غالب الأمر. ولكنه الضريح الأقدم الذي اكتشف على الإطلاق. ولهذا السبب هو مميز".

كان يبدو مشتت الأفكار، وقال: "هل تعلم ما الذي أريد صورةً له؟"

"وما هو ذلك؟"

"أريد صورةً لي وأنا ممدد في القبر. تعرف، وأنا متظاهر بأنني ميت. ألن يكون ذلك ظريفاً؟"

"أعتقد أنه سيكون مقرفاً نوعاً ما".

حاول أن يعطيني تعبيراً مرحاً، وقال: "مقرف، ظريف؛ نفس الشيء".

للأسف، لم يحصل ميكا على الفرصة ليلتقط صورته وسط الغبار والبقايا البشرية الدقيقة التي دفنت سابقاً في الهيبوجيوم.

كان الهيبوجيوم مختلفاً كلياً عن أي موقعٍ آخر كنا قد زرناه حتى ذلك الوقت. ففي البداية، كان موقعه تحت مبنىً غير جديرٍ بالملاحظة كلياً من الخارج. كان من الممكن أن يكون مطعماً أو مكان عمل أو منزلاً وكان السبب الوحيد بأننا عرفنا أنه كان متحفاً أن الكلمات كانت مكتوبة على الأبواب الزجاجية.

في الداخل، قوبلنا من قبل دليلٍ شرح لنا ما يمكننا توقعه. إذ كان الهيبوجيوم في الأساس مغلقاً للحيلولة دون تلفه بسبب عوامل الطقس. فمشينا نازلين الدرجات، وكان علينا الانتباه لرؤوسنا. وأخبرنا أين اكتشفت بقايا الجثث في السابق، وشاهدنا فيلماً قصيراً عن الهيبوجيوم أولاً. كانت الرحلات المنظمة في البرنامج مدتها ساعة. وكان الأمر إجبارياً أن نبقى معاً ونتحرك بسرعة. وكان علينا ألا نحاول المقاطعة، حيث لم يكن هناك وقت كافٍ للإجابة عن الأسئلة، ولم يسمح لنا بالتقاط الصور. وإذا فعلنا كانت كاميراتنا ستصادر.

همس ميكا قائلاً: "إن هذا الرجل يشبه حارس السجن، إنه حتى لا يبتسم".

"مَن؟ السيد المبتهج؟"

"أعتقد أنه يكون رأياً عنا، محاولاً معرفة من سيتبع القواعد ومن لن يفعل".

"أعتقد أنه يعرف أنك من المجموعة الأخيرة، لذا يستمر بالنظر إليك".

فقال: "نعم، لاحظت ذلك. وبالنسبة لشخصٍ سعيد كهذا، هو يبدو بالفعل متفهماً جداً".

تمّ إرشادنا إلى غرفة تحكم متحكم بمناخها ومعززةٍ بالكمبيوترات ومراقبةٍ بالفيديو، وأخبرنا أن نجلس في مقاعدنا لمشاهدة الفيلم. لَم يكن هناك خيار في الأمر، فكان علينا مشاهدة الفيلم. إذ إن دليلنا كان يسجّل أسماء الحضور.

كان هذا ما عرفناه بشكلٍ أساسي خلال الخمس عشرة دقيقة التالية: ليس الكثير. إذ لا أحد يعرف من بنى المعبد، ولا لماذا بُنِي، ولا ماذا حدث للناس الذين بنوه، ولا من أين أتوا أصلاً، ولا سبب تصميمه بتلك الطريقة، ولا كيف كانت الحضارة. فكل ما كانوا يعرفونه، هو أنه قد بني قبل الأهرامات بوقتٍ طويل.

أُشعلت الأضواء.

وأعلن دليلنا: "من هذه الطريق، لو سمحتم. تعالوا، تعالوا. سنبدأ الجولة في غضون دقيقة. إذ ليس لديكم وقت كثير لذا حاولوا البقاء معاً، ولا تسألوا أسئلة كثيرة فهذا سيبطئ سرعتنا فقط".

بذلك، تمّ إرشادنا إلى داخل الهيبوجيوم، وقد كان في الأساس كهفاً. لم يسمح لنا بلمس أي شيء. وقد مشينا على منحدرٍ كان قد بني فوق الأرض بست بوصات. فأحنينا رؤوسنا، وأصغينا إلى الدليل يتحدّث بدون توقفٍ طوال الأربعين دقيقة التالية. وهذا هو ما تعلمناه: ليس الكثير.

إذ إن كل شيءٍ قد قاله كان يبدو مقتبساً من الفيلم.

على الرغم من ذلك، كان شعوراً هاماً جداً أن نتجول عبر أقدم آثار معروفة للبشرية، وقد أضفت مجموعتنا نفسها إلى الشعور بالوقار. إذ إن دليلنا قد أخافهم جميعاً، فكان ذلك نوعاً ما موقفاً مخيفاً في كهفٍ مع عشرين شخصاً - وكان معظمهم أصدقاء بحلول ذلك الوقت - ولم نكن نسمع حتى همسة لفترةٍ ممتدة من الوقت. فكانت أهدأ لحظةٍ في الرحلة.

من هناك، ذهبنا إلى آثار تاركسين، والتي تقع في وسط المدينة تماماً. مع ذلك، فعوضاً عن إرشادنا إلى المبنى، تم إرشادنا هذه المرة إلى قطعة أرضٍ فارغة مع بعض الحجارة الكبيرة المبعثرة في أنحائها، وليست مثل ماتشو بيكتشو.

سأل ميكا: "أهذه هي؟"

"آه، ماذا دهاك؟ إنها ليست بهذا السوء. فعلى الأقل، يمكنك التصوير هنا".

"لا يوجد شيء يستحق التصوير. هذا يبدو... مملاً. كم من الوقت يفترض بنا البقاء هنا؟"

"ساعة على ما أعتقد".

"هذا وقت طويل، باعتبار أنّ لا أحد يعرف شيئاً".

كان على حق، فقد كانت ساعةً طويلة، رغم حقيقة أننا حصلنا على دليلةٍ جديدة، كانت تبدو مسرورة لرؤيتنا فعلاً، وكان كل وصفٍ يبدأ بالعبارة التالية: "نعتقد أن هذا قد يكون أحد شيئين..." أو "إننا غير واثقين تماماً لماذا كان هذا يستعمل...".

بدأنا أيضاً نسمع غالباً عبارة " ".

مثل: "هذه هي النسخة المطابقة للدعامة والتي نعتقد أنها قد تكون هامة بسبب...".

بعد الدقائق القليلة الأولى، وما لا يقلّ عن عشر مرات من ذكر عبارة "نسخة مطابقة"، رفع ميكا يده.

وقال: "إنك تستمرين بقول عبارة ".

فأومأت دليلتنا برأسها، وقالت: "نعم، إنها نسخة مطابقة".

"تعنين أنها ليست حقيقية".

"كلا، فالدعامة الحقيقية موجودة في المتحف. إذ إن معظم القطع الحقيقية التي اكتشفت قد تمّ نقلها إلى متاحف مغلقة لكي لا تدمّر أكثر".

"وتلك الأشياء التي أريتنا إياها للتو؟"

"إنها نسخ مطابقة أيضاً، ولكنها صنعت ببراعة بحيث إنها تبدو بالضبط مثل الأصلية".

ابتسمت دليلتنا بابتهاج: "أليس الأمر مدهشاً؟"

"كم من هذه الآثار هي نسخ مطابقة؟"

فأشارت دليلتنا حولها، وقالت: "هنا تقريباً كل شيء يمكنك رؤيته، ولكن يمكنك أن تعرف كم قاموا بعملٍ رائع". أشارت دليلتنا إلى الجانب، وقالت: "على سبيل المثال، نعتقد أن هذا الجدار ربما كان يستخدم لأحد سببين...".

بسرعة فقدت وميكا الاهتمام، إذ لم نكن فعلاً نشاهد آثار تاركسين، بل كنا نشاهد... أشياءً مزيفة. فكان الأمر يشبه مشاهدة صورةٍ عن لوحة الموناليزا عند زيارة متحف اللوفر بدلاً من مشاهدة اللوحة الحقيقية.

قال ميكا وهو ينظر حوله: "لا أصدق أنه ليس حقيقياً، إنه يشبه موقع تصوير فيلم".

فأومأت برأسي قائلاً: "بالضبط. وبصراحةٍ، إنه حتى ليس موقعاً جيداً للتصوير".

كنا أحراراً للذهاب إلى العشاء تلك الأمسية، فاخترت وميكا مطعماً يقدم البيتزا والشراب. كما كنا دائماً نفعل عندما نكون معاً، وجدنا أنفسنا نستغرق في الذكريات حول سنواتنا السابقة.

قال ميكا: "هل تتذكّر بلاكي؟"

"الطير الشيطاني؟ كيف يمكنني أن أنسى؟ أو تقدير رهيب...؟"

فضحكنا بصخب.

"أو ماذا عن تلك المرة التي حمّلنا فيها سيارة الفان بكتبٍ كثيرة حتى بدت الفان وكأنها سيتمّ إطلاقها كصاروخ...".

"أو عندما تظاهرنا أننا سنقع من حافة غراند كانيون".

فضحكنا حتى بقوةٍ أكثر.

"أو حروب بنادق الخردق؛ تلك المرة عندما أطلقتها على ظهرك، وكان عليك أن تستخرج الخردقة بواسطة سكينٍ لأنها كانت عميقةً جداً...".

"أو عندما قمت ومارك بإيقاع صندوق البريد ذاك، وقام أولئك الشباب بضربنا بشدة...".

"أو عندما مرر جدي خرطوم المياه فوق رأسي...".

"لا تنسَ علاجات اللاصقة الطبية السيئة السمعة".

كنا نحكي القصص نفسها التي لطالما كنا نحكيها، إذ لسببٍ ما لم يكن يبدو أننا نملّ من سماعها. بينما كنا ننطوي ونضرب ركبنا، كان الناس على الطاولات الأخرى يحدّقون بنا محاولين معرفة ما الشيء المضحك إلى هذا الحدّ.

مع ذلك، فقد كان السببٍ في أن قصصنا مضحكة هو أننا عشناها ومررنا بها، وكلما كان الحادث أصعب كانت القصة مضحكةً أكثر بالنسبة لنا على مرّ السنوات.

مع مرور الوقت، هدأ ميكا، وكانت ترتسم في عينيه نظرة دافئة وعاطفية تقريباً.

قال: "الآن، لقد كانت تلك أوقاتاً جيدةً".

فأومأت برأسي قائلاً: "لقد كانت أفضل الأوقات".

بعد العشاء، غامرت وميكا بالذهاب إلى الكازينو، وفوجئنا بشيءٍ أسعدنا وهو أننا عرفنا أن إحدى الفرق كانت ستأتي لتعزف. وأكّد لنا أنها كانت جيدة وتتمتع بشعبيةٍ كبيرةٍ في آنٍ معاً.

وقيل: "إنهم محليون. ويعزفون هنا منذ سنوات".

فقال ميكا: "هذا سيكون ممتعاً؛ الاستماع إلى الموسيقى المالطية. إذ لا يمكنني أن أقول إنني قد سمعتها من قبل في حياتي".

فقيل لنا: "آه، الكثير من الناس سيأتون إلى هنا الليلة لسماع الفرقة. وسيصبح المكان أكثر ازدحاماً لاحقاً، وسيكون هناك رقص".

فابتسم ميكا: "يبدو الأمر حتى أفضل".

وفي وقتٍ لاحق، كان بإمكاننا سماع الفرقة تحضر نفسها خلفنا، ولكننا كنا منهمكين فلم نلتفت لنشاهد، وبعد دقائقَ قليلة، سمعنا عزف الأوتار الأولى. وفي البداية، لم نستطع تمييزها تماماً - وكنا نعلم أنه بإمكاننا تحديدها - وحالما بدأنا نحدد الأغنية، بدأ المغني فجأةً يغني بقوةٍ الكلمات من أغنية "جبان المقاطعة".

"كيني روجرز؟" وعندما التفتنا إلى الخلف، رمشنا بأعيننا غير مصدّقين. هناك، في كازينو راق في مالطا، كان أفراد تلك الفرقة المحلية مرتدين قبعات رعاة البقر. كانوا يغنّون الأغاني الريفيةّ الغربية الأميركية وجزماتهم تضرب الأرض مع قرع الطبول، وكان الناس في الحشد يهتفون ويغنون معهم، فنظرت وميكا بشكلٍ خاطف إلى بعضنا البعض، ثم انفجرنا ضاحكين.

بعد لحظة، ونحن ننضم إلى الكورس، هززنا كتفينا هزّة لامبالاة، وبدأنا نغني معهم.

تماماً عندما اعتقدنا أننا قد اكتشفنا الرحلة بأكملها حدث شيء مثير كهذا. فاكتشفنا أنٍ العالم لطالما كان جاهزاً لمفاجئتنا. إذ لم أكن لأتخيّل أبداً ولا حتى في مليون سنة أنني سأغني أغنيةً لكيني روجرز محاولاً تقليد اللكنة المالطية.

في الصباح قمنا بزيارة هيجر كيم، وهي مجموعة أخرى من الآثار المقلّدة. وهي موضوعة قرب جرفٍ صخري، وكان المنظرٍ أكثر أهميةً من الموقع نفسه. وبما أنه لا شيء مما كنا نشاهده كان حقيقياً، فقد كان مع ذلك مكاناً جيداً لالتقاط الصور.

من هناك سافرنا لرؤية اثنتين من كاتدرائيات القرون الوسطى الرئيسية في مالطا. وكما في كوزكو، كانت مدهشة. إذ، مع الأسقف المقوسة العالية والمذابح الضخمة المغطاة بالذهب ومئات اللوحات، كان التفصيل غامراً. وكانت الأرضيات بأكملها من الرخام.

تناولنا العشاء في مقهىً بجانب البحر، وكان الطعام طعاماً مالطياً تقليدياً - أغلبه من ثمار البحر الطازج والخبز - ومن هناك، سافرنا إلى مدينة مدينا المسوّرة. لقد بُنيتٍ مدينا في الأصل كحصنٍ على أرضٍ عالية. وهي تبتعد أميالاً عن فاليتا، وكانت الشوارع مرصوفةً بالحصى، وكانت تفتخرٍ بمنطقة مشاهدةٍ حيث كان من الممكن رؤية قسمٍ كبيرٍ من الجزيرة.

كانت مدينا أيضاً موطناً للسراديب، كانت تلك محطتنا الأخيرة لذلك اليوم. كانت السراديب في السابق موقع دفن المئات إن لم نقل الآلاف من مواطني مالطا، وعلى عكس الهيبوجيوم، كانٍ مسموحاً لنا بلمس وتصوير كل شيء أردناه، وكانت مئات السراديب الفارغة في ذلك الوقت منحوتة في الجدران الصخرية. وكانت الجثث قد أزيلت ودفنت في مقابر قبل سنوات.

بالطبع، رفع ميكا يده.

"هل يمكنني أن ألتقط صورتي داخل واحدٍ من السراديب؟"

فحدّق دليلنا في ميكا كما لو أنه كان مجنوناً.

"يمكنك إذا أردت ذلك... كما أعتقد، إذ لم يطلب أحد هذا من قبل".

"حقاً؟ كم من السنوات مضى عليك وأنت تعمل هنا؟"

"سبع عشرة سنة".

فغمزني ميكا، وهمس: "هل تعرف ما يعني هذا؟"

"ماذا؟"

فقال: "قد أكون أول رجلٍ يفعل هذا على الإطلاق. أعني بعد الموتى".

وزحف إلى الداخل، وابتسم ابتسامةً عريضة، فيما التقطت صورته.

بينما كنا نمشي على طول الشوارع المرصوفة بالحصى التي تؤدي من مدينا إلى السيارة، كان ميكا يتفحص ما يحيط بنا.

"أعتقد أن كريستين كانت لتحب مالطا".

"وماذا عن الأماكن الأخرى التي ذهبنا إليها؟"

فألقى نظرةً خاطفةً عليَّ، وقال: "لا يمكنك أن تجرّها إلى الهند أو إثيوبيا أو إيستر آيلند لهذا الأمر. إذ إن السفر إلى بلادٍ أجنبية يعني بالنسبة إليها الذهاب إلى لندن أو باريس".

فابتسمت قائلاً: "أعتقد أن كات كانت لتحب كل الأماكن التي ذهبنا إليها، ولكن بما أنها لم تذهب أبداً إلى أوروبا، فعلى الأرجح سنذهب إليها أولاً".

"تعني، عندما يصبح الأولاد أكبر سناً".

"بالطبع، فبوجود الأطفال في هذا السن الصغير، لن يكون الأمر ممتعاً كثيراً على أية حال".

"هل تعرف ما علينا فعله؟ في الصيف المقبل، علينا أن نستأجر منزلاً كبيراً في إيطاليا لمدة شهر، ونحضر عائلتينا. ويمكننا أن نجعل تلك نقطة انطلاقنا، ونسافر في الأرجاء من هناك".

فقلت: "سنرى".

"ألا تعتقد أنها تبدو فكرةً جيدة؟"

"أعتقد أنها تبدو فكرةً رائعة. إلا أنني لا أعتقد أنها محتملة الحدوث. وذلك ليس وحسب بسبب أطفالي الخمسة. إذ بحلول ذلك الوقت، على الأرجح أنه سيكون لديك طفل آخر".

"إنك محق. ولكن يجب أن نحصل على بعض المعلومات على أية حال. ويمكنني أن أراهن أن معظم الناس في الرحلة قد ذهبوا إلى إيطاليا بضع مراتٍ. فيمكننا العثور على أفضل مكانٍ للإقامة".

"أتريد أن تفعل ذلك فعلاً؟"

"نعم، يجب أن نعيش بعض الشيء".

"ألا تظن أن السفر حول العالم هو عيش بعض الشيء؟"

ففكّر بالأمر، ثم قال: "ينبغي أن نعيش قليلاً".

فضحكت، وقلت: "هل كنت لتصدِّق أننا قد سافرنا فعلاً حول العالم معاً وشاهدنا كل هذه الأماكن. أعني، في مثل سننا؟"

فهزّ ميكا رأسه قائلاً: "أبداً. ولكن مجدداً، إذا فكّرت بالأمر فقد عشنا كثيراً في الحياة أصلاً".

وبعد تعليقه، سرت صامتاً وأنا أتذكر.

في أوائل العام 1998، كان ميكا يدير مشروعين صناعيين، ويعمل لساعاتٍ طويلة، ويعدّ الخطط لزفافه، وكان مع بوب يتولى أيضاً دور والدي فيما يتعلق بصحة أختي. فبدأ يحضر كل جلسات الاستشارة، ويدوّن الملاحظات. في الأمسيات، كان يستشير ويقرأ في الصحف الطبية على الإنترنت ليتأكد من أن أختي كانت تتلقى أفضل عناية ممكنة.

اتصل بي ميكا ليطلعني على الأخبار حالما عاد من عيادة طبيب الأورام.

كان ورم أختي، الذي كان غير مرئي قبل ثلاثة أشهر، قد نما إلى حجم حبة العنب. ورغم أنه لم يكن كبيراً بحجمٍ الورم الأصلي - حجم البيضة - فقد كان واقعاً في مكانٍ أعمق في دماغها؛ في منطقةٍ مسؤولةٍ عن كلٍ من الذاكرة والوظائف الحركية الحيوية. لذا بسببٍ ذلك، لم تكن الجراحة خياراً وارداً. إذ لم تكن هناك طريقة للوصول إلى الورم دون التسبب بضرر مريع. فكانت أختي لتبقى عمياء ومشلولة في أفضل مجرىً للأحداث. وعلى الأغلب، كانت لتموت أثناء العملية. كما لم تكن الأشعة خياراً وارداً كما علمنا، وذلك غالباً لنفس السبب. إذ كانت المخاطرة كبيرة، والفوائد المحتملة غير موجودة تقريباً. وعوضاً عن ذلك، كانت أختي ستعالج بالعلاج الكيميائي.

بعد الاستشارة الأولية، أعطيت أختي مجموعةً من ثلاثة عقاقير أثبتت أنها الأنجع في معالجة أنواع الأورام التي كانت أختي مصابةً بها.

رغم ذلك، لم تكن احتمالات النجاح كبيرة. إذ إن العلاج الكيميائي هو أساساً عبارة عن سمٍّ. ويكون الأمل هو أن يقتل السم الأورام قبل أن يقتل الشخص. ورغم أنه فعال في أنواع كثيرة من السرطان، فهو أقل فعالية بكثير مع سرطان الدماغ. حيث إن حاجز الدم الدماغي - وهو على شكل جدارٍ بين الدماغ وبقية الجسم - يجعل وصول التركيزات العالية التي يعتبر وصولها ضرورياً لقتل الأورام مستحيلاً تقريباً. ومع ذلك، فيمكنها أن تتحكم بنمو معدل الأورام، أو إذا حالفنا الحظ، أن توقف حتى الانتشار تماماً.

سألت ميكا على الهاتف: "إذاً، ماذا يعني ذلك لدانا؟"

"لن يعرفوا شيئاً حتى تكون قد بدأت بأخذ العقاقير".

"ولكن لديها فرصة، صحيح؟"

"نعم، هناك فرصة ولكن..." وانخفض صوت ميكا.

فأكملت قائلاً: "ولكن احتمالات النجاح غير كبيرة".

"لم يقولوا ذلك. فكل ما قالوه لي هو أن النظام العلاجي الذي تستمر فيه يمنحها أفضل فرصة".

"وماذا يحدث إذا توقّف الورم عن الانتشار، ولكنه لم يمت فعلاً؟"

"لا أدري".

"هل يمكنهم أن يعرفوا لكم من الوقت سيتوقف الورم عن الانتشار إذ نجح العقار؟"

فقال: "كلا، وبصراحةٍ، يا نك، لم أحصل على أية أجوبةٍ على الإطلاق. ليس لأنها ليس لديها أطباء جيدون، ولكن لأنه ليس بإمكانهم حتى أن يبدأوا بالقيام بتخمينٍ علمي الآن. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه، وهم يقولون إنهم سيعرفون المزيد خلال ثلاثة أشهر عندما تحصل دانا على فحوصات التصوير الطبقي المحوري القادمة".

"ما الذي يفترض بنا فعله حتى ذلك الحين؟"

"ننتظر ونرى ماذا يحدث".

"أهذا ما قالوه؟"

"تلك هي الكلمات بالضبط".

بعد ذلك، بدأت حياتنا تدور في دائرة الثلاثة أشهر. فبدأت دانا العلاج الكيميائي وكان ميكا بجانبها، وبينما بدأ السم يرشح إلى جسمها، كان أخي يمسك بيدها.

جعلت الأخبار بشأن دانا كل شيء أكثر صعوبة بكثير. فكانت الكتابة صراعاً في الأشهر القليلة الأولى من العام. استمرت جولتي لأجل كتاب رسالة في زجاجة خلال شهري آذار ونيسان. ومجدداً، تركتُ كات وحدها مع الأطفال. وفيما كنت في الطريق بعيداً عن المنزل، كنت أقلق بشأن صحة أختي، وأكره حقيقة أنني لم أكن قادراً على العمل مع راين.

استمرّيت بالكتابة عندما عدت. وفي النهاية، أنهيت روايةً تقريباً قبل أن أرميها بكاملها، إذ إنها ببساطة لم تكن ناجحة.

حالما عدت، بدأت أعمل على قضية نطق راين مجدداً، وأنا أواجه صراعاً تلو الآخر. بحلول ذلك الوقت، كان المختصون قد راجعوا التشخيص مرة أخرى. وهذه المرة، شخصوه بـ "سي آي بي دي"، أو اضطراب العملية السمعية المركزية. وبشكلٍ أساسي، هو صعوبات في تعلّم الأصوات. فلأيّ سببٍ كان، تختلط الأصوات إلى ما يشبه الضجة العشوائية، مما يجعل الكلام والفهم صعبين إلى أقصى الحدود. بحلول ذلك الوقت، لم أكن ولا كات نأبه لما يقوله الخبراء أنه خطب راين، فقد استمرّينا بالعمل معه.

بعد سنة، وصل أخيراً إلى مرحلةٍ حيث كان يفهم أن الكلمات كانت تمثل الأشياء، وكان راين يكرّر تقريباً كل شيء كنت أقترحه. كانت الأسئلة حجر عثرةٍ ضخماً. إذ لم يستطع أن يفهم الفكرة وراء الجمل التي تبدأ بماذا أو من أو متى أو لماذا أو كيف. وطوال أسابيع، كنت أقضي ساعاتٍ محاولاً طرقاً مختلفة لأجعله يفهم.

فكنت أشير إلى صورة شجرة.

وكنت أقول: "شجرة".

فكان يكرِّر: "شجرة".

فكنت أثني عليه بقولي: "حسناً، عمل رائع". وكنت أشير إلى الشجرة مجدداً.

"ما هذه؟"

فكان يكرِّر: "ما هذه؟"

"كلا، كلا، إنها شجرة".

فكان يكرِّر: "كلا، كلا، إنها شجرة".

في غضون ذلك، استمرّ الوقت يمضي. وكان سيبلغ الخامسة من عمره في ذكرى ميلاده التالي.

* * *

في شهر نيسان، بينما كنت في الجولة، ذهبت دانا من أجل فحص التصوير الطبقي المحوري التالي. واتصلت بي وأنا في الطريق لتطلعني على الخبر بعد أن استلمت النتائج مباشرة.

قالت: "لقد تقلّص نصف الورم!"

فقلت: "هذا رائع!"

"آه، يا صاح. لقد كنت قلقة. وكانت أعصابي منهارةً خلال الأيام العشرة الماضية".

"أراهن أنك كذلك، وأنا أيضاً. ولكن هذه أخبار عظيمة".

"إذا استمر الأمر هكذا، فقد يكون قد اختفى في المرة التالية التي سأذهب فيها".

"هل قال الأطباء ذلك؟"

"كلا، ولكنني أظنّ أنه سيختفي. فقد انخفض إلى النصف أصلاً، وأكثر من النصف بالفعل".

فقلت مجدداً: "هذا رائع!"

"سوف أتغلّب على هذا الشيء".

"أعلم أنك ستفعلين ذلك".

بحلول شهر أيار من العام 1998، وبعد المئات والمئات من الساعات، عثرت بالمصادفة على شيء ساعد راين على فهم ما هو السؤال. فقد بدأت أهمس السؤال وأصرخ بالإجابة قبل أن يتمكن من تكرار السؤال.

فكنت أهمس وأنا أشير إلى الشجرة: "ما هذه؟" ثم كنت أصرخ بسرعة: "شجرة!!!!!"

فكان راين، وهو مجفل من صوتي المرتفع، يقول: "شجرة". بشكلٍ غريزي فقط تقريباً.

فكنت أهلّل، وأقول: "هذا صحيح. عمل رائع. إنها شجرة".

تدريجياً، تعلم كيف يستجيب لبعض الأسئلة، مثل و بشكل رئيسي. وكانت كلتاهما خطوتين كبيرتين إلى الأمام. مما سمح له أخيراً أن يشارك في المحادثة الأساسية. وليتعلم ، استغرق ذلك منه أسابيع كثيرة أخرى. أما فلم يكن يدركها، كما أنه لم يكن يستطيع ركوب الدراجة، ولا يستطيع الكتابة بقلم الرصاص، ولا يستطيع ربط حذائه. كانت كات تعمل معه في كل تلك النواحي أيضاً. لم يكن تصميمها الذي تظهره أقل من تصميمي. إذ كانت مثلي مصممة على مساعدة راين على التحسّن مهما استغرق الأمر. كان كل منا يريد أن يكون راين مع الطلاب الطبيعيين عندما يبدأ المدرسة. كنا نريده أن يحضر صفوفاً نظامية مع أطفالٍ نظاميين. فقد كنا نريد أن يتمّ تقبل راين على أنه سويّ.

لكن غالباً ما كنا نشعر أن الوقت كان ينفد منا. إذ إنه في غضون أقل من سنة بقليل، سيكون راين قد بدأ مرحلة الحضانة. واستمرّ الوقت يمضي.

في نهاية شهر أيار من العام 1998، قضيت وكات بضعة أسابيع في كاليفورنيا، زرنا خلالها كلاً من ميكا ودانا. وقد كنت الإشبين في زفاف ميكا. وكان حدثاً جميلاً حضره الأصدقاء والعائلة. بعد عدة أيام من عودته من شهر العسل، أخذ أختي من أجل موعدها التالي.

وأخبرته دانا على الطريق: "إنني واثقة أنه أفضل، وإنني أشعر بحال رائعة".

لكنه لم يكن هكذا. وعوضاً عن ذلك، كان الورم قد انتشر مجدداً. كان في ذلك الوقت بحجم ثلاث حبات عنب مع استطالاتٍ تنتشر منه إلى الخارج.

فتمّ تغيير نظام العلاج الكيميائي لدانا. لكننا كنا جميعاً نعرف أن العقاقير الجديدة لم تكن بشكلٍ عام

فعالة مثل الأولى. مع ذلك، كان ما يزال هناك أمل. فإحدى الدراسات السريرية، أشارت إلى أن واحداً من أصل اثني عشر مريضاً قد شفي شفاءً تاماً باستخدام العقاقير التي كانت تأخذها في ذلك الوقت. وكان ما يزال لدينا سبب للأمل كما أكد لنا الأطباء.

مع ذلك، فلكي لا نخاطر، استقلت دانا وميكا الطائرة مع بعض الأقارب إلى مركز الدكتور أندرسن في مدينة هيوستن، وهو أحد أشهر مراكز معالجة السرطان في البلاد، وذلك من أجل الحصول على رأي ثانٍ. فاستنتج الأطباء أنها كانت تتلقى أعلى مستويات العناية. ولو أن دانا كانت إحدى المرضى هناك لماً كانوا يقومون بأيّ شيءٍ مختلف.

بقيت دانا عندما كانت تتكلّم معنا متفائلة.

كانت تقول: "سوف أقضي عليه".

فكنت وميكا نطمئنها بقولنا: "نعلم أنك ستفعلين ذلك".

بعد ذلك، كنت وميكا نقول الأشياء نفسها لبعضنا البعض. ورغم ذلك، كنا نتكلّم مع بعضنا البعض في تلك السنة أقل مما كنا نفعل في السنة السابقة. فكنا نجري مكالمة أو مكالمتين في الأسبوع، وليس ثلاث أو أربع مكالمات التي كانت الشيء الطبيعي في السابق. استمرّيت وكات بالعمل مع راين. كان ميكا يكيّف نفسه مع الحياة الزوجية، ويعمل بجد، وكان أيضاً قد بدأ بإعادة تزيين منزله. وكان يقضي أكبر وقت يستطيعه مع دانا.

كانت المكالمات الهاتفية غالباً مؤلمة. فكان التحدُّث مع ميكا يذكّرني بدانا، والعكس صحيح. وحتى رغم أنني كنت أتحدّث مع دانا بتكرار كما كنت أفعل مع أخي، لم أستطع أبداً أن أتخلص من صورة شيء مريع ينتشر داخلها، شيء لا يمكن إلغاؤه.

في صيف ذلك العام، كتبت رواية نزهة للذكرى مستلهماً من أختي. كانت جيمي، الشخصية الرئيسية، تجسد الصفات الرائعة في أختي وكل القلق الذي كنت أعانيه من أجل مستقبلها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أبكي فيها في حياتي وأنا أكتب.

في النهاية، أهديتها لذكرى والديّ وإلى ميكا ودانا.

ورغم أن أختي كانت تعلم أنها كانت عنها فقد رفضت أن تقرأها.

قالت: "لا أريد أن أعرف كيف تنتهي".

بحلول فصل الخريف، كان ورم أختي قد تقلّص. ليس كثيراً، ولكنه كان تقدماً رغم ذلك، واستمرّت على نفس نظام العقاقير، وانتظرنا حتى الشتاء حيث كانت ستخضع لفحص تصوير طبقي محوري آخر، واستمرّينا نعيش من دائرة ثلاثة أشهرٍ إلى التالية.

في أوائل شهر كانون الأول، استقلّ ميكا ودانا مع بوب وكريستين والأطفال الطائرة إلى كارولاينا الشمالية لزيارتنا. وفيما كنا هناك ارتدينا جميعاً سراويل كاكية اللون، وقمصاناً بيضاء بأكمام طويلة، وجلسنا لالتقاط صورةٍ عائلية على الشاطئ ما تزال معلقة في غرفة معيشتي حتى اليوم، ومهما حدّقت فيها طويلاً، لن تعرف أبداً من مظهر دانا وراين أنه كان هناك أي خطبٍ مع أيٍّ منهما على الإطلاق.

بعد أسابيع قليلة، اتصلت بي أختي يوم ذكرى ميلادي، وغنَّت لي. بحلول ذلك الوقت، لم أستطع إلا أن ألاحظ أنها قد بدأت تلفظ الكلمات بشكلٍ متداخلٍ بين الحين والآخر، وبدأت تعاني من صعوبةٍ في فهم بعض الأشياء. ورغم ذلك، كانت ما تزال إيجابية بشأن حالتها، ولكنها بعد ذلك ببضعة أيام، حصلت على نتائج فحص التصوير الطبقي المحوري التالي.

كانت الجولة الثانية من العلاج الكيميائي فاشلة. إذ إن ورمها كان في ذلك الوقت بحجم أربع حبات عنب، واستمرت الاستطالات بالانتشار، فأخضعت لنظامٍ جديدٍ بعقاقير علاجٍ كيميائي جديدة.

أعلمنا بما يلي: "هذا هو آخر الأفضل. إذ إن كل شيءٍ يمكننا محاولته بعد ذلك هو تجريبي إلى حدٍّ كبير".

مع ذلك، كان ما يزال هناك أمل. ففي ذلك الوقت، أصبح الأمل هو الشيء الوحيد الذي كان بإمكاننا التشبث به.

في شهر شباط من العام 1999، استقلّ ميكا ودانا مع أزواجهما الطائرة إلى لوس أنجلوس لحضور العرض الأول لفيلم رسالة في زجاجة. مع ذلك، ففي عصر ذلك اليوم قبل أن نحضر العرض على السجادة الحمراء، أحضرنا أختي إلى مركز "سيدارز- سيناي" الطبي. هناك قمنا بالإجراءات لكي ترى أختي الطبيب كيث بلاك، وهو أحد أبرع جراحي الأعصاب في البلاد. فكنا نريد أن نتأكّد من أن الجراحة لم تكن خياراً في أي مكانٍ وعلى يد أي طبيب حتى لو انطوى الأمر على مجازفاتٍ خطيرة. ورغم أننا كنا نأمل جميعاً أن الجولة الأخيرة من العلاج الكيميائي ستنجح، ولكننا أردنا أن نبقي كل احتمالٍ يمكن تخيّله مفتوحاً.

كنت وميكا ودانا مع بعض الأقارب في الغرفة عندما وضع فحص التصوير الطبقي المحوري الخاص بأختي أمام الضوء. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أحد فحوصاتها. همس ميكا أن الورم يسهل تحديده، إذ كان السرطان يظهر باللون الأبيض، كما فسَّر لي.

عندما أشعل الضوء، ورأيت فحص أختي تشنّجت حنجرتي، كان اللون الأبيض في كل مكان.

رغم ذلك، فقد سألنا عن الجراحة. فأُخبرنا أنه بما أن الورم قد تخطى خط الوسط في دماغها فالجراحة ليست خياراً وارداً.

عندما سألنا عن علاجها الكيميائي، أخبرنا أنه كانت هناك إمكانية ضئيلة بأن يتمكّن من إبطاء الانتشار في حالةٍ كحالتها.

يبطئ ولا يوقف. فكان الطبيب بطريقته الهادئة الخاصة يخبرنا أن الأمر مسألة وقت.

"ولكنهم يقومون بكل شيءٍ يمكننا القيام به لها هنا".

عندما سألنا عن العقاقير التجريبية، شرح الطبيب أنها تجريبية لسبب. إذ إن الفعالية لم تُثبت، وقضى وقتاً طويلاً يتحدّث عن نوعية الحياة. مجدداً، كانت تلك طريقته في إخبارنا أن فرص أختي لم تكن جيدة.

فكان الورم، بحلول ذلك الوقت، قد بدأ يدقّ ناقوسه على أختي. فرغم أنها كانت بخيرٍ في المحادثات العادية، إلا أنها لم تعد قادرةً على فهم تفاصيل شرح الطبيب. فعبست في وجهه وهي مفتقدة للفارق الدقيق في المعاني كلياً.

قال الطبيب لها: "إنك تبلين حسناً. في الواقع، إنني مندهش لكم أنت تبلين حسناً".

مجدداً، فهمنا أنه كان يشرح حالتها بتعابير نسبية، إذ إن معظم الناس المصابين بورم مثل أختي لن يكونوا قادرين على السير أو التحدُّث على الإطلاق. قرابة نهاية الاستشارة، كان ميكا جالساً في الزاوية ورأسه منحنٍ إلى الأسفل. حالما غادرنا الطبيب، لم يستطع أي منا قول أي شيء، عوضاً عن ذلك، جلسنا صامتينً لوقتٍ طويل. فنظرت أختي أخيراً إلى ميكا.

سألت دانا ميكا: "ما الذي كان يخبرنا به؟"

حوّل ميكا نظره من دانا إليَّ ثم مجدداً إلى أختي، وأجبر نفسه على الابتسام.

أجاب ميكا بلطف: "إنه يقول إنك تأخذين الدواء الصحيح. وهم لن يستطيعوا فعل أي شيء مختلف".

فأومأت برأسها قائلة: "ولن أستطيع الخضوع للجراحة أو الأشعة مجدداً؟"

فقال: "كلا، إنهم لا يعتقدون أنها ستفيد".

فطرفت بعينيها، ونظرت إليَّ وإلى ميكا، وقالت: "ولكن ما يزال هناك المزيد من الدواء يمكنهم إعطاؤه لي، صحيح؟ إذا لم تعد التي آخذها الآن تنجح؟"

فقال ميكا: "نعم، ما تزال هناك بضعة أشياءٍ يمكنهم تجربتها".

فقالت: "حسناً... جيد".

بعد بضع ساعاتٍ، كنا محاطين بنجوم السينما. فحصلت دانا على صورتها مع كيفن كوسنر وروبن رايت بن اللذين كانا لطيفين إلى أقصى حدٍّ مع أختي. لكن بينما أخذت دانا وضعيتها لالتقاط الصور، كان كل ما استطعت فعله هو التحديق بها متسائلاً كم من الوقت ما يزال أمامها.

في ربيع العام 1999، بدأت أكتب رواية الإنقاذ، وكأن الأمر هروب من حتمية ما كان يحدث. كانت القصة عن صبي يُدعى كايل لا يستطيع الكلام. كانت شخصية وعاطفية بعمق بالنسبة لي كمؤلف. كانت مستلهمة بالطبع من راين ومخاوفنا على مستقبله، والعمل الذي كنت أقوم وكات به معه.

كنت في لحظات فراغي أقضي الوقت مع مايلز وكات بينما كنت مستمراً بالعمل مع راين. كانت كات قد تقدّمت جيداً في تعليم راين عدداً ضخماً من المهارات، وقد استمرّ بالتحسن في طرح الأسئلة والإجابة عنها. مع ذلك، فقد وجدت نفسي أتمنّى لو كان الأمر أسهل. فلم أكن أريد شيئاً أكثر من أن ينجح شيء ما فجأة، وأن يبدأ راين التعلم بمفرده بمجرد أن يتشرب العالم من حوله كما يفعل بقية الأطفال. لكن لم ينجح شيء على الإطلاق فجأة، فكان العمل معه مشابهاً لدحرجة صخور الجلمود إلى أعلى تلة لا تنتهي، وكان محبطاً بشكلٍ لا يصدق. كنت أتساءل لماذا وُهِبت طفلاً يعاني الكثير من المشاكل. كانت هناك لحظات متكرّرة كنت فيها غاضباً...، وغاضباً مما كان يحدث، وغاضباً من قدري. إذ مع راين، كنت وكات مسلوبين من كل متع الطفولة، ودهشته وهو يكتشف العالم، وعاطفته الطبيعية، وقدرته على التعلم بمفرده. فقد كان يتعلق بطفولته صراعاً بدون جزاء، وقد كنت ألوم ظلم ذلك كله. وأردت أحداً آخر ليقوم بالعمل، أردت أحداً أن يأتي ويحل المشكلة بطريقة سحرية. كنت أحلم باليوم الذي سيخترع فيه أحدهم حبة دواء تجعل مشكلته تنتهي. كنت متعباً جداً في ذلك الوقت، متعباً من الأمر كله. كنت أصلّي وأتوسّل الله ليجعل ابني أفضل حالاً. لم يكن ذلك شيئاً كثيراً لأطلبه، أليس كذلك؟ لقد كنت أريد وحسب ما يملكه أصدقاؤنا وما يملكه جيراننا وما يبدو أن جميع الآخرين يملكونه. أردت طفلاً ككل الأطفال الآخرين.

بعد ذلك، كنت أشعر بالذنب لما كنت أفكر فيه. ذنب مريع. إذ لم يكن خطأ راين ولا خطأ... ولا خطأ أي أحدٍ آخر. عمل راين بجدٍّ كبير أكثر مما ينبغي أن يُتوقع من أي طفل، ولم يكن يتوقف. لقد كنا نخوض النار معاً، ولم أكن - ولم أستطع أن - أستسلم معه. فقد كان ابني وكنت أحبه. رغم كل شيء، لم يقل أحد أبداً إن الحياة عادلة، وما تريده وما تحظى به هما عادة أمران مختلفان تماماً. ومع واجبٍ أقوم به، بدأت أعمل معه مجدداً.

لم يكن لديَّ خيار آخر، فقد كان سيبدأ مرحلة الحضانة في غضون أقلّ من ستة أشهر، وكان ما يزال هناك طريق طويل طويل لنسير فيه.

بعد شهر، في نيسان من العام 1999. اكتشفنا أن كات كانت حاملاً. وقد فاجأنا استقرار ورم أختي مجدداً، أو من الممكن حتى أن يكون قد تقلّص. واحتفل ميكا بذكرى زواجه الأول بعد شهر، وبعد أن اتصلت لتهنئته، سألني: "كيف حال راين؟ إنني فعلاً أشتاق لذلك الطفل؟"

كان ميكا يسأل عن راين. وكان يقول شيئاً لطيفاً.

طوال فترة الصيف، استمرّيت بالعمل على رواية الإنقاذ، وبالعمل مع ريان، وقضاء الوقت مع مايلز. كنت وكات نتعجّب من بطنها الذي ينمو. كنت أستيقظ كل صباح مع الاعتقاد المتجدِّد أنها كانت أروع امرأة في العالم. وقد قمنا أيضاً برحلة أخرى إلى كاليفورنيا، وكانت رحلاتنا إلى هناك تصبح أطول وأكثر تكراراً في آنٍ معاً.

في فصل الخريف، بدأ راين مرحلة الحضانة. قضينا اليوم الأول ونحن نذرع البيت ونقلق بشأنه دون نهاية. إذ كنا مرعوبين من فكرة ما كان سيحدث له. فرغم أنه قد تحسّن بشكلٍ فعلي، إلا أنه كان لا يزال متأخراً كثيراً في عدة نواحٍ. كنا قلقين من أن لا يحبّه أحد، وأن الأطفال الآخرين سيزعجونه، وأنه لن يكون قادراً على تولي العَمل. كنا كل يوم ننتظر اتصالاً هاتفياً من المدرسة يخبروننا فيه أنه من الأفضل أن نلحق راين بمكان آخر. وكنا نصلي من أجله كل ليلة.

مجدداً، كان عليَّ مغادرة المدينة لشهرين متواصلين، وهذه المرة بينما كانت كات حاملاً، فتجوّلت في أوروبا والولايات المتحدة للترويج لرواية نزهة للذكرى. فيما كنت في الطريق كنت قلقاً بشأن كات، وقلقاً بشأن راين. وفي منتصف الرحلة، علمت أن ورم أختي قد ساء، وأنه كان ينتشر مرة أخرى. كانت دانا تخضع للعقاقير التجريبية في مركباتٍ تجريبية دون أية وعود على الإطلاق، فكنت قلقاً عليها أيضاً.

كان من يجرون مقابلاتٍ معي يسألونني بشكلٍ دائم تقريباً إن كنت أشعر أنني قد ولدت تحت نجم محظوظ، أو إن كنت أعتقد أن حياتي مباركة. فلم أكن أعرف أبداً بماذا أجيبهم.

طوال العام 1999، كانت المكالمات الهاتفية بيني وبين أخي مستمرة بانتظام. وكلما كنا نتحدّث، كنت أبدأ بالإحساس بإرهاقه العاطفي. إذ إنه، بالإضافة لتسلّمه دور أبي في التردد مع دانا من وإلى المواعيد المختلفة، أصبح أيضاً المؤتمن على أسرار أختي ومشجعها. وكل هذا فيما يحاول أن يمنعها من معرفة مدى قلقه الفعلي.

كان أخي، مثلي، يستخدم العمل كمتنفّس. كان مشروعاه قد كبرا، وكان لديه حوالى ثلاثين موظفاً مقابل ستة موظفين عندما بدأ. كان يضغط على نفسه بشدة، فكان يعمل في عطل نهاية الأسبوع والأمسيات. وبعمر الخامسة والثلاثين، كما كان هدفه في السابق، أصبح مليونيراً أيضاً.

كنت ودانا نتحدّث على الهاتف أيضاً عادةً مرتين في الأسبوع. كنت أتصل أحياناً، ولكن غالباً ما تكون أختي هي التي تردّ على الهاتف. إذ كانت تحب التحدُّث مع كات - فكانتا تتحدّثان بشكلٍ رئيسي عن الأطفال، وكم كان من المتعب أن تكون المرأة أماً - وكانت تتابع حمل كات بشكل دقيق. في لحظاتٍ كتلك، كان من السهل نسيان أن هناك أي خطب بها.

وفيما إذا كانت أختي في حالة إنكار، أو كانت متفائلة. فقد كانت تقلل من أهمية الورم، وكانت عادةً لا تذكره على الإطلاق. وإذا فعلت، يكون ذلك فقط لتخبرني أنها ستقضي عليه.

كانت تقول: "إنني أعلم ذلك وحسب، لديَّ طفلان وهما يحتاجان أماً".

كنت أجيب: "أعلم ذلك. وأنت تقومين بعمل عظيم، بحيث إن الأطباء يعترفون بذلك".

أحياناً عندما كنت أجيب كانت تهدأ، وتقول: "إنك تعتقد أنني سأنجح أيضاً، أليس كذلك، يا نك؟"

كنت أكذب بسرعة وأنا أقاوم الغصة في حلقي، وأقول: "بالطبع، أعتقد ذلك. ستكونين على ما يرام تماماً".

في أواخر شهر كانون الأول، وقبل الميلاد ببضعة أيام، اتصل ميكا وهو يبدو متعباً، وكان صوته فاتراً.

فسألت: "ما الأمر؟"

فقال: "إنها دانا. لقد عدنا لتوّنا من موعدها الأخير". وتوقّف، وبعد لحظاتٍ، بدأ يبكي في الصمت.

قال: "ما زال ورمها ينتشر. فقد أظهر فحص التصوير الطبقي المحوري الأخير أن العقاقير الجديدة لا تساعد على الإطلاق".

أغلقت عينيّ. كان صوت ميكا مرتجفاً ومتهدِّجا، وقال: "ومع ذلك، فقد أخضعوها لنظام آخر، ولكنهم لا يظنون أنه سينجح. إنهم يقومون بذلك وحسب لأنهم يعلمون أن دانا تريد تجربةَ شيءٍ آخر. يقولون إن موقفها كان السبب في أنها نجحت طيلة تلك المدة. وهم لا يريدون أن يحطّموا شجاعتها. إذ إنها بحاجةٍ لتشعر أنها تفعل شيئاً لمحاربته. ولكن...".

"إنها لا تعرف...".

فقال: "كلا، فعندما غادرنا أخبرتني أنها واثقة أن العلاج الكيميائي سينجح هذه المرة".

فشعرتُ بالغصّة في حلقي، واستطعت أن أشعر بالدموع تطفح. استمر ميكا بالبكاء في الهاتف.

"تباً، يا نك... إنها شابة جداً... إنها أختنا الصغيرة".

بدأت أبكي أيضاً.

"كم من الوقت ما يزال أمامها؟" كان ذلك هو كل ما استطعت فعله لأجعل الكلمات تخرج.

فأخذ نفساً عميقاً محاولاً السيطرة على نفسه.

همس: "إنهم ليسوا واثقين. ورغم ذلك، عندما أحرجت الطبيب قال إنه قد يكون أمامها ستة أشهر".

في الخارج، كان الظلام يهبط، وكانت السماء مليئة بالنجوم، وكان القمر معلقاً أبيض وثقيلاً في الأفق. كانت أوراق الشجر تصدر صوت حفيف في نسيم الشتاء. يشبه صوتها صوت أمواج المحيط. كانت تلك أمسية جميلة، وكأن كل شيء كان صحيحاً في العالم. ولكنّ الأمر لم يكن كذلك. إذ بمكالمة ميكا، فقدت آخر أمل كان لديَّ.

لم أكن مدركاً كم كنت متعلقاً بذلك الأمل البعيد الاحتمال. عندما أغلقت السماعة مع ميكا، ارتديت سترة على عجل، وخرجت ومشيت عبر حديقتنا، وأنا أفكر بدانا، وأفكر كم كانت قوية ومتفائلة، وأفكر بأطفالها، وأفكر بالمستقبل الذي لن تراه أبداً. فانحنيت على شجرة، وبكيت في مهبّ الريح.

قضيت اليومين التاليين وأنا أتجول هائماً في أنحاء البيت. فكنت أبدأ شيئاً ثم أتوقف، وكنت أشاهد برنامجاً لعشر دقائق قبل أن أدرك أنني لا أدري ولا آبه بما كان يعرض، وكنت أقرأ الصفحات نفسها مراراً وتكراراً وأنا غير قادرٍ على فهم الكلمات على الصفحة.

بعد يومين رنّ الهاتف، كانت كات في الشهر الأخير من حملها، وبعد أن أجابت على الهاتف، أحضرت السماعة إلى مكتبي وعيناها ممتلئتان بالدموع.

قالت: "إنها دانا".

فأخذت الهاتف، وحالما وضعته على أذني سمعت أختي تغني لي، إذ كان ذلك اليوم ذكرى ميلادنا. فركّزت بشدة بينما كنت أصغي إليها وأنا أريد أن أجمد اللحظة، لأنني كنت أعلم أنها قد تكون المرة الأخيرة التي سنفعل فيها هذا لبعضنا البعض.

في شهر كانون الثاني من العام 2000، ولد طفلنا لاندون. فكان، بعينيه الخضراوين وشعره الأشقر، يشبه أمه. استوقفني كم كان صغيراً بين ذراعي. فقد مضت سبع سنوات منذ حملت طفلاً حديث الولادة، ولم أكن أريد أن أضعه من يدي.

رغم ذلك، لم يكن لديَّ خيار آخر، فقد كانت تشدّني المشاعر التي كنت أكنّها لعائلتي الأخرى. بعد ثلاثة أيام، استقليت الطائرة إلى كاليفورنيا لرؤية أختي. منذ تلك الرحلة، بدأت الذهاب إلى كاليفورنيا بانتظام، فكنت في كل فترة أسبوعين أقضي أربعة أيام على الأقل مع أختي في المزرعة.

لأن أختي كانت لا تزال متمسكة بالأمل - ولأنّ الأمل كان هو الشيء الوحيد الذي يبقيها قوية - كان عليَّ إخفاء أسبابي للقدوم. إذ رغم أن آثار ورمها قد بدأت تصبح واضحة، إلا أنها كانت ما تزال حادة الذهن بما فيه الكفاية لتلاحظ أنني أصبحت فجأةً أزورها بانتظام، وكانت ستستنتج الأسوأ. لم أكن أستطيع فعل ذلك بها. فقد كانت روحها المعنوية قد أبقتها قوية. ولم أكن أريد أن أجعل نوعية الحياة التي بقيت لديها أسوأ. هكذا، وجدت نفسي في النهاية أخبرها بأنصاف الحقائق. فكنت أقول:

. أو:

.

كانت دانا تقول: "هذا رائع، إنني أحبّ أن أراك".

كان ميكا دائماً يلتقيني في المطار. وكنا نقوم بروتين لا يتغيّر، فقد كنت وميكا نتوقف في صالة زيلدا للبيتزا الفاخرة في وسط مدينة سكرامنتو، وكنا نتشارك البيتزا والشراب، ونتحدّث لساعاتٍ عن الكتابة وعن عمله وعن أختنا، وكنا نتشارك ذكرياتٍ من طفولتنا. فكنا نضحك ونهزّ رأسينا، ثم نهدأ فجأةً عندما نفكر بأمنا أو أبينا، أو بما كان يحدث لأختنا. كنت أنام في بيت ميكا في الليلة الأولى. وفي الصباح، كان يأخذني بالسيارة إلى المزرعة لقضاء بقية وقتي مع دانا.

في زيارتي الأولى، استمرت أختي بالتظاهر أنه ليس هناك أي خطب، فكانت تطهو وتنظف وتسأل إن كنت أريد مساعدة كودي وكول بفرضهما المنزلي بينما تأخذ هي قيلولة. كنا نتناول العشاء ونتحدّث إلى أن تتعب وتذهب أخيراً إلى الفراش.

لكنّ تطور ورمها كان لا يمكن إيقافه. وشيئاً فشيئاً، لم يكن يخفي نفسه. ففي كل زيارة تالية، كانت قيلولتها تصبح أطول، وكانت تذهب للفراش في وقتٍ أبكر. وبحلول شهر شباط، بدأت تعرج، فكان الورم ببطء يشلّ الشقّ الأيسر من جسمها. في المرة التالية التي زرتها فيها، كانت ذراعها اليسرى قد أصبحت أضعف أيضاً. بعد ذلك بأسبوع، بدأ الطرف الأيسر من وجهها يفقد القدرة على التعبير. وحيث كانت أحياناً تخلط الكلمات بين الحين والآخر، أصبح الخلط في ذلك الوقت يحدث بتكرار أكثر، وأصبح الفهم المجرد حتى أكثر صعوبة.

لقد كانت أختي الصغيرة تخسر معركتها ببطء، ولكنها حتى في ذلك الوقت، كانت بطريقةٍ ما تعتقد أنها ستنجح.

كانت تقول: "سأكون على ما يرام، وسوف أرى كودي وكول يكبران".

مع ذلك، ففي ذلك الوقت عندما كانت تدلي بتعليقاتٍ مثل تلك، كان كل ما كنت أستطيع القيام به

هو عدم البكاء. في تلك الأشهر الأولى من العام 2000 كنت أتحطم عاطفياً، ومع الشعور بأنني ممزق بين رؤية دانا وقضاء الوقت مع طفلي الجديد، كنت أستيقظ كل يوم وأنا أفكّر بأنه ينبغي عليَّ أن أكون في مكانٍ آخر. فإذا كنت أحتضن لاندون كنت أتمنّى أن أكون في كاليفورنيا أحتضن أختي، وعندما كنت أحتضن أختي كنت أتمنّى أن أعود إلى كارولاينا الشمالية لأحتضن ابني. ولم أكن أعرف ماذا أفعل، ولم أكن أعرف كيف أوازن ذلك كله، ولم أكن أعرف لكم من الوقت سأواصل الأمر. كنت بالكاد أنام. كانت الدموع تنساب من عينيّ فجأةً في لحظاتٍ غير متوقعة. لذا كنت أجبر نفسي على المضي في تحركات الحياة اليومية. كنت مرهقاً أكثر من أي وقتٍ مضى.

عندما تعلم أن أحداً مقرباً منك على وشك الموت، هناك نزعة طبيعية لأن ترغب بقضاء أطول وقت ممكن معه. كما ذكرت، كان هناك صراع مستمر للحفاظ على التوازن بين عائلتي الحالية وعائلتي التي نشأت فيها. لكن حتى إذا أردت ذلك، كان هناك سبب آخر لعدم بقائي في كاليفورنيا. إذ كانت زياراتي - رغم أن الجميع كانوا يفهمون أسباب قدومي - تغير القوى المحركة لمنزل أختي. ولطالما يبدل الضيوف - حتى الضيوف العائليون - القوى المحركة المنزلية. وتذكّر أن أختي كانت لها عائلة جديدة خاصة بها أيضاً.

كانت دانا قد تزوّجت في وضعٍ رائع. فقد كان والد بوب يعيش في المزرعة في منزلٍ على مرمى حجر وكذلك زوجة أبيه وأخوه غير الشقيق. كانت والدة بوب وزوج والدته يعيشان على بعد أقل من عشر دقائق أسفل الطريق الخارجي، وكذلك أخ بوب. كانوا جميعاً يحبون أختي، وقد فتحوا قلوبهم لها وقبلوا بها في حياتهم. كان كل واحد منهم يكابد كما كنت وميكا نفعل. وربما، قد توصلت للاعتقاد، أن مكابدتهم كانت حتى أسوأ من مكابدتنا.

فبينما تطوّر ورم أختي، وفقدت القدرة على فعل كل شيء كانت تفعله في السابق، كان أعضاء عديدون من عائلة بوب يتحرّكون داخل وخارج المنزل، ويملأون الفراغ بهدوء. فكان دائما يوجد أحد منهم هناك ينظّف الصحون، ويغسل الغسيل، ويساعد بالفروض المنزلية. فكانت أختي لا تترك وحدها أبداً في وقت الحاجة.

أعتقد أن ما أحاول قوله هو أنني كنت أزور أختي بقدر ما كنت أعتقد أنني أستطيع وليس بقدر ما كنت أريد. كنت أفعل ذلك حتى تكون لدى عائلة بوب الفرصة لقضاء الوقت مع أختي دون وجودي في الأنحاء. فقد كانوا يملكون ذلك الحق. كنت في أعماقي أعلم أن كل واحدٍ منهم - ولا سيما بوب - كان أيضاً بحاجةٍ لتوديعها.

كنت آتي وأذهب، ولكن ميكا استمرّ في الدور الذي تولاّه بعد وفاة والدي. كان قوياً، وثابتاً، ومعيناً رغم مخاوفه. في منتصف شهر آذار، قاد السيارة مع أختي إلى سان فرانسيسكو حيث التقت طبيب الأورام الخاص بها. كما توقّع الأطباء، لم يكن للدواء التجريبي تأثير على الإطلاق. جلس ميكا بجانب أختي بينما كان الطبيب يشرح أنه لم يعد هناك في ذخيرتهم أي شيءٍ لتجربته. رغم أنه كان يمكنهم أن يجرِّبوا عقار علاجٍ كيميائي آخر، كان هناك أمل ضئيل بأنه قد يفعل شيئاً عدا عن جعلها تنام أكثر مما كانت تفعل أصلاً. بحلول ذلك الوقت، كانت أختي تنام من أربع عشرة إلى ست عشرة ساعة في اليوم.

في نهاية الاستشارة، ودّع ميكا الطبيب، وأمسك ذراع أختي كي لا تقع، واقتادها للخارج.

جلسا على الدرجات خارج المجمع الطبي. كان الطقس مائلاً للبرودة، ولكنّ السماء كانت زرقاء وصافية. وعلى الأرصفة، كان الناس يمرّون دون أن يلقوا نظرةً ثانية. كانت السيارات تسير بثبات، وأطلق واحد أو اثنان أبواق سياراتهم من بعيد. ففي كل مكان آخر، كانت الحياة تسير بشكل طبيعي. ولكن بالنسبة لميكا، لم يكن أي شيءٍ يبدو طبيعياً على الإطلاق.

كان ميكا، مثلي، مرهقاً. نعم، كان يعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحدّ. كنا جميعنا نعرف أنه سيصل إلى هذا الحدّ. رغم ذلك، كما فعلنا بالضبط عند سرير والدتنا، لم نكن نتوقف عن التمني والصلاة لحدوث معجزة. لم يكن هناك سبب منطقي لنتوقع معجزة، ولكنّ دانا كانت أختنا، وكنا نحبها. فكان ذلك الشيء الوحيد الذي أمكننا أن نفعله.

لم تقل أختي شيئاً. انخفضت عينها اليسرى وسال بعض اللعاب من فمها، فلم تستطع الشعور به، ولم تعلم حتى أنه كان موجوداً. فمسح ميكا فمها بلطف.

قال: "يا عزيزتي؟"

فأجابت أختي بهدوء: "نعم". ولم يعد ذلك صوتها، فقد كانت كلماتها تبدو مختلفة في ذلك الوقت، مثل أحدٍ ما يتمتم في نومه.

وضع ميكا ذراعه حولها، وقال: "هل تفهمين ما كان الطبيب يقوله؟"

فنظرت دانا إليه وهي تحرك رأسها ببطء، فبدا ذلك كل شيءٍ تستطيع فعله لتتذكر.

سألت أخيراً: "لا... مزيد... من الأدوية؟" وكانت الكلمات ناعمة ومنخفضة فوق الحدّ تقريباً لتسمع.

"نعم، يا عزيزتي، هذا صحيح. لا مزيد من الأدوية، لقد انتهيت من كل ذلك".

فحدّقت أختي به محاولةً أن تتبع كلماته، وكان تعبيرها حزيناً، وشكّل نصف فمها شكل عبسة.

"أهذا هو كل شيء إذاً؟"

تدفّقت الدموع فوراً من عيني ميكا، إذ كانت تلك طريقتها في سؤال ميكا إن كانت ستموت فعلاً.

فهمس: "نعم، يا عزيزتي، هذا هو كل شيء".

وسحبها قربه، وقبّل قمة رأسها، وانحنت دانا على صدره.

للمرة الأولى منذ شخّص الورم لديها، بدأت أختي الصغيرة بالبكاء.

بحلول نهاية شهر آذار، وحتى بدون العلاج الكيميائي، استمرّ نوم أختي يستغرق وقتاً أطول. كنت في زياراتي أجلس وحيداً في المطبخ لفتراتٍ طويلة بانتظارها لتنهض من قيلولتها. في تلك الساعات، كان عقلي يدور بآلاف الصور: كيف كانت تبدو كطفلة، والأشياء التي قمنا بها معاً، والنزهات الطويلة التي اعتدنا أن نقوم بها. لقد كان الوقت ينفد منا، وكنت أريد أن أوقظها، وأريد أن أقضي وقتاً معها، وأريد أن أتحدّث معها. لكنني لم أزعج راحتها أبداً. عوضاً عن ذلك، كنت أذهب إلى غرفة النوم، وأستلقي على السرير بجانبها. كنت أمرِّر يدي بلطفٍ في شعرها، وأهمس قصصاً عن طفولتنا، وأخبرها عن لاندون. لكنّ أختي لم تكن تتحرك أبداً. كان تنفسها ثقيلاً ومجهداً مثل تنفس شخص أكبر سناً بكثير. مع مرور الوقت، كنت أعود إلى المطبخ وأنظر من النافذة دون رؤية شيء على الإطلاق فيما كنت أنتظرها لتستيقظ، بينما كانت الساعات تمرّ بتثاقل.

في الأمسيات بعد العشاء، كنا نجلس في غرفة المعيشة، كنت أحدِّق في دانا مركِّزا على الطريقة التي كانت تبدو بها، وكنت أريد أن أتذكر وجهها إلى الأبد. إذ إن الزمن قد أبهت صورة والدتي قليلاً. وكان أصلاً يبهت صورة والدي، فلم أكن أريد أن يحدث هذا مع أختي. فكنت أحدق فيها، وأنا ألاحظ انحناء فكها وعينيها البنيتين ذات الإطار الذهبي ورقعة النمش على وجنتيها. فركّزت، وأجبرت نفسي على رؤية كل شيء لأجعله حقيقياً إلى الأبد.

كان أفراد من عائلة بوب يتحدّثون معي أحياناً في الساعات التي تلي العشاء. في إحدى الليالي،

قرابة نهاية شهر نيسان، كنت أتحدّث وكارولين، زوجة والد بوب، مع دانا، عندما أعلنت دانا أخيراً أنها ذاهبة للفراش. كانت حالها تصبح أسوأ بشكل مستمر - إذ كان كل ما بإمكانها فعله غالباً هو التمتمة - ولكنها كانت تبتسم ابتسامتها نصف المشلولة. أخافني أن تكون تلك آخر محادثة طبيعية نجريها معها على الإطلاق. حالما أصبحت خلف بابها المغلق، انهرت وبكيت بين ذراعي كارولين وأنا أنتحب بشكلٍ خارجٍ عن سيطرتي لحوالى عشرين دقيقة.

في شهر أيار، بدا التطور الرهيب وكأنه يزداد. إذ إن دانا لم تعد تستطيع أن تحمل الشوكة، لذا كنت أطعمها. بعد أسبوع، لم تعد قادرة على المشي والكلام على الإطلاق. بعد ذلك بأسبوع، علّق لها قسطر، ولم تستطع سوى تناول السوائل، وكان يجب حملها من غرفتها.

خلال زيارتي الأخيرة، في منتصف شهر أيار، جاءت عائلتي معي لتوديعها.

في يومنا الأخير في البلدة، أتذكر أنني أخذت لاندون إلى غرفتها. كانت عيناها هي السمة الوحيدة التي بقيت منيعة أمام الخراب الذي سبَّبه الورم، فكانتا تلمعان فيما حملت الطفل بجانب خدها. أمسكتُ يد دانا ووضعتها على بشرة الطفل، وبدت مستمتعة بذلك الإحساس. عندما كنا وحدنا أخيراً مجدداً، ركعت بجانب سريرها وأنا آخذ بيد أختي في يدي ولم أكن أريد أن أتركها، إذ كنت أعلم أنّ تلك هي المرة الأخيرة التي كنت سأتحدّث فيها إليها على الإطلاق.

همستُ أخيراً: "أحبك". وقلت: "إنك أفضل شخص عرفته في حياتي". فأصبحت عينا أختي ناعمتين. ورفعت إصبعها بجهدٍ، وأشارت إليَّ.

حرّكت شفتيها بدون صوت: "وأنت".

احتفل كودي وكول بذكرى ميلادهما السادس في اليوم التالي. حُملت أختي إلى الخارج، وجلست في كرسي لتشاهدهما. في تلك الليلة، دخلت في غيبوبة، ولم تستيقظ مجدداً أبداً، وتوفّيت بعد ثلاثة أيام.

كانت دانا في الثالثة والثلاثين من عمرها.

دفنت دانا بجانب والدينا. احتشد الناس في الجنازة، ومجدداً، رأيت نفس الوجوه في الحشد، وجوه شهدت دفن والدي ووالدتي. كانت الجنائز هي الوقت الوحيد الذي كنت أرى فيه هؤلاء الناس خلال الإحدى عشرة سنة الماضية.

في التأبين بجانب القبر، أخبرت الجميع كيف كنت وأختي معتادين أن نغني لبعضنا البعض يوم ذكرى ميلادنا. أخبرتهم أنني حين كنت أفكّر بأختي كنت لا أزال أستطيع أن أسمع صوت ضحكتها، وأحسّ بتفاؤلها، وأشعر بإيمانها. أخبرتهم أن أختي كانت ألطف إنسان عرفته في حياتي، وأن العالم سيكون مكاناً أكثر حزناً بدونها. أخيراً، طلبت منهم أن يتذكّروا أختي بابتسامة، كما كنت أفعل، لأنه حتى رغم أنها قد دُفنت قرب والديّ فإن أفضل أجزائها ستبقى حيةً في أعماق قلوبنا.

حضر ميكا ثلاث جنائز فقط في حياته. وعندما انتهت الجنازة، وقفنا بجانب القبر ونحن نحدق بالأزهار التي كانت تغطي التابوت.

وضع ميكا ذراعه حولي بصمت. إذ لم يتبقَ شيء لنقوله. ولا استطعنا أن نبكي، ففي تلك اللحظة، لم يكن لدى أحدٍ منا دموع باقية.

استطعت أن أشعر بتحديق الآخرين وأحس بيأسهم. إذ كنا صغاراً جداً لنفقدهم جميعاً. تخيّلتهم يفكّرون بذلك، وكانوا على حق.

كان المكان يشعر بالوحدة أمام القبر. فقد كان ينبغي أن يكون بقية أفراد عائلتي إلى جانبي

لأنحني عليهم في لحظة كتلك. لكنهم كانوا سبب وجودنا هنا. كنت وأنا واقف بجانب ميكا يتضح لي أننا كنا الوحيدين الباقيين في عائلتنا. لقد كنا نحن الاثنان وحسب في ذلك الوقت.

أخوان.

الفصل السابع عشر

مدينة ترومسو في النرويج
13 - 14 شباط

وصلنا عصر اليوم التالي إلى ترومسو في النرويج، وهي بلدة ساحلية رائعة تقع على بعد ثلاثمائة ميل شمال الدائرة القطبية الشمالية. بسبب خط العرض، كانت السماء أصلاً ذات لونٍ أزرق داكن، ولكنّ درجة الحرارة استوقفتني بأنها كانت بالكاد مائلة للبرودة وليست باردة. رغم أنها تبعد ألف ميل فقط عن القطب الشمالي، فقد كانت المياه الساحلية دافئة بفعل تيار الخليج، مما يجعل فصول الشتاء أكثر اعتدالاً بكثير من المدن النرويجية التي تقع إلى الجنوب أكثر.

بعد أن ركبنا الحافلة، تحركنا بشكلٍ متعرجٍ عبر المدينة.

تقع ترومسو وسط الجبال، وكانت طبقة من الثلج تغلف أرضها مما جعل المدينة شبيهة ببطاقة معايدة بمناسبة 25 كانون الأول. وكانت السماء سوداء كلياً لدى وصولنا إلى فندقنا. كانت ساعتي تشير إلى أقل من الرابعة بقليل.

بعد التفقد مباشرةً، ذهبت إلى كمبيوتر الفندق لأرسل رسالة إلكترونية إلى كات، فقد كنت أراسلها بالبريد الالكتروني بانتظام. بسبب اختلاف التوقيت، كان غالباً من الأسهل الوصول إليها بتلك الطريقة. فطبعت رسالة، مخبراً إياها بكل الأمور التي حدثت معي. بعد ذلك، رغم الجبال وطبقة الغيوم التي كانت على الأرجح ستحدّ من استخدام الهاتف الذي أحضرته معي، فقد حاولت الاتصال بها. كنت في الأسابيع الثلاثة السابقة، قد تحدّثت معها على الهاتف أقلّ من عشر مرات. كنا نادراً ما نتحدّث أكثر من دقائق قليلة. رغم أن كات كانت تعلم أن الأمر سيكون صعباً عليها بينما أكون بعيداً، إلا أنني لا أظنّ أن أيًّا منا كان يعرف تماماً كم كان الأمر سيكون صعباً بالفعل. إذ كان بإمكاني سماع الإرهاق في صوتها، فكان صوتها يبدو منهكاً.

عندما عدت إلى الغرفة، كان ميكا مستلقياً على السرير وهو يقرأ عندما نظر إلي.

"لقد غبت لوقتٍ طويل".

فقلت: "آه، لقد تحدّثت لتوّي مع كات".

"كيف حالها؟ أتتطلع لوجودك معها في البيت؟"

"يمكنك قول هذا. فقد كانت الأمور رهيبة في غيابي".

"كيف هذا؟"

"لقد كانت مريضةً، وكان الأولاد مرضى منذ لحظة غيابي تماماً".

"أحقاً ذلك؟"

"كان عليها، بينها وبين الأطفال الخمسة، التعامل مع سبع حالات رشح وخمس حالات أنفلونزا وثلاث حالات التهاب جيوب أنفية. ففي أي وقتٍ خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، كان هناك ثلاثة أطفالٍ مرضى ينتحبون ويبكون. بالإضافة لذلك - رغم كل شيء - أخذتهم جميعاً في رحلةٍ للتزحلق على الثلج. كان عليها قيادة السيارة لسبع ساعاتٍ للوصول إلى هناك أيضاً".

فأجفل، وقال: "سبع ساعات؟ في السيارة مع أطفالٍ مرضى؟"

"أمر لا يصدق".

"إنني لا أستطيع حتى أن أتخيّله". صمت للحظة. ثم قال: "أراهن أنها لم تكن في أفضل مزاج، أليس كذلك؟"

"في الواقع، كانت تبدو في حالةٍ نفسيةٍ جيدة تماماً".

"إن زوجتك مجنونة، بطريقةٍ جيدة بالطبع. ولكنها حتماً مجنونة. إذ إنني أكره الوضع عندما ينتحب الأولاد فالأمر يشبه صوت الأظافر على لوح الطباشير". هزّ ميكا رأسه قبل أن يبتسم ابتسامة عريضة ويقول: "إنه من العار وحسب أن تكون مسافراً حول العالم ولا تكون قريباً لمساعدتها".

"إنه عار بالتأكيد".

"لو أنك كنت تعرف فقط، صحيح؟"

"تماماً. على الأرجح، لم أكن لأذهب".

فضحك قائلاً: "هل أخبرتها أن تحرص على أن يكونوا جميعاً بحالٍ أفضل لدى وصولك إلى البيت؟"

"لم أكن أريدها أن تقتلني".

فضحك مجدداً قائلاً: "كريستين كانت لتقتلني أيضاً. إنكما ذاهبان في إجازةٍ في غضون بضعة أسابيع؟ أنتما الاثنان وحسب، صحيح؟"

فأومأت برأسي، وقلت: "نعم، سنقضي بضعة أيامٍ ونحن نسترخي عند الشاطئ".

"أنت تعرف أنها سوف تقرّر ماذا ستفعلان طوال الإجازة بأكملها".

"آه، أعلم. لقد كنت أعلم ذلك أصلاً".

أضاف مؤكداً: "أعني، كل جزءٍ منها. فبدلاً من الذهاب للغطس، سوف تتجول في المحلات لساعات وأنت تنظر إلى ملابس الأطفال. وسوف تسألك عمّا إذ كنت تحب القميص ذا الأرنب الزهري أو البطة الصفراء. عليك أن تتصرّف وكأنك تعطي الأمر تفكيراً كثيراً".

"أعلم ذلك".

"وعليك أن تعاملها كملكة، وأنت تتظاهر بأنك تستمتع بوقتك".

"أعلم ذلك".

"في الواقع، سيكون عليك أن تتذلّل كثيراً".

فهززت كتفي، وقلت: "صدقني أعرف ذلك. ولكن هذا عادل فقط".

وابتسم قائلاً: "آه لتلك التسويات التي يجب علينا القيام بها. أليس الزواج رائعاً؟"

في المساء، ركبنا قارب الجندول على جانب إحدى القمم قرب ترومسو.

في القمة، توجّهنا إلى فندقٍ لحضور حفلة كوكتيل على قمة الجبل، وبوجود النوافذ التي تصطفّ على جدارين منه، كان باستطاعتنا رؤية أضواء ترومسو وهي تتلألأ في الظلام. كان هناك خارج النوافذ ثلج خفيف. فكان يبدو من الصعب أن نصدّق أننا قبل أيام قليلة فقط كنا نتصبّب عرقاً في أماكن مثل إثيوبيا والهند وكمبوديا.

كانت تلك ليلتنا ما قبل الأخيرة في الرحلة، وكان الناس قد بدأوا يتبادلون أرقام الهواتف والعناوين. كان الجميع متعبين، ولكن في حالةٍ نفسيةٍ جيدة. كان من الصعب أن نصدّق أن رحلتنا كانت على وشك الانتهاء.

عوضاً عن الاختلاط مع الناس، ذهبت وميكا للجلوس بجانب النوافذ. فقد كنا في مزاج تأملي. فتكلّمنا، ونحن نشاهد الثلج الخفيف، عن الأشياء التي رأيناها والأماكن التي زرناها. تكلّمنا عن الأماكن التي سنزورها مجدداً - وقد وضع كل منا ماتشو بيكتشو على رأس قائمته -كنا نتطلّع لرؤية عائلتينا مجدداً.

مع مضي الوقت، ألقى ميكا نظرةً خاطفةً عليَّ.

"إذاً، كيف حال راين هذه الأيام؟"

"إنه يبلي حسناً. في سجلّه المدرسيّ الأخير حصل على علامتي جيد والباقي جيد جداً.

"وهو في الصف الثالث؟"

"نعم".

"هل لديه المزيد من الأصدقاء الآن؟"

فقلت: "إنه في صفٍ رائع. فهو مع نفس المجموعة منذ الحضانة، وقد اعتاد الأطفال في صفه عليه، إنهم يحبّونه. إنه لأمر لطيف، وهو غريب أيضاً. فإذا سألت الأطفال كيف يبلي راين، جميعهم يقولون إنه أذكى طفلٍ في الصف".

"هل يلعب مع أطفالٍ آخرين؟"

"إنه يتحسن. وهو ما يزال متأخراً قليلاً اجتماعياً. ما يزال يعاني من بعض المشاكل في المحادثات العادية. إذ إنه جيد إذا تحدّثت معه عن اهتماماته، ولكنه ليس جيداً كثيراً بعد في المزاح والثرثرة. رغم ذلك، أعتقد أن جزءاً من هذا هو كونه خجولاً. لا أعرف فيما إذا كان هذا بسبب مشكلته، أو أنه كان ليصبح خجولاً على أية حال، فهذا أحد الأسئلة التي ليست لها إجابة".

"لقد قطعتما شوطاً طويلاً معه. من المدهش كم أصبحت حاله أفضل. ففي كل مرة أراه فيها ألاحظ كم يتحسن طوال الوقت".

قلت: "شكراً. أعرف أنه قد قطع شوطاً طويلاً، ولكن بصراحةٍ، يشقّ الأمر أحياناً أن تتذكر كم كانت حاله سيئةً في السابق. إننا مستمران بالتركيز على المستقبل، كما تعلم، نعمل على محادثاته،

وعلى استيعابه للقراءة، وأمورٍ كتلك. إن هذا محبط، إذ عليك دائماً أن تكتشف طرقاً جديدة لتصل إليه؛ وليس الأمر أنك تعطيه التعليمات ببساطة".

"لقد قطع شوطاً كبيراً، يا نك. وما فعلته وكاثي مدهش، إنني أعني هذا".

فقلت مجدداً: "شكراً".

"هل اكتشفتما على الإطلاق ما هو خطبه؟"

فهززت رأسي، وقلت: "كلا. لدينا بعض الأفكار، ولكننا لن نكون متأكدين أبداً. إن كات تعتقد أنه يعاني وحسب من اضطراب العملية السمعية المركزية - حيث إنه لا يستطيع فهم الأصوات - ولكنني لست واثقاً إلى هذا الحدّ. أعني أنني قد قرأت كل شيء صادفته عن هذا الاضطراب، وإذا كان راين مصاباً به، فحالته هي أسوأ حالة مرّت بي. أعتقد أن ذلك قد يكون جزءاً من المشكلة. لكنني أعتقد أن هناك المزيد، أعتقد أنه مصاب بالتوحد أيضاً. ولكنني، كما قلت، لا أعتقد أننا سنعرف بشكل أكيد على الإطلاق". أخذت نفساً عميقاً، وقلت: "ولكننا سنستمر بالعمل، وسوف يستمر بالتحسن. في النهاية، أعتقد أنه سيكون قادراً على أن يعيش حياةً طبيعية. أعتقد أنه سيذهب إلى الكلية وسيتزوج وسيرتكب الأخطاء مثلنا جميعاً. إنه قريب من ذلك الآن. لم يصل بعد، ولكنه قريب. ونحن لن نستسلم معه. ولكن أحياناً...".

تردّدت، فنظر ميكا إليَّ.

"ماذا؟"

"أحياناً أتساءل لماذا أنجبنا طفلاً مثل راين. فقد كان هناك في الأصل الكثير مما حدث مع أمي وأبي ودانا. لقد كان ذلك كثيراً، كما تعلم، وكان قاسياً جداً. وكأنّ الأمر أنه لم تكن لديَّ تحديات كافية فمنحني الله واحداً إضافياً". وتوقفت، ثم قلت: "هل تعرف ما الذي أقوله دائماً لمايلز وراين؟"

فرفع حاجبيه.

"أقول لراين إن الله قد منحه أخاً مثل مايلز لكي يستطيع راين أن يتعلّم أن كل شيء ممكن وأنه يستطيع أن يكون جيداً في أي شيء. وأقول لمايلز إن الله قد منحه راين لكي يتمكن مايلز أن يتعلم الصبر والمثابرة وكيف يتغلب على التحديات".

فابتسم ميكا قائلاً: "هذا جيد".

فهززت كتفي، وقلت: "لقد كان درساً جيداً. ولكنّني لطالما تمنّيت جزئياً لو لم يكن عليَّ أن أقوله على الإطلاق".

وضع ميكا يده على كتفي، وقال: "وأنا أعلم لماذا منح الله راين لك ولكات".

"أتعلم هذا؟"

"نعم".

"لماذا؟ ألأنه أراد أن يمتحن إيماني؟"

فقال بهدوء: "كلا، لأنّ ليس كل الآباء يستطيعون أن يفعلوا ما فعلتماه. لقد منحكما راين لأنه يعرف أنكما أنتما الاثنان ذكيان وقويان بما يكفي لتساعداه. فقد كان راين ليضيع مع والدين آخرين".

لوقتٍ طويل، كنا جالسين بصمت. كان الثلج يتراقص بشكلٍ منوِّم، وقد بدأ يغطي رفوف النافذة. ففكرت براين وصراعاته، وكل شيء خضناه. نعم، لقد كان بحالٍ أفضل بسبب العمل الذي قمت وكات

به. نعم، كنت واثقاً بشأن مستقبله. لكن فجأة، ورغم تلك الأفكار، شعرت بغصة في حلقي. بصراحةٍ، لم أكن واثقاً من أين أتت.

انتهت أمسيتنا في الفندق باكراً تقريباً. وتحدّثت وميكا إلى بعض الأشخاص الآخرين في الرحلة عن زيارةٍ إلى إحدى الحانات في ترومسو. إذ كانت هناك بالمناسبة الكثير من الحانات في ترومسو. عندما يكون المكان مظلماً لثماني عشرة ساعة في اليوم في بلدةٍ صغيرةٍ نسبياً لا يكون هناك الكثير مما يمكن فعله إذا أراد المرء قضاء الوقت مع الأصدقاء. النرويجيون، كما اكتشفنا بسرعة، هم أكثر الناس وداً على الإطلاق، فحالما وجدنا طاولة تجمّع السكان المحليون حولنا للتحدُّث معنا والإصغاء إلينا بينما كنا نصف الرحلة التي كنا فيها لتوّنا. فسألوا عن أسمائنا، وقصص حياتنا، وسألوا كم أعجبتنا بلدتهم. عرضوا أن يشتروا لنا الشراب. وأعلمونا بإثارةٍ أنه سيكون هناك غناء الكاريوكي في تلك الليلة. كان بعض النرويجيين يأخذون الكاريوكي بجديةٍ كبيرة، وبدأت الحانة تمتلئ تدريجياً بأناسٍ قد أتوا للغناء وحسب. كنت أعتقد أن الكاريوكي لم يعد شعبياً منذ سنوات. وهذا ما أظهر لي كم كنت جاهلاً.

إنني لم أغنِّ الكاريوكي في حياتي. ولم أكن أبداً أن أغني الكاريوكي. ذلك بشكلٍ رئيسي لأنني مغنٍ مريع. لم يكن ميكا يستطيع الغناء أيضاً، ولا كان أحد من رحلتنا يستطيع الغناء كما علمت في نهاية المطاف.

لكننا غنينا، وتدريجياً، تحمسنا لفكرة الأداء لهؤلاء النرويجيين. كنا نمرِّر الميكروفون إلى الأمام والخلف ونحن نضحك عندما يحين دور أحدٍ آخر ليغني المجموعة التالية من كلمات الأغنية. قمنا بذلك لساعات. كانت تلك إحدى أفضل الأمسيات التي قضيناها في الرحلة (بالإضافة إلى الليلة في آيرز روك). كانت في الحانة مجموعة كبيرة من الموسيقى بما فيها أغنية كيني روجرز جبان المقاطعة، والتي جعلتنا نضحك. كان على الأمر أن يكون نذير شؤم. فغنّينا ذلك اللحن بأعلى أصواتنا. وغنّينا أيضاً أغنية البرق المشحّم من فيلم غريس (الشحم) محاولين ما في وسعنا إخفاء غنائنا النشاز عن طريق الرقص بحيوية قدر المستطاع، كنا نتحرّك مثل جون ترافولتا ومثل المحترفين في برودواي وكأننا كنا نرقص طوال حياتنا. في النهاية، صفّق الحشد وصفّروا وهتفوا. عندما سألنا إحدى أعضاء رحلتنا لاحقاً كيف كان رأيها فعلاً بأدائنا، كان هناك توقف قصير قبل أن تجيب.

"هل تعرفان تلك القردة العاوية في غواتيمالا؟ كنتما تبدوان مثلها".

كما قلت، كانت إجمالاً ليلةً مدهشة.

جعلت السهرة النهوض في وقتٍ مبكر صعباً، فقد كنا متعبين. فقضينا الصباح في المتحف في ترومسو.

وهناك تمت استضافتنا لخطاباتٍ طويلةٍ عن الجرار والأوعية.

بعد المتحف، قدنا السيارات إلى الريف للذهاب للتزلج بالعربات التي تجرّها الكلاب. كانت هناك تلال منخفضة وأشجار في كل اتجاه. على بعدٍ، كانت القمم المكللة بالثلج تخفيها الغيوم جزئياً.

كان الأمر سريعاً، فقد لبسنا بذلاتٍ للثلج نستطيع ارتداءها فوق ثيابنا، وللوصول إلى الزلاجات التي تجرّها الكلاب، كان علينا أن نهبط تلةً منخفضة، فخيّرنا بين المشي أو الركوب إلى الأسفل في أنبوبٍ داخلي.

وقد سار معظم الناس، وركبت وميكا الأنبوب الداخلي حوالى خمسين مرة.

ركبنا الزلاجات في مجموعاتٍ من ثلاثة أشخاص. انضمّت الطبيبة جيل إليَّ وإلى ميكا. وبينما انتظرنا، تعرفنا على الكلاب. كانت كلاب أسكيمو، ولكنها كانت أصغر مما تخيّلت أنها ستكون، فكان

وزنها حوالى خمسين رطلا أو نحو ذلك، وكانت ودودة، وبدا أنها تستمتع بالتربيت عليها، فلعقت سترات الثلج بالمقابل.

كانت سائقتنا امرأةً في منتصف العمر حققت المركز الخامس في سباق ألاسكان آيديتارود. لم تكن تدرِّب الكلاب وحسب، ولكنها كانت تملك معظم المنطقة المحيطة. كان عمل التزويد بركوب الزلاجات التي تجرّها الكلاب يمكّنها من تمرين كلابها يومياً، والكلاب تحبّ التمرين.

حالما ركبت السائقة، أصبحت الكلاب متوترةً، وبدأت بالنباح. أعتقد أنني توقعتها أن تصرخ قائلة: "ماش". ولكنها عوضاً عن ذلك - وبدرجةٍ صوتٍ ليست أعلى من المحادثة العادية - قالت مجرّد شيء مثل: "هيت". بدأت الكلاب تسحب، فأقلعت الزلاجة، وكانت الكلاب تهرول وتنظر حولها.

هناك بضعة أشياءٍ عن ركوب الزلاجات التي تجرها الكلاب، يجب معرفتها. أولاً، الزلاجة بطيئة ومتخبطة إلى أقصى حدّ وقاسية عند الناحية الخلفية. ثانياً، تكون جالساً في وضعية تجعلك تشعر بكل جزء من الركوب. وأخيراً، فإن إنك ذهبت للتزلج بالزلاجة التي تجرّها الكلاب في النرويج مع فريقٍ نافس في سباق الآيديتارود هو أكثر متعةً من التزلج نفسه.

لكن هيا، لقد فعلنا ذلك، والتقطنا الكثير من الصور، والآن عندما أقف في حفلة أستطيع أن أقول أشياءً مثل:

"

... ...

...

... ...".

توقّف.

إنها حتى أفضل من القصة التي تقول: "

... ...

... ...".

بعد ركوب الزلاجات، انضممنا إلى رفاقنا تحت خيمةٍ من طراز "تيبي". في الداخل، قدمت لنا يخنة الرنّة مطهية على نار مكشوفة. وكانت الخيمة مفعمةً بالدخان، ولكنها كانت دافئة، وكان الطعام مغرياً وخاصة بعد الصباح الذي قضيناه.

* * *

مما يدعو للحزن، أعلمنا أنه بسبب طبقة الغيوم الدائمة الكثافة كانت فرصنا برؤية الشفق القطبي الشمالي شبه معدومة، وقد علمنا أن الأضواء الشمالية كانت نادرةً طوال الشتاء. كانت فرصة رؤيتها هي سبب زيارتنا لترومسو في المقام الأول، فأصبت وميكا بخيبة الأمل.

مع ذلك، فقد عرضت علينا فرصة الذهاب إلى متحفٍ آخر أيضاً. ولكن كنت وميكا قد أتخمنا من المتاحف بحلول ذلك الوقت، وعوضاً عن ذلك، قضينا بقية فترة العصر ونحن نتجول في شوارع ترومسو ونتحدّث ونشاهد المناظر.

سأل ميكا سؤالاً لا يتعلق بأيّ موضوع: "هل تساءلت لماذا حدثت الأشياء بالطريقة التي حدثت بها؟"

فأجبت: "طوال الوقت". وأنا أعرف بالضبط ما الذي كان يشير إليه.

"معظم أصدقائي لم يفقدوا أي شخصٍ قريب منهم".

"ولا أصدقائي، ولا كات أيضاً".

"لماذا يحدث ذلك؟"

"مَن يدري. أتمنّى لو أستطيع إخبارك، ولكنني لا أستطيع ذلك".

فدفع ميكا يديه في جيبيه.

"هل لاحظت على الإطلاق أن الناس يفكرون بنا كخبراء في الموت الآن؟ أعني، كلما توفّي شخص لأحد الأصدقاء يتّصل بي للتحدّث عن الأمر. هل يحدث هذا لك؟"

فأجبت: "طوال الوقت".

"ما الذي تقوله؟"

"الأمر يعتمد على الموقف".

"إنني لا أعرف أبداً ما أخبرهم به. أعني، ليس هناك شيء يمكنك قوله لتجعل شخصاً ما يتوقف عن الشعور بالألم. ففي نصف المرات، أشعر وحسب أنني يجب أن أخبرهم الحقيقة. وأن أقول: سوف تشعرون لمدة ثلاثة أشهر بشكلٍ أسوأ مما شعرتم به في حياتكم، وسوف تكافحون قدر استطاعتكم، وبعد ستة أشهر لا يكون الألم بذلك السوء، ولكنه لا يزال يؤلم أكثر مما تظنون. حتى بعد سنوات، ستبقون تجدون أنفسكم تفكرون بالشخص الذي فقدتموه، وتحزنون بشأن ذلك. وستبقون تفتقدونه طوال الوقت".

"ولم لا تقول ذلك؟"

"لأن ذلك ليس ما يريد الناس سماعه. إذ إنهم يريدون أن يسمعوا أن الأمر سيكون على ما يرام. وأن الألم سيتلاشى. لكنه لا يفعل. لا يفعل ذلك أبداً. لا يمكنك أن تقول هذا عندما يكون الجرح جديداً. إذ سيكون ذلك مثل وضع الملح على الجرح، ولا يمكنك أن تفعل هذا لأحدهم. لذا عوضاً عن ذلك، أخبرهم بما يريدون سماعه". وتوقف، ثم قال: "ما الذي علّمتك إياه كل تلك الخسارات؟"

"أن الأمر يؤلم، ولكن عليك أن تستمر على أية حال".

"وهذا ما تعلمته أيضاً. ولكنني، كما تعلم، كنت أفضّل أن نتعلمها في وقتٍ متأخرٍ أكثر بكثير في الحياة".

"وأنا أيضاً".

سأل ميكا: "أتعرف ما الذي تعلمته أيضاً؟"

"ما هو ذلك؟"

"أنه أمر تراكمي. إذ إن وفاة والدي ووالدتي كانت قاسية. ولكن كأن الأمر أننا عندما فقدناهما لم تكن ضعف الخسارة وحسب بل أضعافها. وعندها، عندما فقدنا دانا... لم يكن الأمر أننا خسرنا ثلاثة أشخاصٍ نحبهم، بل كأننا خسرنا تقريباً".

هزّ ميكا رأسه قبل أن يتابع.

"وبعد شيءٍ كهذا... حسناً، حتى رغم أنك تحاول أن تتخطى الأمر - وقد تبدو بخير سطحياً - فأنت في داخلك محطم، وأنت حتى لا تعرف ذلك. أحياناً يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتعرف أنك ما زلت

تكابد مع كل شيء قد حدث".

وكزت كتفه، وقلت: "هل تتحدّث عني مجدداً؟"

فقال: "كلا، ليس أنت وحسب، وأنا أيضاً. كما قلت، لقد كانت ردة فعلنا على الخسارة بطرقٍ مختلفة وحسب".

بعد وفاة أختنا، تغيّر ميكا.

كان الأمر، وكأنه أصبح فجأة مدركاً بعمقٍ لهشاشة الحياة، وكم كان الوقت ثميناً بالفعل. كنتيجةٍ لذلك، قام ببذل جهدٍ واعٍ ليبسّط حياته بهدف التخلص من الضغط الذي لا لزوم له. فبدأ، وهو لم يعد مهتماً بتعريف المجتمعً للنجاح، يطهّر حياته من الأشياء المادية. إذ كانت الحياة كما قرّر وليست . فأراد أن يختبر كل لحظة يستطيع اختبارها. ففي أعمق أعماقه، توصل إلى أن يفهم أنٍ الحياة من الممكن أن تنتهي في أية لحظة، ومن الأفضل أن يكون سعيداً من أن يكون مشغولاً.

بدأ يبيع الأشياء، ويتخلص من الفوضى. في غضون شهرين، كان قد باع كلا المشروعين الصناعيين، وحوّل استثماراته إلى مالٍ نقدي، وباع كلاً من قاربه وسيارته الجيب. أعاد إلزام نفسه بعائلته. وعندما اتصل بي، شرح لي أسبابه كما يلي:

"كلما كنت تملك أكثر تملّكتك الأشياء. لقد سئمت من ذلك، سئمت من أن يكون عليَّ الاعتناء بكل شيء، وسئمت من الأشياء التي تتحطم ويكون عليَّ إصلاحها. فهذا يضيف إلى التوتر. وبصراحةٍ، إنني أمنح نفسي استراحة".

في النهاية، احتفظ بالأساسيات: منزله وسيارته وأثاثه. فتركه بيع مشاريعه مع مالٍ أكثر من كافٍ ليفي بالتزاماته الشهرية - وذلك لسنواتٍ إن اضطرّ لذلك - وطوال الأشهر الثمانية التالية، لم يفعل شيئاً قد يضيف توتراً غير مرغوبٍ به في حياته.

من بعض النواحي، تحوّل إلى الشاب الذي كانه خلال سنوات الكلية. كان يذهب للتخييم وللنزهات على الأقدام، وكان يركب الطوف خلال الصيف، وحالما بدأ الثلج بالتساقط في سلسلة جبال سييرا ذهب للتزحلق على الثلج، وذهب في رحلةٍ إلى بورتو فالارتا مع كريستين، وقام بزيارة كودي وكول في المزرعة، وبدأ يتمرّن بانتظامٍ مجدداً، وانضمّ إلى فريق كرة قدم داخلي، وكان يحرص على أن يراني كلما استطاع. عندما كان لَديَّ اجتماع في لوس أنجلوس، استقل أخي الطائرة لقضاء بضعة أيام معي، وعندما عبرت سكرامنتو في جولتي في وقتٍ لاحقٍ ذلك الخريف، جاء معي إلى المناسبات الترويجية. في شهر كانون الأول، بعد وفاة أختي بستة أشهرٍ، زارني ميكا في كارولاينا الشمالية مع كريستين وربيبته آلي. جاء بوب أيضاً مع كودي وكول، حيث ذهبنا جميعاً إلى نيويورك ووقفنا على قمة مركز التجارة العالمي، ونحن نعجب بالمنظر، قبل أن يصبح أنقاضاً بعد أقل من تسعة أشهر.

بعد رحلتنا إلى نيويورك بثلاثة أسابيع، اتصل بي أخي، وكان ذلك يوم ذكرى ميلادي. وحالما أجبت على الهاتف، بدأ يغنّي لي بنفس الطريقة التي لطالما كانت أختي تغنّي بها.

فأصغيت وعيناي مغلقتان وأنا أتذكّر ذلك كله.

قال عندما انتهى: "أعتقد أنه سيكون عليَّ أن أفعل ذلك لك الآن، فهو تقليد كما تعلم".

فابتسمت مفتقداً أختي، ولكن شاكراً لله من أجل أخي.

"شكراً، يا ميكا".

"لا مشكلة، يا أخي الصغير".

كانت هناك ناحية أخرى تغيّر فيها أخي أيضاَ.

فبالرغم من أنه كان ما يزال يذهب إلى دار العبادة فقد أصبح حضوره متقطعاً، واستمرّ يقلّ مع مرور الوقت. في الأيام التي كان يذهب فيها، كان يجلس في المقعد وهو لا يشعر بشيء.

فمع وفاة أختي، فَقَدَ أخي إيمانه.

أنا أيضاً أصبحت مدركاً لهشاشة الحياة وقيمة الوقت. لكن رغم كوني شبيهاً بميكا من نواحٍ كثيرة، إلا أن ردة فعلي كانت مختلفة تماماً.

توصّلت إلى أن أعتقد أنه لأن الحياة يمكنها أن تنتهي في أية لحظة، فقد كان عليَّ أن أكون مستعداً لأيّ احتمال. أردت أن أكون واثقاً من أن عائلتي يعتنى بها مهما قد يحدث في المستقبل. كانت لديَّ أهداف، ومع مضي الوقت، كان عليَّ الإسراع لأصل إليها قبل أن يحدث ما هو ليس في الحسبان. فجأة، لم يكن هناك وقت لأضيعه. فكان عليَّ أن أسرع، وعليَّ أن أجهز الأشياء، وعليَّ أن أعمل، وعليَّ أن .

بعد أقل من أسبوعين من جنازة أختي، بدأت أعمل على رواية منعطف في الطريق، قصة مستلهمة من صهري بوب، وهي عن أرملٍ شابٍ مع طفل. أجبرت نفسي على الجلوس أمام الكمبيوتر لأيام بشكلٍ مستمرٍ لأنهيها. في خريف ذلك العام، قمت بجولة في أوروبا والولايات المتحدة للترويج لروايّة الإنقاذ. وحالما استكملت تحرير رواية منعطف في الطريق في أوائل العام 2001، بدأت كتابة رواية الوصي التي أصبحت في نهاية المطاف أطول وأكثر كتابٍ ألفته تحدياً حتى الآن. شيئاً فشيئاً، بدأ العمل على الرواية يستهلكني.

لقد أصبحت معتاداً كثيراً على الضغط خلال الأحد عشر عاماً الماضية بحيث كان الأمر وكأنني لا أعرف كيف أؤدي وظائفي بدونه. من تلك المرحلة وصاعداً، كنت أضيف باستمرار لواجباتي. في شهر كانونٍ الثاني من العام 2001، اكتشفنا أن كات كانت حاملاً مجدداً. بعد بضعة أشهر، علمنا أنها كانت حاملاً بطفلتين توأمين. فبعد ثلاثة صبيان، كان بالتأكيد أمراً مثيراً، وكان توقّع توأمين يبدو ملائماً إذا أخذنا بعين الاعتبار الزيادة المفاجئة في وتيرة الحياة.

أصبحتُ سيد التخطيط. فكانت كل دقيقة يتمّ التخطيط لها خلال اليوم. إذ لم يكن من الممكن إضاعة الوقت، حتى عندما لا أكون أعمل لأن مسؤولياتي لا تنتهي عند حدود ذلك. ليتحقّق كل شيء، قمت بتقسيم حياتي إلى صناديق صغيرة. فإذا لم أكن أعمل، كنت أقوم بواجب الأب أو الزوج. كنت أركّز على تلك النواحي بكثافة كما كنت أفعل مع عملي. كنت ألتمس استحسان عائلتي بنفس الطريقة التي كنت ألتمس فيها استحسان والدي. فلم أستطع أن أكون مجرد أب بل حاولت أن أكون .
كنت أدرّب فريق كرة القدم، وأحضر تدريب ألعاب القوى، وأساعد في الفروض المنزلية، وألعب لعبة التقاط الكرة، وأقضي العطل الأسبوعية في رحلاتٍ بالزوارق ولعب البولنغ والسباحة والتوجه إلى الشاطئ. استمرّيت بالعمل مع راين بشكلٍ غير رسمي - إذ إنه لم يعد بحاجةٍ لبناءٍ مكثّف - كنت ألعب على السجادة مع لاندون كل ليلة، وحاولت أن أكون أفضل زوج أستطيع أن أكونه مساعداً في أنحاء البيت، وأن أقوم بما في وسعي لمغازلة زوجتي. نوعاً ما، رغمً كل ذلك، حاولت اقتطاع بعض الوقت بصعوبةٍ للحصول على الحزام الأسود في التايكواندو، ولأرفع الأثقال وأجري كل يوم. استمرّيت بقراءة مائة كتابٍ في العام.

كنت أنام أقلّ من خمس ساعات في الليلة.

* * *

مع ذلك، لم تكن كل الأخبار سيئة. ففي ربيع العام 2001، رفعت السماعة لأسمع صوت ميكا الذي كانت تبدو عليه الإثارة.

قال: "كريستين حامل، لقد اكتشفنا ذلك للتو".

فقلت مخلصاً: "تهانينا. متى موعد ولادة الطفل؟"

فقال: "في شهر كانون الثاني، مثل لاندون بالضبط. سيكون عمر التوأمين بضعة أشهر فقط عندما تلد. هكذا، سوف يستمتعون معاً كأولاد عم عندما يكبرون. متى سيولد التوأمان؟"

"في أواخر آب. ما مدى صمود كريستين؟"

"إنه رائع حتى الآن. لم تكن حتى تعرف أنها حامل إلا بواسطة اختبار الحمل المنزلي الذي أخذته".

فتحمّست، وقلت: "هذا رائع. ورغم ذلك، فإنني أعلمك أن الأمر سوف يغير حياتك".

"أعلم ذلك، ولا أطيق الانتظار".

"هل أنت مستعد لهذا؟ لتكون أباً؟"

"بالطبع أنا مستعد، فقد ربيت آلي منذ كانت في الثانية".

"هذا هو الوقت الذي يصبحون فيه هينين. انتظر حتى يكون هناك طفل حديث الولادة. إنه عالم مختلف تماماً".

"هل هناك أية نصائح يمكنك تقديمها؟ بما أنها المرة الأولى لي، وأنت الخبير؟"

فقلت: "نعم، حتى نهاية فترة الحمل، شاهدا قدر ما تستطيعان من الأفلام".

"لماذا؟"

فقلت: "لأنكما لن تشاهدا فيلماً آخر لمدة سنة على الأقل".

"نعم، سنفعل ذلك، إذ إن كريستين تحبّ الأفلام".

قلت: "صدقني، لا شيء يمكنه تغيير نمط الحياة أكثر من إنجاب طفل".

قال: "نعم، نعم". فابتسمت داخلياً رغماً عني. إذ سرعان ما سيتعلم.

"و، يا ميكا".

"نعم؟"

"تهانينا مجدداً. كل شيءٍ سيتغير، ولكنه تغيير للأفضل".

"شكراً، يا أخي الصغير". وتوقّف، ثم قال: "آه، نعم. هناك شيء آخر؛ كات تريدني أن أخبرك هذا".

"ما هو ذلك؟"

"توقف عن العمل بشكلٍ مرهق".

"سأفعل ذلك عندما تبدأ بالذهاب إلى دار العبادة مجدداً".

فضحكنا.

قلت: "هذا رائع، إنني سعيد من أجلك وكريستين".

"أنا أيضاً".

لم أصغِ لأخي أو لزوجتي.

فبحلول أوائل صيف العام 2001، بعد عام على وفاة أختي، كانت كات حاملاً بالتوأمين، كان عليَّ القيام حتى بمسؤولياتٍ أكثر بما أنها لم تكن تستطيع الاستمرار مع الطفل حديث المشي أو الصبيين الأكبر سناً، ولأتمكنّ من الإيفاء بتلك المتطلبات الإضافية التي طرأت على وقتي، وجدت نفسي أضحّي بالمزيد من النوم. فكنت، خلال ذلك الصيف، أنام بمعدل أقل من ثلاث ساعاتٍ في الليلة. بالرغم من أنني كنت أشعر كأحد الأشباح عندما كنت أخرج متعثراً من السرير، فقد كنت بسرعة أصبُّ كوباً من القهوة وأباشر يومي.

كنت أستمرّ وأستمر وأستمر، فكنت أعمل وأراقب الأطفال وأعتني بلاندون وأنظف البيت، وأستمرّ وأستمر وأستمر.

بطريقةٍ ما، كنت أسيّر أموري. لكنّ سرعةً كتلك ليست طبيعية ولا هي واقعية. فعلى شيءٍ ما أن يضحى به، وبالنسبة إلي، لم يكن النوم فقط، بل مجرد الوقت خلال اليوم. حيث لا استغراق في النوم الكسول في الصباح ولا ألعاب... مع الأصدقاء ولا وقت لمشاهدة الرياضة على التلفزيون. إذ كنت أسرع خلال الغداء والعشاء. لفترةٍ، لم يكن الأمر يزعجني، لأن برنامجي كان يجعل الأمر يبدو وكأنني كنت مسيطراً على حياتي، كنت أعتني بكل ما كنت بحاجة إليه. بالرغم من ذلك، فقد بدأ البرنامج يسيطر عليَّ، وشيئاً فشيئاً، نسيت كيف أسترخي. حتى أسوأ من ذلك، بدأت أشعر وكأنني لم أكن أستحق الاسترخاء،

لكن لا شيء كان ينتهي على الإطلاق، إذ كانت هناك دائماً صفحة لأكتبها ورواية أخرى لأنهيها، ومدينة أخرى لأضيفها إلى إحدى الجولات، ومقابلة أخرى لأجريها. استمرّ أطفالي بحاجةٍ لانتباهي مهما كان الوقت الذي أكون قد قضيته معهم في اليوم السابق. كان هناك دائماً عمل آخر في أنحاء المنزل. لم أكن بالضرورة تعيساً - إذ لم يكن الملل يناسبني أبداً - ولم تكن الوتيرة قاتلةً لي جسدياً. لكنّ الافتقار للوقت خلال اليوم، كما أدركت في نهاية المطاف، لم يكن جيداً لي عقلياً وعاطفياً. إذ بدأت أعمل كل يوم مع الإحساس بأنني أتراجع للخلف. رغم أقصى جهودي، بدأت أشعر وكأنني أفشل. في حين كنت في السابق أفعل كل تلك الأمور لأنني كنت أريد ذلك، بدأ الأمر يشعرني بالتدريج وكأنه ، وكأنه لم يكن لي خيار آخر.

إنني أقول ذلك في استعادةٍ للأحداث، ففي ذلك الوقت، لم يكن باستطاعتي أن أرى ما هو الشيء الهام بسبب عنايتي بالتفاصيل. كل ما كنت أعرفه في ذلك الوقت هو أنني بدأت أستيقظ بشعورٍ من الرعب مثيرٍ للاشمئزاز. حالما كانت عيناي تنفتحان، كان عقلي يمتلئ بكل ما كان عليَّ فعله، وكيف أن فرصتي الوحيدة لأجعله ينجز كانت بأن أبدأ به حالاً في تلك اللحظة، فكنت أنطلق. كانت حياتي عبارة عن قائمةٍ طويلةٍ بما يجب عمله. عوضاً عن تخفيف سرعتي والقيام بما أستطيع فعله، كنت أشمّر عن ساعدي، وأصرّ أسناني، وأعمل حتى بجهدٍ أكبر.

مجدداً، لم أكن أشعر بالتعاسة بشأن هذا الأمر. إذ كنت أحاول أن أجد حس الفكاهة في الوضع، فكنت أستمر بالضحك. كان الناس غالباً يلاحظون كم كنت أبدو متفائلاً، أو كم كنت أبتسم. بالرغم من ذلك، كانت الحياة ببطء، ولكن بشكلٍ مؤكّد، تصبح طاحنة. لم يكن هناك شيء أستطيع فعله لإيقافها.

استمرّيت وأخي بالتحدُّث على الهاتف بانتظام في صيف ذلك العام. فكانت محادثاتنا - بعد مناقشة أمور زوجتينا الحاملين - عادةً تسير على النحو التالي.

كان ربما يسأل: "ما الذي يجري؟" فكنت أبدأ بإخباره كل شيءٍ كنت قد خططت له. عندما كنت أنتهي، كان يصمت للحظة.

كان يسأل: "إذاَ متى تنام؟"

كنت أجيب: "عندما تسنح لي الفرصة". بشكلٍ غريبٍ، كنت أشعر بشعور من الفخر بشأن هذا وكأن هذه كانت خصلةً مثيرةً للإعجاب.

قال: "هذا غباء. عليك أن تنام، وعليك أن تأخذ وقتاً لنفسك أيضاً. إذ إنك ستصاب بالجنون إن لم تفعل ذلك. ألم تتعلم أهمية التوازن بعد؟ إن الحياة كلها تتعلق بالتوازن. حياتك الآن بشكلٍ جدي خارجة عن السيطرة".

"سأكون على ما يرام".

"حسناً، إنك تبدو متوتراً".

فقلت: "إنني مشغول فقط، وأنا بخيرٍ حقاً. إذاً، ما الذي يجري معك؟"

"إنني أعيش حياتي وحسب. أستيقظ في أي وقتٍ أريده، وأتمهل في قراءة الصحيفة، وأتمرّن لبعض الوقت، وأدخل الحمام عند الظهر، ثم أفكر ماذا أريد أن أفعل تالياً".

"لا بدّ أنّ هذا لطيف".

"يمكنك القيام بذلك أيضاً، فكل واحدٍ يختار حياته".

قلت: "ليس دائماً، فأحياناً تعترضك المسؤوليات. ولنفترض أنني استطعت أن أختار تجاهلها، فلن يكون الأمر جيداً لعائلتي".

"ستكون عائلتك بخير. إنك تختلق الأعذار وحسب. وسوف تصاب بالجنون إن استمرّيت على هذا المنوال".

لم أكن أرى الأمر بتلك الطريقة. مع ذلك، فقد كنت أعرف أنه من العبث الجدال معه.

"كفانا حديثاً عني. كيف حالك أنت؟"

"نفس الشيء".

"هل تذهب إلى دار العبادة الآن؟"

"ليس فعلاً".

"كيف تتعامل كريستين مع الأمر؟"

"نفس الشيء. إنها ليست سعيدةً كثيراً حيال الأمر".

"ألا تظن إذاً أنه ينبغي عليك الذهاب وإن كان من أجلها فقط؟"

"إنك تذهب إلى دار العبادة من أجل نفسك، يا نك. وإذا ذهبت من أجل أحد آخر فالأمر لا يعني شيئاً".

"إذاً اذهب من أجل نفسك".

"لست في المزاج المناسب الآن. ليس لديَّ شيء ضد ذلك، ولكنني لا أستفيد شيئاً من الأمر عندما أذهب، وأشعر وكأنني منافق وأنا جالس هناك".

اعترفنا بتعادلنا بلحظة من الصمت، قبل أن يتنحنح ميكا.

وقال: "إذاً، كيف حال راين؟"

في أوائل شهر آب من العام 2001، أثبت أخي نفسه على أنه محق.

إذ إن الليالي التي لا تنتهي التي كنت أسمح فيها لنفسي بثلاث ساعات من النوم قد تركتني مرهقاً، وانهار شيء ما داخلي أخيراً. فجاء الأمر على نحوٍ مفاجئ، إذ استيقظت بشعور من القلق لا يشبه أي شيء مررت به من قبل، ولم أستطع التركيز. فجأة بدأت أبكي للمرة الأولى منذ وفاة أختي. ببساطة، لم أستطع التوقف. فأحاطتني زوجتي - التي كانت تقترب من أسبوعها الخامس والثلاثين من الحمل - بذراعيها وأجلستني.

قالت: "إنك بحاجةٍ لاستراحة. اذهب إلى منزل الشاطئ لبضعة أيام. وسأكون بخيرٍ هنا".

"نعم... حسناً... دعيني آخذ أغراضي...".

وضعت يدها على الكمبيوتر الخاص بي. وقالت: "هذا سيبقى هنا، فأنا أريدك أن تسترخي. قم بنزهاتٍ طويلةٍ بجانب الماء. استغرق في النوم. لا تفعل أي شيءٍ على الإطلاق لبضعة أيام".

في ليلتي الأولى هناك، نمت لسبع عشرة ساعة متواصلة. عندما استيقظت، قرأت لبعض الوقت ثم نمت لتسع ساعاتٍ أخرى.

اتصل بي أخي بعد بضعة أيام.

قال: "سمعتُ عن انهيارك الصغير. لقد قلت لك إن الأمر سيدركك؟"

"لقد كنت محقاً".

"كيف حالك الآن؟"

قلت: "بحالٍ أفضل. أعتقد أنني كنت متعباً وحسب وبحاجةٍ للنوم".

"أعتقد أنك بحاجةٍ لتتعلّم كيف تخفِّف سرعتك".

"مثلك؟"

قال: "هيه، لست أنا من تحطّم. في الواقع، أعتقد أنني مستعد للعودة إلى العمل. إنني أبدأ عملاً آخر".

"ماذا ستفعل؟"

فقال: "نفس الشيء، أصنع حجر كراجات".

"أحسنت".

"نعم، وأنا أشعر بالإثارة حيال الأمر. مع حمل كريستين، لقد حان الوقت. بالإضافة لذلك، فقد بدأت أشعر بالملل مؤخراً. فكل أصدقائي يعملون، ولا أحد لديه الوقت للقيام بأيّ شيء ممتع".

ضحكت رغماً عني، وقلت: "تخيّل ذلك".

في خريف العام 2001، ورغم الدروس التي كان يجب أن أتعلّمها، ألقيت بنفسي في العمل بإفراط. أصبحت حتى أكثر انشغالاً من ذي قبل.

وُلدت سافانا وليكسي في الرابع والعشرين من شهر آب، وقد سميت ليكسي دانييل تيمناً بأختي. بينما كانت زوجتي تعتني بالتوأمين وتتعافى، كنت أعتني بالأطفال الثلاثة الآخرين، وفي نفس الوقت أدفع نفسي لإنهاء الرواية. بعد شهر، كنت في الطريق أتجوّل في البلاد من أجل رواية منعطف في الطريق. تمكّنت زوجتي مع توأمين وطفل حديث المشي وولدين أكبر سناً من إبقاء أمور البيت تسير

بسلاسة.

لكن مجدداً، كان هناك المزيد، إذ لطالما كان هناك المزيد.

كانت ليكسي تعاني عند الولادة من هيمانجيوما، وهو مجموعة من أوعية الدم الزائدة في النسيج الناعم تحت ذقنها. كانت عند الولادة بحجم ممحاة قلم الرصاص، وبحلول الوقت الذي ذهبت فيه في جولة من أجل رواية منعطف في الطريق، أصبح كتلة أرجوانية منتفخة جعلت ذقنها تبدو صغيرة مقارنة بها.

تمزّقت بينما كنت في الجولة، وكنت وكات نتحدّث على الهاتف عندما صرخت فجأة قائلة: "عليَّ الذهاب، فذقن ليكسي يتدفّق منها الدم!"

كانت ليكسي في الأسبوع السابع من عمرها عندما أدخلت إلى العملية الجراحية. كنت في تلك الليلة أوقّع الكتب لثمانمائة شخص، وأنا أكره نفسي لعدم وجودي مع عائلتي.

لكنني رغم ذلك استمررت بالعمل كالعفريت. فأنهيت المسودة الأولى لرواية الوصي وأنا في مدينة جاكسون في ولاية مسيسيبي. حالما عدت إلى البيت كتبت سيناريو مستقىً من نفس الرواية. ثم ألّفت أيضاً نصاً لموقع الكتروني يحتوي على كلماتٍ أكثر من روايتي الأولى. في الوقت الباقي، بدأت العمل على دليل تلفزيوني مستقىً من رواية الإنقاذ لشبكة سي بي إس موافقاً على العمل كمنتج منفذ إذا اختارتها الشبكة. ثم في أواخر شهر كانون الأول من العام 2001، سمعت أخباراً منَ محرري.

قيل لي إن رواية الوصي كانت بحاجةٍ لمراجعاتٍ مكثفة - بما فيها إعادة كتابةٍ كاملة للنصف الأخير من الكتاب - ولم أستطع أن أتخيّل أن يكون عليَّ البدء من جديد بالرواية. مع ذلك، فمع اقتراب المهلة النهائية، كنت بحاجةٍ لرواية من أجل الخريف، فعوضاً عن إعادة العمل على الرواية، بدأت كتابة رواية ليال في رودانث لكي يتمّ نشرها في الخريف مكانها، وقد قرّرت وناشري أن رواية الوصي ستنشر في ربيع العام 2003، وسوف أقوم بتحريرها عندما تكون رواية ليال في رودانث قد أكملت. بالرغم من أن ضغط الوقت على رواية ليال في رودانث كان كثيفاً - إذ كان يجب إنهاؤها بحلول نيسان - كان ذلك يعني أنه عليَّ أن أقوم بشيءٍ آخر أيضاً. أعني أنه كان عليَّ أن أكتب لذلك العام مباشرة بعد إنهاء رواية الوصي لتكون جاهزة في خريف العام 2003. كان العنوان التمهيدي لها هو الزفاف.

بمعنىً آخر، كان العام 2002، يظهر بكونه أكثر انشغالاً من العام السابق. إذ لم يكن لديَّ فقط خمسة أطفال وزوجة - وكلهم بحاجة للوقت والعناية - ولكن كان عليَّ العمل بجهدٍ أكبر وبشكلٍ أسرع مما قد فعلت في حياتي لمجرد إنجاز ذلك كله. بالرغم من ذلك، كان ما يزال أمراً مشكوكاً فيه أنني سأتمكن من الانتهاء قبل نهاية العام.

لكن بحلول ذلك الوقت، لم يعد الأمر يهم. فقد كنت أعمل بجهد، ولم أكن أعلم كيف أتوقف. لقد أصبحت الحياة بالنسبة لي شيئاً لأنتصر عليه، لا لأعيشه، ولو أردت أن أتغيّر لما تمكّنت من معرفة كيف أفعل هذا. مع ذلك، فحتى حينها كنت أعتقد أنني كنت في لاوعيي أعرف أنني بحاجة لأعيد إلى حياتي توازنها، وأن ميكا وحده كان يستطيع مساعدتي على القيام بذلك.

وكأنّ صلواتي قد استجيب لها أخيراً، فقد وصلت نشرة الرحلة في البريد في ذلك الوقت.

الخاتمة

التوجه إلى الديار
السبت، 15 شباط

في ليلتنا الأخيرة في ترومسو، أقمنا عشاء وداع. كانت ليلةً مبكرة، وكنا سنغادر في الصباح الباكر، وبسبب التوقف لمدة ساعتين في إنكلترا، كانت الرحلة نحو الديار ستستغرق قرابة خمس عشرة ساعة.

تنوّع الجوّ في الطائرة من صاخبٍ إلى هادئ، واختلط الناس في الممرات مستمرين بتبادل أرقام الهواتف وعناوين البريد الإلكتروني. تبادلتُ وميكا كلمات الوداع أيضاً. إذ حالما كنا سنهبط ونجتاز الجمارك، كان كل واحدٍ منا سيتوجّه في اتجاهٍ مختلفٍ للّحاق برحلته الأخيرة عائداً إلى البيت.

في وقتٍ لاحق، بينما كان ميكا يأخذ قيلولة، حدّقت من النافذة مراقباً الغيوم وهي تمرّ من تحتنا.

لم أكن واثقاً كيف كنت أشعر، فقد كنت جزئياً حزيناً لأن مغامرتنا قد وصلت لنهايتها، كما كنت جزئياً أشعر بالإثارة لفكرة رؤية زوجتي وأطفالي. لقد أحببت وكات بعضنا البعض منذ الأسبوع الثالث من شهر آذار من العام 1988، ولم تزدد مشاعري نحوها إلا قوةً على مرّ السنين. كيف لا يمكنها ذلك؟ فقد كنا متزوجين لمدة ستة أسابيع فقط عندما حلت الكارثة أولاً. كانت هي التي دعمتني في تلك الليالي الرهيبة الأولى عندما كان كل شيء يبدو أكثر قسوة. لم تتوقف عن دعمي منذ ذلك الوقت. ورغم كون الأمر قاسياً وكونه يفطر القلب، أعلم أنني محظوظ من نواحٍ كثيرة، وزوجتي وأولادي هم دليل على ذلك. حتى الآن عندما أصلّي ليلاً أجد نفسي أشكر الله على كلّ النعم في حياتي.

أعتقد أنني متفائل في الصميم كما كانت أمي. لنفترض أنني شخص متفائل يقلق أو يعمل بجهدٍ فوق الحدّ أحياناً، ولكنني متفائل رغم ذلك. في تلك اللحظات عندما كنت أشعر بالحزن لخسارة والديّ وأختي كنت أجد أنني إذا نظرت عن كثب إلى أولادي فإنني أجد آثاراً من ماضيّ الخاص. إذ في عائلتي عندما كنا نكبر، كان هناك خمسة أفراد ثلاثة ذكور وأنثتان. ضمن أولادي، الأرقام هي نفسها بالضبط. لقد توصّلت لأدرك أنه رغم أن أصداء أصوات عائلتي قد ضعفت تدريجياً مع مرور الوقت، فقد استبدلت بالأصوات المستثارة للطفولة السعيدة. كما يقولون، دائرة الحياة تستمر.

ما زالت الدروس التي علمني إياها والداي معي. فأنا أحافظ على حدٍّ أضيق وأنا أربي أولادي مما فعل والداي. لكنني غالباً أجد نفسي أفعل أو أقول الأشياء نفسها التي كانا يفعلانها. كانت والدتي، على سبيل المثال، دائما مبتهجة عندما كانت تدخل إلى البيت من العمل، فكنت كل يوم أحاول أن أتصرّف بنفس الطريقة عندما أنتهي من الكتابة. كان والدي يصغي بتركيز عندما كنت آتي إليه بمشكلة ليساعدني في العثور على طريقة لحل المشكلة بمفردي، فأحاول أن أفعل الشيء نفسه مع أطفالي. في الليل عندما أضع أولادي في السرير، أطلب منهم أن يخبروني ثلاثة أشياء لطيفة فعلها كل واحد من إخوتهم لهم في ذلك اليوم، على أمل أن يساعد ذلك في جعلهم يكبرون مقرّبين من بعضهم البعض كما فعلت وميكا ودانا. كنت غالباً أتخيّل نموّهم المحتمل فأجد نفسي أقول لأطفالي:

أو و

. بعد أن أقول تلك الكلمات كنت ألتفت مبتعداً محاولاً إخفاء ابتسامتي متسائلاً ما الذي قد يعتقده والداي بشأن ذلك.

عندما كانت أفكاري تنصرف إلى دانا، رغم أن الأمر ليس سهلاً. إذ إن موتها قد سبب لي تشوشاً من نوعٍ يستغرق سنواتٍ للشفاء منه. فقد كانت فتية جداً وعذبة جداً وكانت تشكّل جزءاً مني إلى حدٍّ كبيرٍ لأتقبل أنها قد رحلت. رغم ذلك، علمتني أختي جيداً. فقد كانت أختي وحدها من ضمن العائلة التي لم تدع مرضها يجعلها تنهار. حاولتُ أن أتعلّم من مثالها، فقد عاشت حياتها بكل معنى الكلمة رغم مخاوفها، وكانت تضحك حتى النهاية. ولطالما كانت أختي الأقوى بيننا جميعاً.

سأل ميكا وهو يستيقظ من قيلولته، ويتمطّى في مقعده: "ما الذي تفكّر فيه؟"

فقلت: "كل شيء، الرحلة، وعائلتنا، وكات والأطفال".

"هل فكّرت بالعمل؟"

فهززت رأسي قائلاً: "في الواقع، لم أفعل ذلك".

"لكنك ستعاود الانغماس فيه حالما تصل إلى البيت، صحيح؟"

"لا أظنّ ذلك، إذ أعتقد أنني بحاجةٍ لقضاء الوقت مع العائلة أولاً".

وكزني ميكا، وقال: "أعتقد أنك تتحسن. وأنت لست كئيباً تقريباً بقدر ما كنت حين بدأنا. فأنت في الواقع تبدو... مسترخياً".

فقلت: "إنني كذلك. ولكن ماذا عنك؟ هل تشعر بأي تحسن؟"

"لا أعرف ما الذي تتكلّم عنه، إذ لم تكن لديَّ أية مشاكل أبداً لأبدأ بها".

فتنهدت قائلاً: "لا بدّ أنه أمر لطيف أن يكون المرء أنت".

"آه، إنه كذلك. وكريستين هي سيدة محظوظة لتحظى برجلٍ مثلي بجانبها".

ضحكت قائلاً: "ماذا لديك في برنامجك عندما تعود إلى البيت؟"

فقال: "آه، المعتاد. أرى زوجتي والأطفال". ثم هزّ كتفيه، وأطلق نفساً طويلاً، وقال: "وأنا واثق بأن كريستين سوف تريد الذهاب إلى دار العبادة غداً. إذاً أعتقد أنه عليَّ الذهاب".

رفعت حاجبيّ، ولكنني لم أقل شيئاً.

فسأل: "ماذا؟"

فهززت رأسي غير قادرٍ على إخفاء ابتسامتي الساخرة، وقلت: "لم أقل شيئاً".

"اسمع، لست ذاهباً إلى دار العبادة بسبب أي شيء تعلّمته في الرحلة، أو أي شيء أخبرتني إياه. فأنت لست حكيماً إلى هذا الحدّ، يا أخي الصغير".

"آه، أعلم ذلك".

"إنني جاد".

"أعلم ذلك".

"لا تنظر إليَّ هكذا".

"كيف؟"

"بذلك الوجه. ليس الأمر كأنني توقفت عن الذهاب إلى دار العبادة كلياً. إذ إنني مازلت أذهب بين الحين والآخر. إنني ذاهب وحسب لأنني أعتقد أنه من الجيد للأطفال أن يروني هناك. فهذا يعلمهم

النوع الصحيح من الدروس، إذ إن أمي كانت تفعل ذلك، وانظر كيف أصبحنا".

فهمهمت وأنا أومئ برأسي مستمراً بالابتسام ساخراً.

"إنك تبتسم ساخراً".

فقلت بغرور: "نعم، أعلم ذلك".

غالباً ما يسألني الناس أنا وأخي كيف استمرّيت وإياه بالقيام بوظائفنا - وحتى بالازدهار بمعظم المعايير - في وجه الكثير من المآسي في حياتنا. فلا أستطيع الإجابة عن ذلك السؤال عدا أن أقول أنه لا أنا ولا أخي فكرنا بالخيار. فقد نشأنا لنعيش ونواجه التحديات ونلاحق أحلامنا.

لقد حظينا بأفضل الأشياء في حياتنا رغم المصاعب، لأنه كان علينا ذلك، ولأننا كنا نريد ذلك. فقد كانت لنا عائلاتنا الخاصة، عائلات تحتاجنا ولا يمكننا أن نخذلها. لكن في النهاية، عشت وميكا ونجحنا من أجل بعضنا البعض، فكنت بحاجةٍ لدعم ميكا كما كانٍ بحاجةٍ لدعمي. ولاحق ميكا أحلامه لأنني فعلت ذلك، والعكس صحيح. لم يكن الأمر ليكون عادلاً أن يكون علينا القلق بشأن بعضنا البعض. إذ كانت هناك الكثير من الأمور الأخرى التي تجري.

لم نستطع أن نهرب سالمين. إذ مَن يستطيع ذلك؟ فقد أصابتنا وفاة أختنا بشدة؛ ليست وفاتها فقط، ولكن كل حالات الوفاة واحدة تلو الأخرى. حتى الآن، أي ابتهاج نشعر به عند الوصول إلى هدف أو التغلب على تحدٍ تختلط به معرفة أنه - عدا عن بعضنا البعض - لن تكون عائلتنا حولنا لمشاركتنا سعادتنا. الأسوأ من ذلك، فأطفالنا لن يروا أبداً جديهم أو عمتهم. هذا بالنسبة إلينا يفطر القلب.

لكن رغم ذلك، ما زال لدينا بعضنا البعض. يسألني الناس لماذا أنا وأخي مقربان من بعضنا البعض إلى هذا الحدّ. السبب بسيط، فهكذا ينبغي أن يكون الأمر. إذ إن خسارة عائلتنا وحدها لم تقرّبنا من بعضنا البعض فقد كنا مقرّبين حتى ونحن طفلان. نحن دائماً على تواصلٍ، ليس لأنه علينا فعل ذلك، ولكن لأننا نريد ذلك. نحن لا نحب بعضنا البعض فقط بل نحن معجبان ببعضنا البعض أيضاً، فأنا وأخي لم نخض جدالاً على الإطلاق - أو حتى خلافاً - منذ كنا طفلين صغيرين. وهو، بالإضافة لزوجتي، أفضل صديقٍ لي في العالم. وإذا سألته فسيقول الأمر نفسه عني.

ربما كان والداي عجيبين، ولكن مهما كان ما فعلاه، فقد نجح.

هبطنا في دلاس، واجتزنا الجمارك. كنت وميكا كالجميع سنذهب في اتجاهين مختلفين، فسرنا عبر المحطة، ونحن نتحرّك بشكلٍ متعرج خلال حشود العطلة الأسبوعية، حتى وصلنا أخيراً إلى النقطة التي سوف تجبر فيها طرقنا على التّباعد.

واجهنا بعضنا البعض لنتبادل كلمات الوداع. وعندما نظرت إلى ميكا، كانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي هي أنني قد لا أراه ثانيةً أبداً.

إنها فكرة حزينة بالطبع، ولكنها صادقة. فقد حدثت مع كلٍّ منا ثلاث مراتٍ من قبل، وهو الأمر الذي أفكر فيه دائماً عندما أودّع أخي.

قلت: "لقد قضيت وقتاً رائعاً. وكما وعدتني، لقد كانت رحلة العمر".

فقال: "لقد كانت الأفضل". ووضع حقيبته أرضاً، وابتسم قائلاً: "سأتصل بك عندما أعود إلى البيت".

"من الأفضل أن تفعل".

فتح ذراعيه، وذهبت إليهما. لوقتٍ طويل، عانقت وأخي بعضنا البعض في المحطة، ونحن غافلان عن الحشد الذي يسير بتعرجٍ حولنا.

همس: "أحبك، يا أخي الصغير".

فأغلقت عيني بشدة.

وقلت: "وأنا أيضاً أحبّك، يا ميكا".